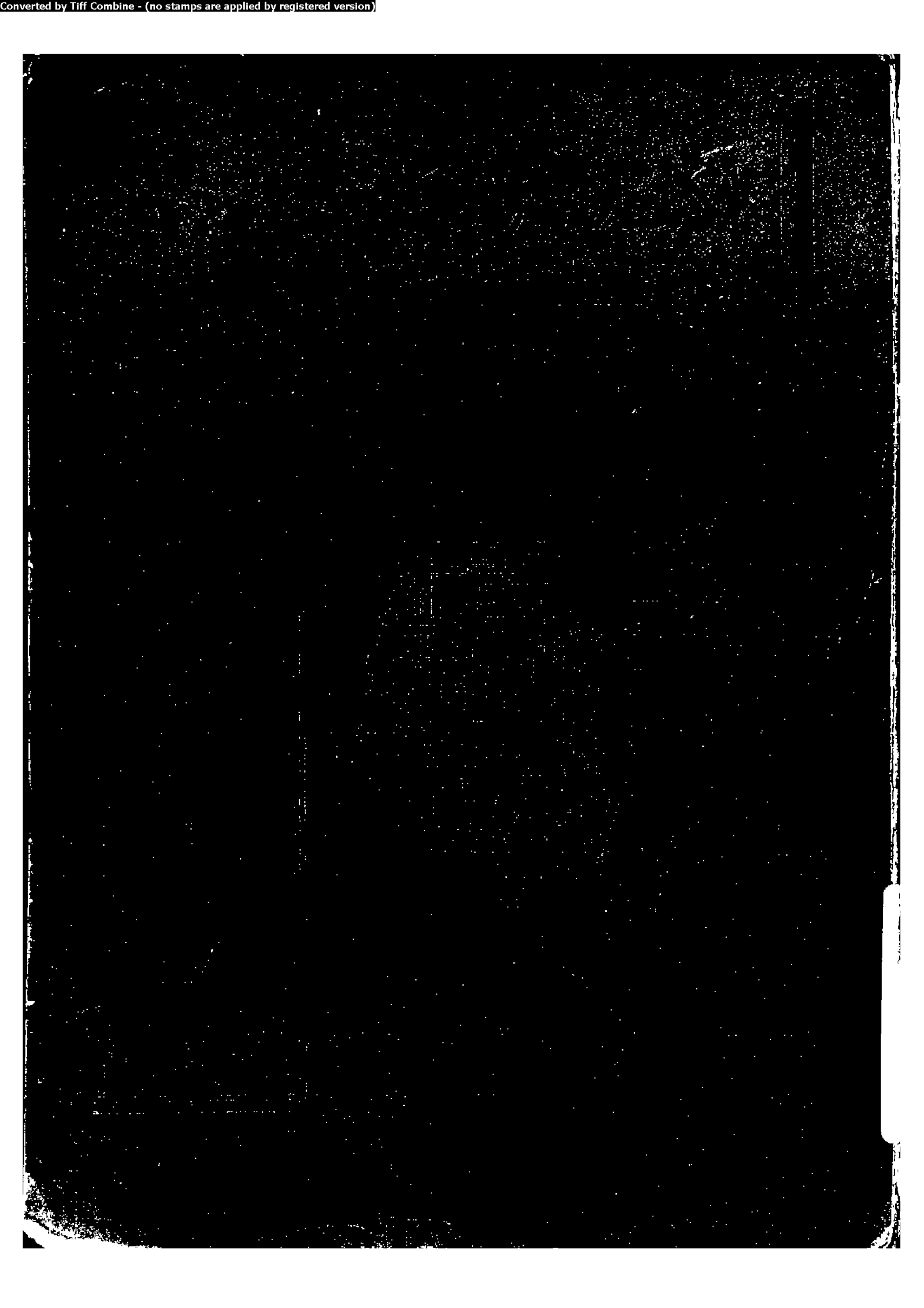
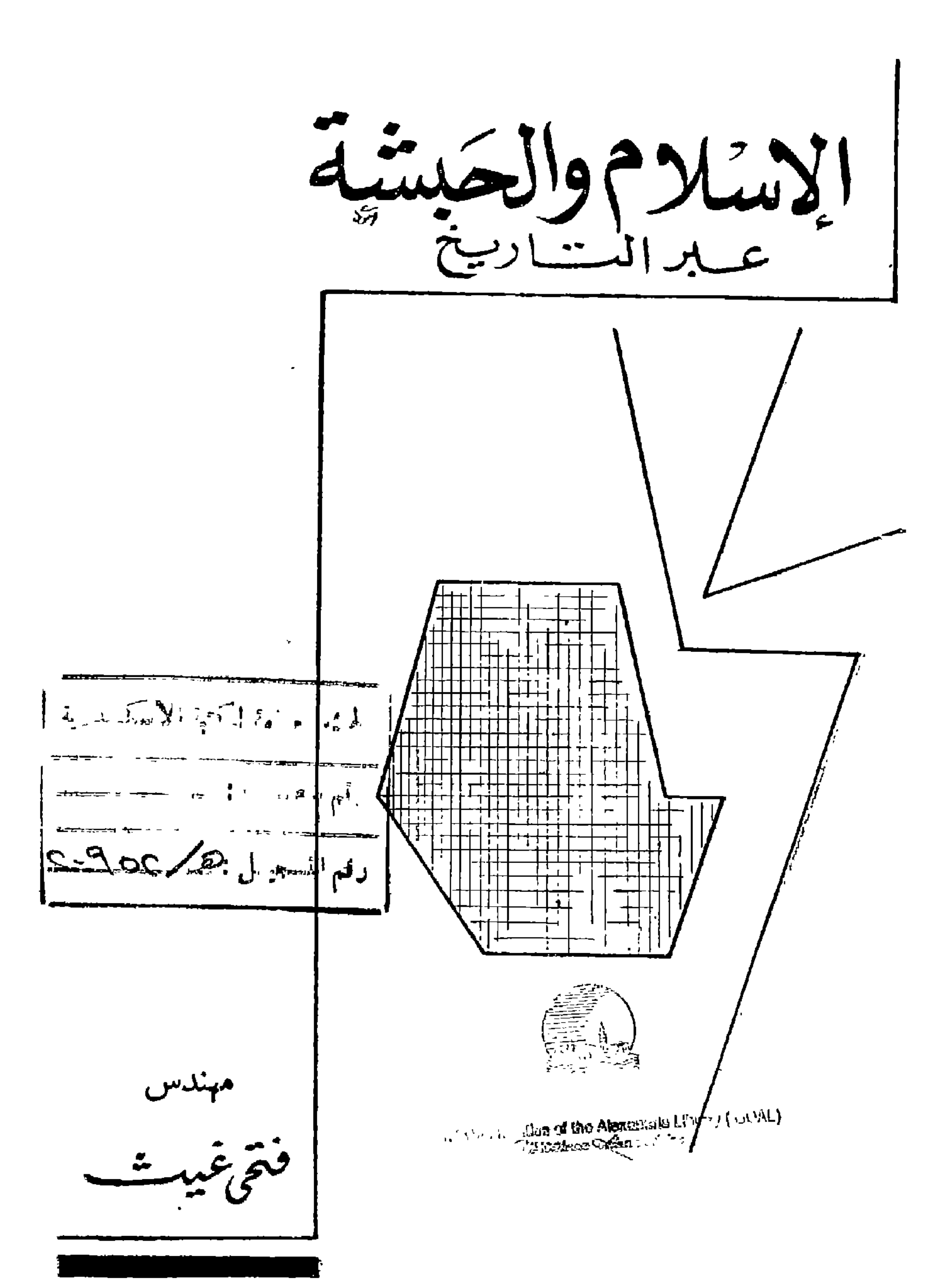




الإسلام والحبشة عبر التاريخ

مهندس
فتحي غيث

وفاء :

دين فى عنق — أوفيه للمسلمين

فى الحبشة والإرتيريا وشرق افريقية

وإهـــداء :

إلى زوجتى التى طافت معى

وشاركتنى مصاعب الحياة . ومعها

أولادنـا أحمـــد وســـمير

ثم طاهر — الذى ولد هناك

فى أديس أبابا

محتويات

صفحة

المــــلاحق

الخـــرائط

استهـــــلال

عندما تقرر ايفادى فى مهمة إلى الحبشة فى عام ١٩٤٣ ، عكفت قبل سفرى على الاطلاع على ماوصلت إليه يدى من مراجع عن تلك البلاد ، وكانت أغلبها أما قديمة العهد وأما سطحية ، شأنها شأن كتب الرحلات التى يكتبها بعض المغامرين ، ووجدتها فى جملتها يغلب عليها طابع التواتر الذى يعتمد على إيراد الأخبار منقوله من شخص إلى آخره فلم أكد أصل إلى أديس أبابا ويطول مقامى بها حتى تبينت فقر تلك المراجع وعجزها عن أعطاء الصورة الحقيقية لتلك البلاد ، وكلما تجولت فى أنحائها واختلطت بمختلف أجناسها وعشائرها وطوائفها كلما تفتحت أمامى آفاق جديدة من المعرفة بها .

ومنذ أن غادرت الحبشة بعد إقامتى بها قرابة عامين ، وكان ذلك منذ عشرين عاما ، ظل اهتمامى بها متصلا ومتقدا طوال هذه السنين ، وحرصت خلالها على الالمام بتطوراتها وبكل جديد مما ينشر عنها ، ومن حسن الحظ وجدت أن بعضها قد بدأ معالجة أمور الحبشة وشرحها على جانب لابأس به من العمق والعناية وبدأت كثير من الحقائق الخافية تظهر بين السطور ، وكان لابد لها أن تظهر مع الطفرة الهائلة فى وسائل الاعلام والمواصلات التى شملت جميع أنحاء المعمورة ، فأصبحت المجاهل معالما واندمجت البلاد المنعزلة مع المجتمع العالمى الكبير .

وكانت المعلومات عن الاسلام فى الحبشة التى صادفتها فى أغلب المراجع أما خاطئه أو ممسوخه أو مبتوره بقصد أو بغير قصد ، الأمر الذى حفزنى على الاهتمام بهذا الموضوع ودفعنى إلى القيام بزيارات متعددة إلى مختلف المناطق متحريا عن الحقيقة ، ولم يكن هذا بالعمل الهين ، ولكن بعد مشاهداتى

على الطبيعة واطلاعى على ما أخذ يظهر من مؤلفات وابحاث ورجوعى إلى ما كتب بين ثنايا مراجع التاريخ ، أصبح من الميسور على وضع كتاب يصور الحقيقة عن الاسلام وأحوال الحبشة قديما وحديثا ، على قدر يرضى الباحث المنصف من حيث الدقة وتحرى الحقيقة الخالصة .

ولكى نكتب عن الاسلام فى الحبشة لابد أن نمهد بالكلام عن تاريخ الحبشة منذ برزت إلى التاريخ ، وكيف تدرجت مع العصور ومرت بها العقائد من وثنيه إلى يهوديه إلى مسيحية ، وكيف دخلها الاسلام وثبت أقدامه بها حتى أصبحت البلاد على ماهى عليه اليوم . خليطا من كل ذلك . ولا يمكن أن نسترسل فى تاريخ الإسلام فى الحبشة دون أن نمعن فى ذكر تاريخ الحبشة نفسها ، حيث تفاعل أحدهما مع الآخر وأصبحا سلسلة واحدة متصلة الحلقات .

ولا بد أيضا أن نتعرض فى البحث لجغرافية الحبشة وطبيعتها ، فان كانت طبيعة البلدان ذات أثر كبير فى تاريخها وحضارتها فانها فى الحبشة أشد أثرا ، مما جعلها متحفا كبيرا للاجناس واللغات والعادات والأديان .

وبالرغم مما عرف عن هذه البلاد من طابع العزلة الذى ظل مخيما عليها مايقرب من ألف عام ، إلا أننا لمسنا بعد امعان الدرس أن الظروف العالمية الكبرى كان لها أكبر الأثر فى تاريخ الحبشة وإحداثها بالرغم من تلك العزلة ولذلك نهجنا فى هذا الكتاب نهجا خاصا ، وهو كتابة تاريخ الاسلام والحبشة على أساس صلته بالأحداث العالمية الهامة ومدى تأثره بها .

وليس من المعقول أن نغطى فترة ألف سنة من تاريخ مثل هذه البلاد الحافل بالاحداث والتيارات ، بتفصيل كل صغيرة وكبيرة ، فى مثل الحجم المرتقب لهذا الكتاب لذلك عمدنا إلى الاقتصار على المراحل والعوامل الهامة التى تشكل فى تسلسلها عرضا متصلا وافيا للتاريخ ، مبرزين فى كل

مرحلة وفى كل مناسبة كل مايتعلق بالاسلام ، وهو الغرض الأصلى من وضع هذا الكتاب .

واتماما للفائدة أرفقنا فى نهاية الكتاب ملحقا هاما عبارة عن تقويم تاريخى كامل للحبشة ابتداء من القرن الرابع الميلادى إلى الوقت الحاضر . مبينين فيه توافق الاحداث الهامة فى تاريخ الحبشة مع المراحل التاريخية الهامة فى العالم الاسلامى والشرقى ، وكذلك فى العالم المسيحى والغربى - فى كل قرن من القرون .

أما لماذا رأينا أن نسمى هذا الكتاب « الاسلام والحبشة عبر التاريخ » فاننا فضلا عن ميلنا إلى استعمال الاسم العربى الذى عرفت به هذه البلاد على مر العصور وفى جميع اللغات ، فان أكثر ما سنعرض له بالبحث يعود إلى تلك العصور التى كان هذا الاسم شائعا عنها ، لذلك رأينا استعماله امتدادا للمراجع العربية والتاريخ الاسلامى .

وعندما بدأت الكتابة ، كان ذهنى مليئا بالحوادث التاريخية الكبرى التى غمرت العالم عبر العصور . ووجدتها تشد بعضها البعض وتنبع كل منها من سابقاتها ، وظهر كل ذلك واضحا لا لبس فيه ولا غموض فى مجريات الأمور فى الحبشة وصلتها الوثيقة بأحداث العالم الخارجى ، بينما جاهد كثير من الكتاب فى حرص وإصرار إلى إثبات عزلة الحبشة وبعدها عن تلك المؤثرات .

تركت نفسى على سجيتها فى الكتابة ملتزما بالنهج الذى اقتنعت به وهو الصلة الوثيقة بين تاريخ الحبشة وتاريخ العالم فى أغلب العصور التى مرت بها فجاء الحديث عن بعض أدوار التاريخ الهامة مثل الحروب الصليبية ، وصراع الاسلام فى أوروبا مطولاً ، ورأى أصدقائى أنه رغما عن أهمية ماكتبته فى هذا الشأن إلا أنه تجاوز الشكل الذى يتناسب مع الغرض الأساسى من الكتاب ، وأجمعوا على ضرورة اختصار تلك الفصول وحذف الكثير منها ،

وأن تترك للقارىء فرصة الاستزادة والاطلاع على مايشاء من التفاصيل فى المراجع الأخرى ، وهى لحسن الحظ متوفره وميسوره .

ولم يقتصر فضل هؤلاء الأصدقاء على هذا الأمر فحسب ، بل امتد إلى جميع صفحات الكتاب وموضوعاته بالتعليق والتصحيح والنصح ، وإنى إذا أقدمه للقارىء الكريم على هذه الصورة اتقدم بالشكر إلى هؤلاء الأصدقاء الذين أعتز بفضلهم وهم الأساتذة ـ عبد العزيز حسين وعبد المجيد مصطفى وحسن الدباغ وأمين يوسف غراب وصبرى مصطفى بدر .

خريطة الحبشة (أثيوبيا)

البحر الأحمر
اليمن
خليج عدن
المحيط الهندي
تيجرى
بيجمدير
والو
جوجام
شوا
واللاجا
كافا
الاجادين
بالى
سيدامو
كينيا
أوغنده
هرر
الصومال
الحديدة
زبيد
تعز
عدن
بربرة
زيلع
جيبوتى
الخرطوم
سنار
مقدشو

الفصل الأول

موجز جغرافى

منشأ الأسم :

تدل أرجح الدراسات على أن الاسم العربى (حبشة) أو (حبشات) الذى يعنى (الخليط) أو الأجناس المختلطة ، قد بدأ يطلق على تلك البلاد منذ أن بدأت تيارات الهجرة إليها من الجزيرة العربية عامة ومن اليمن والجنوب العربى خاصة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وفى أول الأمر أطلق هذا الإسم على طوائف هؤلاء المهاجرين . ولكن نظرا لكثرتهم وازدياد أهميتهم وتفوقهم على سكان البلاد الأصليين وكذلك لتغلب لغات هؤلاء المهاجرين على اللغة الأصلية فى البلاد أصبح الاسم (حبشة) يطلق على جميع المنطقة ، فاختلط المهاجرون الذى ينتمون إلى الجنس السامى (Samitic) مع أهل البلاد الأصليين الذين ينتمون إلى الجنس الحامى (Hamitic) وكان يطلق عليهم عندئذ قبائل كوش (Kush) ويسكنون فوق الهضبة العالية التى تتوسط البلاد لاعتدال جوها وغزارة أمطارها وكثرة العشب ، التى جعلت منها مساحات شاسعة من المراعى المثالية .

أما لفظ (أثيوبيا) فهو اسم قديم ، جاء ذكره فى كثير من الكتابات الاغريقية القديمة وغيرها من المراجع التاريخية والدينية الهامة . ومعناها الاغريقى هو (الوجه المحروق) ولقد أطلقتها بعض تلك المراجع القديمة وعلى رأسها (العهد القديم) على الممالك النوبية التى تأثرت بالحضارة المصرية

القديمة وامتد بعضهم فى اطلاقها إلى جميع سكان القارة الافريقية جنوب الصحراء وأعالى النيل .

وعندما كتب سيربدج (Budge) كتابه عن « تاريخ أثيوبيا » بداء الكلام عن تاريخ مملكة النوبة على أساس أنها جزء من اثيوبيا . ولقد اعتمد فى هذا الاتجاه على جميع المراجع القديمة منذ كتاب الاغريق القدماء هومير ، وهيرودوت وغيرهم ، الذين اعتبروا أن بلاداثيوبيا تبدأ من حدود مصر الجنوبية . بينما ذهب العالم الجغرافى سترابو إلى أن بلاد أثيوبيا كانت جزءا من مصر وامتداداً لها وتقع إلى الجنوب منها .

ولقد تعددت الكتابات القديمة وتنوعت بحيث رسخ فى ذهن بعضهم أن اسم أثيوبيا يشمل مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وبلاد الهند . وعلى الأخص تلك الشعوب التى تسكن وادى النيل شماله وجنوبه .

ولما كان الاسم فى أصله اليونانى معناه (الوجه المحروق) فان المؤرخين أطلقوه على جميع الشعوب التى يتدرج لونها من السمرة إلى السواد بما فيهم الزنوج . وأن البلاد التى تسكنها جميع هذه الشعوب تدعى أثيوبيا . وعلى ذلك لم تتفق المصادر القديمة على حدود معلومة للبلاد التى يطلق عليها هذا الاسم ، بل ظل مشاعا دون تحديد جغرافى . وارتبط هذا الاسم باسم آخر معاصر له وهو كوش (Kusn) الذى يعنى نفس الشعوب ونفس المناطق .

ومن دلائل الاضطراب فى تحديد المناطق التى كان يشملها هذا الاسم القديم « اثيوبيا » تلك الغزوة التى قام بها ملك النوبة على مصر ، وحكمت اسرته النوبية مصر من عام ٧١٢ إلى ٦٦٣ قبل الميلادوهى الاسرة الخامسة والعشرين ، والتى يسميها المؤرخون بالأسرة الأثيوبية ، مع أنها جاءت من بلاد النوبة ، مما يدل على أن المؤرخين القدامى كانوا يقصدون باسم

اثيوبيا مملكة النوبة ومروى أكثر مما يقصدون غيرها وكانوا يحددون عاصمتها الأولى نباتا (Napata) وعاصمتها الثانية مروى (Merow) وكلتاهما فى شمال السودان .

ولكن الكتاب فى العصور الوسطى والحديثة ، وقد وجدوا أجزاء هامة من هذه المنطقة قد اتخذت لها أسماء محدودة منذ الأزمنة القديمة مثل مصر والسودان ، اختصوا ماعداها بهذا الاسم ومن بينها الحبشة ، ومن هنا نشأت الرغبة الحديثة لدى الحبشة بالانفراد به لرغبتهم فى التخلى عن الاسم القديم الشائع عنها والذى يوحى بتعدد الأجناس وتفككها وافتقارها إلى أهم عامل من عوامل تكوين الدول وهو الوحدة العنصرية .

ولقد ظل هذا الاسم مختفيافترة طويلة من الزمن إلى أن عاد إلى الظهور ثانية فى العصر الحاضر[1] .

وارجح ما نراه فى تحديد هذه الأسماء هوما يعنيه التقسيم الحالى للدول التى يتألف منها هذا الجزء من القارة الذى يسمى (قرن افريقيا) . بحيث يطلق أسم (الحبشة) على الهضبه المرتفعة التى كانت تتكون منها الدولة القديمة ويطلق أسم اثيوبيا على الدولة الحاليه التى تضم فى الوقت الحاضر السهول التى تحيط بتلك الهضبه من شرقها وجنوبها والتى كانت إلى عهد قريب بمجموعة من الممالك والسلطنات المستقله ، أما ما يتاخم البحار فتتكون منه جمهورية الصومال الحالية ، وكذلك الاريتريا فى الشمال التى دخلت مع أثيوبيا فى اتحاد فيدرالى بعد الحرب الكبرى الثانية .

---

(١) مراجع فى ٢ ـ ٥ ، ٣٥ تاريخ أثيوبيا للسير بدرج Budge
وكذلك دائرة المعارف البريطانية ج ٨ ص ٧٩٠ (١٩٦٤)
وكذلك ص ١٠ من كتاب Ethiopia to day by luther
وكذلك ص ٢ The Ethiopia by Ullendorff

تعدد المنـاطق :

وبهذه المناسبة نود أن نلفت النظر إلى أن تعدد الاجناس واللغات والممالك والعصبيات التى من أجلها أكتسبت البلاد أسم الحبشة ، لازالت قائمة إلى اليوم ، فالبلاد ظلت مقسمة فى داخلها إلى عديد من المناطق التى تتباين فيها العصبيات وتتعـدد فيها اللغات والأديان ، وتشتد بـين طوائف الحزازات ومظاهر التنافس ، التى كثيراً ما تتعدى الحدود المـألوفة بين طوائفها الدول مـا يجعل أسم « الحبشة » اكثر أنطباقا عليها إلى الآن .

* * *

ونرجو أن يكون واضحا فى ذهن القارىء طوال الفصول القادمه من الكتاب أننا بأستعمالنا تسمية الحبشة إنمـا نقصد الاستمرار فى أن نعنى بها مملكة الحبشة القديمة التى تسكن مرتفعات الهضبة . وعندما يمتد بنا الحديث إلى غير ذلك من المناطق فأننا سنحاول أن نكون من الوضوح بحيث يتيسر على القارىء معرفة ما نقصده بالضبط .

ومن الصعب معرفة الحدود الحقيقية التى تشمل مملـكة الحبشة القديمة ولـكن التقدير المعقول هو أن مملـكة اكسوم لم تـكن تشمل إلا تلك المنطقة الواقعة فى شمال الحبشة الحالية ومنتصفها ـ فوق المرتفعات . وتشمل بناء على ذلك الجزء الجبلى المرتفع فى الاريتريا الحالية الذى يشكل امتدادا طبيعيا لمقاطعة التيجرى (1) .

أما ما بعد العصور القديمة ـ وإلى عهد قريب ـ فان الحبشة التى تقع أيضا فوق مرتفعات الهضبة حيث تتركز المملـكة المسيحية فانها تشمل مساحة أكبر مما سبق لمملـكة اكسوم أن شملته ، فأصبحت تتـكون من أربعة ممالك بارزة (حسب ماجاء عن بروس Bruce) وهى مقاطعات (تيجرى ـ امهرا

---

(1) ص ١٠ Etpiopia To day by Ernest w. Luther.

شوا ـ جوجام) . بينما يذهب (سولت Salt) إلى تقسيمها إلى ثلاث مناطق في نفس المواقع باعتبار جوجام جزءا من أمهرا [1] .

تلك هي حدود الحبشة القديمة التي تعنيها ، وأما ماعدا ذلك ـ فمقاطعات منفصلة في أوصافها وظروفها ، مستقلة في أغلب أوقاتها ، تتناوب عليها ظروف متعددة خلال القرون الطويلة . وسنعنى بذكر اسم كل منها أثناء الشرح حتى تكون العلاقة بينها وبين الحبشة القديمة واضحة .

وفي تلك المقاطعات الأربع القديمة المذكورة ، تنقل الملك من مقاطعة التيجرى وعاصمتها اكسوم في شمال الحبشة إلى أمهره في وسط الحبشة وعاصمتها جوندار ، واستمرت كل منهما مركزا للسلطة عدة قرون إلى أن انتقلت في العصور الأخيرة إلى شوا في عهد منليك الذى أسس مدينة أديس أبابا وجعلها عاصمته إلى الآن .

* * *

ولم تحظ الحبشة في تاريخها الطويل بعهود أستقرار كثيرة ، ويدل التاريخ الحبشى من عهد « يكونو أملاك » إلى الآن — ١٩٢٨ وهو تاريخ تسجيل هذه الفقرة في كتاب السير بدج — أنه لم يحاول أى من ملوكهم — ملك الملوك — أن ينشىء دولة مستقرة متصلة ، بل كانت تصرفات كل ملك تمليها الظروف السائدة في عصره ، وكذلك تتحكم فيها رغباته الخاصة . وكان رائد حكام المناطق وزعمائها أغارة كل منهم على الآخر ، ولم يكونوا يخضعون لسلطة الملك إلا إذا تصادف وكان ذلك الملك قويا وله جيش قوى ، أى أن القوة هي التي كانت توجههم ـ لذلك لم يحدث أن أستقرت الأمور بالصورة التي تسود فيها الأنظمة المستقرة للادارة والضرائب ، ولم يكن

---

(١) ص ١٢٣ السير بدج A Histery of Ethiopia by Sir E. A. Wallis Budge. (1928) (١٩٢٨)

هناك توجيه لشئون التجارة والزراعة ، وبالتالى لم يحظ التعليم برعاية الملوك واهتمامهم » .

« أما من جهة الدين ـ فان المسيحية كانت مركزه فى تلك الممالك الأربع وكان ملوك الحبشة حريصين على تأييد الكنيسة الوطنية ورعايتها ـ إلى الحد الذى جعلها قرابة ستة عشر قرنا رغم حروبها مع العرب والعثمانيين والزنوج محافظة على مسيحيتها بدرجة تدعو إلى الإعجاب»[1] .

طبيعة البلاد :

تقع الحبشة الحالية فى المنطقة الحارة إلى الجنوب من خط عرض ١٥ وتكاد فى نهايتها تمس خط الاستواء ، وتحتل القسم الأكبر من (القرن الأفريقى .Horn of Africa) ولكنها لا تطل على البحار إلى عن طريق ماضمته إليها من أراضى الارتريا أخيرا ، وبذلك أصبح لها منافذ خاصة بها فى مينائى مصوع وعصب ولكنهما فى أقصى الشمال ، مما يجعل جانبا كبيرا من تجارتها مركزا على ميناء جيبوتى فى الصومال الفرنسى كما كان فى السابق .

وتتدرج البلاد من سواحل البحار شرقا ومن السودان وأواسط افريقيا غربا فى الارتفاع التدريجى ، حتى تصل إلى الهضبة الحبشية التى يتراوح متوسط ارتفاعها بين ٧٠٠٠ ، ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وفيها من المرتفعات والجبال مايصل إلى ١٤٠٠٠ قدم ، وتبدو تلك الهضبة كأنما تستند من جانبيها على جدارين هائلين جعلت منهما الطبيعة سندين هائلين يحميان فى وسطهما أراض غاية فى الخصب واعتدال الجو . وتتناوب فيها السهول الخصبة مع الوديان السحيقة والجبال الشاهقة فتجعل منها بلادا شديدة الوعورة تصادف

(١) ص ١٢٣ سيربدج Budge (١٩٢٨) .

أثناء سفرك خلالها عددا لاحصر له من المواقع التي توحي بالمناعة والقسوة ، وتلمس منذ اللحظة الأولى السبب الذي جعل هذه البلاد في عزله عن العالم فبالرغم من نفوذ الديانات إليها وماحملته معها من معاني الحضارة ، فانها بقيت ذات طابع خاص بها ، حتى أن الانسان ليشعر بعد أن يبتعد بضعة كيلو مترات عن أديس أبابا أو أية مدينة أخرى كأنما قد دخل إلى عصور التاريخ القديمة بكل ماكان سائدا فيها من شدة وفطره .

واقسى تلك الحوائط وعوره ذلك الجرف الهائل الذي يقع إلى الغرب من بحيرة تسانا ويفصل بين الحبشة والسودان ، وهو الذي يدور من حوله النيل الأزرق في انحداره من هضبة الحبشة إلى أن يدخـــل أراضي السودان .

ولقد درج الكثيرون على تشبيه الحبشة بسويسرا ، وأن كان هذا التشبيه جائزا لكثرة الجبال والوديان ، فان الفرق بينهما كبير يجعل من أحداهما وضعا معكوسا للأخرى . فبينما تملأ الثلوج القمم والمرتفعات السويسرية وتجعلها قاحله خالية من السكان الذين يندفعون إلى المعيشة في الوديان والأراضي المنخفضة حيث يعتدل الجو وتحيط بهم الجبال من كل جانب ، نجد أن الأحباش يعيشون على أقصى المرتفعات والقمم والسهول المرتفعة هاربين من الوديان حيث تشتد حرارة الجو . وبذلك يطل الحبشي من مرتفعاته على وديان ومناظر غاية في الروعة والجمال ، ولكنهم بهذا قد اختاروا لاقامتهم تلك الأماكن والمناطق التي جعلت المواصلات بينها عبر الوديان في غاية الصعوبة والشدة [1] .

* * *

(١) ص ٢٠ Islam iu Ethiopia by Trimingham

وفى أشهر الصيف عندما تزداد الحرارة على المحيط الهندى وتتجه السحب إلى الهضبة الحبشية تسقط الأمطار الغزيرة من منتصف يونية إلى منتصف سبتمبر وللأمطار فترة أخرى تدعى فترة الأمطار الصغيرة وتقع خلال شهور مارس وأبريل ومايو . وتنتظم هاتان الفترتان انتظاما دقيقا عاما بعد عام ، وتترتب عليهما مواقيت الزراعة والحصاد فى دورات رتيبة ، وتكفى فترة الأمطار الصغيرة احتياجات الزراعة والرى فى البلاد ، أما فترة الأمطار الغزيرة فانها تفيض عن حاجات الهضبة بكميات هائلة تتدفق إلى الأنهار العظيمة التى تنبع منها .

وتتميز الهضبة الحبشية باعتدال الجو على مدار السنة فى جميع أنحائها الهضبة ، وهو أمر تتميز به تلك المناطق مما جعلها خلال العصور مطعمة للمهاجرين لتوفر اعتدال الجو مع خصوبة الأرض وغزارة الأمطار .

* * *

الأنهار :

وأهم الأنهار التى بالحبشة هو النيل الأزرق (Abbay أباى الكبير) الذى يبدأ من بحيرة تسانا .

وتبلغ مساحة هذه البحيرة ٣٦٣٠ كيلو متر مربع ويتضاعف حجمها أثناء موسم الأمطار وذلك لقرب منسوب البحيرة من منسوب الأرض المحيطة بها ، إذ أنها أشبه بطبق كبير مفرطح الجوانب ، تتوسط سهلا واسعا من الأراضى الخصبة المعتدلة الجو ، وفى موسم الأمطار يقع عليها حوالى ١٢٥ سنتيمترا من الأمطار وينحدر إليها من السهول المحيطة بها بواسطة عديد من القنوات الصغيرة (واهمها الاباى الصغير Little Abbay) كمية أخرى من المياة تمتد بشواطىء البحيرة إلى ما يجعلها ضعف مساحتها الأصلية .

تتدفق هذه المياة الزائدة إلى النيل الأزرق عند بدايته بجوار بلدة «بحر دار» ولقد تضاربت أقوال وحسابات البعثات التى أوفدت لتقدير كمية المياه التى تنحدر من هذه البحيرة حتى أثبتت بعثة هوايت (عام ١٩٣٠) أن تصرف البحيرة فى المتوسط هو ٨ ر ٣ ، مليار من الأمتار المكعبة فى السنة ، بينما يبلغ تصريف النيل الأزرق فى المتوسط حوالى الخمسين مليارا . مما يبين أن إيراد النيل الأزرق من المياه يأتيه مما ينحدر إليه من شاطئيه بواسطة الأخاديد العديدة التى تصب مياهها فيه خلال موسم الأمطار على هيئة شلالات لاحصر لها .

وللنيل الأزرق طبيعة خاصة إذ أنه منذ أن يغادر البحيرة عند (بحر دار) ينحدر فى عنف إلى ذلك الأخدود العميق الذى نحره فى الهضبة ، بحيث يصل فى انخفاض منسوب مياهه عن سطح الهضبة مايقرب من ١٨٠٠ متر فى بعض الأماكن ، ويبدو من فوق الهضبة كأنه شريط رفيع من الفضة .

* * *

ويلى النيل الأزرق فى الأهمية ، نهر العطبرة ومصادره المختلفة وأهمها نهر تكازى (Takkaze) الذى ينبع من أواسط الهضبة ثم يصب فى العطبرة الذى يدخل بعدئذ إلى السودان .

ويبدأ من شمال الهضبة نهر مارب (Mareb) ويمر بأكمله فى الاريتريا حتى يصل إلى حدود السودان ومن هناك يسمى جاش (Gash) حيث يمتد خلال الرمال مارا بمدينة كسلا وينتهى بعدها بقليل .

أما الأنهار الأخرى فى الحبشة فهى نهر الجب أو جوبا (Juba) ونهر ويبى شيبلى (Webi Shebli) وهما ينحدران إلى السهل الشرقى الكبير وينتهيان فى الصومال .

ويليها نهر بركة (Baraka) الذي يبدأ من مرتفعات أرتيريا ويتجه شمالا إلى البحر الأحمر بالقرب من طوكر .

أما نهر أواش (Awash) فانه فى وادى الشق الكبير الموجود فى منتصف الهضبة فى مقاطعة شوا إلى الجنوب من أديس أبابا ، ويتجه شمالا بشرق فى بلاد الدناكل وقبل أن يصل إلى حدود الصومال الفرنسى يتجه جنوبا فى اتجاه جمهورية الصومال حيث يغيب نهائيا فى الرمال قبل أن يصل إلى شاطىء البحر .

* * *

تلك هى الأنهار الأساسية فى الحبشة ولكن البلاد مليئة بعدد لاحصر له من القنوات والأخوار ، التى تمتلىء بالمياه أثناء نزول الأمطار وتندفع فيها بسرعة حاملة معها كميات كبيرة من الطمى الذى يجعل لونها أكثر كثافة وأدكن لونا من مياه النيل فى موسم الفيضان ، وسرعان ماتختفى المياه بعد وقوف المطر ، وتجف هذه القنوات حيث تكون قد تخلصت من مياهها بتجمعها فى قنوات أكبر ، ومنها إلى تلك الأنهار الكبرى التى سبق ذكرها مثل النيل الأزرق ، ومن الظواهر المعهوده أن تعترض مثل هذه القنوات طريق المسافر (فى الطرق غير المرصوفة) ، وماعلى المسافر إلا أن ينتظر قليلا حتى تجف المياه ويتمكن عبور القنوات ويعاود السفر .

* * *

خيرات الأرض :

سبق أن أشرنا إلى خصوبة الأرض فى أغلب أرجاء الحبشة ، ولقد قدر بعضهم مساحة الأراضى الخصبة التى يمكن زراعتها بحوالى ثمانين مليون

فدان[1] ، وتتكون التربة الحبشية إلى عمق كبير من ذلك الطمى النادر الذى يصل قليلة إلى مصر مع فيضان النيل فيكون تلك القشرة التى تجعل أرض مصر من أخصب بلاد العالم ، فما بالك بالبلاد التى هى مصدر ذلك الطمى النفيس ، وتتعاون تلك الخصوبة مع الجو المناسب والأمطار وتجعل من سرعة الانبات وقوته ظاهره نادره الوجود .

وفى مواسم الأمطار تمتلىء البلاد بطبقة كثيفة من الحشائش وتزدهر المراعى ، وللثروة الحيوانية شأن عظيم فى هذه البلاد حيث تصبح أثمان الأبقار والأغنام زهيدة جدا ، ويتكون منها الغذاء الرئيسى للشعب ، ولو تحسنت وسائل المواصلات لأصبح فى الأمكان تصدير اللحوم من الحبشة بمقادير كبيرة .

وبالحبشة كثير من الغابات وأهمها تلك التى تقع على الجزء الأوسط من النيل الأزرق على ضفتيه ، وكذلك تلك التى تقع فى منتصف الطريق بين أديس أبابا وديسى ، وتنبت فيها كثير من أنواع الاشجار الخشبية وأهمها أشجار الصنوبر ، وهى تشكل ثروة كبيرة كامنة فى البلاد سوف يكون لها شأن عندما تتحسن وسائل المواصلات وتقل تكاليف نقل الأخشاب من الغابات .

أما الزراعة فان الجزء المستغل من تلك المساحات الواسعة لازال ضئيلا وخصوصا فوق هضبة الحبشة ، إذ أن ساكن تلك المنطقة يكتفى بفلاحة ما يلزمه من قطعة الأرض التى تحافظ بكوخه أو قريبا منه ولا يبتغى المزيد فهو فى غالب الأمر يفلح الأرض بيديه وقليل منهم يستعمل المحراث ، وتكاد البلاد تكون محرومة من وسائل الرى الحديثة ، وبالرغم من كل

---

(١) هذا التقدير يشمل الأراضى الزراعية والمراعى الجيدة وسيأتى تفصيل لذلك فى الفصل الحادى والعشرين .

هذا التأخر فى الزراعة . فقد تمكنت الحبشة من تصدير كميات كبيرة من الحبوب كل عام ، ولقد كانت الحبشة مصدرا هاما من مصادر الحصول على القمح أبان الحرب العالمية الثانية لسد العجز فى المناطق المجاورة ولذلك جعلت بريطانيا عليها إشرافا خاصا تحت اسم (الشركة التجارية للملكة المتحدة Ukcc) .

وأهم صادرات الحبشة هو البن ، الذى يعتبر أجود أنواع البن فى العالم وخصوصا ذلك الذى ينتج من إقليم هرر ، وهناك إقليم آخر تكثر فيه زراعة البن الجيد وهو إقليم (جيما Jimma) حيث توجد مدينة (كافا Kaffa) التى يشتق منها اسم القهوة فى جميع اللغات ، ويبلغ ماتصدره الحبشة من البن حوالى ٢٠ مليون جنيه سنويا .

وتبذل الحكومة الحالية قصارى جهدها لتشجيع الزراعة واستغلال الأراضى الشاسعة ، وإدخال الأساليب الحديثة فى الزراعة والرى مما يبشر بتغيير كبير فى اقتصاديات البلاد ، كما أنها جعلت تحسين وسائل المواصلات فى مقدمة مشروعاتها حتى تجعل من خيراتها المدفونة مصدرا هاما من مصادر الثروة .

وقد قامت إيطاليا بعمل الدراسات المستفيضة عن الحبشة منذ عام ١٨٨٥ وخصوصا فى منطقة جوندار بالقرب من بحيرة تسانا . وعندما اجتاحت الحبشة فى عام ١٩٣٦ كان لديها تنظيم كامل لاستعمار البلاد ونشر الزراعة الحديثة فى جميع أرجائها ، وكانت على علم تام بأنها سوف تكون لها من وراء هذه المغامرة امبراطورية تضارع الامبراطورية البريطانية فى الثروة والغنى .

وسرعان ماوضعت ثلاثة مشروعات ، فترة كل منها خمسة أعوام بحيث يتم استثمار الأراضى على الوجه الاكمل فى مدة ١٥ سنة ، ولقد أتمت الخطة

الخمسية الأولى ، ورأينا منها كيف أقامت عددا لا يحصى من المستعمرات الزراعية فى المناطق السهلة ، تتراوح مساحة المزرعة الواحدة بين ٥٠٠ ، ٥٠٠٠ فدان ورأينا إحداها وهى تبلغ ٦٠٫٠٠٠ فدان وشاهدنا فيها آثار تسوية الأرض وإزالة الشوائب وحفر القنوات ومساكن العمـــال والموظفين ومحطات توليد الكهرباء وورش إصلاح الجرارات وآلات الزراعة ومحطات المضخات وأجهزة الاتصال اللاسلكى . وهناك بيان كامل بهذه المزارع فى كتاب .

Gli Annale Dell Africa Italiana .

ولقد اختص الايطاليون منطقة بحيرة تسانا بالعنـــاية فى الدراسة ، مركزين على منطقة حول جوندار وجدوا بينهما وبين دلتا مصر تشابها كبيرا فى التربة والمناخ وتعادلها فى المساحة (حوالى أربعة ملايين فدان) وكانوا على أهبه استغلالها فى زراعة القطن (الطويل التيلة) والحبوب والفاكهة ولهم فى ذلك كتـــاب هام يمكن الرجوع إليه (أرض بحيرة تسانا تأليف رافيلى دى لاورو)

Le Terre Del Lago Tsana- Raffele Di Lauro. -

وبالحبشة كثير من المعادن التى لا محل لذكرها هنا ، سوى أن نشير إلى كثرة وجود الذهب فى منطقة (ليكمتى Lechemti) فى جنوب البلاد وكذلك فى بعض مناطق الاريتريا ، أما البترول فلا زالت الشركات العالمية تنقب ولم تصل إليه بعد .

* * *

وتنقسم الحبشة الحالية إلى عدة مقاطعات بيانها كالآتى :

Tigre	تيجرى .	Eritrea	الاريتريا .
Wallo	والـــــو .	Bagemder	باجمدير .
Shoa	شاوا .	Gojam	جوجام .
Harar	هرر .	Wallega	واللاجا .
Bale	بالى .	Hrnsi	عروسى .
Kaffa (Gimma)	كافا (جيما) .	Ilnbabor	ايليو بابور
Sidamo	سيدامو .	Gomo- Gofa	جاموجوفا

الفصل الثانى

العناصر الأساسية لسكان الحبشة

ونرى لزاماً علينا حتى نوفى هذا البحث حقه أن نقدم للقارىء تفصيلا واضحاً عن العناصر الأساسية التى يتكون منها سكان الحبشة ، إذ أن هذه البلاد من أكثر دول العالم تعرضاللهجرات الجماعية ، التى وفدت عليها خلال تاريخها الطويل ، فأصبحت خليطا من أجناس متباينة فى الشكل والعادات والمستوى الحضارى ، ولم تدخل تلك العناصر إلى أرض الحبشة فى وقت واحد ، بقى جانب من كل طائفةمنعزلا ومحتفظاً بلغته وعقائده ، بينما اختلطت فروع أخرى من هذهالطوائف والعناصر مع بعضها ـ ونتجت من ذلك أنواع متعددة من الأجناس .

ولم تنصهر تلك الأجناس مع بعضها انصهارا تاما إلا فى القليل النادر وبذلك بقيت الحبشة إلى يومنا هذا متحفا للأجناس والعناصر ، فالدولة لاتنقسم إلى مناطق جغرافية بقدر ما تنقسم إلى مناطق عنصرية . تتحكم فيها النزعات القبلية والروابط العنصرية ، وتتعدد فيها اللغات واللهجات المحلية بما يتجاوز الأربعين .

ولكى لايختلط الأمر على القارىء فيماسوف نمر عليه من أنباء وأحداث رأينا أن نوضح هنا أهم تلك العناصر الأساسية الكبرى لسكان البلاد ، على أن نعود إلى ذكرها فى مواضعها من تاريخ البلاد بالقدر الذى يستدعيه شرح الأحداث ومايتطلبه من تفصيل .

١ ـ الأحباش الأوائل

الحاميين : Hamitis

وبالرغم من ندرة المعلومات عن الأصل القديم للأحباش الأوائل ، فإن الشواهد تدل على أن سكان الحبشة الأوائل كانوا من القبائل الحامية التى نزحت إلى تلك البلاد من القوقاز عن طريق مصر والنيل ، وقد يكون بعضها قد مر عن طريق الجزيرة العربية ، ويبدو أن هؤلاء الحاميين قد وصلوا إلى تلك البلاد فى موجات ومجموعات متعاقبة ، اختلطت على مرور الأيام مع زنوج أفريقيا ، ونشأ عنهم ذلك العنصر السائد فى هذه المنطقة ولكن ذلك الاختلاط لم يكن على درجة واحدة فى مختلف المناطق وبين مختلف القبائل التى تسكنها، فإن الأصل الحامى يبدو أكثر صفاء ونقاوة وأشد وضوحا فى قبائل البيجا فى الشمال(١) كما أنه يبدو غالباً فى قبائل الأجاو التى تسكن قلب الهضبة . وكذلك فى المناطق الجنوبية التى تحوى قبائل السيداما .

وبالرغم مما تعرضت له هذه المناطق من الاختلاط بالساميين الذين غزوا البلاد فيما بعد واستولوا على الهضبة حيث يتكتل الحاميون ، فإن الأصل الحامى بقى غالباً واضحاً بين قبائل التيجرى والأمهرا وفى مقاطعات جوجام وشوا (وهى المناطق التى تتركز فيها الديانة المسيحية فى الوقت الحاضر) . وكذلك اختلطت قبائل الأجاو فى عصور متأخرة بسكان الشمال المطعمين بالدم السامى ، ولكنهم كانوا أكثر حفاظا على عنصرهم ولغتهم وعاداتهم ومعتقداتهم .

وكلما انحدرنا من أعالى الهضبة إلى السهول الممتدة فى الجنوب والجنوب الغربى كلما أصبح الدم الزنجى غالباً وأكثر وضوحاً . حتى مناطق أعالى النيل .

(١) يذهب بعض الكتاب إلى أن قبائل البيجا من الساميين الذين اختلطوا مع الحاميين .

بل يمتد عنصرهم إلى مناطق النيل الوسطى عن طريق هجرتهم إلى الشمال ويلقبهم الأحباش بالشناقلة أو بنى شنقول . ويطلق على تلك القبائل الحامية الأولى اسم (كوش Kush) أو (الكوشيين Kushitis) وهى التى اختلط فيها دم الحاميين بالعناصر الزنجية .

* * *

أما العنصر السامى فإنه نزل بالبلاد فيما بين عام ١٠٠٠ ، ٤٠٠ قبل الميلاد بالهجرة من جنوب الجزيرة العربية ، جالبا معه من المدنية ما أحدث بالحبشة تغييرا كبيرا ، ورفع مستواهم الحضرى ، الأمر الذى تميزت به المناطق التى انتشر فيها الساميون فى أعالى الهضبة ، وهى المناطق التى أصبحت غالبة على مملكة الحبشة الأولى (تيجرى ـ أمهرا ـ جوجام ـ شوا) ومنذ ذلك الحين وأرض الحبشة تنقسم إلى أقسام واضحة الخلاف فى العنصر بين حامى وزنجى ثم خليط منهما ، وبين خليط آخر من الساميين والحاميين ، وكذلك تعددت اللغات ، فلكل جنس من هذه الاجناس لغته الخاصة ، حتى أن الجنس المتميز من خليط الساميين مع الحاميين يتكلم لغتين مختلفتين هما اللغة التيجرية واللغة الأمهرية .

ومما تجدر الإشارة إليه بصفة خاصة ، أن تأثير الساميين على الحبشة كان واضحا بين القبائل التى اختلط بها ، وأوجد بينها رابطة جديدة ، غلبت فى كثير من الأحيان على الخلافات القبلية القديمة ، وإن احتفظت كل منطقة بالرغم من ذلك بعصبيتها ولغتها .

ومنذ العصور القديمة ، تميزت تلك المقاطعات الأربع التى سبق ذكرها ، وتركزت سلطتها فى شمال الهضبة وتكونت منها مملكة الحبشة الأولى وشملت جانبا من الاريتريا الحالية حيث تمتد قبيلة التيجرى التى تسكن الطرف

الشمالى من الهضبة الذى يخترق الاريتريا . وكانت عاصمة هذه المملكة القديمة مدينة أكسوم . ولما كان لكل مقاطعة من تلك المقاطعات الأربع استقلال ذاتى ولها ملك . فإن ملك أكسوم كان يدعى « ملك الملوك » .

* * *

استمرت الأوضاع على تلك الصورة فترة طويلة من الزمن إلى أن اجتاحت قبائل البيجا شمال الحبشة وامتدت من شواطىء النيل إلى شواطىء البحر الأحمر واستولت فى طريقها على الاريتريا ، فانكمشت دولة الحبشة القديمة ، مما اضطرها إلى الامتداد إلى الجنوب حيث توجد قبائل (الأجاو Agaw) ومن بينها قبيلة (الزاجوى Zagwe) ـ وهى كما قدمنا نتاج اختلاط الحاميين الأوائل مع الزنوج ، ولم يكن قد امتد إليها اختلاط الساميين كما حدث فى الشمال ، ولذلك حافظت على عنصرها الحامى أكثر من القبائل الشمالية . وهى قبائل كثيرة العدد شديدة المراس ، لاقت منها مملكة الحبشة عندما اضطرت إلى الامتداد جنوبا فى أراضيها كثيرا من الصعوبات ، ونشأت بينهما القلاقل والحروب ، ولم يكن من السهل ترويضها ثم نشر المسيحية بها وإخضاعها لحكم ملوك الحبشة . واستمرت بينهما المنازعات حتى استولت إحدى قبائل الاجاو (أسرة زاجوى) على حكم مملكة الحبشة كلها مدة قرنين من الزمان . كما سيأتى تفصيله فيما بعد .

وأنه وإن كانت قبائل الأجويين تتشابه مع القبائل الحبشية القديمة وتتحد فى العنصر الأصلى ، إلا أنها لم تتعرض للاختلاط بالقبائل السامية بالقدر الذى تعرضت له الأقاليم الشمالية ، مما جعل لها طابعا خاصا مستقلا عن باقى قبائل الهضبة ، حتى بعد دخولها فى الدين المسيحى فإنها حافظت على كثير من عاداتها الوثنية الأولى ولم تندمج مع باقى مناطق المملكة وتتحد معها ، بل بقيت تشكل عنصرا قائما بذاته يعتز بلغته وتقاليده وشخصيته ، وتستمد هذه القبائل قوتها من كثرة عددها وشدة مراسها مما يجعل لها أهميتها الخاصة فى المملكة الحبشية .

(ب) قبائل البجه (البيجا Beja

ويقال لها البجه أو البجاه — وإن كان الاسم المتداول حاليا هو البجه (بكسر الباء) ومنه غلبت التسمية الأوروبية (بيجا Beja) .

ويميل علماء الأجناس إلى الربط بين البجه —وقدماء المصريين فى أقدم عصور التاريخ ، مما يستدل منه على وجود قبائل البجه بشكلها المستقل ومناطقها المحددة منذ القدم . إلا أن المراجع التى تفصل تاريخ هذه القبائل وأحوالها فى تلك العصور السحيقة نادرة ، ممايدعو إلى الاعتماد على الاستنتاج والاجتهاد لمعرفة تاريخها .

ويبدو أن أرجح المعلومات هى أن التكتل الأول لهذه القبائل كان فى المنطقة الشرقية من نهر النيل التى تشمل وادى العطبرة وجانبا من وادى النيل الأزرق حتى حدود الحبشة عند كسلا . وكانت تتاخم حدود مصر من الشمال وتمتد إلى البحر الأحمر عند طوكر وسواكن .

ويرجع نسب البجه إلى تلك القبائل التى نزحت[1] فى مبدأ الأمر من جزيرة العرب ، ثم اتصلت مع المصريين القدماء ومن هنا كانت الروابط والعلاقات بينهما منذ القدم . ولكن اختلاف الطبيعة ، وكثرة الأمطار فى مناطق البجه جعل منهم بدواً رحلاً ، ورعاة للأبقار ، وغلبت هذه الطبيعة على طبائعهم وأصبحت لهم صفات البداوة المشهورة . وإن كانت صلاتهم قد قويت مع المدن الكبيرة المستقرة على شاطىء النيل مثل مروى ودنقلة حيث تركزت سلطة المملكة — مملكة النوبة — أو مملكة مروى . التى اعتنقت الديانة المسيحية عن طريق مصر منذعهود المسيحية الأولى — ولقد

---

(١) يميل بعض الكتاب إلى أن قبائل البيجا من الحاميين الذين اختلطوا بالساميين (كما سبق ذكره) .

انتشر هناك مذهبان مسيحيان مختلفان — أكبرهما تابع لبطريركية الاسكندرية شأنها فى ذلك شأن الحبشة — وكان هو المذهب الغالب فى شمال السودان — أما قبائل البجه البدوية فلم تتأثر بالمسيحية وبقيت على وثنيتها قرونا طويلة .

وبالرغم من الطبيعة البدوية لقبائل البجه فإن اتصالهم بجيرانهم وخصوصا مع المصريين كان كبيرا . حيث تبادلوا التجارة معهم ، واكتسبوا منهم كثيرا من المعلومات عن الزراعة وتربية الماشية — وتقول المراجع التاريخية أن من أهم مناطق الاتصال بينهما وادى العلاقى ومايليه من جهة الجنوب ؛ حيث توجد مناجم الذهب[1] التى كان المصريون يقبلون على استغلالها .

ويبدو أن البلاد التى كانت تعيش فيها قبائل البجه ومملكة النوبة ، كانت أغزر مطرا وأكثر نباتا فى العصور القديمة . ولكنها بدأت تجف بعد ذلك مما دفع قبائل البجه إلى الهجرة إلى الجهات الأوفر ماء ، فنزحت إلى الشرق فى أعداد وأفواج كبيرة ، وملأت السهول والوديان والمرتفعات الجبلية من شرق السودان إلى البحر الأحمر مكتسحة أمامها بلاد البوغوص (الاريتريا) وشمال الحبشة .

ويبدو أيضا أن جفاف الأرض واشتداد صعوبة الحياة على قبائل البجه جعل من هذه القبائل مصدرا للقلاقل والمشاكل لمملكة النوبة التى طاردتهم وعاونت بذلك على ازدياد موجات الهجرة . وما أن جاء القرنان السابع والثامن الذى دخل فيهما الإسلام إلى مصر وتوطدت أقدامه فيها وبدأت مناوشاته مع مملكة النوبة المسيحية حتى كانت هجرة البجه إلى الشرق قد بلغت أوجها ، وأصبحت حاجزا منيعا فى شمال الحبشة يجعل اتصالها مع العالم الخارجى متعذرا عن هذا الطريق عدة قرون ، وأصبحت عاملا من العوامل الهامة التى عاونت على عزلة الحبشة خلال تلك القرون .

* * *

---

(١) ص ٣١ السودان الشمالى — د . محمد عوض محمد .

كانت قبائل البجه وتعدادها الوفير ، مصدراً من مصادر القوى العاملة التى استعان بها المصريون القدامى ثم العرب فيما بعد ، للعمل فى المناجم الموجودة فى شمال السودان وبلاد البوغوص وأهمها مناجم الذهب ، وكان لاستقرارهم حول هذه المناجم أثر كبير على عقائدهم ، إذ أنه عندما أفل نجم الدولة المصرية القديمة ، وحلت محلها الدولة الإسلامية أخذ العرب يحلون محل المصريين فى استثمار تلك المناجم ، فاختلطوا بالبجه وتزاوجوا معهم ، كما زادت روابطهم فى كثير من المناطق الأخرى وأهمها الموانىء ، فانتشر الإسلام بين البجه واستمر انتشاره حتى أصبحت جميع البجه فى القرن العاشر ومابعده قد اعتنقت الإسلام .

وكما سيأتى فى سياق الحديث ، لم يقتصر أثر العرب والمسلمين على ذلك فإن نشاط العرب فى التجارة وكثرة العاملين بها فى السودان منذ القدم وازدياد عددهم بعد الإسلام، أوجدجاليات عربيةفى شمال السودان ، ازدادت عددا وقوة بعد الإسلام عندما هاجر إليها عدد من الأسر العربية العريقة عندما استولى الأمويون على الحكم — ثم بعد ذلك عندمااستولى العباسيون على الخلافة .

ومن البديهى أن تكون قبائل البجة التى انتشرت فى شمال الحبشة والاريتريا امتدادا لقبائل السودان ومن أهمها قبائل بنى عامر والأمرار والبشارية والهدندوة والحدارب .

* * *

(ج) الجـالا GALLA

والصومال

عبرت خليج عدن وبوغاز باب المندب فى العصور القديمة أيضا جحافل من المهاجرين إلى الشاطىء الأفريقى ، ينتمون إلى العنصر الحامى ، واستقروا

فى مبدأ أمرهم فى بلاد الصومال بين وادى نهر وبى وخليج عدن . وأخذوا أثناء امتدادهم يختلطون ويتزاوجون مع الزنوج ، وانقسموا فى هذه العملية إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، أولها — هؤلاء الذين هاجروا شمالا إلى سهل الدناكل والمناطق الساحلية على البحر الأحمر . ويعرفون باسم قبائل « عفرساهو Afar -Saho » والقسم الثانى هم الصوماليون الذين بقوا فى أماكنهم وانتشروا انتشارا طبيعيا فيما حولهم من أراضى وامتدوا حتى وصلوا إلى وادى نهر (وبى شبيله Wobi Shebeli) أما القسم الثالث فهو الأكثر عددا والذى اضطر إلى الهجرة شمالا وغربا وشرقاً .

انتشرت قبائل عفر وقبائل الصومال فى أماكن هامة من شرق أفريقيا ونفذت إلى مساحات كبيرة من أرض الحبشة وانفردت بها ، أما قبائل الجالا قد فاقت أبناء عمومتها عدداً وقوة ، وعندما اضطرت للهجرة زحفت على الحبشة زحفا ، وملأت جنوب الحبشة ومناطق العروسى وهرر فى الشرق ، وفى الغرب إلى نهر (ديديسا Didessa) وامتد زحفهم إلى أعالى الهضبة الحصينة فغمروا مقاطعة شوا ومقاطعة الواللو حيث استقروا بين السكان المسيحيين على الهضبة . وسرعان ما استقر هؤلاء الجالا فوق الهضبة وأصبح شأنهم كبيراً فى مقاطعات (واللو ، شوا ، جما ، هرر) وصاروا يعملون فى الزراعة والمراعى . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الجالا نصف سكان الحبشة .

وبالرغم مما تعرض له الجالا من تأثير الساميين فإنهم ظلوا محافظين على صفاتهم الحامية — شأنهم فى ذلك شأن قبائل الأجاو التى سبق الكلام عنها ولكن قبائل الجالا مع مرور الزمن تنوعت فى صفاتها وأحوالها ، فإن تلك الفروع التى استقرت فوق الهضبة ثبتت هناك وأصبحت لها القرى والمنازل الثابتة وعملت فى الزراعة والمراعى ، أما هؤلاء الذين بقوا فى السهول المنخفضة فقد ظلوا على حالتهم البدوية يتنقلون من مرعى

إلى آخر ، وبين هذين الفريقين تتدرج فروع الجالا بين درجات الاستقرار والبداوة .

إن قبائل الصومال وعفر والجالا — هى التى انتشر فيها الإسلام تدريجيا . حتى اعتنقته جميع قبائل الصومال وعفر أولا — ثم أخذ يتغلغل بين قبائل الجالا خلال العصور حتى أصبحت غالبيتها الكبرى تعتنقه منذ أواخر القرن التاسع عشر .

* * *

ولقد بدأت هجرة الجالا إلى إقليم الحبشة بطيئة ضئيلة فى أول الأمر ولكنهم ظهروا فجأة على مسرح الحوادث فى القرن السادس عشر عندما زحفوا على الحبشة فى أفواج هائلة ملأت كل فراغ واستقرت فى كل مكان وبلغت من الكثرة والقوة بحيث لم يعد فى الإمكان صدهم ، بل أصبحوا جزءاً أساسيا من الدولة يبلغ نصف مجموع سكانها ، ولم تعد القبائل الأمهرية والتيجرية تدعى وتتنافس فى كثرة العدد واتساع الرقعة إذ أصبحت الجالا تفوقهم مجتمعين ، مساحة وعددا . كل ماهنالك أن قبائل التيجرى وكذلك قبائل الأمهرة كل منها متكتلة فى منطقتها ، بينما الجالا الذين يفوقونهم عددا منتشرون على مساحات شاسعة من البلاد ، وليس من الميسور إيجاد ذلك النوع من التكتل بينهم لصعوبة المواصلات وبعد المسافات ، والاختلاف فى طبيعة المعيشة التى طرأت على فروعها المختلفة . ولكنها أينما أتيحت لها ظروف التكتل والاستقرار كما حدث فى مقاطعة الواللو فى قلب الهضبة أصبحوا خطراً كبيرا ونازعوا قبائل الأمهرة والتجرى السلطان .

* * *

(د) العرب

وأخيراً وليس آخرا ـ قبائل العرب من جنوب الجزيرة العربية ومن الحجاز ومن شواطىء الخليج العربى . استمرت تنزح عبر البحر الأحمر

وخليج عدن على طول العصور القديمة والحديثة . للتجارة والإقامة . وهم على قلة عددهم بالنسبة للعناصر الثلاثة التي سبق ذكرها ، إلا أنها كانت أبلغها أثرا في تاريخ الحبشة ، إذ أنها حملت معها المدنية والثقافة والحضارة والدين الإسلامي ، وكانوا في هذا أول من ربط الأحباش بالعالم واستمروا قرونا طويلة واسطة الاتصال ومنبع الاشعاع . ولم يمر عصر من العصور لم يكن للعرب على الحبشة تأثير من نوع آخر .

وسنوضح هذا ونعرف الدور الكبير الذي لعبه العرب في تاريخ الحبشة عندما نأتي إلى ذكر مختلف المراحل التي سنمر عليها في تسلسل الأحداث .

* * *

الفصل الثالث

موجز التاريخ القديم للحبشة

تأثير قدماء المصريين :

يبدو أن المصريين كانوا أول الأجانب الذين اتصلوا بهذه البلاد التى اعتبروها فى ذلك الوقت جزءا من بلاد النوبة ، والأرجح أن المصريين وصلوا إليها عن طريق الغرب متتبعين مجرى النيل ، كما وصلوا أيضا عن طريق البحر بعد وصولهم إلى مكان ماعلى الشاطىء الصومالى بحثا عن التوابل والعاج والذهب ، التى كانت تشتهر بهـا عندئذ بلاد (قرن أفريقية) . ويحدثنا التاريخ عن حدوث هذه الرحلة فى عهد ببى الثانى (Pepi II) فرعون مصر خلال الألف سنة الثالثة قبل الميلاد[1] وتكررت هذه الرحلات حتى جاء ذكرها فى تاريخ الملكة حتشبسوت فى منتصف الألف سنة الثانية قبل الميلاد ، مسجلا فى معبد الدير البحرى فى طيبة .

ويذكر المؤرخون أن الحبشة ليست لها حضارة خاصة بها ، ويبين (السير بدج) ذلك بوضوح فى مقدمة كتابه حيث يقول «إن الكنائس العجيبة المنحوتة داخل الصخور فى لاليبلا ـ لم تكن من عمل الأحباش ، بل من عمل الصناع المصريين والسوريين من مصر وبيت المقدس ، والجسر التاريخى فوق النيل الأبيض عند (أجام ديدلى Agam Dedli) ـ أقامه البرتغاليون ، وكذلك عدد كبير من القلاع والكنائس والقصور الموجودة فى مختلف المناطق »[2]

---

(١) ص ٤٧ The Ethiopians by Ullendorff.

(٢) مقدمة ـ كتاب السير بدج Budge .

وذكر أيضا أن البلاد ليس لها أعمال أدبية ، فجميع ما لديها مترجم عن العربية أو القبطية[1]

تأثير قدماء العرب :

ويوحى وضع (القرن الأفريقى) محيطا بجنوب بلاد العرب ، بضرورة وجود صلة بين الجانبين ، ولقد اتضح أن هذه الصلة كانت ذات أثر فعال فى الألف سنة الأولى قبل الميلاد ، كما وضح أن هذه الصلة كانت طوال تلك الفترة عبارة عن حركة فى اتجاه واحد من الشرق إلى الغرب - عبر بوغاز باب المندب - وأن هذه الهجرة كانت السبيل الذى دخلت عن طريقه القبائل السامية من جنوب الجزيرة العربية إلى الشاطىء الإفريقى .

ومنذ اللحظة الأولى لوصول هذه الموجات السامية من المهاجرين ، وضح تفوقهم على أهالى البلاد فى وسط الهضبة وشمالها ، وكان تأثيرهم عليهم كبيرا ، ومنذ تلك العهود السحيقة وهذه القبائل المهاجرة تسيطر على نواحى النشاط المختلفة وأهمها التجارة ، وأخذ نفوذ العرب ونشاطهم التجارى يزدهر ، فى الوقت الذى أخذ النفوذ المصرى القديم فى الاضمحلال .

وكلما توغل تجار العرب فى داخل البلاد الحبشة كلما صادفوا مزيدا من الخصب واعتدالا فى الجو يرغبهم فى الاستقرار بتلك البلاد ، ولازالت كثير من المواقع القريبة من مصوع تحمل من الأسماء ما يؤيد تغلغل هؤلاء المهاجرين والتجار العرب داخل الأراضى الأفريقية[2] .

وسرعان ما استقر هؤلاء المهاجرون واختلطوا بأهالى البلاد وأدخلوا إليها تلك الأنظمة التى ألفوها فى بلاد العرب فى شئون المجتمع والسياسة

---

(١) المرجع السابق .

(٢) صفحة ١٠٣ Storia d'Ethiopia by conti Rossini .

وصفحة ٤٩ The Ethopians by Ullendorff.

والثقافة ، وعلى وجه الخصوص كان لهم أثر كبير فى تطوير البلاد الحبشية بإدخال وسائل الرى وتطبيق قوانين الملكية وتهذيب أساليب البناء ، وتنظيم عملية تربية الحيوانات وما إلى ذلك من وسائل التقدم والعمران .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح هؤلاء المهاجرون جزءاً لا يتجزأ من بلاد الحبشة (وكان أغلبهم أصلا من اليمن ـ وحضرموت) وبمرور السنين ضعف شأن البلاد الأصلية فى جنوب الجزيرة العربية ـ وقويت شوكة الدولة الجديدة ـ التى كانت عاصمتها فى ذلك الوقت مدينة أكسوم . الواقعة فى شمال الهضبة الحبشية .

وفى القرن السادس الميلادى أخذت جيوش مملكة اكسوم وأغلب رجالها تجرى فى عروقه دماء المهاجرين العرب الأوائل ـ يعبرون البحر فى الاتجاه المضاد ويرفعون لواء مملكة اكسوم على جنوب الجزيرة العربية[1] .

* * *

تأثير اليهود الأوائل :

وخلال تلك العصور التى تتناولها بالبحث الآن كانت الديانة اليهودية قد بدأت فى الانتشار فى كثير من أنحاء الشرق الأوسط ، فهناك بعض المقاطع المتناثرة فى (العهد القديم) التى تشير إلى اليهود الذين استقروا فى مصر ، وإلى بعض من وصل منهم إلى مناطق كوش . وبلاد النوبة ، ولكن بالرغم من جميع ما ذكر عن هذا الأمر فى العهد القديم وفى أوراق (بردى ـ اليفانتين) فإن الأرجح أن عدد من تسربوا إلى هذا المناطق كان ضئيلا ، مما يدعو إلى الظن بأنه لم تحدث أية هجرة ذات شأن لليهود إلى الحبشة عن طريق مصر والنيل . هذا بالرغم من أن اليهود الباقين بالحبشة الآن يدعون أنهم من نسل أتباع منليك الأول كما سيأتى ذكره ـ وكذلك من أتباع اليهود

---

(١) نفس المصدر ص ٥ . The Ethiopians by Ullendorff .

الذين هاجروا من مصر عام ٥٨١ ق . م[1] .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لبلاد العرب ، فالوثائق التاريخية متعددة عن دخول الدين اليهودى إلى جزيرة العرب قبل الميلاد ، واستقرار اليهود فى كثير من ربوعها وعلى الأخص فى جنوب الجزيرة ، وإن كان شأنهم قد بدأ يتضح بقوة عند دخول الإسلام ، فى يثرب وخيبر ، ومن هنا جاءت هجرة بعض اليهود مع بقية المهاجرين العرب إلى الحبشة قبل الميلاد ، ويبدو أنهم لم يهاجروا على هيئة جماعات متكتلة ولكنهم انضموا إلى مواكب المهاجرين كأفراد ، وبعد وصولهم تجمعوا وكونوا جالية قائمة بذاتها ، وبدأ أثرهم يظهر فى ثقافة البلاد وحضارتها بصورة مستقلة، وليس أدل على ذلك من اعتناق فريق من أحباش ذلك العهد للديانة اليهودية .

وفى نفس تلك الفترة كان أحفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجارى فى البحر الأحمر ، وتذكر بعض المصادر وصول بعض سفنهم إلى موانىء البحر الأحمر بحثا عن الذهب وربما كان هذا النشاط اليهودى عاملا من عوامل تعزيز الديانة اليهودية فى بلاد الحبشة .

* * *

أسطورة سليمان وملكة سبأ :

وما دمنا بصدد الكلام عن اليهود وصلتهم بالحبشة ، أصبح لزاما علينا أن نتكلم عن الأسطورة الشائعة التى تربط بين ملوك الحبشة والنبى سليمان ، فإن تاريخها يعود إلى العهد الذى نبحثه فى هذه المرحله من جهة ، ولشدة ارتباطها وأهميتها للتاريخ الحبشى القديم والحديث على حد سواء — من جهة أخرى .

---

(١) ص ١٦ Islam in Ethiopia by Trimingham

وص ٥٢ The Ethopian by Ullendorff

يعلق الأحباش أهمية كبرى على قصة سيدنا سليمان مع بلقيس ويجعلون منها أساسا هاما من تاريخ دولتهم بصفة عامة وتاريخ الأسرة المالكة بصفة خاصة ، وحذا حذوهم كثير من الكتاب فأخذوا ينقبون فى أسفار (العهد القديم والعهد الجديد) ثم بعد ذلك من المراجع القديمة ، يجمعون ما تناثر هنا وهناك من إشارات يمكن الربط بينها لمعرفة حقيقة هذه الأسطورة ، وبالرغم من كل ذلك لم يتيسر لهم إلى الآن برهان تاريخى قاطع يربط بين ما يتواتر عن علاقة هذه القصة بتاريخ الحبشة وملوكها ، ولكن هذا لم يمنع الأحباش من التمسك بها .

ونص الأسطورة التى يتمسكون بهـــا يدور حول ملكة لهم تدعى (ماكيدا) وكانت ملكة على سبأ يقولون بأنها كانت بأرض الحبشة فى المكان المعروف الآن بالاريتريا ، ويعتبرها الأحباش أنها هى الملكة التى أطلق عليها العرب اسم بلقيس ، ثم تمضى القصة فى مثل ما تمضى فيه باقى المصادر حتى تنتهى بزيارتها لسليمان فى بيت المقـــدس — حوالى عام ١٠٠٠ ق ٠ م ٠

وقد ذكرت كثير من المراجع القديمة ما حدث بين بلقيس وسليمان من مناورات انتهت بزواجهما ، وهنا تستمر بعض المصادر فى تكملة القصة بأن جعلت نتيجة لهذا الزواج ولدا اسمه منليك ، وعندما بلغ أشده أرسلته (ماكيدا) إلى والده الذى فرح به وجعل منه ملكا على الحبشة ، وفى أكثر الروايات رواجا ، أنه عاد إلى الحبشة ومعه نفر من شباب بنى إسرائيل ، فرحت بهم الملكة وتوجت ابنها وتنازلت له عن العرش ، وجاء فى نفس الأسطورة أن منليك عند مغادرته لبيت المقدس تمكن بمعاونة رجاله أن يسرق (تابوت العهد) من أبيه وحمله معه وحفظه فى عاصمته أكسوم التى أطلق عليها (أرض صهيون الجديدة) .

* * *

ويذهب (أولندورف Ullendorff) فى صفحات ١٤٣ ، ١٤٤ من كتابه عن (الاثيوبيين) أنه مما زاد فى هـذه القصة رسوخا حتى أصبحت جزءا من حياة الأحباش ومعتقداتهم ، تسجيلها على هيئتها تلك فى كتاب (مجـد الملوك — Glory of Kings — Nebra Kegast) الذى يقـدسه الاثيوبيون ، ولقد عمد واضع هذا الكتاب إلى الاعتماد على ما جاء ذكره من إشارات فى أسفار العهد القديم والعهد الجديد . ويمضى أولندورف يقول (وفى الحقيقه لابد وأن تلك الأسطورة كانت خلال العصور الطويلة محلا للمبالغات والإضافات الخيالية فى الحبشة وغير الحبشة ولابد أيضا أن تكون مختلف القصص والأساطير قد انصهرت مع بعضها على تلك الصورة المتواترة ، وعندما جاء وقت كتابتها فى القرن الثالث عشر ، غلبت على الكاتب رغبته فى تأييد دعوة الأسرة السليمانية الحديثة العهد بالسلطة فى الحبشة ، والتمكين لها فيما تطمع فيه من قوة ومنعة ، وكانت مهمة المؤلف نبورا أد يشاق Nebura Ed Yeshaq أقرب إلى تسجيل أساطير متواترة منذ أمد طويل ، لم يتهيأ لها إلى ذلك الحين من يتفرغ على تنظيمها أو تحليلها أو إمعان العقل والتفكير فيها للوصول إلى حقيقتها) .

* * *

والاعتقاد المنطقى أن هذه القصة إنما نشأت فى القرن الثالث عشر لتثبيت أقدام الأسر المالكة السليمانية على العرش ، وكان القصد إضفاء صبغة القداسة على الأسرة الحاكمة الجديدة حتى لا يحاول أحد الانتقاض عليها (١) . واعتمد واضعو هذه الأسطوره على شدة تعلق أفراد الشعب الحبشى بأمثال هذه القصص .

* * *

(١) ص ١٠ Ethiopia to day by Ernest Luther.

ويقول السير بدج أن القديس « تكلا هيمانوت » الذى تبنى هذه الأسطورة ، هو الذى وضع قائمة الأسرة السليمانية وتسلسلها حتى (سليمان الحكيم) [1] وذلك لكى يمكن للملك « يكونو أملاك » من العرش وهو الذى أطلق عليه هذا الاسم ومعناه (سوف يكون ملكا) بعد أن كان اسمه الحقيقى (تسفا أياسس) .

ويعود بدج فيقول عن سجل الملوك ، أو مجد الملوك Kebra Megast-Glory of Kings أنه سجل لا قيمة له ، إذ أن التضارب فيه واضح ، وأنه وضع بقصد ملء الخانات فى تسلسل الملوك من آدم إلى سليمان [2] حتى أن الإختلاف أصبح واضحا من مقارنة الجــداول التى أوردها (بروس Bruce) و (سولت Salt) مما يدعو إلى الشك فى صحة السجل [3] .

وبمراجعة سجل الملوك المذكور تتضح حقيقة بالغة الأهمية فى تاريخ الحبشة ، وهى أنه لم يتمكن أى ملك وطنى أو (رأس) قبل الامبراطور (يكونو أملاك) من أن يطلق على نفسه لقب « ملك ملوك الحبشة » [4] . وذلك يزيد فى اليقين بأن السجل قد وضع فى ذلك الوقت (القرن الثالث عشر) ليخدم الهدف الذى سبق ذكره وهو نشر هالة من القداسة حول الملوك ، لتوطيد حكمهم على جميع أرجاء البلاد بدون منازع ، حيث لا يمكن لأى شخص مهما كبر مقامه أن يدعى نسبا أعلى من هذا النسب وعلى ذلك فلا يجوز له أن يتطلع إلى الملك .

ولذلك كان كل من يتمكن من الاستيلاء على العرش ، يسارع إلى ربط نسبه بتلك الأسرة حتى ولو من قبيل الادعاء والاختراع .

* * *

(١) مقدمة كتاب — سير بدج Budge .
(٢) ص ١٨٠ نفس المرجع .
(٣) ص ١٠٥ وما بعدها نفس المرجع .
(٤) المقدمة — نفس المرجع .

وليس من المقبول بالنسبة لما جاء عن هذه القصة فى القرآن الكريم ، أن نمر على هذه الإسطورة الحبشيه دونما تحليل أو تعليق ، فلقد أجمعت أكثر كتب التاريخ الآثار على أن مملكة سبأ كانت تقع فى جنوب الجزيرة العربية فى بلاد اليمن ، ولها تاريخ متسلسل مترابط تؤيده الآثار ، والنقوش ويزيد فى تأييدها ما أجمعت عليه المصادر من أن العرب فى هجرتهم إلى أرض الحبشه فى تلك العصور حملوا معهم حضارة متقدمة لم تعهدها بلاد الحبشه .

ونحن لانشك فى أن مملكة سبأ كانت فى اليمن وأن ملكتها كانت تدعى بلقيس ولكن ليس هناك مايمنع من أن تكون تلك المملكة الشهيرة قد ضمت بلاد الحبشة تحت سلطتها فى ذلك العهد وهذا أقرب إلى الفهم وأكثر اتفاقا مع تاريخ هذه الفترة .

* * *

أما باقى الأسطورة فليس هناك ايضا مايمنع من احتمال صحة ماجاء عن منليك ، وعندئذ لانستبعد أن يقوم سليمان بتنصيبه ملكا على ذلك الجزء البعيد عن أملاك والدته الذى يقع فى الجانب الغربى من البحر الأحمر والذى يطلق عليه الحبشة .

وهناك تحليل آخر لهذه الأسطورة ونصيبها من الصحة ، فإن الأحباش كانوا ولايزالون يعانون من عقدة نفسية تأصلت لديهم خلال العصور ، جعلت عندهم حساسية شديدة لكل مايتعلق بتاريخهم ونشأتهم وكراهيتهم لكلمة (الحبشة) كلما فهموا معناها العربى ، وهو السبب فى الإصرار على تغييرها فى السنوات الأخيرة . وهذا يفسر مايتصف به الأحباش من التغالى فى الاعتزاز بالنفس والكبرياء والعزلة .

فقد كان الأحباش يعيشون على هضبتهم فى هيئة بدائية - لازالت سائدة إلى يومنا هذا - بينما تفد إليهم طوائف المهاجرين على مر العصور ، من

مصريين ويهود وعرب ، تتميز كل منها بالتفوق الحضرى والعلم والمعرفة ، فعمل الأحباش على أن يجدوا لأنفسهم نسبا كريما ينتسبون إليه ، ومن هنا جاءت أسطورة نسبهم إلى القبائل الأولى من اليهود التى رافقت منليك بن سليمان الذى تنسب إليه أيضاً العائلة المالكة .

ولو أن ملوك الحبشة فى تلك الأزمان القديمة كانوا يعلمون ويؤمنون بأنهم أحفاد سليمان حقيقة لرسخ إيمانهم بالدين اليهودى وتعصبوا له ، ولما كان من السهل اعتناقهم للدين المسيحى بتلك الاستجابة السريعة التى حدثت عندما جاءهم التبشير بهذا الدين .

ولا يدفعنا إلى هذا الشك إلا ضعف المراجع والمصادر التى يستندون إليها وبعدها عن المنطق السليم ، وتعارضها مع باقى القصص التى وردت فى المراجع المعتمدة — وعلى رأسها الكتب المقدسة .

أما ما يمكن الاعتماد عليه فهو أن اليهودية دخلت إلى الحبشة بالطريق المعتاد باستقرار بعض التجار الذين وفدوا إليها ، إما من فلسطين مباشرة وإما من مهاجرى جزيرة العرب وكذلك بعض من جاءوا من مصر ، وعندما استقروا فى الحبشة تكتلوا فى جماعات وتكونت منهم الجالية اليهودية ، ومن نسلهم قبائل « الفلاشة Falasha » الموجودين حالياً فى الحبشة ويبلغ عددهم حوالى ٦٠٠٠٠ نفس . وكلمة فلاشة باللغة الحبشية معناها (المهاجرون أو الأغراب) ولعل فى شيوع هذه التسمية على اليهود خلال العصور الطويلة المتعاقبة ما يؤيد استنتاجنا بعدم وجود أية علاقة قوية مع أهالى البلاد ، ولو كانت العائلة المالكة تنحدر حقيقة من نسل سليمان لما استمر اليهود يحملون اسم الأغراب (الفلاشة) ولما بقى اليهود يعيشون فى الحبشة فى شبه عزلة عن باقى أجناسها .

ومن العجيب فى الحبشة الآن شدة تمسك المسيحيين بعلاقتهم القديمة

مع اليهود وتفاخرهم بها ، والاحتفاظ بنجمة داود « المثلثة » رمزا لهم . وهو أمر لم نعهده فى أى وسط مسيحى آخر .

وعلى أى حال فلا يوجد بين المراجع المعتمدة مايؤيد انحدار العائلة المالكة الحبشية من نسل سليمان عليه السلام ، اللهم إلا ماجاء على لسان العائلة المالكة نفسها .

بل وليس هناك أى مرجع معتمد يؤيد شخصية منليك ، وعلى ذلك فإن الأرجح أن القصة موضوعة ، حتى تجعل للأسرة المالكة حقا لامنازع فيه فى ملك الحبشة ، وتجعل من قداسة الملوك مانعا من أية محاولة للثورة عليهم ، إذ أن أية محاولة من هذا القبيل تصبح نوعا من الكفر وتحديا لمشيئة الله .

وبالرغم من ضعف هذه القصة فإنها تغلغلت فى نفوس الشعب وأصبحت جزءا هاما من كيانه ومعتقداته ، وكما حاول جميع الملوك الذين استولوا على العرش إثبات نسبهم إلى الاسرة السليمانية ، فإن قبائل بأجمعها مثل قبيلة التيجرى لم ترض بأن ينفرد الأمهريون بهذا الشرف العظيم ، ولكى يعززوا حقهم فى الملك الذى استمر فى قبيلتهم زمنا طويلا ، فإنهم أذاعوا نفس الأسطورة فى رواية أخرى تتفق فى الجوهر الأصلى ولكنها تختلف فى بعض التفاصيل التى تجعل هذا الشرف مقصورا على قبائل التيجرى .

* * *

دخول المسيحية إلى الحبشة

فى بداية القرن الرابع الميلادى كانت مملكة أكسوم قد وصلت إلى غاية قوتها فى عهد ملكها (إزانا Ezana) الذى ترك لحسن الحظ طائفة من المخطوطات التى تلقى بعض الضوء على علاقاته مع جيرانه وكيف تخلصت فى عهده مملكة أكسوم من سيطرة اليمن ، وكذلك دلت تلك المخطوطات

على علاقة قائمة مع الإغريق حيث كتبت بعض تلك المخطوطات باللغة الإغريقية .

ودخلت المسيحية إلى الحبشة فى حوالى عام ٣٥٠ الميلادى ، ويقال فى ذلك أن الشقيقين (فرومنتيوس وأيديسيوس Frumentius & Edesius أوفدتهما كنيسة صور إلى بلاط ملك أكسوم ، ويقال أيضا أنهما كانا هاربين وفى طريقهما عرج أولهما على مدينة الاسكندرية حيث رسمه البطريرك السكندرى مطرانا على أكسوم .

وفى رواية أخرى أكثر تفصيلا[1] وأقرب إلى الفهم ، تلك التى كتبها الكاهن (رفينوس Rufinus) الذى توفى سنة ٤١٠ ميلادية ، وذكر أنه سمعها من أوديسيوس شخصيا .

وتتلخص تلك الرواية فى أن مجموعة من تجار مدينة صور قاموا فى رحلة تجارية فى طريقهم إلى الهند وفى صحبتهم شابان صغيران بينهما قرابة . وأكبرهما فرومنتيوس وأصغرهما أوديسيوس ، وفى أثناء الرحلة وقفت سفينتهم بأحد الموانى على الشاطىء الأفريقى للبحر الأحمر للتزود بالمياه ، وكان أهل هذه الميناء قد لحقتهم أضرار من بحارة سفينة تجارية سابقة مما أدى إلى توتر العلاقات مع الدولة البيزنطية ، فاعتدوا على السفينة وأغرقوا من فيها ولم ينج إلا هذان الشابان . فباعهما الأهالى إلى الملك الذى سر بهما ومنحهما ثقته وجعل أكبرهما أمينا على حساباته ورسائله وجعل الثانى ساقيه الخاص ، وعندما وافته المنية بقيا بجانب الملكة لرعاية أمور الدولة إلى أن بلغ الملك الصغير (أزانا) أشده ؛ واستمر فى خدمته .

عن هذا الطريق تمكن فرومنتيوس من التأثير على الملك أزانا حتى جعله يعتنق الدين المسيحى . ولكن يبدو أن أوديسيوس وكاتب القصة ،

(1) ص ٣٨ ، ٣٩ . Islam in Ethiopia by Trimingham

أرادا أن يجعلا منها أسطورة ومعجزة دينية ، فجاء فى الكتاب المذكور أنه أثناء إقامة فرمنتيوس فى أكسوم دفعته دفعه الهية للبحث عن التجار اليونانيين الذين أخذوا يتكاثرون فى الحبشة لكى يمنحهم الحق فى إقامة الشعائر الدينية المسيحية ، ويحثهم على بناء الكنائس ، ويتخذ فى نفس الوقت من الوسائل ما يمهد للدين المسيحى من النمو والانتشار .

عاد أوديسيوس إلى صور وأصبح راعيا لكنيستها ، حيث أتيح له أن يمص قصته على روفينوس ، أما فرومنتيوس فقد ذهب إلى الإسكندرية حيث اجتمع بالبطريرك أثيناسيوس وحثه على إرسال مطران إلى أكسوم لرعاية شئون المسيحية والمسيحيين فى تلك البلاد ، فوجد فيه البطريرك خير من يقوم بهذه المهمة فعينه مطرانا على الحبشة .

وأثناء حياة فرومنتيوس والامبراطور إزانا أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة تمثلها الكنيسة الحبشة التى تتبع الكنيسة المصرية . يرسم بطارقة مصر ، المطارنة الذين يرأسون الكنيسة الحبشية واحدا بعد الآخر ،

ولم يكن اعتناق الشعب للدين المسيحى فى عهد الملك إزانا إلا بين فئة قليلة من أتباعه ، إذ أن القبائل الوثنية ظلت مستعصية تتسرب إليها المسيحية فى بطء شديد خلال قرنين من الزمان ، لم يسمح للحبشة أثناءهما بأى نشاط ، إلى أن جاء عام ٥٢٤ الميلادى حين اتصلت بهم الامبراطورية البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) تطلب منهم حماية المسيحيين الذين يعيشون فى جنوب الجزيرة العربية بالقرب من الحبشة .

وكان الملك ذو نواس — آخر ملوك حمير قد اعتنق الدين اليهودى وأخـــذ فى القضاء على المسيحيين ، وبناء على طلب امبراطور بيزنطية ، قام النجاشى (كالب Kaleb) أو (أيلا أصبحه Ela Asbeba) بإرسال جيوشه تحت قيادة « إرياط » لغزو اليمن ، قام ذونواس اليهودى أثناء المواقع الحربية بالقضاء على مسيحيى نجران ولكن الحرب انتهت بانتصار إرياط وموت ذى نواس ، وانتهى بذلك عهد الجنوب العربى بالاستقلال .

وقام الجيش الحبشى فى جنوب الجزيرة العربية بتنصيب أبرهة ملكا على هذه البلاد الجديدة ، ومنذ ذلك الحين أخذ يستقل بملكه ، مقتصرا على دفع الجزية لامبراطور الحبشة ، وتسجل تاريخ هذه الحقبة كتابات مستفيضة منقوشة على سد مأرب وفى مكان آخر قريب العهد بالكشف عند مريفان ، ويستفاد من هذه الكتابات أن أبرهة قد أحرز انتصاراً على إحدى قبائل شمال الجزيرة العربية .

أما باقى تاريخ أبرهة فهو معلوم بالتفصيل من المصادر الإسلامية حيث سجلت بناءه لكاتدرائية عظيمة فى صنعاء يقال لها القليس ، وكان يهدف من بنائها أن ينافس بها الكعبة ، ويحول إليها طوائف الحجاج ويقلل من شأن مكة .

وقام إبرهة فى عام ٥٧٠ الميلادى بحملته المشهورة على مكة المكرمة وعاد منها مهزوما (عام الفيل — الذى ولد فيه محمد عليه السلام) ، وسنورد النص الإسلامى بعد الفراغ من هذا الشرح .

أغارت جيوش الفرس على بلاد اليمن . وكان فى ذلك نهاية الحكم الحبشى لبلاد اليمن ، وأخذت مملكة أكسوم فى الضعف ، وتسببت الحروب السالفة الذكر فى كساد التجارة بين الجانبين ووقوف تيار المهاجرين ، الذين كانوا يدفعون بعجلة الحياة فى الحبشة إلى النشاط والرواج ، وكانت هذه الأحداث بداية العزلة الطويلة التى عاشت فيها الحبشة قروناً عديدة ، استمرت من عام ٦٥٠ إلى عام ١٢٧٠ ، ولكن المدهش حقا أنه عند انفراج العزلة ظهر أن البلاد قد حافظت على مسيحيتها فى مرتفعات الهضبة وامتدت إلى الجنوب ، وان كانت قد اتخذت طابعا خاصا بها ، فمع محافظتها على المذهب الارثوذكسى (القبطى - اليعقوبى) إلا أنها أخذت تمارس معه كثيرا من الطقوس اليهودية والوثنية ـ ولكن المسيحية ظلت طوال

هذه المدة الرابطة القوية التى ربطت بين جميع سكان الهضبة الحبشية المرتفعة المنيعة (١) .

* * *

الرواية الإسلامية للحملة الحبشية على اليمن (٢) :

تولى (ذو نواس بن تبان أسعد) ملك اليمن ، واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن ، فكان آخر ملوك حمير . وهو صاحب الأخدود ، وكان بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام ، أهل فضل واستقامة لهم رأس يقال له عبد الله بن السامر ، فسار إليهم ذو نواس بجنوده فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك والقتل ، فخد لهم الأخدود ، فحرق من حرق بالنار ، وقتل من قتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا .

« وفى ذى نواس وجنده قال تعالى : « قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود .وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

«ويقال : كان فيمن قتل ذو نواس عبد الله بن الثامر رأسهم وأمامهم» .

« وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له ـ دوس ذو ثعلبان ـ على فرس ، فسلك الرمل فأعجزهم ، فمضى على وجهه ، ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم ، واستنصره على ذى نواس وجنوده ، فأخبره بما بلغ منهم . فقال له : بعدت بلادك منا ، ولكنى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك . وكتب إليه يأمره بنصره ، والطلب بثأره ، فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة

---

(١) ص ٣٢ Islam in Ethiopia by Trimingham
ص ٥٢ The Ethiopians by Ullendorff

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٥ وما بعدها (عبد السلام هارون) الجزء الاول .

وأمر عليهم رجلا منهم يقال له أرياط ومعه فى جنده أبرهة الأشرم » [1]

« فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعبان وسار إليه ذو نواس فى حمير ومن اطاعة من قبائل اليمن ، فلما التقوا أنهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسة فى البحر ، ثم ضربه فدخل به فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره فأدخله فيه وكان آخر العهد به .

« ودخل ارياط اليمن فملكها » .

* * *

« فأقام أرياط بأرض اليمن سنين فى سلطانه ذلك ، ثم نازعة فى أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشى حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار احـــدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط : إنك لا تصنع بأن تلق الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا ، فابرز إلى وأبرز إليك فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه ارياط . أنصفت . فخرج إليه أبرهه وكان رجلا قصيرا لحيا ، وكان ذا دين فى النصرانية . وخرج إليه أرياط وكان رجلا عظيما طويلا ، وفى يده حربه له ، وخلف ابرهة غلام له يقال له عتوده يمنع ظهره ، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه وسط الرأس ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه وعينه

---

(١) فى رواية أخرى للسير بدج ص ٣٦١ ـ أن دوس ذو ثعلبان كان يهوديا وأنه هو الذى أوقع الفتنة وتسبب فى مهاجمة ذى نواس لأهل نجران — وأن أخبارهم وصلت الى بطريرك الاسكندرية الذى كتب لملك الحبشة لانقاذ المسيحين فى نجران ، وأن الملك أيللا أصبحه كانت قد وصلته الانباء أيضا عن طريق شخص تمكن من الهروب من المذابح ، وكان لدى ملك الحبشة الجيوش ولـكنه لم تكن لديه السفن التى تعبر بهم البحر ، ولذلك طلبها من (الملك جوستين البيزنطى Juscin) الذى أمده بما يلزمه منها .

وشفته ، فبذلك سمي — أبرهة الأشرم — وحمل عتوده على أرياط من خلف أبرهة فقتله . وانصرف جند ارياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن [١] .

« ثم أن أبرهة بنى — كنيسة القليس — بصنعاء لم ير مثلها فى زمانها بشىء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشى : إنى قد بنيت لك ، أيها الملك ، كنيسة لم تبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب » ثم تستطرد الرواية فيما حدث من أحداث حتى تأتى إلى حملة أبرهة الأشرم على مكة قاصداً هدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك [٢] ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا ، يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده فمات » .

وفى هذا نزلت الآيات الكريمة (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) .

---

(١) ص ١٧ تهذيب سيرة ابن هشام

(٢) ص ٢٦٨ السير بدج Budge يقول أن تلك الأحجار الصغيرة كانت تحمل مرض الجدرى الذى تفشى فى جيش أبرهة ... الخ .

وتمشيا مع ما سبق أن أشرنا إليه فى المقدمة من اتخاذنا نهجا خاصا ، يربط جميع المراحل الهامة فى أحداث الحبشة بالتاريخ العالمى ، يمكننا الآن أن نعتبر الحملة الحبشية على اليمن استجابة لطلب امبراطور الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) لحماية مسيحيي اليمن — وما أعقب ذلك فى عهد أبرهة — أول تلك المراحل الحبشية التى تتصل بتاريخ العالم الخارجى .

الفصل الرابع

تاريخ الحبشة فى عصور الإسلام الأولى

اتصال الإسلام بالحبشة :

رأينا فيما تقدم مدى ماكانت عليه الصلات بين شاطىء البحر الأحمر « الأحباش من الغرب وسكان الجزيرة العربية فى الشرق وعلى وجه الخصوص بلاد اليمن وجنوب الجزيرة . التى مرت فى تلك الأزمان بأوج حضارتها القديمة . فكانت مركزا للنشاط التجارى والإشعاع الحضارى ، الذى تكفلت طوائف المهاجرين بنشره فى بلاد الحبشة وتطوير الحياة بها ، ولما استقر المهاجرون واختلطوا بالسكان الأصليين وتكونت منهم دولة جديدة على جانب من الرقى والازدهار ، بدأت موجات الهجرة تسير فى الاتجاه المضاد وان كانت فى هذه المرة على هيئة جيوش غازية يقال إنها سيطرت على اليمن قرابة قرنين من الزمان ، ورأينا على وجه اليقين نهاية تلك الفترة عندما استنجد امبراطور الدولة الرومانية الشرقية بملك الحبشة لكى يحمى مسيحيى اليمن من الفناء على يد ذى نواس اليهودى ، وكيف تم ذلك على يد القواد الأحباش الذى حاول أحدهم (أبرهة الأشرم) غزو مكة فاندحرت جيوشه .

تدخل الفرس بعد ذلك مباشرة فعاد الأحباش إلى بلادهم فى عام ٥٩٠ الميلادى وكانت تلك نهاية السيطرة الحبشية فى بلاد العرب ، وما أن جاء عام ٦٠٢ الميلادى حتى كان نفوذ الفرس قد شمل جميع أنحاء الجزيرة العربية واستمرت اليمن تحت حكمهم المباشر حتى العام الثامن من الهجرة (٦٣٠ ميلادية) حين اضطرهم الزحف الإسلامى إلى الانسحاب .

بدأ محمد عليه السلام دعوته إلى الإسلام سرا (عام ٦١٠ ميلادية) فى بداية الأمر، لايعلم بها إلا أقرب المقربين، ثم أمره سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة (فاصدع بما تؤمر) (الحجر ٩٤) (وانذر عشيرتك الأقربين) (الشعراء ٢١٤) (عام ٦١٣ ميلادية) وهنا بدأت هذه الجماعة الصغيرة تتعرض للمحنة من اجتماع كلمة قريش على إيذاء المسلمين.

(فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مايصيب أصحابه من البلاء وماهو فيه من العافية، بمكانة من الله ومن عمه أبى طالب، وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت فى الاسلام [1]). (٦١٥ ميلادية) (السنة الخامسة بعد النبوة).

ويجدر بنا أن ننتظر هنا برهة قصيرة، لكى نتأمل السبب الذى دعاه عليه السلام إلى اختيار الحبشة دون غيرها لهجرة أصحابه، فلقد ذهب الكتاب فى هذا الأمر مذاهب شتى، وحملوا الحديث فوق مايحتمل من معان فى الوقت الذى تستقيم فيه الأسباب مع أبسط البديهيات.

محمد وصحبه يؤمنون ويدعون إلى عبادة الله ونبذ الوثنية وتحطيم الأصنام وينادون فى الناس بالدين الحنيف الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، جماعة صغيرة فى مكة تنادى بهذا الأمر الخطير فى وسط محيط من القبائل التى تدين بالوثنية وتعبد الأصنام.

لم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية، لأنها كانت ترفض دعوته، وتعلن ذلك فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٩٢ (عبد السلام هارون).

بدينها الوثنى ، وكذلك لم يفكر النبي فى الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب الذين يعتنقون الديانات اليهودية والمسيحية لأن كلا من الفريقين كان ينازع الآخر وينافسه فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا يقبلان منافسا ثالثا خصوصا إذا كان من العرب الذين يتعالون عليهم ويقولون عنهم — « ذلك أنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » (آل عمران ٢٥) — أما اليمن — وكانت مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى — فلن يطمئن الرسول إلى الالتجاء اليها ، وقد برهنت الأيام على بعد نظره .

وكذلك كان شأن الحيرة التى كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة ، اما الشام فهى بعيدة كذلك ، ثم أن كلا من الشام والحيرة كانت أسوقاً هامة لتجارة قريش ، وكان لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منتظمة [١] فأين يذهب أصحاب محمد عليه السلام إلا إلى بلاد ذلك الملك النصرانى ، الذى يؤمن بالله وبكتابه ويتبع ماجاء به عيسى عليه السلام من هدى ، وبمملكته (قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) أين يجد الرسول عليه السلام لصحبه مكانا أكثر أمنا وسلاما ، وليس أدل على ذلك من قوله « وهى أرض صدق »ولا نعتقد أن لهذه الحادثة تفسيرا أبسط وأصدق من هذا التفسير .

كما أن الحبشة هى أقرب البـــلاد المسيحية التى يحكمها ملك مسيحى الى الجزيرة العربية والسفر إليها أهون أمراً وأسلم عاقبة ، إذ أنه لا يزيد عن كونه عبور البحر وهو مما لا شك فيه أسلم من اختراق الجزيرة العربية شمالا أو جنوبا خلال القبائل العربية المعادية ، وليس أقل من ذلك أهمية فى سبب اختيار الحبشة تلك العلاقة الطويلة التى سبق أن فصلناها بين الحبشة والجزيرة العربية ، وتلك الصلة التى توطدت بين الكثيرين فى الجانبين خلال الرحلات التجارية إلى أكسوم .

---

(١) تاريخ الاسلام — الجزء الأول — للدكتور حسن ابراهيم حسن — ص ٨٧ .

وكان عدد المهاجرين الأوائل فى أرجح المصادر أحد عشر ، منهم عثمان ابن عفان رضى الله عنه ومعهم بعض زوجاتهم ، ثم تتابع المسلمون فيما يطلقون عليه الهجرة الثانية ، ومنهم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومنهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه فكان من لحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا سوى زوجاتهم وأبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا أو ولدوا بها ، ويقدر البعض مجموع كل هؤلاء بستمائة مسلم ، وامتدت إقامتهم فى الهجرتين الأولى والثانية بالحبشة حوالى ستة عشر عاما .

* * *

لم تسترح قريش لما لاقاه مهاجرو المسلمين من أمان فى كنف امبراطور الحبشة فأوفدوا إليه رسولين هما عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص وكانا من التجار اللذين سبق لهما السفر إلى أكسوم ، وخبروا الأحباش . وجمعوا الهدايا للنجاشى وبطارقته ، وعندما بلغا النجاشى قالا له « أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا وأنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وعشيرتهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » فاستدعاهم النجاشى كما استدعى أساقفته (فنشروا مصاحفهم حوله) وسأل المسلمين : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من الملل ؟ .

فأجابه جعفر بن أبى طالب « أيها الملك ، كنا قوم أهل جاهلية ، ونعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث وأداء — الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف

عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » .

وعندما سألهم النجاشي عن علاقة دينهم بالنصرانية ، قرأ عليه جعفر سورة مريم فبكى النجاشي وأساقفته وقال النجاشي « إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » ونظر إلى رسولى قريش قائلا : « انطلقا . فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون »[1] .

* * *

تحليل الخلافات بين المؤرخين فى تفاصيل الهجرة إلى الحبشة :

وبهذه القصة تبدأ الخلافات بين المؤرخين ومراجعهم ، وأولى هذه الخلافات أن ابن هشام ذكر أن عبد الله بن أبى ربيعة كان أحد الرسولين ، بينما يقول (صاحب المواهب) أن الذى ذهب مع عمرو بن العاص هو عمارة بن الوليد ، وترد بعض المراجع على ذلك بأن قريشا أرسلت فى أمر من هاجر الحبشة مرتين ، ذهب أحدهما فى الأولى وذهب الثانى فى الثانية[2] .

ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن هذه القصة موضوعة — بدليل أن الصيام ورد فيها وهو لم يشرع إلا بعد الهجرة إلى الحبشة . وبغير ذلك من الأدلة[3] .

وللقصة بقية تتصل أطرافها بعضها ببعض ، ومنها ما يتعلق بما نحن بصدده وهى أن النجاشى عندما تسلم كتاب الرسول يدعوه فيه إلى الإسلام (كما

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٨ (عبد السلام هارون).
(٢) ص ٣٣ السيرة الحلبية الجزء الثانى
(٣) ص ٧٦ فجر الإسلام تأليف الأستاذ أحمد أمين .

سيأتى ذكره فيما بعد) (وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم وشهد شهادة الحق . وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك)[1] نستبق الحوادث ونذكر هذا الحادث فى هذا المكان لأن هناك رواية أخرى تنسب إلى السيدة / عائشة رضى الله عنها من أن هذا النجاشى (أصحمه) كان أبوه ملكا على الحبشة وهو صبى صغير ، فقتل أبوه واستولى عمه على الملك وباع الصبى إلى رجل من العرب من بنى ضمرة ومكث ببلاد العرب مدة مكنت له من لغتهم وعاداتهم ، وتمضى الرواية فى شرح الظروف التى عاد فيها هذا الصبى عندما كبر وصار ملكا على الحبشة ، ويدلل المتحدثون بهذه الرواية على السبب الذى من أجله عطف النجاشى على مهاجرى المسلمين[2] .

وعلى هذا النحو يمضى التضارب بين أقوال المؤرخين العرب ، فنذكر بعض الحوادث فى شىء كثير من التفصيل الذى يخرج بها عن حد البساطة والتصرف الطبيعى ، ويروى عنها قصة طويلة ذات مقدمات ونتائج .

ومما يلفت النظر مارواه الطبرى (١ / ١١٨٢) « خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سرا ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوه حتى انتهوا إلى الشعيبة ، منهم الراكب والماشى ، ووفق الله للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان مخرجهم فى رجب فى السنة الخامسة من حين نبىء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر ، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً ، وإيراد قصة الهجرة على هذه الصورة يجعل منها خطة سرية للهرب ، وعندما أحست قريش بها طاردوهم فلم يدركوهم .

عاد هؤلاء المهاجرون بعد فترة قصيرة لاتتجاوز بضعة شهور ، وجاء

---

(١) ص ١٥٧ من نهاية الأرب الجزء الثامن عشر ، وص ٢٩٣ من السيرة الحلبية .
(٢) ص ٣ السيرة الحلبية ج ٢ ، ص ٢٥٢ الجزء السادس من نهاية الأرب.

فى الطبرى مستندا إلى كتب السنة (١ / ١١٩٢ ومابعدها) أن مسلمى الحبشة بلغتهم حادثة الغرانيق التى افترى فيها الكفار على النبي ، وادعوا أنه قال « تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى » والغرانيق هى الأوثان التى كانت تعبدها قريش والعرب أيام الجاهلية ،أنه نتيجة لذلك أسلمت قريش فأيقن المهاجرون أنه لم يعد هناك مايدعو لبقائهم بالحبشة فعادوا سراعا ، ولكن سرعان ما كشفوا حقيقة الغريه فعادوا ثانية إلى هجرتهم ، وزاد عددهم فى الهجرة الثانية إلى مايفوق الثمانين مهاجرا ومعهم بعض نسائهم ، وخرج معهم فى هذه المرة جعفر بن أبى طالب .

ولما تعددت الروايات ، ذهب بعضهم إلى أن الهجرة الأولى ما كانت إلا وفدا إسلاميا بعثه الرسول (ص) إلى ملك الحبشة ليتعرف مدى استعداد النجاشى لقبول المهاجرين ، ولذلك كان تكوين الوفد شاملا لشخصيات ذات مؤهلات معلومة ، فمنهم التاجر ، والمتكلم ، وصاحب النفوذ ، والخبير بالحبشة وأهلها ، واستغرقت بعثتهم فترة قصيرة عادوا بعدها ليبلغوا استعداد النجاشى لاستقبال المهاجرين ورعايتهم [1] واستمرارا لما يذهب فيه البعض بهذه الرواية ، أخذت الهجرة إلى الحبشة وماجرى حولها من أحداث ، صورة الوفود السياسية ، مرة من المسلمين أعقبتها بعثة من عند النجاشى لكى يستوثق من أخبار النبي قبل أن يصرح بقبول المهاجرين ، تلك البعثة التى ورد ذكرها فى بعض المراجع والتى ضمت عددا كبيرا من القساوسة والرهابين ، والتى يقال إنهم عندما رأوا الرسول وسمعوا القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشى وأخبروه بما شاهدوه .

ثم تلا ذلك بعثة ثالثة من قريش تطلب من النجاشى إعادتهم ، ثم ذهاب وفد رابع من المسلمين الذين يحملون كتاباً من الرسول إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام .

---

(١) ص ٧٧ بين الحبشة والعرب للدكتور عبد المجيد عابدين .

وفى رأينا أن إيراد الحوادث على هذه الصورة أكثر مماتحتمله ظروف ذلك العهد ولا تخلو من طابع القصص . وأن مانعلمه عما كان يعانيه النبي ومن معه من المسلمين الأوائل من شدة وقسوة من قريش ، دفعهم إلى الهجرة إلى الحبشة حيث يوجد بها ملك (لايظلم عنده أحد) . ولاشك فى ضرورة تدبير تلك الهجرة والقيام بها فى سرية تامة ، الأمر الذى مكنهم من النجاة من مطارديهم .

ومما لا جدال فيه أن حالة المسلمين فى تلك الفترة العصيبة ، لم تكن من الهدوء والأمن والاستقرار بحيث تجعلهم يرسلون وفدا يفاوض النجاشي ويستأذن منه .

* * *

وقرأنا لبعض الكتاب تحليلا يشككون فيه حتى بوصول المهاجرين إلى النجاشي وعاصمة ملكه ، ويحاولون إثبات نزول هؤلاء المهاجرين عند أحد الملوك التوابع يقال له (بحر نجش) أى ملك الساحل ولسنا على بينة من السبب الذى يدفع هؤلاء الكتاب إلى إبعاد هذا الفضل الكبير عن النجاشي ، ولكننا إثباتا للحقيقة نأتى فيما يلى بنص ماجاء فى سيرة ابن هشام لباقى القصة ومنها يتضح بجلاء أن مكان هؤلاء المهاجرين كان قريبا من النيل الأزرق فى قلب الهضبة حيث كانت عاصمة النجاشي الكبير .

فوالله أنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه ، فوالله ما علمنا حزنا حزناقط كان أشد علينا من حزن حزناه ، عند ذلك ، تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتى رجل لايعرف من حقنا ماكان النجاشي يعرف منه ، وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سنا فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ، ثم سبح عليها حتى

خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده ، فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير وهو يسعى . فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي .

وأهلك الله عدوه ومكن له في بلاده ، واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى عليه وسلم ، وهو بمكة »[1] وكان ذلك في عام ٦٣٠ ميلادية (السنة الثامنة الهجرية) .

* * *

تقول المصادر العربية أن هذا النجاشي كان اسمه (أصحمه) ومعناه باللغة العربية (عطية) وجاء اسمه في بعض المراجع الأجنبية (ايللا صحم Ella Saham)[2] ويشك بعض الكتاب في وجود مثل هذا النجاشي أصلا لعدم ورود ذكره في سجل الملوك (كبرا نجست) الذي يحوي أسماء ملوك الحبشة ، ولست أجد لهذا الشك من سبب خصوصا وأن المؤرخين يتلهفون على العثور على أي سند مكتوب في تلك العصور التي ندر فيها تسجيل الحوادث وليس من ديدنهم تكذيب أي خبر مكتوب إلا إذا تعارض مع المنطق أو نقضه خبر آخر أقرب إلى التصديق .

ونعتقد أن النص الإسلامي غاية في الوضوح وقريب إلى المنطق ، ولم يظهر من المراجع الموثوق بها ما يمكن أن ينفيه أو يدعو إلى التشكك فيه .

* * *

ومع ذلك فنود أن نشير إلى ما جاء في بعض المراجع لعلنا نزيل بعض اللبس . فان (هارتمان Hartmann) قد رجح أن يكون اسم النجاشي ايللا صحم وله ولد تلاه على العرش يقال له أرمحه .

---

(١) المرجع السابق — تهذيب السيرة .
(٢) Hartmann

ثم جاء فى تاريخ الطبرى (١ / ١٢٦٩) أن كتاب الرسول إلى النجاشى الذى أرسله مع عمرو بن أمية الضمرى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة . . . »

وجاء رد النجاشى يقول « إلى محمد رسول الله . من النجاشى الأصحم ابن أبجر . . . »

ويروى السير بدج فى الصفحات ٢٧١ وما بعدها ـ قصة الهجرة والكتب المتبادلة ويذكر اسم الملك فى بعضها أصحمه (ايللا صحم) ثم يعود ويسميه أرمحه ـ ثم يستمر فى تسميته أرمحه فى باقى روايته .

ولو رجعنا إلى سجل الملوك الذى نقله السير بدج عن (بروس Bruce) و (سولت Salt) و (سجل المتحف البريطانى List, BRIT - Mus. OR 821 fol 28b) لوجدنا فى المرجع الأخير ذكرا لملك يدعى ايللا أصحمه ولكنه لا يتفق فى الزمن مع وقت الهجرة بل يسبقها ، أما أرمحه فقد ورد فى باقى المصادر موافقا لنفس ذلك العهد الذى نحن بصدده . وهذا فيما يبدو هو السبب الذى جعله يستمر فى ذكر روايته مستعملا اسم أرمحه .

ولكننا بمقارنة المراجع الثلاثة لسجل الملوك نجد اختلافا كبيرا وتضاربا عجيبا فى الأسماء والتوقيت والتسلسل وفترة حكم كل ملك من الملوك ـ الأمر الذى أدى بالسير بدج نفسه إلى الحكم «بأن سجل الملوك الأصلى لا قيمة له، إذ أنه وضع بقصد ملء الخانات الشاغرة فى تسلسل الملوك ـ ولقد أظهرت التواريخ ومقارنتها مع المعلومات المعروفة عن تاريخ العالم تضاربا كبيرا »[1]

ولا يسعنا أمام كل ذلك إلا الاعتماد على النص الإسلامى ، مع التسليم بأن الاتصال الأول كان مع النجاشى أصحمه ، والاتصال الثانى مع النجاشى الذى خلفه وهو ابنه أرمحه .

---

(١) ص ١٩٨ A history of Ethiopia by Sir E. A. W. Budge

وإذا ما أبعدنا كل ماتعارض من نصوص واختصرنا الرواية إلى أركانها الرئيسية لوجدنا أنه مما يتفق مع المنطق ، أن النجاشى أصحمه عندما علم مبادىء الدين الإسلامى ووجدها تدعو إلى ماتقوم على أساسه الديانة المسيحية قدر هذا الدين حق قدره وصدق بما جاء به وبذلك أحسن وفادة المهاجرين وأكرمهم ، وتبادل الرسائل والهدايا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهناك فرق كبير بين الاعتراف بدين هؤلاء المهاجرين وتقديره له وبين اعتناق الإسلام .

كذلك ذكر الطبرى[1] وغيره من المراجع أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل فيمن أرسل إليهم من الملوك ، كتابا إلى النجاشى يدعوه فيه إلى الإسلام ، فلو أن هذا النجاشى كان قد أسلم حسب الرواية الأولى لما كان هناك محل لإرسال الكتاب إليه .

كذلك لا يجوز أن نستهين بالأثر الذى يتركه اعتناق ملك لدين جديد ، فليس هذا بالأمر الذى يمكن أن يمر بسهولة دون أحداث أو عواقب يكون لها أثر يستحق التسجيل الأمر الذى لم يرد له أى ذكر فى المراجع الثابتة عن ذلك العهد .

ونعتقد أن الرواية الصحيحة هى ما أتينا على ذكره مما جاء فى (تهذيب سيرة ابن هشام) وبها مايكفى من التقدير والإجلال للنجاشى أصحمه ، الأمر الذى — يجعل النبى الكريم يصلى عليه صلاة الغائب عندما علم بنبأ وفاته — اعترافاً بفضله وكرمه (عام ٦٣٠ م) ، بل ويجعل من إرسال النبى عليه السلام كتاباً آخر يدعوه إلى الإسلام عملا له معنى ، يستقيم مع المنطق السليم .

* * *

(١) ذكر الطبرى كتاب النبى إلى النجاشى ، ولكنه لم يذكر قصة مبعوثى قريش إلى النجاشى — التى جاء ذكرها فى سيرة ابن هشام كما تقدم .

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة ، نود أن نشير إلى ماذكره بدج عن قصة اسلام النجاشي التي جاء ذكرها في بعض المصادر الإسلامية حيث قال : « بالرغم مما يعرف عن الأحباش من تعصب وكبرياء ، فان النجاشي عندما سمع بانتصارات محمد وأنه يفرض اعتناق الاسلام أو القتل ، ولم يكن النجاشي في حالة تسمح له بالتعرض للحرب مع محمد وتعريض شعبه للقتل وسفك الدماء ـ فانه وجد من حسن السياسة أن يتفادى الهزيمة بأن يعلن اعتناقه للاسلام وأرسل الهدايا إلى الرسول ـ وبذلك أنقذ بلاده ، وأصبحت الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي حافظت على مسيحيتها سالمة من العدوان لعدة قرون بعد حكم أرمحه (١)

ولا يسعنا هنا أيضاً إلا أن نستبعد هذا التفسير ، ونظل على ما أبديناه من رأى وهو أن النجاشي لم يسلم ، ولكنه احترم الاسلام والمسلمين وقدرهم وأن العلاقة بين المسلمين وبين النجاشي ما كانت لتصل إلى حالة الحرب للصلات الطيبة التي كانت ماثلة في الأذهان وما يؤيد ذلك من أن الرسول عليه السلام قال (اتركوا الأحباش ماتركوكم) .

(ص ٢٩٤ ـ ج ٣ ـ السيرة الحلبية) .

* * *

ولقد ثار جدل آخر حول كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي وإمكان التوفيق بينه وبين ما جاء ذكره في السيرة التي اقتطفنا جزءاً منها ، فقد جاء فيما ذكره ابن اسحاق أن كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة كان كما يلي (٢) :

« من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، إني أحمد إليك الله الملك القدوس والسلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم البتول

(١) ص ٢٧٣ سير بدج

(٢) ص ٣٧٩ من صبح الأعشى للقلقشندي ـ الجزء السادس .

الطيبة الحصينة ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فانى رسول الله وأنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فأقبلوا نصحى ، وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى » .

ويمتد الخلاف فى موضوع كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى على أهميته ، حينما تذكر بعض المراجع أنه أرسله مع ابن عمه جعفر ابن أبى طالب ، فان البعض الآخر يقول إن رسول النبى إلى النجاشى كان رجلا من بنى ضمرة يقال له عمرو بن أمية ، ويربط هؤلاء بين هـــذا المندوب وبين قصة إقامة النجاشى أصحمه بين بنى ضمره فى شبابه ، لذلك كان القصد من اختيار هذا المندوب من تلك العائلة بالذات ، أن يؤتى أثره فى نفس النجاشى .

وليس ببعيد أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسل كتابين ، أحدهما مع ابن عمه جعفر[1] ، والآخر مع عمرو بن أمية الضمرى ، وهنا قد يستقيم ما ذكرته بعض المصادر من أن حوادث الهجرة قد وقعت فى عهد ملكين متعاقبين من ملوك الحبشة أحدهما أصحمه والآخر أرمحة بن أصحمه ـ ومن هنا حدث الالتباس فى الأسماء .

وكما أنه من الممكن التوغل فيما يمكن أن تفسر به هذه النصوص على أنها تعارض بعضها البعض ، وما قد يستتبع ذلك من التشكيك فى صحة الروايات،

---

(١) عند مقارنة التواريخ يجدر الملاحظة أن جعفر لم يكن بين الفريق الأول من المهاجرين كما جاء فى السيرة كما أن هناك بعض المراجع الأخرى التى تعطى نصا آخر لكتاب الرسول (صلعم) الذى أرسله مع عمرو بن أمية الضمرى (راجع ص ١٥٧ من الجزء الثامن عشر من نهاية الأرب) وأيد الكتاب تسلم لغير النجاشى السابق .

فانه من الميسور هنا أيضا أن نفترض أبسط الفروض ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث برسالته مع جعفر عند هجرته ليسلمها للنجاشي وليس ببعيد أن يكون قد أرسل رسالة أخرى إلى النجاشي بواسطة عمر بن أمية الضمرى ، وبهذه التفسيرات البسيطة تكتمل الصورة السليمة لما جاء فى جميع المراجع الثابتة ، ولا محل بعدئذ للتعقيد والتشكيك ، خصوصا وأن العناصر الاساسية للحوادث سجلت فى وضوح على نحو ماعهدناه من العناية بتسجيل الأحداث منذ نشأة الإسلام ، فليس هناك شك فى هجرة المسلمين إلى الحبشة ومن بينهم جعفر بن أبي طالب ، وليس بمستغرب أن يحمل معه كتابا من النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي مشابها لتلك الكتب التى حرص النبي على إرسالها للملوك ، وليس بمستغرب على النجاشي أيضا أن يستقبل الكتاب بروح طيبة ويقدر الدين الإسلامى الجديد حق قدره ، ويرد رسل قريش الذين جاءوا يطالبون بعودة المهاجرين ، على أعقابهم فاشلين ، ويكرم وفادة هؤلاء المهاجرين ويحميهم مدة إقامتهم بالحبشة التى امتدت ستة عشر عاما .

* * *

ابتداء دخول الإسلام :

لم تكن الحبشة ضمن الممالك التى وجه المسلمون إليها حملاتهم فى ذلك العهد الأول الذى شاهد الاندفاع العظيم للاسلام ؛ ويبدو أن ذلك راجع إلى عدة عوامل ، منها تركيز المسلمين على كسر شوكة الامبراطوريتين المجاورتين لبلاد العرب ، واللتين يخشى منهما على الدولة الإسلامية الناشئة وهما امبراطورية الفرس والامبراطورية الرومانية الشرقية ، وكذلك اعتبار المسلمين أن مصر أكثر أهمية من الحبشة لمركزها الهام وسبقها فى ميدان الحضارة والعمران ، ومن أهم الأسباب كذلك قرب عهد المسلمين بالعلاقات الطيبة التى كان للنجاشي السابق فيها فضل مشكور ، حتى أنه يروى أن النبي

نصح بترك الأحباش وشأنهم طالما أنهم لم يبدأوا بالعدوان (اتركوا الحبشة ماتركوكم) (١) ولكن بعد فترة من الزمن أخذ بعض القراصنة الأحباش يهددون تجارة العرب فى البحر الأحمر مما اضطر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى إيفاد حملة بحرية صغيرة لتأديبهم، ولكنها لم تكلل بالنجاح واستمر نشاط القرصان إلى درجة اضطرت المسلمين عام ٨٣ الهجرى إلى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لتلك العمليات بأن جردت حملة بحرية لاتخاذ مركز حربى على الشاطىء الغربى ، فاحتلت مجموع جزر (دهلك Dahlak) المجاورة لمدينة مصوع . وكان احتلال المسلمين لهذا المركز الممتاز بداية لاستيلائهم على باقى المراكز البحرية على الشاطىء الافريقى ، وعلى الانتشار التدريجى للاسلام فى شرق افريقيا .

* * *

عزلة الحبشة وقبائل البجه (Beja) :

قدمنا أن هزيمة الأحباش وجلاءهم على الجزيرة العربية كان بداية لعهد العزلة الطويل الذى خيم على بلاد الحبشة ، وكان لما ذكرناه آنفا من نزول المسلمين على الشاطىء الافريقى مزيدا من التمكين لهذه العزلة ، ولكن عاملا ثالثا دخل إلى الميدان وكان له أكبر الأثر فى اتمام الحصار وتدهور سلطة مملكة أكسوم . ذلك هو زحف قبائل البجة القوية وانتشارها من (مملكة النوبة) ووادى النيل إلى شاطىء البحر الأحمر حيث طاب لهم الجو والمرعى فتوغلوا فى الاريتريا وشمال الهضبة الحبشية إلى سواحل البحر الأحمر ، ولم يكن لمملكة أكسوم أى حول أو قوة للوقوف فى وجههم ، فاستولوا فى طريقهم على منطقة الحماسين ، مما اضطر كثيرا من الأحباش إلى الهجرة إلى الجنوب . ولكن أكسوم رغم ذلك بقيت عاصمة للبلاد الحبشية .

---

(١) ص ٢٩٤ من الجزء الثالث من السيرة الحلبية .

عزلة الحبشة وقبائل الاجاو (Agao)

انقطعت وسائل اتصال الحبشة مع وادى النيل غربا ومع البحر الأحمر شمالا وشرقا ، وانقطعت صلتهم بالامبراطورية الرومانية الشرقية والتجارة مع اليونان وعلاقاتها الثقافية معهما . واضمحلت جميع نواحى الحياة فى البلاد وعادت كثير من القبائل التى كانت قد اعتنقت المسيحية إلى وثنيتها الأولى . ولم تعد الحبشة بمستطيعة أن تحتفظ باستقلالها إلا فى المنطقة الجبلية فى مقاطعة تيجرى وتلك الأماكن الجنوبية الجبلية التى اضطروا إلى النزوح إليها حيث كانت تعيش قبائل (الاجاو Agao) الوثنية . وتكونت بذلك دولة الحبشة الجبلية الجديدة التى شملت أقاليم ومقاطعات ومناطق تيجرى — جوجام Gojam — وأمهرا Ambara — شوا Shoa .

امتدت مملكة الحبشة إلى تلك المناطق الجبلية الواقعة فى الجنوب وأخذوا ينشرون بين سكانها الوثنيين تعاليم الديانة المسيحية ولغتهم (الجعز Ge'ez) أو الجيز ومنذ ذلك الوقت بدأت تتكون دولة الحبشة الحقيقية التى تتميز بطابعها الخاص . الذى هو عبارة عن خليط متفاعل من طبقة الساميين وأهل البلاد الحاميين ومن بينها قبائل الاجاو الكثيرة العدد ، وتعددت اللغات والطوائف ، ولكن اللغات التى سادت هى لغات الساميين (الجعز والتجرية والأمهرية) .

* * *

متاعب الدولة المسيحية :

ويبدو مما كتب اليعقوبى والمسعودى أن مملكة أكسوم صادفتها صحوة استعادت فيها نفوذها إلى ساحل البحر الأحمر فى مواجهة اليمن فترة من الوقت ، وسيطرت أثناءها على كثير من الموانى ومنها دهلك وزيلع التى أصبح جميع أهلها من المسلمين ، وبالرغم من كل ذلك فقد كانت المملكة

الحبشية تلاقى كثيرا من الشدائد مع قبائل الاجاو التى اشتركت معها فى تكوين الدولة الجديدة ، فكانوا مصدرا للمشاكل حتى أصبحت حياة تلك الدولة عبارة عن حروب متتالية لاتنقطع ، مما أضعف سلطتها على الممالك الساحلية التى أخذت تستقل بنفسها تدريجيا ، بل أخذ سلطانها يمتد إلى داخل البلاد ، وكان الفضل فى سهولة تغلغل الإسلام فى هذه الفترة عائدا للمشاكل التى تسببها قبائل الاجاو لمملكتهم . وانصراف الملك إلى توطيد سلطانه بينهم ، الأمر الذى أدى بملكهم إلى الالحاح على بطريرك الاسكندرية لارسال مطران إلى الحبشة (وكان المركز خاليا وقتا طويلا) لعله يتمكن من تهدئة الحال واستقرار الأمور . وفعلا وصل المطران (أبونا دانيل) وكانت هذه الأحداث فى أواخر القرن العاشر .

ولقد لعبت الكنيسة دورا هاما وبذلت مجهوداً شاقا لمحاولة السيطرة على قبائل الاجاو وأدخالهم إلى الدين المسيحى ، ولكن الاجاو كانوا من القوة والصلابة بحيث كانت استجابتهم لهذه الدعوة عبارة عن تشكيل هذه الديانة الجديدة بالشكل الذى يتمشى مع تقاليدهم الوثنية القديمة ، وبقيت بها إلى الآن كثير من العادات التى لا تتفق مع المسيحية كتعدد الزوجات .

ولقد بذلت كنيسة الاسكندرية مجهودات ضخمة خلال القرون المتوالية دون جدوى واستقرت تلك المسيحية المحرفة فى البلاد ، أما أكبر اثر لنشاط الكنيسة فكان وقوفها إلى جانب الحكومة الملكية مما كان له أثرا فى تعزيز سلطة الدولة ومكنتها من المحافظة على كيانها .

وكان من نتائج نشاط الكنيسة ومجهوداتها أن ازداد عدد رجال الدين وانتشرت الكنائس والأديرة ، وكما زاد اعتماد الدولة على الكنيسة ازداد اعتماد الكنيسة على الدولة . ولم تكن الكنيسة تعتمد على كفاءة رجالها وتنظيماتها بقدر ماكانت تعتمد على قوة رجال الحكومة .

لذلك كانت الأزمات السياسية والحروب الداخلية التى تتعرض لها الدولة تؤثر فى قوة الكنيسة ونشاطها ، وعندئذ كانت تتهيأ الفرص أمام الإسلام للزحف والانتشار .

انتشار الإسلام :

وبالرغم من أن التاريخ عن هذه الفترة ظل غامضا ومتضاربا بالنسبة للجانبين المسيحى والاسلامى على السواء ، إلا أنه كما ظهر فيما بعد ، انتشر الاسلام انتشاراً كبيرا أثناء هذه الفترة بحيث شمل جميع نواحى البلاد فيما عدا تلك المنطقة الجبلية المعزولة ، بل وتعدى ذلك إلى سيطرته على منطقة شوا الجبلية كما سيأتى ذكره ، ولكن انتشاره هذا كان امتدادا عاما وزحفا طبيعيا تمتد به القبائل الاسلامية وتنشر ديانتها فى كل مكان ، دون تنظيم أو تعاون بين منطقة وأخرى أو بين جماعة وأخرى ، وكان لاتساع الرقعة وتعذر المواصلات أكبر الأثر فى ذلك ، ولم يكن منافسهم المشترك فى تلك الفترة من القوة أو الخطورة بحيث يدفعهم إلى الاتصال أو توحيد الجهود أو ضم الدويلات الإسلامية المتعددة بحيث تتكون منها دولة واحدة قوية ، واستمروا فى الاتساع على هذه الصورة حتى شملت مناطقهم أغلب مناطق الحبشة وسكانها، فى غير ما اتفاق أو تعاون أو حتى سياسة مشتركة ولكن تغلغل الاسلام فى هذه المناطق — كان من القوة بحيث أصبح انتزاعه من قلوب الناس فى حكم المستحيل . وأصبح وجوده حقيقة لا رجعة فيها . وسارعت القبائل الوثنية التى كانت فى تلك المناطق إلى اعتناق هذا الدين الناشىء المنتصر وقويت بهم شوكة الاسلام .

تمت كل هذه العمليات فى مدى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، وأصبح الاسلام يتحكم فى جميع المناطق الساحلية من أرخبيل الدهلك (مصوع) إلى مناطق الدناكل وبلاد الصومال وشمل قبائل البجة فى الشمال

وسيداما فى الجنوب وسلطنة ايفات فى شوا وسلطنة هرر ، وزاد على ذلك أنه بدأ فى تهديد الهضبة الجبلية التى تحصنت المملكة المسيحية وانعزلت فيها .

* * *

مجهودات الكنيسة الحبشية :

ولكن خلال تلك القرون المظلمة كانت المسيحية فى معقلها فوق الهضبة تتوالى عليها الصعاب والحروب الداخلية ، إلى أن تمكنت الكنيسة بعد مجهود شاق من توحيد القوى حول المسيحية ، وأصبحت الكنيسة المركز الذى تنتهى حوله جميع الخلافات ، ولقد استفادت الكنيسة الحبشية فى تلك الفترة فى تثبيت أقدامها واصلاح الأمور بين القبائل المتحاربة ، من الخدمات التى قدمها المهاجرون الأقباط الذين هاجروا من مصر هروبا من اضطهاد الحاكم بأمر الله (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) والذين يعود إليهم الفضل فى إحياء الحركة الأدبية والدينية فى البلاد[1] . وما دمنا قد تعرضنا لذكر الحاكم بأمر الله وما حدث فى عهده من اضطهاد ، أصبح لزاما علينا أن نفصل حقيقة الأمور التى حدثت فى عهده فى بعض التفصيل .

* * *

عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى :

وكان عهد الحاكم بأمر الله [2] متنافيا مع ماعرف عن الإسلام على مر العصور من سماحة وعدل مع النصارى واليهود على السواء ، فقد بلغ فى عهده إلى أقصى مايمكن من الاضطهاد للمسلمين ولغير المسلمين .

---

(١) ص ٥٦ Islam in Ethiopia by Trimingham

(٢) ص ٦٣ Islam and The Arabs Rom Landau

لقد كانت مصر ومعها باقى أنحاء الدولة الاسلامية تمر بمحنة عنيفة خلال حكم الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وكتب عنه الحافظ أبو عبد الله الذهبي فى تاريخه [1] (كان جودا سمحا ، خبيثا ماكرا ، ردىء الاعتقاد ، سفاكا للدماء قتل عددا كبيرا من كبراء دولته صبرا ، وكان عجيب السيرة ، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها ، فأمر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد والشوارع . . . وأمر النصارى بأن تحمل فى أعناقهم الصلبان وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته خمسة أرطال بالمصرى ، وأمر اليهود أن يحملوا فى أعناقهم قرامى الخشب فى زنة الصلب أيضا وأن يلبسوا العمائم السود . . . وأمر بهدمه من الكنائس) وقال الصابى [2] أن الحاكم عندما بدا أهل مصر فى التهكم عليه (استدعى القادة والعرفاء ، وأمرهم بالسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها وقتل من ظفروا به من أهلها . . . وأوقعوا النار فى أطراف البلد والحاكم يركب فى كل يوم إلى القرافة ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح) .

وقد أدعى الحاكم الالوهية وساعده على ذلك رجل يعرف بالدرزى (محمد بن اسماعيل) أوهمه بأن روح آدم عليه السلام قد انتقلت إليه . ومن هذا الطريق نشأت الطائفة الدرزية الشهيرة .

ولقد قتل الحاكم وزراءه وكبار رجال دولته ، وكان بينهم بعض الأقباط ومنهم وزيره وموضع ثقته (فهد بن ابراهيم — النصرانى) — وجاء فى أسباب قتله (أن هذا الوزير استبد فى أعماله وأثرى ثراء فاحشا على حساب الدولة والرعية وحابى المسيحيين وقربهم إليه وأسند إليهم المناصب الرئيسية فى الدولة واضطهد المسلمين . . . أما مايزعمه المسيحيون من أنه قتله لرفضه اعتناق الاسلام ، الاسلام ، وأنه بعد قتله أصبح شهيدا ولم تحترق جثته

(١) ص ١٧٨ الجزء الرابع من النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبو المحاسن .

(٢) ص ١٨٢ نفس المرجع :

فهى من خرافات المؤرخين وما أكثر ماتراه من خرافاتهم ، على أن الحاكم لم يقتل فهد لنصرانيته ، بل نراه يقتل كثيرا من المسلمين أيضا . ولم يقل أحد أن هؤلاء المسلمين أصبحوا شهداء . . [1]

لم يكن فى امكان المسلمين أن يهاجروا والحاكم يسيطر على جميع الأقطار الإسلامية، أما الأقباط فقد وجدوا خلاصهم فى الهجرة إلى المملكة الحبشية، وكان لهؤلاء المهاجرين أثر كبير فى معاونة الامبراطور والمطران على توحيد كلمة الدين المسيحى بين القبائل المتنافرة فى الحبشة والتفاف جميع القبائل حول الكنيسة . وبذلك توطدت دعائم الدولة الحبشية التى كانت فى أوثق الروابط مع الكنيسة .

وبعد زوال حكم الحاكم بأمر الله ، (فى عام ١٠٢١ م) عادت العلاقات الطبيعية إلى ماكانت عليه وزال الاضطهاد ، وعاودت بطريركية الاسكندرية صلاتها وتعزيزها ومعاوناتها للكنيسة الحبشية فزادت الأحوال فى الحبشة تحسنا واستقرارا ، مما كان له أكبر الأثر فى التمهيد للصحوة المقبلة ، التى بدأت فيها قوة مملكة الحبشة تعود إلى الظهور .

حكم الأجويين للحبشة (Agao)

سبق أن ذكرنا أن غالبية قبائل الهضبة الحبشية الذين يسكنون الجزء الجنوبى منها تنتمى إلى الاجاو ، وأنه عند انتشار الإسلام وتطويقه للبلاد من جميع الجهات واستقرار قبائل البجه فى الشمال ، اضطرت مملكة أكسوم أن تمتد إلى الجنوب حيث قبائل الاجاو ، وخلال الفترة التى سبق شرحها والأحداث التى توالت منذ القرن العاشر إلى بداية القرن الثانى عشر ، تمكنت أسرة (أجويه) من الاستيلاء على العرش فى عام ١١٣٧م ، وانتزعته من الأحباش القادمين من أكسوم ، والذين مكثوا على عرش البلاد قرونا عديدة توطدت أثناءها علاقتهم بالكنيسة وأرتبطت بها مصالحهم وأهدافهم

---

(١) ص ٤١ طائفة الدروز تأليف الدكتور محمد كامل حسين .

خلال تلك القرون وتعاونوا فى الكفاح على تعميم المسيحية فى بلاد الهضبة الحبشية .

لكل هذه الأسباب لم تكن الكنيسة مستعدة لتأييد «الأسرة الأجوية» الحاكمة الجديدة وثار الخلاف بين المطران والملك ، وأتخذ الصراع بينهما مظهرا طريفا إذا انتهى بتدخل سلطان مصر، الذى اضطر بطريرك الاسكندرية إلى ايفاد مطران جديد لهم يعترف بملكية هذه الأسرة الجديدة على الحبشة ومنذ ذلك الحين أخذ ملوك «هذه الأسرة يحاولون التقرب من الكنيسة .

ومن أهم ملوك هذه الأسرة (لاليبيلا Lalibella ١١٩٠ — ١٢٢٥) الذى جعل همه بناء عدد كبير من الكنائس تقربا من رجال الكنيسة الذين رفعوه إلى مرتبة القديسين .

ولكن الأمور لم تستمر بعد وفاته على نفس المنوال ، كما أنه لم يتمكن أحد من ملوك الاجويين من السيطرة الكاملة على جميع أنحاء البلاد بالصورة التى تخوله حمل لقب (ملك الملوك) ، فبالرغم من وجود أفراد هذه الأسرة على العرش ، فان المقاطعات المسيحية بقيت فى شبه استقلال ذاتى تحت حكم ملوكها ، وكان تغلغل المسلمين فى البلاد وكذلك تمرد قبائل الآجاو ، سببا فى جعل سلطة الملك الحقيقية لاتتعدى حدود العاصمة ، ولم تكن العلاقة بين الكنيسة والملك على مايرام .

وما أن جاء عام ١٢٧٠ حتى تمكن (يكونو أملاك Yekono Amlak) من الاستيلاء على العرش وانتهى بذلك حكم الأجويين ، وكان (يكونو املاك) ينحدر من عائلة أمهرية قديمة .

* * *

الفصل الخامس

تفصيل للمالك الإسلامية
حتى نهاية القرن الثالث عشر

استطردنا فيما قدمنا من بحث فى ذكر الحوادث التاريخية التى مرت بالحبشة فى تسلسل تاريخى ، وما كان فيها من مد وجزر بين المسيحية والاسلام ، متخذين من تاريخ السلطة المسيحية أساسا للتسلسل وقاعدة للبحث .

وأصبح الظرف مناسبا بعد ذلك لأن نجمع شتات ماتفرق بين مراحل البحث منذ نشأة الاسلام وانتشاره فى مختلف المناطق الحبشية ونحدد مواقعها ونبين أحوالها ومدى مالها من أهمية حتى نهاية القرن الثالث عشر .

شرحنا فى تفصيل واف ظروف الاتصال الأول بين الاسلام والحبشة فى عهد الرسول (ص) ، ثم ذكرنا كيف اضطر المسلمون لحماية تجارتهم وشواطئهم من القراصنة الاحباش أن يستولوا على جزر (الدهلك) المواجهة لمدينة مصوع وكيف جعلوا منها قاعدتهم الأولى ومركز انطلاقهم ، ومنها امتد نفوذهم حتى استولوا على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وكيف أخذ نشاط المسلمين يمتد وتتسع ممالكهم إلى الداخل حتى استولوا على أغلب الأراضى الحبشية وبدأت مملكة الحبشة القديمة فى عزلتها ، التى زادت على أثر زحف قبائل البجه من شاطىء النيل وانتشارهم فى شمال الحبشة حتى ساحل البحر الأحمر .

* * *

ولقد ساعد على انتشار الاسلام وتغلغله فى البلاد - كما انتشر فى مناطق أخرى من العالم - عدة عوامل تتبين فيما سيرد من تلخيص .

لم يدخل الإسلام شرق افريقية بحد السيف ، بل كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمنطق السليم أكبر الأثر فى اقبال الناس على اعتناق الإسلام ، وبالرغم من قلة المراجع التى تفصل الأخبار فى صدر الإسلام عن كيفية دخوله إلى افريقيا الشرقية ، إلا أننا قد نستنتج الكثير من العوامل بمقارنة ما كتب عن دخول الإسلام إلى مناطق أخرى من العالم ، وقد أشار إلى ذلك (فون كرمر Von Kremer -2- p. I-2) حين قال أننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسى والحربى الذى يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل فى جمعهم للأخبار ، وأن بيننا وبين ذلك التاريخ اثنى عشر قرنا ، لهذا تتناسب الدقة مع طول هذه الشقة على أن التاريخ الداخلى لتلك الفترة الهامة ، وكذلك تاريخ الكفاح بين الدين الجديد البسيط وبين الديانات القديمة ، يبين كيف تنوعت فيها المذاهب إلى حد التعقيد ، حتى أصبحوا لا يعلمون من حقائقها إلا الأمور السطحية (١) .

وكانت المذاهب الدينية المسيحية تناوىء بعضها البعض عند ظهور الإسلام ، وتعرض الناس لزعزعة إيمانهم نتيجة للاندماج فى الجدل المستمر ، وعندما ظهر الاسلام وجد فيه الناس وهم فى ضجرهم وحيرتهم (ملجأ من هذه المجادلات التى لا تنتهى ولا تعرف اللين والتسامح ، واستجابو إلى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة ، حقيقة الوحدانية (٢)) .

وكما أن هذه البساطة الخالية من السفسطة المذهبية كانت مغرية للمسيحيين وحببتهم فى التحول إلى الدين الاسلامى ، فانها ولاشك كانت أكثر اغراء

(١) الدعوة للاسلام للسير توماس ارنولد ص ٨٨ ، ٨٩ ترجمة . د . حسن ابراهيم
(٢) نفس المرجع .

الوثنيين الذين بدأوا يتصلون بالحضارة والعلم والمعرفة ، وكان عليهم أن يختاروا بين الاسلام فى بساطته وبين الديانة المسيحية التى أحالتها الكنائس والثقافات الهيلينية والرومانية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة معقدة مليئة بالشكوك والشبهات ، بعد أن كانت تعاليم المسيح الأولى بسيطة سامية لاتعقيد فيها .

كما أن الدين الاسلامى لم يعتمد فى انتشاره فى هذه العهود ومابعدها إلى سلطة دينية منظمة ، لها من السيطرة الروحية التى تتدخل تدخلا كبيرا فى طريقة حياة الأفراد وحريتهم ، ويقوم على هذه السلطة رجال الكنيسة والمبشرون ، الذين يمكنون لسلطانهم بابتكار المزيد من التعاليم التى لايتطلبها الدين ، الأمر الذى جعل سلطة الكنيسة تمتد إلى سلطة الدولة وترتبط الواحدة منها بالأخرى ، وبذلك أصبح المعتنق لهذه الديانة منقادا ، يصعب عليه التحرر من القيود التى لايقبلها عقله ، إذ أنه أصبح يخشى على نفسه من خروجه على تلك السلطة التى أصبحت مرتبطة بسلطة الدولة .

والدين الإسلامى على العكس من ذلك تماما ، لايعتمد على طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة ، فقد وجد المسلمون أن واجب كل فرد منهم أن يكون داعية لدينه ، وكل من يعتنق الاسلام يصبح ندا لاخوانه فلا يميز أحدهم عن الآخر إلا بالإيمان ، ولايوجد واسطة بين المسلم وربه ، وأصبح أمر ايمانه متروكا لشخصه ، مما جعله يحمل المسئولية بنفسه ، وبذلك يصبح أكثر تشددا واهتماما فى أداء واجباته الدينية ، وأشد تحملا للمصاعب فى سبيل تعلم مبادىء دينه وشعائره ، ويعتز بحريته التى تنمى فيه الاعتزاز بشخصيته وكرامته ، وجميع هذه الصفات ولاشك ، كانت أقصى مايتطلع إليه أفراد الشعوب الذين وقعوا فريسة لأنواع السيطرة ، ومنهم سكان افريقيا الذين تعرضوا خلال تلك العصور لأقسى أنواع الظلم ، وطبقت عليهم العبودية التى طمست انسانيتهم ، وتاجر الأجانب فيهم كالسلع - ارقاء يساقون سوقا إلى من يدفع ثمنهم .

ولقد كان فضل الاسلام عظيما عندما نادى بتحرير العبيد ومحاربة الرق، ولقد اتخذ فى ذلك خطوته الأولى التى تتفق وما تقتضيه الدعوة الجديدة من تعزيز ، بأن حمت كل من يعتنق الاسلام من الرق ، إذ أن الحرية الشخصية والكرامة الانسانية من مبادىء الاسلام الأولى .

ولقد وجد أفراد الشعوب الافريقية من أخلاق العرب الوافدين إليهم بحضارتهم ودينهم وتفوقهم فى مختلف نواحى النشاط ، لايفرقون فى المعاملة بين شخص وآخر إلا بالتقوى ، مما جعل أهالى المناطق الافريقية المختلفة يقبلون على اعتناق الدين الاسلامى جماعات وطوائف بأكملها ، ذلك الدين الذى يضعهم فى نفس المستوى ويرد إليهم كرامتهم فليس بينهم سيد ومسود ، فما تلبث طائفة منهم أن تختلط بالمسلمين حتى تدخل الاسلام .

* * *

ولعل أكثر المسلمين احتكاكا بالعناصر المختلفة من مسيحيين ووثنيين هم التجار الذين يتجولون ويجوبون المناطق المختلفة سعيا وراء التجارة ومصادر الرزق ، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الإسلام الذين انتشر على أيديهم أينما تغلغلوا فى افريقية ـ وكان لما يتصفون به من حسن المعاملة والصدق أثر كبير فى كسب الاحترام والثقة ، وعن هذا الطريق البسيط انتشر الاسلام انتشارا منقطع النظير .

* * *

كل هذا لايعنى أنه لم يكن هناك للاسلام دعاة ، بل يذكر لنا التاريخ عددا وافرا منهم ، وكثيرون كان لهم شأن عظيم ، ولكن كان كل منهم يعمل منفردا متطوعاً معتمداً على جهده الشخصى ، لايستند إلى مؤسسة تمده بالمال والقوة كما هو معهود فى الاساليب التبشيرية التى تتبعها الكنائس،

وأن كانت في العصور الأخيرة قد تألفت جماعات دينيه أخذت على عاتقها تنظيم نشر الدعوة الاسلامية وتثبيتها ، إلا أنها لم تبلغ في تأثيرها ماوصل إليه هؤلاء الأشخاص الأوائل الذين كانوا يعملون فرادى بجانب نشاطهم التجارى .

* * *

ومن الأسباب الهامة التي ساعدت على تغلغل الاسلام في البلاد الحبشية اضطراب الأحوال الداخليه ، فكلما زادت القلاقل بين ملك أكسوم واتباعه من حكام المناطق وقامت بينهم الحروب ، وأضطربت الأمور ، تهيأت الظروف للاسلام للتقدم ، وكلما ضعفت سلطة الكنيسة أو نشب خلاف بينها وبين ملك الحبشة ، زاد تغلغل الاسلام وهكذا ، ومن أبرز تلك الأسباب اعتماد المسيحية على ذلك النظام المرسوم المركز في الكنيسة ، فاذا شاءت الظروف وبقى منصب المطران خاليا فترة من الوقت ، أوكان المطران ضعيفا أو شاءت الظروف أن ينشب الخلاف بين المطران والملك ، فان أحد هذه العوامل كفيل بأضعاف سلطة الكنيسة واضطراب الأمور ، وهكذا على العكس في الاسلام الذى لا يعتمد ـ كما اسلفنا ـ إلى مثل هذا النظام .

* * *

هجرة المسلمين إلى الحبشة

الهجرة إلى شرق افريقية :

بالرغم مما سبق أن ذكرناه من اجتهاد المؤرخين العرب بكتابة التاريخ السياسى والحربى عن تلك العصور اجتهادا لا يعرف الكلال والملل ، فان ماورد في كتبهم عن شرق افريقيا كان ضئيلا متناثرا ، وجاء ذكره فيما ورد من مراجع بطريقة عرضية ، وأما ماعنيت بتفصيله بعض المصادر فقد جاء مشوشا يفتقر إلى الدقة شأن كل خبر مصدره انتقال الأخبار بالسمع والرواية

من شخص إلى آخر ، فلم تكن تلق أخبار شرق أفريقيا تلك الأهمية التي بذلها المؤرخون لتسجيل تاريخ الشام والعراق ومصر وجزيرة العرب التي كانت مصدر القوة ومنبع الحوادث في ذلك العهد ، ولكن بالرغم من كل ذلك فان القليل الذى وصل إلينا كاف لأن نستنتج منه المجرى الأساسى لتطور الأحداث وتسلسلها فى قدر لابأس به من الدقة .

* * *

وليس هناك من شك كثير فى أن الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين الذين استوطنوا السواحل ، ووطدوا مراكزهم فى شرق افريقيا كانوا من التجار العرب وعلى الأخص من أهل اليمن والجنوب العربى ، وليس هذا بالأمر الجديد ، فمنذ العصور القديمة وهم عماد التجارة والنشاط فى تلك البقاع ويكاد لاينافسهم فى التجارة فى هذه المناطق إلا أشقاؤهم الواردين من الخليج العربى ومن مسقط وعمان على وجه الخصوص ، وعندما بزغ فجر الإسلام أخذ هؤلاء التجار المجاهدون يتحلون بصفاته وآدابه وتعاليمه ، وأخذ أثرهم يزداد كلما ازدادت الصلات التجارية وزاد عدد المستقرين فى الشاطىء الافريقى الذى يتمتع بالخصب والهواء الطيب فوق مرتفعاته ، وساعد استقراره فى (القرن الافريقى) على تحكم التجار المسلمين فى تجارة جميع البلاد الداخلية فى وسط افريقيا ، مما كان يعود عليهم بالمزيد من الربح الوفير .

فى تلك العصور كانت دويلات الجزيرة العربية على الخليج العربى والمحيط الهندى تلعب دوراً كبيراً فى النشاط البحرى والتجارى ـ وظل أثره بارزاً حتى القرن التاسع عشر ، كما سيأتى تفصيله عند الكلام عن العصور الوسطى الحديثه ، ولكنه فى تلك العصور الأولى ابتداء من القرن السادس الميلادى كانت تجارة هذه البلاد العربية واسعة الانتشار عبر البحار وأخذت

توطد أقدامها وتستقر فى كثير من هذه الانحاء[1] كما تشير إلى ذلك كتب المؤرخين القدامى عن هذه العهود ، ووصل نشاط هؤلاء التجار إلى الشاطىء الافريقى الشرقى ونفذوا منه إلى داخل القاره ، وجاء ذكر طرف من أخبار هؤلاء العرب فى إحدى الكتب التاريخية القديمه التى عثر عليها البرتغاليون فى القرن السادس عشر من مدينة (كلوا Kilua) القريبه من زنجبار[2] .

وتقول هذه الوثيقة «من المهاجرين الذين قدموا من الشاطىء العربى للخليج الفارسى ، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين ، وجاء هؤلاء فى سفن ثلاث بزعامة سبعة أخوه هاربين من إضطهاد ملك الاحساء ، وهى مدينة قريبة من موطن قبيلتهم ، وأول مدينه بنوها هى مقديشيو التى إرتفعت فيما بعد إلى تلك القوه التى جعلتها سيدة على كل عرب الساحل ، ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم (الأموزيديج ويقصد الزيديين) من مذهب يختلف عن مذهب اللاجئين الجدد ، حيث كان الأولون من الشيعه والآخرون من أهل السنه ، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقديشيو ونفذوا إلى الداخل حيث إندمجوا فى السكان الأصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم» .

وجاء فى بعض المراجع تفصل أكثر وضوحاً بأن مدينة مقديشيو إنشئت حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة ، حينما أدى قدوم مهاجرين آخرين من الخليج العربى إلى إنشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها ناحية الجنوب ، وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى علياً ، وهو أحد الأبناء السبعة لأحـــد سلاطين شيراز ويدعى حسنا ولما كانت أمه حبشيه إزدراه أخوته ، وعاملوه معاملة قاسيه ، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن فى مكان ما . لهذا أبحر من جزيرة هرمز ومعه زوجته وأولادة وجماعة صغيره من أتباعه ، وسار متجها إلى

(١) ص ٣٣١ وما بعدها الدعوة للاسلام للسير توماس ارنولد .
(٢) ص ٣٧٨ نفس المرجع .

مقديشيو ، التى ينتمى سكانها إلى مذهب دينى يختلف عن المذهب الذى ينتمى إليه ، فمضى فى طريقه صوب الجنوب ، إذ سمع إن الذهب يوجد فى ساحل زنجبار ، وأسس مدينة كلوا ، وهناك إستطاع أن يحتفظ بمركز مستقل وأن يكون متحرراً من تدخل منافسيه المقيمين بعيداً عنه فى الشمال .

وتتفق تسجيلات جميع المؤرخين على أن العرب المسلمين قد أسسوا المدن ووطدوا أقدامهم على طول الساحل الشرقى لإفريقيا ، ولكن لقلة المعلومات التى أمكن الحصول عليها عن الأحوال فى داخل القاره ذهب بعضهم إلى أن الإسلام لم يتغلغل إلى الداخل إلا ببطء شديد وفى العصور الحديثه — ولكن ما سوف نصل إليه من وقائع هامه يثبت أن الاسلام قد تغلغل بسرعة ، وفى العصور الوسطى بالذات وبلغ فيها شأناً عظيماً .

* * *

ويأتى فى الأهمية بعد تجار المسلمين الذين إستقروا على الشاطىء الشرقى لإفريقيا فرق من المسلمين الذين هاجروا إلى إفريقيه خلال مراحل الصراع السياسى التى تعاقبت على الجزيرة العربية منذ الفتنة الكبرى التى بدأت فى عهد خلافة عثمان بن عفان .

فبانتصار بنى أميه وتأسيس دولة الأمويين ، حدثت معارك دموية بينهم وبين الهاشميين كانت آخرها تلك المعركة التى قتل فيها زيد بن على زين العابدين عام ١٢١ هجرى (٧٣٨ ميلادية) ، وتفرق أتباعه فى البلاد واستقر فريق منهم فى اليمن وأسسوا طائفه الزيديين التى كانت فيهم الأمامه إلى عهد قريب ، ومن هؤلاء الزيديين من هاجر إلى الشاطىء الأفريقى ، ومن تسلسل حوادث ذلك العصر يظهر أنهم كانوا ثانى الفرق العربية التى هاجرت ، بعد الفرق الأولى التى سبقتها إلى جزر الدهلك .

ولم يكن الزيديون وحدهم هم الذين هاجروا فى عهد الأمويين ولكن يبدو أن كثيراً من أهل الحجاز (وعلى الأخص من أهل مكه والمدينة) قد حذوا حذوهم بعد الحملات الحربية التى جردها الأمويون على المدينة وما لاقاه مسلموا الحجاز على أيديهم من قسوة وتنكيل .

وكما أن أتباع زيد كانوا من خيرة الأسر العربية، كذلك كان مهاجروا الحجاز من أعرق الأسر التى لم تكن ترضى بالحكم الأموى ، ومنها من كان ينافسهم فى المركز والحسب ، ويشير ما سوف يمر بنا من تاريخ عن ظهور ملك على مملكة شوا يقال له المخزومى نسبة إلى بنى مخزوم قبله القائد الشهير خالد بن الوليد ، وقد يكون بعض هؤلاء قد هاجروا إلى الحبشه بالطريق الطبيعى وقد يكون نتيجة لخلافهم مع بنى أميه وتنافسهم على النفوذ .

ولقد تكررت نفس الهجره وعلى نفس النمط عندما استولى العباسيون على الدولة الإسلاميه، وانتشر الأمويون وأتباعهم فى شمال إفريقيا والأندلس ومنهم عدد لا بأس به وصل إلى الشاطىء الافريقى .

* * *

الإسلام فى شمال الحبشة وقبائل البجه :

يتضح مما تقدم كيف انتشر الإسلام وسيطر على الشاطىء الشرقى لأفريقيا وكيف كان ذلك أول مراحل دخول الإسلام ، وأول العوامل التى أدت إلى عزلة دولة الحبشة المسيحيه .

وسبق أن أشرنا إلى قبائل البجه (أو البيجا Beja) التى انتشرت من وادى النيل إلى شاطى البحر الأحمر مستولية على الاريتريا وشمال الحبشه، وبذلك أتمت عزلة دولة الحبشة المسيحية ، ولأهمية الدور الذى تلعبه هذه القبائل فى تاريخ الحبشه وكثرة عددها وأهمية موقعها ، يجدر بنا العوده إلى الكلام عنها فى شىء من التفصيل .

كان لبلاد النوبه أوثق العلاقات مع مصر خلال جميع أدوار التاريخ وكانت تتأثر بما يجرى فى مصر من أحداث ، لذلك كان للفتح الإسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص أثر كبير على مملكة النوبه التى حاولت أن تقاوم هذا التيار الجارف ، ولقد نجحت فى صد أول حمله وجهها إليها المسلمون فى عام ٦٤٢ م ، ولكن المسلمين أعادوا الكره فى ٦٥١ وتمكنوا من التغلب على جيوش مملكة النوبه وتوغلت فيها حتى وصلت إلى عاصمتها وحاصرتها، وعقد

القائد العربى معاهدة (البقط) مع ملك النوبه تعهداً فيها بتبادل التجارة مما يضفى على هذه المعاهدة صورة التبادل الاقتصادى ، ولذلك اعتبرها بعض المؤرخين (معاهدة إقتصادية) . ويعتبرها البعض الآخر (هدنه) وينسبون كلمة (بقط) إلى الأصل اليونانى (Pactum) الذى يعرف باللغة الإنجلنزيه (Pact) ومعناه عهد وميثاق [1] .

* * *

ولقد ذهب اليعقوبى فى تاريخه (ص١٩٢ من الجزء الأول طبعة بيروت) إلى إطلاق إسم « مملكة البجة » على جميع تلك الأراضى التى كانت تمتد من جنوبى أسوان إلى البحر الأحمر ، وإن كان قد قسمها إلى خمسة ممالك تبدأ أولاها وتدعى نقيس (حد أسوان) إلى (حد بركة) عند الاريتريا والمملكه الثانيه تدعى (بلقين) ، والثالثة (بازين) والرابعة (جارين) ويبدو أنها كانت مملكة كبيره تمتد من (البحر الأعظم إلى حد بركه) من مملكة بلقين . والخامسة تدعى (قطعة) وهى آخر ممالك البجه .

ومما تجدر الإشارة إليه أن اليعقوبى يستمر فى سرد الممالك فيقول « أن المملكة السادسة هى (مملكة النجاشى) وهى بلد واسع عظيم الشأن ولهم مدن عظام وساحلهم دهلك ، ولم تزل العرب تأتى لهم بالتجارات ويؤدون له الخراج والنجاشى على دين النصرانية اليعقوبيه » .

ثم يعود ويذكر (مملكة الحبشة) ذكراً مستقلا ويقول أن لها مدينة يقال لها « ثبير » ويسمى ملك هذه المدينه « مزح » إلخ إلخ . وربما كان السبب فى هذا الفصل بين الإثنين فى ذلك العهد عدم إمتداد سلطان النجاشى على تلك المملكة بعد وقد يكون هذا الوقت هو الذى بدأت تمتد فيه مملكة أكسوم التى بها عاصمة النجاشى إلى الجنوب (كتب اليعقوبى كتابة حوالى عام ٨٧٢ م) .

---

(١) صفحة ٧٦ ـ من كتاب العصر المماليكى ـ للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور والصفحات ٢٧٦ ـ ٧٧ الجزء الخامس، صبح الاعشى ـ القلقشندى .

« وتدل الشواهد مما سبق إيراده من ظروف أن العرب قد اتصلوا بالنوبة والبجه إتصال تعاهد ومرور وانتقال وتجاره ، وإن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب ، كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرق السودان واستقروا فى أرض الجزيرة (مملكة مروى أو النوبه) ويبدو أن العرب قد اتصلوا إتصالا وثيقاً بالبجه فى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادى النيل وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليها تجاراً ، واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مغاور الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين ، ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم ، فهذة كلها عوامل مهدت للعرب سبيل الاختلاط أول الأمر بالبجه فى شرق السودان وساعدت على تعريب هذه المنطقة .

غير أن البجه لم يحافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم فى معاهداتهم فكثرت غاراتهم على جهات أسوان ، واشتد إيذاؤهم للمسلمين فيها فكانت للخليفه المأمون العباسى (٨٣١ م) وقائع إنتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد تبين شروطه مدى إتصال العرب بمنطقة شرق السودان :

١) أن تكون البجه من حدود أسوان إلى البلاد التى تمتد من دهلك وباضع ملكا للخليفه .

٢) أن يؤدى ملك البجه كل عام الخراج أو البقط على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار .

٣) أن يحترم البجه الإسلام وألا يذكروه بسوء ولا يعينوا احداً على أهله .

٤) ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول فى بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً .

٥) ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مقيما أو مجتازاً أو حاجا ، فهو آمن حتى يخرج من بلادهم ، (وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين

كانوا يذهبون إلى شرق السودان للتجارة والإقامة والمرور والحج) .

٦) إذا نزل البجه صعيد مصر مجتازين أو تجارا فلا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدى والقرى بحال .

واستمر هذا الاتصال فى عهد الخليفة المعتصم (٨٢٣ — ٨٤٢ م) والخليفة المتوكل (٨٤٦ — ٨٦٠ م) حيث نقض البجة العهد مرة أخرى وأغاروا على أعالى الصعيد مما أدى إلى قيام الحرب بينهم وبين المسلمين[1] .

ولذلك لم تهدأ الأحوال على حدود الدولتين ، واستمرت المناوشات بينهما بضعة قرون ، كان الدين المسيحى أثناءها منتشرا فى مملكة النوبة حتى جاء عهد الدولة الايوبية بمصر ومن بعدها المماليك ، حيث وجهت الحملات خلالها إلى بلاد النوبة ، وفى عهد الظاهر بيبرس ومن بعده السلطان الناصر قلاوون بلغت الحملات مبلغا عظيما من القوة ، وأخذت مملكة النوبة المسيحية فى التفكك حوالى عام ١٢٨٩ م ، وما أن جاء النصف الأول من القرن الرابع عشر حتى كانت مملكة النوبة المسيحية قد سقطت ، وبدأ الاسلام يستقر فى هذه الدولة (السودان) .

ومما تجدر ملاحظته أن مملكة النوبة هذه تتاخم ماتتكلم عنه فى هذه المرحلة من مملكة أكسوم والاريتريا ، وكان استمرار اتفاقهما فى الدين سببا لكثير من الاتصالات .

« ومما ساعد على تغلغل الاسلام فى بلاد النوبة ازدياد عدد المسلمين العرب الذين هاجروا واستقروا فى بلاد النوبة قبل ذلك بعدة قرون ، وكانت كثرتهم تقطن ضفاف النيل الأزرق ، وفى القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر خاصة بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماجهم مع العرب ولاسيما قبيلة جهينة الذين تزوجوا فى نساء هذه البلاد ونجحوا تدريجيا فى

(١) صفحات ١٣١ — ١٣٢ — ١٣٣ الدعوة للاسلام — تأليف سيرتوماس ارفولد ترجمة د . حسن ابراهيم حسن .

كسر شوكة الأمراء النوبيين ، ويخبرنا ، ابن بطوطة فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا فى وقته لا يزالون على المسيحية ، مع أن ملك مدينة دنقلة — تلك المدينة الرئيسية فى بلاد النوبة ، كان قد دخل فى الإسلام ، وذلك فى عهد الناصر » .

« ويظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفى بطء شديد وكانت الحياة الروحية فى كنيستهم قد انحدرت إلى دركات من التخلف ، وكان من الطبيعى أن ينشدوا ما يشفى غلتهم ويسد رمقهم الروحى ووجدوا ما ينشدونه فى الدين الإسلامى ، الذى حمل أتباعه الدليل على قوة حيويته وقتاً طويلا »(١) .

ولقد كان بقاء مملكة النوبة على دينها المسيحى حتى القرن الرابع عشر أكبر الأثر فى إيقاف تيار الزحف الإسلامى على الحبشة من الجهة الغربية ، أى من مصر عن طريق السودان ، وخصوصا فى تلك الأوقات التى كانت مصر فيه عزيزة الجانب متمكنة من قوتها .

بالإضافة إلى أن جوار الحبشة لهذه المملكة المسيحية جعل لها متنفسا تتصل عن طريقه بالعالم ، وتصل عن طريقه التجارة التى نشط فيها اليهود واليونانيون بجانب العرب ،

ولقد تسببت الحروب والقلاقل والمناوشات التى وقعت فى تلك العهود بين المسلمين فى مصر وبين بلاد النوبة والبجه ، فى ازدياد هجرة قبائل البجه شرقا فى اتجاه البحر الأحمر .

ومما تقدم يربط الكتاب بين قبائل البجه الحبشية وبين قبائل الهدندوه وبنى عامر وغيرهم من القبائل التى يقيم فريق كبير منها فى شرق السودان كما سبق ذكره ، واختلطت قبائل البجه مع قبائل (التيجرى Tigre) التى تنتشر وتكون غالبية السكان فى وسط الاريتريا وفى شمال الحبشة الحالية .

---

(١) ص ١٠٦ الإسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

ولكن قبائل التيجرى حافظت على لغتها الاصلية بالرغم من هـــذا الاختلاط .

* * *

بدأ انتشار الإسلام بين قبائل البجه عندما بدأ المهاجرون العرب فى الاستقرار فى مناطق المناجم ، وكان لاحتكاكهم بالمصريين واختلاطهم نتيجة للمعاهدات التى سبق ذكرها ، أثر كبير فى اعتناق كثير منهم للإسلام.

ويقول المقريزى أن التجار العرب وأصحاب المناجم كان لهم نشاط واسع فى أقاليم البجه الشمالية ، ويبدو أن تأثيرهم كان كبيرا على رؤساء القبائل مما مكنهم من بناء المساجد ، وجاء ذكر أحد هذه المساجد فى العاصمة (هجر) والآخر فى سنكات ، فى بعض المراجع ومنها الطبرى .

وكتب المسعودى فى (٩٣٥ م) أن (الحدرات) وهى فرع من البجه قد اعتنقت الإسلام تحت تأثير المسلمين الذين يعملون فى المناجم الموجودة فى هذه المناطق ولكن باقى البجه لا زالوا وثنيين ، وأيده فى هذا اليعقوبى وابن حوقل (٩٧٧ م) . وأضاف ابن حوقل أن قبيلة أخرى من القبائل الكبيرة تعيش فى (وادى بركة) عند الأريتريا بها كثير من المسلمين وعليها ملك مسلم[1] .

وبهذا يتضح أن الإسلام قد بدأ يأخذ مكانته بين قبائل البجه فى القرن العاشر الميلادى .

وعندما جاء القرن الثانى عشر كتب بعض المؤرخين العرب أمثـــال الإدريسى (١١٥٤م) وغيره من الكتاب بأن بعض قبائل البجه كانت لاتزال تعتنق المسيحية ويبدو أن هذا راجع إلى سابق صلتهم بمملكتهم الأصلية فى بلاد النوبة المسيحية .

وعندما جاء المقريزى (١٣٦٦ - ١٤٤٢) وذكر أن قبائل الحدرات

---

(١) ص ١٥ من كتاب الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام . وكتب اسم القبيلة المذكورة حدارب Hadareb بينما يكتبها اليعقوبى حدرات .

وسكان الساحل قد اعتنقوا الإسلام ، فإنه يؤيد دخول الإسلام إلى قبائل البجه وزيادة انتشاره بالرغم من وجود بعض القبائل المسيحية ، ولكنه يذكر أيضاً أن غالبية قبائل البجه كانت لا تزال وثنية[1] ومن تسلسل تلك الأخبار يتضح جليا أن الإسلام كان يتقدم تدريجيا بين قبائل البجه .

ونكتفي في هذه المرحلة بما ذكرناه عن قبائل البجه وتاريخها إلى القرن الثاني عشر على أن نعود إلى ذكرها كلما جاءت مناسباتها فيما يلي من تاريخ الحبشة .

مملكة شوا الإسلامية :

تألفت من المهاجرين إلى الحبشه ومن القبائل التي اعتنقت الإسلام خلال تلك القرون ممالك وسلطنات ناشئه ، بدأت صغـــيرة ثم أخذت في النمو والاتساع وازداد شأنها كلما توطدت أقدامها .

وكما سبق أن قدمنا لم يدخل الإسلام إلى الحبشه عن طريق غزو عسكري أو حروب كما حدث في الفتوحات الإسلامية الكبرى التي تغلبت فيها الدولة الإسلاميه على الدول المجاوره ودخلت إليها حاكمة بجيوشها وسلطتها وتنظيماتها وأساليبنا الجديدة في الحكم ، ولكن دخول الإسلام إلى الحبشه كان تغلغلا هادئاً ، بدأ بالمهاجرين الذين ينشرون الدين الجديد بين القبائل الوثنيه بمختلف الأساليب ، وكان لتفوقهم الحضاري أكبر الأثر في استجابة الكثيرين من أهل البلاد إلى الدعوه .

لذلك عندما تكتلت الجماعات الإسلاميه في أماكنها المتباعدة في تلك البقاع الشاسعة . لم يكن بين تلك الجماعات إتصال أو اتحاد ، بل أخذت كل منها تنمو مستقله عن الأخرى ، وبعد عدة قرون أصبحت ممالك وسلطنات تتأخم بعضها البعض ، يجمعهم الدين الإسلامي ، وتفرقهم الخلافات المذهبيه وتنافس الأسر الحاكمة ، فلم يكن بينهم أي نوع من الاتحاد بل على العكس من ذلك قامت بينهم بعض الحروب والمناوشات المحلية .

(١) ص ٦٠ من الاسلام في أثيوبيا لترمنجهام .

وعند نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث عشر ، نجد تفصيلا لهذه السلطنات والممالك الإسلاميه فى كثير من المراجع ، وحدث فى عام١٩٣٦ أن اكتشف المستشرق الإيطالى (شيرولى E. Cerulli) وثيقة عربية هامة تشرح الأحداث التى مرت على (دولة شوا الاسلامية) فى أواخر عهدها (١٢٣١ — ١٢٨٩ م) ولقد اتيح للمستشرق شيرولى المزيد من البحث والدراسة أثناء استيلاء ايطاليا على الحبشة فى ١٩٣٦ ، ونشر نتيجة ابحاثه فى ١٩٤١ . ولها أهمية خاصة لأن المعروف قبل ذلك أن الإسلام فى ذلك العهد كان مقتصرا فى انتشاره على الساحل ، وأنه وصل إلى حدود الهضبة فقط ، ولم يكن قد نفذ إلى داخلها ، أما هذه الوثيقة فانها تثبت أمرا هاما وهو وجود مملكة اسلامية فى صميم الهضبة ، وفى منطقة شوا ذات الأهمية الكبيرة .

وتفيد الوثيقة بأنه قد تأسست دولة اسلامية فى قلب الهضبة الحبشية فى إقليم شوا المشهور ، وذلك فى عهد حكم ملوك الحبشة الاجوبين ، وأن سلاطين هذه المملكة كانوا من بنى مخزوم (مخزومى) أسرة سيف الاسلام خالد ابن الوليد ، وأن انشاء هذه الدولة يعود إلى عام (٨٩٦ م) وهذه الوثيقة هى التى تؤيد ماسبق أن اشرنا إليه أن من بين المهاجرين إلى أرض الحبشة نفر من بنى مخزوم فى عصر الأمويين ، ويبدو أنهم تغلغلوا داخل البلاد الافريقية وتمكنوا من انشاء تلك الدولة الاسلامية فى هذا المكان من قلب الحبشة الذى يعتبر من أمنع المعاقل فوق مرتفعات الهضبة ، والذى تقع به مدينة أديس أبابا الحالية .

ولا يوجد بهذه الوثيقة من التفصيل مايميط اللثام عن كيفية نشأة هذه المملكة ولا تاريخ عهودها الأولى ، ولكنها تفصل السنوات الأخيرة من حكمها حين بدأت عوامل الانحلال فى الدولة . وتذكر

أخبار الاشتباكات والاضطرابات الداخلية وأسماء الفرق المتصارعة وزعمائها [1] .

وقد استمرت مملكة شوا الاسلامية خلال أربعة قرون فى شبه عزلة عن العالم — الخارجى ، ومن أجل ذلك لم يرد ذكرها على أهميتها فى أى مرجع من المراجع القديمة حتى ظهر خبرها بعد كشف تلك الوثيقة سالفة الذكر .

ويبدو أنها ظلت طوال تلك المدة فى معزل العالم لأن منطقتها خصبه معتدل له الجو تحتوى على كل متطلبات الحياة فى ذلك العصر ، وكان اشتغال السكان بالزراعة والرعى كافيا لسد حاجات الشعب ووفرة رزقهم .

ولقد استمرت اسرة بنى مخزوم على عرش هذه المملكة حتى عام (١٢٢٥) حتى اغتصبه منها شخص يدعى مالرزا الذى بقى على العرش ثمانية عشر عاما وبعدها استولى عليها سلطان آخر وهلم جرا ، من ملك إلى آخر فى حروب داخلية لاتهدأ حتى تدهورت الحالة فى المملكة .

وفى نفس الوقت كانت هناك مملكة اسلامية أخرى فتية تتأهب ، وأخذ شأنها يزداد ، تدعى مملكة (ايفات Ifat) وكانت تراقب الأمور فى مملكة شوا الاسلامية عن كثب وانتهزت فرصة انحلالها وجردت عليها أربعة حملات انتهت باستيلاء مملكة ايفات الاسلامية على مملكة شوا (عام ١٢٨٩ م) [2] .

وباستيلاء ايفات على مملكة شوا يتحدد تحديدا واضحا المدى الذى وصلت إليه سلطة الاسلام فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر . إذ من المعلوم أن شوا تشغل جزءا هاما فى قلب الهضبة الحبشية المنيعة ،

---

(١) ص ٥٨ الاسلام فى أثيوبيا ترمنجهام ، كذلك ص ٦٣
The Ethiopians by Ullendorff

(٢) نفس المرجع .

وفى ذلك الجزء الذى تحتله قبائل الأجويين ويمتد نفوذ الدولة الاسلامية إلى شواطىء النيل الأزرق .

* * *

المالك الاسلامية فى شرق الحبشة :

سبق أن ذكرنا أن عددا من السلطنات والمالك الإسلامية قد بدأ فى التكوين عندما ازداد انتشار الإسلام وثبتت أقدامه ، ولم يكن بين هذه المالك أى نوع من الاتحاد أو الصلة التى يفرضها اشتراكهم فى الدين ، بل على العكس من ذلك كانت تحارب بعضها البعض .

ومن البديهى أن هذه السلطنات والمالك وهى تمر بأدوار تكوينها من الطفولة إلى الشباب . كانت مضطرة إلى خطب ود ملوك الحبشة المسيحية كلما ظهر فيهم نجاشى قوى ، ولقد كان ذلك راجعا إلى انتشار الإسلام ، وهو بعد فى عصر تكوينه ، فى مساحات شاسعة بلغت أكثر من ثلاثة أرباع مساحة الحبشة ، بينما لجأ ملوك الحبشة فى تلك العهود إلى التكتل داخل الهضبة والتحصن فيها والعمل الدائم على توحيد الصفوف والقوى ازاء هذا الزحف الاسلامى الواسع ، وخلال ذلك اعتلى عرش الحبشة من الملوك الأقوياء من اضطر تلك المالك الاسلامية الناشئة المتباعدة إلى تقديم الولاء والطاعة له .

* * *

ولعل أبرز تلك العهود هو ما وصلنا تفصيله فى (مسالك الأبصار) ونقله عنه القلقشندى فى صبح الاعشى (الجزء الخامس — صفحات ٤٢٢ وما بعدها) وهذه الأخبار وان كانت فى الغالب تعطى الصورة الحقيقية السائدة فى تلك البلاد الا أنه يغلب عليها طابع المبالغة القصصية المعهودة فى ألف ليلة وليلة . حين يقول ان — (نجاشى الحبشة تحت يده تسعة وتسعين ملكا وهو لهم تمام المائة) .

ويحدد هذا المرجع تاريخ كتابته بعهد النجاشى (عمداسيون Amda Sion) ومعناه عمود أو ركن صهيون - (ويقال أنه من الشجاعة على أوفر قسمه وأنه حسن السيرة عادل فى رعيته - وقد بلغنا أن الملك القائم عليهم أسلم سرا ، واستمر فى اظهار نصرانيته ابقاء للملكة .

ونعتقد أن المبالغة الروائية كان لها نصيب فى تحديد عدد الملوك التابعين للنجاشى بتسعة وتسعين (منهم سبعة مسلمون) ، وكذلك نميل إلى الشك فى صحـــة رواية اسلام النجاشى عمداسيون ، وأن كان سيروليام بدج (Bedge 1 p 288) يقول أن عمداسيون أمضى مدة حكمه مختلفا مع رجال الدين وعلى رأسهم المطران بسبب سلوك الملك المشين فقد عاشر خليلات أبيه وأختيه مما أثار عليه سخط رجال الدين فحرموه ، فلم يأبه به وقبض على المطران وشهر به . . الخ . . الخ .

ولعل ماهو معروف عن عدم اهتمام الأحباش بتلك العلاقات المشينة إلى الدرجة التى تسبب غضب المطران على الامبراطور الذى يؤدى إلى نفى المطران ، مما يدعو إلى الظن بأن الخلافات بينهما كانت بالغة الشده لأسباب غير التى ذكرها (السير بدج)، الأمر الذى حدا بالمؤرخ العربى إلى تعليل ذلك بأن النجاشى اعتنق الاسلام سرا . وهذه فى رأينا مبالغة لا يسهل تصديقها .

* * *

ويمضى (صبح الأعشى عن مسالك الأبصار) فى وصف بلاد مسلمى الحبشة ويعبر عنها (بالطراز الاسلامى) لأنها على جانب البحر كالطراز له وهى البلاد التى يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع - والزيلع انما هى قرية من قراها ، غلب عليها اسمها . . ولها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات ... وعند أهلها محافظة على الدين — وتشتمل هذه البلاد على سبع قواعد ، كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل .

المملكة الأولى : وفات :

وتسمى أيضا أوفات ـ ويقال لها أيضا «جبره» والنسبة إليها جبرتى . وطولها خمسة عشر يوما فى عرض عشرين يوما كلها عامرة بالقرى المتصلة وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفا فأكثر من الرجاله ، وتتبعها زيلع وهى مدينة مشهورة وأهلها مسلمون .

المملكة الثانية : ذوارو :

وهى تلى أوفات المقدمة الذكر ، وأن مملكتها طولها خمسة أيام وعرضها يومان ثم قال ، وهى على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات فى الفارس والراجل .

المملكة الثالثة : ارابينى :

وهى مدينة ذكرها فى (المسالك) أيضا ولم يذكر شيئا من صفتها ، ثم ذكر أنها مربعة طولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس ، أما الرجاله فكثيرة للغاية .

المملكة الرابعة . هدية (Hadya)

وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وبين خط الاستواء ، وذكر بعض المسافرين أنها جنوب أوفات . . . وطول مملكتها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام ، وصاحبها أقوى أخوانه من ملوك هذه الممالك السبعة وأكثر خيلا ورجالا ، وأشد بأسا على ضيق بلاده عن مقدار أوفات ، وللكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجالة . فانهم خلق كثير مثل الفرسان مرتين أو أكثر .

المملكة الخامسة : شرخا :

وهى تلى هدية المقدمة الذكر وطول مملكتها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجاله مثل ذلك مرتين أو أكثر .

المملكة السادسة : بالى :

وهى تلى شرحا المقدمه الذكر ولكنها أكثر خصباً وأطيب سكنا وأبرد هواء ، وطولها عشرون يوما وعرضها ستة أيام .

المملكة السابعة : داره :

وهى تلى بالى المقدمه الذكر ، وطولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك وهى أضعف أخوانها حالا وأقلها خيلا ورجالا ، وعسكرها لا يزيد عن ألفى فارس ، ورجاله كذلك .

* * *

ويقول القلقشندى نقلا عن (مسالك الأبصار) « أن جميع ملوك هذه الممالك وأن توارثوها ، لا يستقل منهم بملك إلا من أقامه سلطان أمحرا « النجاشى أو الحطى » وإذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا إلى سلطان أمحرا ، وتقربوا إليه جهد الطاقة ، فيختار منهم ملك يوليه ، فإذا أولاه سمع البقيه له وأطاعوا ، فهم له كالنواب وأمرهم راجع إليه ، ثم كلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات ، منقادون إليه . ثم قال . وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغناء ، لضعف تركيب أهلها وقلة محصول بلادهم وتسلط النجاشى سلطان أمحرا عليهم ، مع مابينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين . قال : وهم مع ذلك كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة » .

« ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزيلعى وغيره : أنه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم ، قدروا على مدافعة الحطى أو التماسك معه ، ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم تنافس . قال . وهم على ما هم عليه من الزله والمسكنة للنجاشى سلطان أمحرا عليهم قطائع مقرره ، تحمل إليه فى كل سنه من القماش الحرير والكتان ، مما يجلب إليهم من مصر واليمن والعراق » .

* * *

ويضيف القلقشندى فى (صبح الأعشى الجزء الخامس ص ٢٣٥) على مانقله عن — (مسالك الأبصار) ما أهملته تلك المراجع من المدن الهامه ، ويذكر منها جزر الدهلك الواقعة فى الإقليم الأول — « وهى جزر مشهوره على طريق المسافرين فى بحر عيزاب إلى اليمن وبينها وبين بر اليمن ثلاثين ميلا وملكها من الحبش المسلمين وهو يدارى صاحب اليمن .

ومنها مدينة « عوان » وهى على ساحل القلزم مقابل (تهامه اليمن)

ومنها مدينة « مقدشو » وموقعها فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وخط الاستواء وهى مدينة كبيره بين الزنج والحبشه . وهى على بحر الهند ولها نهر عظيما شبيه بنيل مصر فى زيادته فى الصيف » .

* * *

ويمضى القلقشندى فيقول : « وقد أتى الحطى ملك الحبشه النصارى على معظم هذة الممالك بعد الثمانمائة (القرن الربع عشر الميلادى) وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف ، وأكـــره الكثير منهم عل الدخول فى دين النصرانيه ، ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسمار المقابله بلاده لجزر دهلك تحت طاعة النجاشى ملك الحبشه وله عليه اتاوة مقرره ، والسلطان سعد الدين صاحب الزيلع وما معها ، وهو عاص له خارج عن طاعته ، بينه وبين النجاشى الحروب لا تنقطع وللسلطان سعـــد الدين فى كثير من الأوقات النصره « عليه والغلبه ، والله يؤيد بنصره من يشاء » .

ولقد ذكرنا هذه الفقره الأخيره لورودها فى ختام حديث القلقشندى ولما لها من أهمية ، بالرغم من أن تلك الحوادث التى تشير إليها وقعت فى القرن الخامس عشر كما سيأتى ذكره فيما بعد .

* * *

ولـكن الذى يعنينا مركل ذلك هو تبيان الممالك الإسلاميه كما أوردها المؤرخون ، وشرح مدى ما وصلت إليه من إتساع وانتشار فى عصر كانت فيه يافعه حديثه العهد ، وبين ملوكها من أسباب الخصام ما جعلها فى كثير من

الأوقات تنطوى تحت لواء النجاشى ملك الحبشة النصرانيه ، خصوصاً إذا كان ذلك النجاشى ممن تهيأت له أسباب القوه فى بلاده ، ومن أمثلة ذلك عهد عمداسيون الذى كتبت هذه الأوصاف للممالك الإسلامية الحبشية فى عهده ، وهى الحالة التى كانت سائدة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ثم استمرت على هذا المنوال فى القرن الرابع عشر الذى جاء به عهد الملك عمداسيون — سنأتى إلى تفصيل ذلك فيما بعد .

الفصل السادس

الحروب الصليبية والحبشة

لا يمكن أن نتعدى ما وصلنا إليه من مراحل التاريخ في هذه المنطقة دون أن نتعرض لذكر الأثر الذى أحدثته الحروب الصليبية فى مجرى الحوادث . فالحبشة تتعرض لانتشار الإسلام بين ربوعها ويستمد المسلمون قوتهم فى ذلك العهد من مركز عزوتهم فى مصر والشام ، بينما يعتمد ملوك الحبشة وكنيستهم على تعزيز وتأييد بطريرك الاسكندرية ، الذى يتبع سلاطين مصر ، والدولة الإسلامية فى تلك الفترة من الزمن تتعرض لأقسى ما عرفه التاريخ من الحروب الدينية المركزة على مراكز الإسلام فى مصر والشام . وكلها كما ترى عوامل متشابكة متعارضة ، تتضارب مع بعضها البعض .

ولا يمكن أن نفترض الصدفة وتوافق الأحداث على غير اتفاق فىمثل هذه الأمور الخطيرة بل نعتقد أنها حلقة مترابطة تنبعث إحداها من الأخرى فى تسلسل وانسجام تاريخى . من واجب المؤرخين أن يولوه ما يستحق من عناية .

وفى رأينا أن الفتح الإسلامى للأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا ، كان له أثر كبير فى مجريات الأمور وكانت ولا شك ضمن الأسباب التى مهدت للحروب الصليبية ، ولكننا نعتقد أن أنسب محل للكلام عنه هو عندما نأتى إلى تاريخ حوادث القرن الخامس عشر ، عندما زالت دولة الإسلام من الأندلس .

* * *

التسامح الدينى فى الإسلام وحوادث الاضطهاد :

تكاد تجمع المراجع الأوروبية والإسلامية على أن التسامح الدينى من أهم المميزات التى يتصف بها الحكم الإسلامى منذ نشأة الدولة الإسلامية ، ولم يعودنا التاريخ على أن تكون الصفات والتصرفات مطلقة متشابهة تحت جميع الظروف وفى مختلف العصور ، ولكن الحكم والعبرة دائماً بالسائد من الأحوال ، أما الاستثناء فليس من العدل أو الإنصاف أن يعتبر طابعاً أو دستوراً .

ومما لا شك فيه أنه بالرغم مما عرف من الدول الاسلامية من التسامح ، فإن غير المسلمين قد لاقوا من الظلم والاضطهاد والقسوة فى بعض الحالات خلال الحكم الإسلامى وبالرغم من قلتها وندرتها إذ قيست بطول العهود والقرون الذى ساد فيها التسامح ، فإن المؤرخين المنصفين من المسيحيين قد وجدوا فى أعمال المسيحيين وتصرفاتهم أثناء تلك الحالات مايبرر ماوقع عليهم من ظلم واضطهاد .

وإذا رجعنـــا إلى ما عنى السير توماس أرنولد بذكره (صفحة ٩٤ وما بعدها من كتاب الدعوة للإسلام) لوجدناه يعدد بعض تلك الحوادث «كما حدث فى عهد المنصور (٧٧٥ م) ، والمتوكل (٨٦١ م) ، والمقتدر (٩٣٢ م) والآمر (١١٣٠ م) التى كانت عبارة من صدور مراسيم بأقصاء (أهل الذمة) عن الوظائف العامة ، ولكن تجدد مثل هذه المراسيم الخاصة باقصاء الذميين عن الوظائف دليل على أن مثل هذه الأساليب التى تنطوى على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ مما دعا إلى تكرار إصدارها ؛ والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إلى سخط شائع آثاره السلوك الخشن المتعجرف ، الذى يسلكه الموظفون المسيحيون ، وقد آثار آخر هؤلاء السلاطين ما أكتشفه من أمر محاولة المسيحيين إحراق مدينة القاهرة أو إلى ثورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة للتسامح التى تميز بها الحكم الإسلامى ،

ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال فى أسرع وقت .

وعاد السير أرنولد فى (صفحة ٩٧) وفسر ظروف هذا الاضطهاد الدينى« ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها فى بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية فى خدمة الحكومة ،من جراء أساءةاستعمالسلطتهم العالية فى سلب أموال المؤمنين ومضايقاتهم ومعاملتهم بشىء من الغلظة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم ، وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٧٥ م) والمهدى (٧٨٥ م) والمتوكل (٨٦١ م) والمقتدر (٩٣٢ م) وإلى كثير من خلفائهم ،كما تعرضوا أيضاً لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونا للدولة العباسية ومطاردة اتباع البيت الأموى الذى أقصى عن الحكم ، وفى عصر متأخر اتهم المسيحيون فى زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالا ينطوى على الخيانة ، فجلبوا على أنفسهم قيودا شديدة الحرج ، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد دينى » .

ومهما قيل عن هذه الأحداث فإنها لا تكاد تذكر فى شدتها وقسوتها بجانب ما لاقته بعض طوائف المسيحيين من إضطهاد وغدر وقسوه على يد أخوانهم فى الدين من الطوائف الأخرى ، وأقرب الأمثله لما نحن فيه من بحث ، ما ذكره نفس المؤلف (ص ١٢٣) من ترحيب أقباط مصر بالحكم الإسلامى العادل السمح الذى خلصهم من ظـــلم الحكم المسيحى البيزنطى (الدولة الرومانية الشرقية) ، وكذلك تحول عدد من الجماعات والطوائف الصليبية إلى الإسلام أثناء قيام الحروب الصليبية .

ولا يمكننا هنا أن نبرز ماثار فى عهدالحاكم بأمر الله الفاطمى من إضطهاد بأكثر مما سبق ذكره من أن الحاكم كان قد بلغ فى أغلب تصرفاته إلى حد العته حيث أدعى الألوهية ، ولاقى المسلمون على يديه من القتل والتهذيب أكثر مما لاقاه المسيحيون .

ويقول السمعانى (Tom 111 Par. 11 P.C·) حين يتحدث عن

الأسباب التى أدت إلى إضطهاد المسيحيين فى ظل الحكم الإسلامى «كثيراً ما أثارت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم ، وتصريحات رجال الدين وكبرياء قادتهم ، وسلطة أقطابهم العاتيه ، عاصفة من الاضطهاد ، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطره المطلقه على أمتهم » ، وفى خلال الحروب الصليبية طالما وقع مسيحيو الشرق فى تهمة العمل على ممالاة الغزوات التى قام بها إخوانهم فى الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب ، وفى تركيا الحديثه ، نجد حركة استقلال اليونان ، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينيه فى أوروبا المسيحية ، ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة ، أشق مما يمكن أن يكون لو أنهم لم يتهمـوا بالخيانه ونفورهم من حاكمهم المسلم» .

وقد أوضح (دى جوبينو De Gobineau) فكرته أيضاحا قوياً فيما يتعلق بمسألة تسامح الإسلام حين قال «إذا انفصلت العقيده الدينيه عن الضرورة السياسية التى طالما تحدثت وعملت بإسمها ، فإننا لا نجد دينا أكثر تسامحا ، بل يمكن أن يقال وعلى وجه التقريب ، أكثر بعداً عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام . هذا التكوين الآلى قوى إلى حد أننا إذا إستثنينا الحالات التى كان كيان الدولة الواقع فى خطر يحمل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة ، فقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية . . . لا يجوز أن نقف عند ألوان القسوة والعنف اللذين ارتكبا فى أية مناسبة ، وإذا نظرنا إليها عن قرب ، لن نتردد فى معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضة أو راجعة إلى الأهواء البشرية ، أو المزاج المسيطر على الحاكم .

(١) (A. de Gobineau I P., P. 24 - 25)

* * *

(١) ص ٤٦٢ الدعـوة إلى الاسلام للسير توماس ارنولد — ترجمة د . حسن إبراهيم .

ولقد ظل طريق الحج أمام الحجاج الغربيين إلى بيت المقدس مأموناً ممهداً خلال القرون ، السابع والثامن والتاسع والعاشر ، عبر البلاد الإسلامية، الأمر الذى أدى بالملك شرلمان أن يرتبط بصداقة الخليفة هرون الرشيد ، ويعتبره نصيره وسنده ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطية) ، فى الوقت الذى كان شرلمان على عداء مستحكم مع المسلمين فى أسبانيا[1] .

* * *

الحروب الصليبية ـ وأسبابها المباشرة :

وفدت إلى البلاد العربية طوائف من مهاجرى الأتراك السلجوقيين ، وسرعان ما اعتنقوا الإسلام ودخلوا فى خدمة الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وتهيأت الظروف لهؤلاء السلجوقيين بحيث أصبحوا فى عنفوان قوتهم، عندما ضعفت الدولة العباسية ، وصارت لهم السيطرة الحقيقية على سورية، وبدأت فى هذه الفترة معاملة هؤلاء الأتراك القاسية لسكان البلاد ولأفواج الحجاج المسيحيين ، وكانوا أقل تسامحاً من العرب ويتصفون بالقسوة والغلظة، فجادلوا النصارى للمرة الأولى فى حق المرور وسط البلاد الإسلامية بلا إذن ، وأكرهوا الحجاج على دخول القدس بخشوع بدلا من أن يسمحوا لهم بدخولها على صوت الصنوج وضوء المشاعل، كما كان العرب يسمحون به، وأخذوا يحملونهم على دفع الفدية غير تاركين وسيلة لإيذائهم إلا أتوها[2] .

وفى أحدى هذه الرحلات ، وفى هذه الفترة الشاذة فى تاريخ العلاقات الطويلة السمحة ، جاء فى أحـــدى قوافل الحجاج قسيس يدعى بطرس الناسك[3] ، وامتلأ غيظا مما رأى ومن سوء ما عومل به فى فلسطين ، وتخيل أنه مرسل لدعوة أوروبا إلى إنجاد الأراضى المقدسة ، وتوجه إلى روما واستنجد بالبابا (أوربان الثانى) الذى حمل الرسالة وصار يجوب بلاد إيطاليا

(١) صفحة ٨١ Islam and the Arabs : by Rom Landau

(٢) حضارة العرب لفوستاف لوبون ترجمة الاستاذ عادل زعيتر (ص ٣٢١) .

(٣) نفس المصدر ص ٣٢٢ .

وفرنسا ويلقى الخطب النارية (ووعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة) وتوالت المؤثرات وارتفعت الشعارات وترددت فى جميع أنحاء أوروبا، وأصابت القوم نوبة حادة من الجنون أخذت تزداد يوما بعد يوم، وبدأوا زحفهم خلال الأناضول وآسيا الصغرى مرتكبين فى طريقهم أشنع الجرائم وأبشع الأعمال الوحشية، التى كانت السبب فى أبادتهم على أيدى الأهالى قبل أن يصل هذا الفوج الأول إلى الأراضى المقدسة وهلك من هذا الجيش الأول مئات الألوف .

وتوالت بعد ذلك الحملات المنظمة وتبادل ملوك أوروبا قيادة تلك الجيوش وعلى الأخص ملوك فرنسا الذين قاموا بالجانب الأكبر من الحروب الصليبية .

* * *

ومن الغريب أن تلك الفترة الشاذة فى تاريخ هذه المنطقة والتى انفردت باضطهاد الحجاج النصارى، كانت قد انتهت وعادت البلاد إلى سلطان مصر وزالت أسباب الشكوى، وعادت الأمور إلى حالتها السلمية الأولى، ولكن الصليبيين وقد استعدوا فى هذه المرة بجيش كامل العده والذخيرة وقوامه مليون جندى، أبى إلا أن يندفع تحت حماسة العصبية الدينية التى اندلع لهيبها ليخلص القدس وفلسطين من حكم المسلمين، فاستولوا على بيت المقدس فى ١٥ يولية عام ١٠٩٩ م .

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر ابن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون، قال كاهن مدينة لويوى « ريموندواجيل » حدث أمر عجيب للعرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم . فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم فى النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى فى شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس

العرب وأيديهم وأرجلهم . فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا » وروى ذلك الكاهن خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر وقال في ذلك الوصف التالي - « لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان وكانت جثث القتلى تسبح في الساحة هنا وهناك ، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، وقام الفرسان الصليبيون بعد ذلك بإبادة جميع سكان القدس ، فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام » .

* * *

وبلغت المسيحية الغربية أوجها في الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٥ / ١٠٩٩) على حساب الاسلام - وأقامت سلسلة من الامارات المسيحية في سوريا تمتد من انطاكيه وأورفه حتى بيت المقدس والعقبة (على رأس خليج العقبة الذي يؤدي إلى البحر الأحمر [1]) .

وفي عام ١١٤٤ بدأت قوة المسلمين في الظهور وكان ذلك أبان الحملة الصليبية الثانية التي بدأت من فرنسا أيضا واشتركت فيها ألمانيا ولكنها منيت بالفشل وقضى عليها الأوالي في آسيا الصغرى . أثناء مرورها بها .

وما أن جاء عام ١١٨٧ حتى كانت الدولة المسيحية مقتصرة على موانى انطاكية وطرابلس وصور ، وقامت لنصرتها الحملة الصليبية الثالثة المؤلفة من الجيوش الفرنسية والألمانية والانجليزية ، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد وطد أقدامه في مصر وجزيرة العرب والعراق ودخل سوريا في ١١٨٧ واسترد بيت المقدس ، وتم طرد الصليبيين منها .

ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل بالصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيدهم عن بكرة أبيهم ، بل اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلب شيء منهم .

(١) مختصر دراسة التاريخ لأرنولد توينبي - ترجمة الأستاذ فؤاد شبل (ص ٢٥١) .

وتمكن صلاح الدين من الانتصار على جيوش الدول الثلاث التي تكونت منها الحملة الثالثة (١١٨٩ — ١١٩٢) « وكان سلوكه خلالها مثالا للشهامة والسماحة وكرم الأخلاق بقدر ماتميزت أخلاق الصليبيين بالشراسة كما بدأ من (ريشارد قلب الأسد ملك الانجليز) عندما قتل ثلاثة آلاف أسير مسلم سلموا أنفسهم إليه بعد ماقطع عهدا بحقن دمائهم »[١]

* * *

تتابعت بعد ذلك الحملات الصليبية واحدة بعد الأخرى وباءت جميعها بالفشل ولم تتمكن من استرداد القدس وانتهت بالحملة الثامنة فى عام ١٢٧٠ التى هزمت . أمام السلطان بيبرس ، وانتهى عهد الصليبيين باستيلاء الناصر قلاوون على طرابلس فى ١٢٨٩ واستيلاء ولده خليل على عكا سنة ١٢٩٠

ولم يحدث بعدها إلا تلك المحاولة التى قامت بها قبرص ونقضت المعاهدات. وأغارت على الاسكندرية ١٣٦٥م ، ثم على طرابلس الشام فى ١٣٦٧ ولقد كانت أثناء ذلك مأوى للصليبيين ومركزا للقراصنة الذين يتعرضون للسفن العربية ، مما حفز مصر على الانتقام واستولت على قبرص فى عام ١٤٢٦ .

نتائج الحروب الصليبية وآثارها :

« ومن أشام نتائج الحروب الصليبية أن ساد العالم عدم التسامح عدة قرون ، وأن صبغته بما لم تعرفه ديانة — خلا اليهودية — بصفة القسوة والجور ، أجل كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير عن عدم التسامح ، ولكنه ندر إن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حد الغدر والطغيان. وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغا من الحيا الشديدة فى الحروب الصليبية مالا يزال العالم يقاسى أثره إلى زماننا هذا »[٢]

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص ٣٣٠)

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون (ص ٣٣٤) .

استمرت الحروب الصليبية الأصلية مدة قرنين من الزمان ، تبعتها فترة مساوية أخرى من العداوة والحنق اللتين انطوت عليهما نفوس الدول الأوروبية المسيحية ، لعدم توفيقها رغم مجهوداتها الفائقة ، ثم تأصلت بعد ذلك فى نفوسهم كراهية وتربص للعالم الاسلامى تنتقل من الوالد إلى ولده جيلا بعد جيل بلا انقطاع .

ومهما قيل من أن الحروب الصليبية قد اتخذت طابعا اقتصاديا أو استعماريا أو وسيلة للمزيد من النفوذ السياسى وما إلى ذلك مما يذهب إليه كثير من المؤرخين ويدللون عليه بحادثة من هنا وتحليل من هناك ، فان الحروب الصليبية وما أعقبها من تعصب دينى لا يزال فعالا إلى الوقت الحاضر ، ماهى إلا استجابة مستمرة طوال الزمن لتلك الصيحة المتعصبة الأولى التى صاح بها البابا أوربان الثانى « أنتم فرسان أقوياء ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم ، ولكن تعالوا وحاربوا الكفار ، يامن تنابذتم اتحدوا ، يامن كنتم لصوصا كونوا جنودا ، تقدموا للدفاع عن المسيح لا تمنعكم عراقيل ، ولا تلهيكم نساؤكم ولا أولادكم ولا أموالكم عن القتال فى سبيل الله تقدموا إلى بيت المقدس ، انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم وهى تدر سمنا وعسلا ، إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ، وإن خذلتم فستقضون حيث مات يسوع فتخلدون فى النعيم الدائم »(١)

تلك الصيحة التى ملأت العالم بالشرور والآثام ، وقضت على التسامح الدينى لازالت راسخة فى قلوب نصارى أوروبا ، وامتدت منها إلى جميع الشعوب النصرانية التى أجمعت على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع الشعوب جهدا خفيا مستترا متواليا لا يفتر لسحق الاسلام سحقا، وتأخذ النصرانية مشاعر كل مسلم بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء وأن مايدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصبا مذموما محرما ، هو عندهم فى

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية لمحمد صبيح (ص ٢٢٤) .

بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة – والوطنية المعبودة (١) وقال مستر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق — «بوجوب إعدام القرآن وتطهير أوروبامن المسلمين» وقال لورد سالسبورى البريطانى أيضاً «بوجوب إعادة ما أخذه الهلال من الصليب للصليب دون العكس» .

ولقد تعمد اللينبي القائد البريطانى فى نهاية الحرب العالمية الأولى عند دخوله القدس عام ١٩١٧ أن يقول (الآن فقطانتهت الحروب الصليبية) وتلاه القائد الفرنسى عند دخوله دمشق الذى جعل همه الأول أن يزور قبر صلاح الدين الأيوبى لكى يقول (هاقد عدنا ياصلاح الدين) .

* * *

كلمة أخيرة قالها قائد بريطانى يعمل فى خدمة الحكومة المصرية وهو الجنرال غوردون حاكم السودان الذى كتب لأخته (ص ١٥٥ من رسائل غوردون) عندما أصدر يوحنا امبراطور الحبشة أمره بتنصير جميع المسلمين (أن يوحنا — ويالالعجب — يشبهنى تعصباً للدين ، وله رسالة سينجزها ، وهى تنصير جميع المسلمين) (٢)

ولعل فى هذه القصة الأخيرة مايثبت للقارىء مدى ارتباط الحوادث التاريخية بعضها ببعض ، ومدى ماأحدثته الحروب الصليبية فى العالم من إشاعة التعصب الدينى ضد المسلمين والعرب ، من أثر على تاريخ الحبشة ، وما سوف نتعرض له من أحداث ، التى لا يمكن أن يكون حدوثها فى نفس الوقت واستطرادها بعد ذلك من قبيل الصدف .

---

(١) يوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين (ص ١١٠) .

(٢) الاسلام فى القرن العشرين لعباس محمود العقاد (ص ٩١) و (ص ١٢٢) Islam in Ethiopia by Trimingham

منذ أن قام صلاح الدين الأيوبى بمواجهة الجيوش الصليبية ومصر تتحمل الجانب الأكبر من متطلبات هذه الحروب من رجال وعتاد ، واستمرت فى كفاحها طوال تلك الحروب وخلال عهود السلاطين المختلفة على هذه الحال ، حتى أنه عندما هدأت الحروب فى أرض الشام بدأ الصليبيون فى غارتهم على مصر ووجهوا حملتهم الرابعة على مصر عام ١٢٠١ وكذلك حملتهم الخامسة على مصر عام ١٢٤٨ تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وظلت العلاقات متوترة وفى حالة تربص وتحفز مايقارب قرنين من الزمان ، امتدت إلى الوقت الذى هاجمت فيه قبرص مدينة الإسكندرية وضربتها عام ١٣٦٥ واضطرار مصر إلى الهجوم على قبرص والاستيلاء عليها عام ١٤٢٦ .

* * *

علاقة الحبشة بالحروب الصليبية :

ولايمكن أن تمر تلك التجارب المريرة والحروب التى استنفذت مجهودا شاقا من مصر وملوكها دون أن تؤثر فى أعصاب الدولة الإسلامية ، وكان من الممكن أن يقوم المصريون والسوريون بما قام به الصليبيون من إقامة المذابح والتفنن فى وسائل التعذيب والاضطهاد ولكن مما يدعو إلى الفخر أن ماتعرض له الأقباط فى تلك الفترة العصيبة من الاضطهاد لايكاد يذكر أو يقارن بماحدث فيها تشابه مع تلك الظروف فى دول أخرى فى العالم .

* * *

ولقد كانت الحبشة خلال تلك الفترة فى أشد الأوقات حاجة إلى معونة الكنيسة المصرية لتثبيت أقدام المملكة المسيحية ، وبالرغم من ذلك فان المملكة المسيحية وجهت حملاتها على الدول الإسلامية الحديثة العهد بالحبشة وكلما قويت شوكة المملكة كلما أمعنت فى فرض سلطانها على تلك الدول الناشئة وفرضت عليها الاتاوات ، وكل مايؤكد تبعيتها لملك الحبشة .

وفى تلك الأثناء وقعت فى مصر تلك الحوادث المؤسفة التى يعددها بعض المؤرخين ضمن مظاهر الاضطهاد الدينى فى مصر ، ولقد سبق أن ذكرنا بعضا منها ، وذكرنا أيضا أن أسبابها كانت تعود إلى اساءة كبار المسيحيين للسلطات التى منحتها لهم الدولة (راجع الصفحات ٨٤-٩٤-١٢٣-١٢٨-٤٦٢) من كتاب الدعوة للاسلام للسير توماس ارنولد) - مما يفيد بأن أغلب تلك الحوادث كانت ردا على سوء تصرف أو عقابا على سوء استعمال السلطة ، ولم تكن نابعة من تعصب دينى ، وأنهـــا بالرغم من ذلك تتضاءل أمام ماشهـده العـالم من اضطهـاد دينى فى غير الدول الاسلامية ، ولأسباب سطحية تافهة لاتقارن بمـا كان يتعرض له المسلمون ، كما أن هـــذه الصفحات نفسها تسجل ما كان يلقاه أقبــاط مصر من تسامح وتكريم واعزاز عندما تستقيم أمورهم بالتعاون مع الحكومة ، وأبناء وطنهم .

* * *

ولم تكن مملكة الحبشة غافلة عن مجرى الأحداث فى أثناء الحروب الصليبية ، بل كانت معنية بها تتابع أحداثها ولـكنها كانت بعيدة عنها لبعد المسافة وتعذر الوسائل التى تمكنها من تقديم المعونة للصليبيين ، وانشغالها فى هذه الأثناء فى حروبها الداخلية وقلقها على كيان دولتها وشغلها الشاغل بتثبيت أقدامها إزاء الزحف الاسلامى ونفوذه الذى يتسع رويدا رويدا . ولقد حاول بعض الـكتاب أن يسدل ستارا على العلاقة الوثيقة التى كانت بين الحبشة وبين الحروب الصليبية ودول غرب أوروبا المسيحية ، بل عمد البعض إلى الايحاء بأن أوروبا لم تكن تعلم بوجود مملكة مسيحية فى قلب افريقيا ، وأن سلاطين المماليك فى مصر كانوا يعملون على أن تظل أخبار تلك المملكة المسيحية مجهوله لدى الدول الأوروبية ، حتى لاينتهزوا

الفرصة ، ويتحالفوا معها للقضاء على مصر بالهجوم عليها من الشمال ومن الجنوب .

وحقيقة الأمر أن الحبشة كانت على اتصال وثيق بالحروب الصليبية والدول المسيحية فى أوروبا طوال تلك الفترة العصيبة من تاريخ العالم الاسلامى وبعــــدها ، يؤيد ذلك ماجاء فى كتاب الحروب الصليبية الجزء الثانى ص ٩٦٥ للدكتور سعيد عاشور نقلا عن « كولبو » (ولم يفت الصليبيون كذلك أن يتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعاون معهم فى حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجـــاز وهدم الكعبة (١٢١٨م) ") [1]

ولقد بحث الصليبيون عن حليف يقطع طريق البحر الأحمر من الجنوب فلم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة المسيحية ليحالفوها ويعتمدوا عليها لذلك حرصت البابوية منذ أوائل القرن الرابع عشر بالذات على تقوية صلتها بالحبشة ، فقام وليم آدم — الراهب الدمينيكانى (١٣٠٥) برحلة طويلة زار فيها شرق افريقية والحبشة ثم عاد فى ١٣١٦ [2] ، أوفى تلك السنة أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرين سفارة من الدومنيكان إلى الحبشة ولكن رجالها وقعوا فى قبضة المماليك فى مصر ، كذلك كان مصير سفارة أخرى من الدومنيكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة عام ١٣٢٨ [3]

ويبدو أن تلك الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوربى من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى ، نجحت فى استثارة ملوك الحبشة ضد

---

(١) ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ Coulbeaux : Hist. D'Abysinie Part 2

(٢) ص ١٦١-١٦٢ The Crusades of the Middle Ages by A, S. Atya

(٣) ص ٢٩٤ Krammer : La Mer Rouge I

وصفحة ١٢٠٩ — الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور .

المسلمين وفى جذبهم إلى داخل مجال الحرب الصليبية ، ومن ذلك ماذكره لابوركيير La Borquiere من أن ملك الحبشة أسرع عندما بلغه نبأ اغارة بطرس لوزنجان ملك قبرص على الاسكندرية فى عام ١٣٦٥ إلى اعداد جيش ضخم من ثلاثة ملايين ؟؟ وزحف على رأسهم شمالا لمهاجمة دولة المماليك من الجنوب ، ولكنه لم يكد يقترب من تلك الحدود حتى علم بانسحاب بطرس لوزنجان من الاسكندرية فقفل راجعا إلى بلاده بعد أن خسر فى تلك العملية زهاء مليونين من الرجال » — وعلى الرغم مما فى هذه الارقام من مبالغة واضحة فى العدد وفى التوقيت لأن بطرس لوزنجان لم يبق بالاسكندرية أكثر من ثمانية أيام ، فإن الخبر نفسه يشير إلى وجود اتصالات بين ملكى قبرص والحبشة بقصد كبس دولة المماليك من الشمال والجنوب [١]

ثم كان أن فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) فى القيام بحركة صليبية كبرى ضد المماليك فى مصر وأرسل مندوبا إلى ملوك أوروبا بذلك وقبض على مندوبه عند عودته ومروره بمصر — كما سيأتى ذكره فيما بعد .

« وبالرغم من الصعوبات العملية التى تجعل اشتراك الحبشة فى الحروب الصليبية بجانب الأوربيين ، فان فكرة استغلال الحبشة فى القيام بعمل حربى ضد المماليك ظلت ماثلة فى أذهان أصحاب المشاريع الصليبية فى غرب أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر ومن ذلك أنه حدث عام ١٤٥٢ م أى قبيل سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين أن كتب حنا جيرمان . Jean German تقريراً لانقاذ شرق أوروبا من توسع العثمانيين المسلمين ، أشار فيه إلى أن البابا نجح فى مجمع فلورنسا (١٤٢٩م) فى إصلاح ذات البين بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وأن هذا من شأنه أن يجعل من الممكن أن يؤلف المسيحيون الشرقيون — ومن جملتهم « يعاقبة الحبشة » جبهة قوية فى وجه المسلمين [٢]

(١) ص ٢٠٩ — الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور .
(٢) ص ٢٠٧ A.S Ariya

ولقد ظل الفشل حليف جميع تلك المجهودات المسيحية إلى أن نجح فاسكو دى جاما البرتغالى فى كشف طريق الرجاء الصالح حول أفريقيا (١٤٩٧ – ١٤٩٩م) مما جاء بمثابة الضربة القاضية لدولة المماليك، وسرعان ماظهر أثر ذلك وتعاون الأحباش والبرتغاليون ضد المماليك المسلمين.

وسوف نرى فيما يلى من أنباء ملوك الحبشة كيف كان اتصالهم بالدول المسيحية مستمرا بقصد القضاء على الدول الاسلامية .

ويلاحظ أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة باشتراك الأحباش مع الأوربيين جاءت مصحوبة بفكرة أخرى نادى بها دعاة الحروب الصليبية طويلا ، هو تجويع مصر والقضاء على من فيها بتحويل مجرى النيل فى الحبشة . . وقد أشار فيليب دى ميزيير صاحب المشروع الصليبي الكبير فى القرن الرابع عشر — إلى إمكان تنفيذ مشروع تحويل مجرى النيل للقضاء على دولة المماليك قضاء تاما ، وظلت هذه الفكرة تراود المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل الفونس الخامس ملك أرجونه إلى ملك الحبشة عام ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من الجنوب ، وفى الوقت الذى يقوم الفونس نفسه بغزو بيت المقدس وفلسطين[١] . ولما اشتد النزاع بين المماليك والبرتغاليين عقب كشف طريق الرجاء الصالح أرسل البوكرك — قائد الأسطول البرتغالى — إلى ملك البرتغال يطلب امداده بعدد كبير من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض للعمل فورا على تحويل مجرى النيل ، مما يدل على اعتقاد الأوروبيين والأحباش جميعا فى امكان تنفيذ المشروع[٢] .

---

(1) ١١٩ De La Baciere : La Decoverte de I,Afrique Au Moyen age Tome II

(٢) ص ١٢١٤ الحركة الصليبيه للدكتور سعيد عاشور .

الفصل السابع

الأسرة السليمانية

والصراع مع الإسلام

(من أوائل القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن السادس عشر)

عندانتهاء عهدملوك الأجويين وارتقاء الملك «يكونو أملاك Yekono Amlak» عرش الحبشة بدأ عهد الأسرة السليمانية ، تلك الاسرة التى تروى الأساطير أنها تنحدر من نسل سليمان بن داوود عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ (ماكيدا الحبشية) كما سبق ذكره . و « يكونو املاك » ليس اسما وإنما جملة تعنى (سوف يكون ملكا — وهى قريبة من العربية كما هو واضح — ويبدو أن هذه الكلمات نطق بها القديس تكلاهيمانوت عندما زعم أنه نزل عليه الوحى ليمنح العرش إلى الأسرة السليمانية) فصارت عليه علما[1]

ولقد لعبت الكنيسة دورا هاما فى إنهاء عهد الأجويين وعملت على تسنم « يكونو أملاك » للعرس وكان على رأس رجال الدين الأب « تكلاهيمانوت Takla Haymanot » السالف الذكر ، كان الاعتقاد السائد أن انتقال الملك من الأسرة الأجوية إلى الاسرة السليمانية حدث بعد اتفاق سلمى مهدت له الكنيسة إلا أن الوثيقة العربية التى سبق ذكرها « عن روسينى » تبين أن الملك يكونو أملاك « جهز جيشا من عدة ولايات هزم به الأسرة الأجوية » ، والثابت فى كثير من الروايات أن الكنيسة ورجال الدين كان لهما الفضل الأكبر فى انتصار الملك الجديد واستتباب الأمر للأسرة السليمانية .

---

(1) ص ٢٧٤ سير بدج Budge (والاسم الحقيق للملك هو تسفا إياسس)

ويبدأ عهد هذه الاسرة فى عام (١٢٧٠م) ومنذ ذلك التاريخ تتعدد المراجع التاريخية التى توضح الكثير من تسلسل الأحداث فى شكل لابأس به من الدقة والوضوح وأول ماحدث من الأمور الهامة هو أن الامبراطور « يكونو أملاك » عرفانا منه بفضل الكنيسة على نصرته وتثبيته على العرش وهب الكنيسة ورجال الدين ثلث أراضى الدولة للصرف على أمور الدين، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكنيسة أكبر مالك فى الدولة ولديها من الموارد الثابتة ماجعل منها قوة هائلة ، ومهد لها السبيل لانتشار سلطانها ونشاطها ، والمتصرف الوحيد فى هذه الأملاك وذلك الاقطاع هو المطران ، بصفته الراعى الأكبر لرجال الدين .

ومنذ ذلك الحين أيضا ازداد اعتماد الأباطرة على رجال الدين ، ولم يكن من الممكن بقاء مركز المطران شاغرا فترات طويلة ، لذلك عمد الأباطرة إلى الكتابة إلى سلاطين مصر وايفاد الرسل إليهم ، للسماح لبطريرك الاسكندرية باختيار المطارنة وإرسالهم إلى الحبشة فى أقصر وقت ممكن ،

* * *

وكان لاستتباب الأمر لملوك الحبشة على هذه الصورة أثر كبير فى مجريات التاريخ فى البلاد ، إذ أن هؤلاء الملوك أخذوا يعززون مراكزهم فى مملكتهم على هضبة الحبشة بالصورة التى تمكنهم من الصمود أمام المد الإسلامى الذى أخذ يطرق أبوابهم ، وعلى الأخص من سلطنه ايفات الاسلامية ، التى زحفت على مقاطعة شوا وحلت محل السلطنة المخزومية السابقة .

وسرعان مابدأ الصراع بين الممالك المسيحية والاسلامية ، الذى اتخذ مظهرا سياسيا بجانب الدوافع الدينية .

وبالرغم من مرور ما يقرب من تسعة قرون على دخول المسيحية إلى الحبشة فان غالبية الشعب الذى يسكن الهضبة كانت لاتزال وثنية حتى القرن

الثالث عشر ، لذلك كان تنصير هؤلاء الوثنيين أهم واجب وضعته الكنيسة والأسرة الحاكمة نصب أعينها ، حتى يوحدوا البلاد تحت لواء ديني واحد يمكنهم من الوقوف أمام الزحف الاسلامى .

لذلك بدأت حركة تبشير واسعة بين القبائل يتزعمها الأب تكلاهيمانوت ولقد رفعه الأحباش إلى مرتبة القديسيين وبنوا له ديرا عظيما في (دبرا ليبانوس) ولقد كان نجاح هذه الحملة التبشيرية عظيما ، واعتمدت فى نجاحها على جميع ماتيسر لها من نفوذ ، فبالاضافة إلى ماكان لرجال الدين من حمية ونشاط فقد استعانوا بسلطة الامبراطور ، وبالأموال التى آلت إليهم بعد أن منحهم الامبراطور ثلث أملاك الدولة .

السلطنات الاسلامية :

رأينا فيما سبق كيف كانت المسيحية تتقدم فى بطء فى بلاد الهضبة الحبشية المرتفعة بينما كان الاسلام يمتد فى خطوات واسعة وسريعة من المناطق الساحلية إلى داخل البلاد متغلغلا فى الأقاليم الجنوبية ، وامتدت بذلك سلسلة من السلطنات من البحر الأحمر إلى منطقة البحيرات . وشمل نفوذها الجانب الأكبر من إقليم شوا » .

« ولو اتيح لهذه السلطنات الاسلامية أن تتحد فى ذلك الوقت ، لأصبحت خطرا يهدد بقاء الدولة المسيحية ، التى كانت تعانى من قبائل الأجاو الوثنية التى تحيط بها وتتغلغل داخلها ، متحصنة فى مواقعها الطبيعية المنيعة (١)

ومن أهم تلك السلطنات الاسلامية شأنا — سلطنة (هدية Hadya) التى تغلغلت فى أقصى الجنوب ، لذلك كانت أكثر السلطنات نشاطا فى تجارة الرقيق ، ثم سلطنة (فتاجار Fatajar) التى تقع فى جنوب مقاطعة شوا ثم أهم تلك السلطنات وأكبرها وهى (ايفات Ifat) التى سبق ذكرها ،

(١) الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام ص ٦٦ . وكذلك ماجاء فى الفصل الرابع عن عبد الله الزيلعى .

وكانت تسيطر على مساحة شاسعة من الدولة تبدأ من ساحل البحر الأحمر إلى قلب الحبشة شاملة لاقليم شوا الشرقى ، وبذلك كانت تسيطر سلطنة ايفات على طرق التجارة التى تربط داخل البلاد بميناء زيلع ، ولقد سبق أن جاء ذكر هذه السلطنة فى كتابات المؤرخين القدامى تحت اسم (ولاشما Walashma) فى بعض العصور ، وأطلق عليها المؤرخون العرب أيضا اسم (جبرة Jebara) ثم اسم (جبرت Jabarta) وهذا الاسم حبشى الأصل (أجبرت بمعنى عباد « الله » وهى جمع مفردها جبر أى عبد ، والنسبة اليها جبرتى — وهو الاسم المتداول والذى ينسب إليه الجبرتى المؤرخ الشهير [1])

وكتب المقريزى أن الولاشما يزعمون أنهم من أصل عربى — قدموا من الحجاز واستقروا فى (جبرت) ، وأن أحدهم يقال له (لاشما) عينه النجاشى محافظا على مدينة أوفات وماحولها واستمر الحكم فى الأسرة حتى (١٤٤٥ م) ويقول البعض أن اسمه أصبح علما على المنطقة التى اشتقت اسمها من اسمه .

وكانت سلطنة ايفات تشمل أيضا امارات مورا و (عدل Adal) .

* * *

« أما الممالك الإسلامية الأخرى فكانت إلى الجنوب من ايفات وتقع فى أقاليم سيداما وأهمها مملكة دوارو وبالى ، وكانت تسكنها قبائل السيداما ومعها قبائل الجالا إلى الجنوب . وإلى الشرق منهما تقع مدينة هرر وهى مدينة يرجع عهدها إلى العصور القديمة وينسب انشاؤها إما إلى القبائل السامية أو العرب الذين هاجروا إلى الشاطىء الافريقى ، وذلك لأن أهل هذه المدينة يتكلمون إلى الآن لهجة سامية .

---

(١) ص ٦٠١ بين الحبشة والعرب تأليف الدكتور عبد الحميد عابدين .

ولقد اعتنق أهل هرر الإسلام فأصبحت هذه المدينة مركزا تجاريا هاما ومصدرا لاشعاع الدعوة الاسلامية .

* * *

وكانت هذه المناطق تعرف عند الكتاب المصريين والسوريين باسم بلاد الزيلع بالرغم من أن زيلع مدينة واحدة فيها ، وهناك غيرها من المدن التى اشتهرت على الساحل مثل مقديشيو » . (نرجو مراجعة ماجاء فى الفصل الرابع من وصف القلقشندى لهذه الممالك الاسلامية) .

* * *

« ومما سبق يتضح أن الممالك الاسلامية كانت أكثر اتساعا من المملكة المسيحية ، وعلاوة على ذلك كان الحكام المسلمون قد وطدوا صلاتهم مع قبائل الأجاو المناوئين لمملكة الحبشة . ولكن المملكة المسيحية تمكنت فى صراعها المقبل مع المسلمين من الانتفاع من قدرتها على الحركة على خطوطها الداخلية القصيرة ، فى الوقت الذى كان المسلمون منتشرين فى مساحات شاسعة رديئة المواصلات ، تتخللها فى كثير من الأماكن قبائل البدو ، لذلك كان نظام المسلمين مضطربا وتعبئة المحاربين عسيرة مما جعل مقاومتهم ضئيلة وعرضة للانهيار المفاجىء .

ولقد كانت سلطنة ايفات فى طور التكوين والتنظيم ، وكانت تشكل خطرا كبيرا لو أنها فكرت فى المباداة ، ولكنها فوجئت بهجوم شامل من الجيوش الحبشية التى عبأها الامبراطور عمداسيون ، الذى لم يترك لها الفرصة لجمع شملها مما اضطرها إلى التسليم ، وبذلك فتح الباب للانتصار على السلطنات الأخرى واحدة بعد الأخرى » .

* * *

ولم يكن هذا الانتصار على ايفات حاسما ، إذ استمرت القوات الاسلامية فى حروب ومناوشات ، تكسب معركة وتخسر أخرى ، حتى أخذ الموقف

يتغير عندما أصبحت هرر القاعدة الاسلامية الرئيسية ، إذ أصبح الأحباش عندئذ بعيدين عن قواعدهم فوق الهضبة ، وكانت هرر قد أصبحت على صلة تامة بقبائل (عفار Afar) والصومال التي تتوق إلى الحرب لتوسيع سلطانها ، وبذلك تحولت المبادأة والحملات الهجومية إلى القوات الاسلامية المنظمة)(١)

* * *

المناطق الاسلامية داخل المملكة المسيحية :

إضافة إلى تلك الممالك الاسلامية التي امتدت وتوغلت إلى داخل الحبشة وأحاطت بالهضبة الحبشية واستولت على اقليم شوا ، فان كثيرا من المسلمين قد توغلوا فى الهضبة المسيحية نفسها وكونوا عددا من المستعمرات التى انتشرت فى مختلف بقاع الهضبة ، ولقد جاء ذكر ذلك فى (تاريخ بطارقة الاسكندرية) وكذلك من شواهد القبور التى عثر عليها فى شمال مقاطعة تيجرى والتى يرجع أحدها إلى (٨ ذو القعدة ٣٩٦ هجرية — أى ١٦ أغسطس ١٠٠٦) .

ولقد ذكر أبو صالح (١١٧٠ — ١٢٢٠ م) أن بمملكة الحبشة كثيراً من المسلمين فى الأعوام الأولى من القرن الثالث عشر ، وكان على كل مسلم أن يدفع نوعا خاصا من الضريبة .

ولقد كانت الكنيسة أثناء الصراع مع الاسلام تتعرض للمرارة ، لاضطرارها أثناء عهود ضعفها إلى تأييد الاسلام ، فكانت تضطر الكنيسة القبطية فى مصر أن تذعن لرغبة سلطان مصر بتعيين المطران الذى يتعهد برعاية مصالح الإسلام فى الحبشة ، ومن أمثلة ذلك تدخل بدر الجمالى - وزير المنتصر بالله - (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) فى تعيين مطران معين غير ذلك الذى

---

(١) ص ٦٩ Islam in Ethiopia by Trimingham

اختاره البطريرك ، وعندما وصل هذا المطران إلى الحبشة عمل على تنفيذ ماوعد به الوزير بتشجيع بناء المساجد ، مما أثار عليه المسيحيين واضطر لتبرير أعماله بأن المساجد انما تبنى ليستعملها التجار العرب وهى بذلك لا تعنى شيئا ، بينما قد يؤدى رفض إقامتها إلى اضطهاد الأقباط فى مصر ، ولكن كراهية هذا المطران بلغت الحد الذى أدى بالملك إلى وضعه فى السجن ، وقام بتدمير المساجد السبعة التى كانت قد تم بناؤها .

وأعقب ذلك وضع القيود على نشاط التجار المسلمين مما دفع مصر إلى اتخاذ اجراءات مماثلة وتسبب عن ذلك قطع العلاقات بين الدولتين(١)

* * *

علاقه سلاطين مصر بالحبشة :

شرحنا فيما سبق تلك العلاقة التى قامت بين مصر والحبشة ، وتبعية المسيحيين فى الحبشة لكنيسة الاسكندرية ، وأهمية المطران المصرى الذى يوفده بطريرك الاسكندرية ليرأس كنيسة الحبشة ، وخطورة مركز المطران المصرى ونفوذه ومايتمتع به من سلطان روحى على الدولة واعتماد الامبراطور فى كسب طاعة الشعب على تأييد المطران ومن معه من رجال الدين . الذين بلغوا شأنا عظيما حتى أصبحت الكنيسة منبعا للقوة ، وازداد أثرها فى القرن الثالث عشر ، فعملت على نشر المسيحية بين الوثنيين المنتشرين فى المملكة المسيحية وجمع الكلمة حول الامبراطور للتمكن من الوقوف أمام الزحف الاسلامى .

وكذلك تكلمنا فى فصل سابق عن الحروب الصليبية التى جردتها الدول المسيحية فى أوروبا بغية القضاء على الإسلام ، وكيف اصطلت الشام ومصر بنارها بضعة قرون شملت ذلك العهد الذى نتكلم عنه الآن من تاريخ الحبشة .

(١) ص ٦٤ ، ٦٥ Islam in Ehtiopia by Trimingham

لقد عدنا إلى التذكير بهذه الأمور فى اختصار ، لأن المرحلة التى نمر بها الآن ، فى الكتابة عن تاريخ الحبشة ، تمثل البداية الحقيقية لسلسلة متتابعة من الاضطهاد الدينى من الطرفين .

* * *

لا يمكن أن يمر الإنسان بمرحلة الحروب الصليبية التى أشعل نارها التعصب الدينى البغيض ، وماأحدث خلالها من قسوة وفتك بالأموال والارواح وتلك الحملات التى أخذت تتوالى على البلاد الإسلامية واحدة بعد الأخرى ، لا يمكن أن يمر الإنسان بكل ذلك مر الكرام كأنما يتابع قصة من القصص العابرة .

لاشك فى أنه كان لتلك الحملات أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين شعوبا وحكاما ، ولاشك أيضا فى أن المسلمين كانوا يعانون من تحطيم أعصابهم ، يأمرهم دينهم بالتسامح ورعاية أهل الذمة فى آيات وأحاديث واضحة صريحة لاتقبل الشك أو التأويل ، بالإضافة إلى ماجبلوا عليه من النبل والشهامة ، وبين النوازع الإنسانية التى تتحرك فى النفس عندما تتوالى عليهم الحروب وتزداد الضحايا والخسائر من جراء تلك الحروب التى أشعلها الصليبيون على الاسلام ، وفى بلاد المسلمين وبين ظهرانيهم يعيش فريق كبير من المواطنين الذين يدينون بدين المهاجرين المعتدين .

لاشك فى أن احتفاظ المسلمين بسماحتهم وعهدهم برعاية أهل الذمة ، يحتاج إلى قدر هائل من ضبط النفس والصبر ، ولقد تمكنوا من ذلك فى غالب أوقاتهم ، حتى لقد امتلأت كتب المؤرخين من غربيين وشرقيين بالتمجيد للموقف النبيل الذى وقفه المسلمون من قضية الاضطهاد الدينى فى ذلك الوقت العصيب . وبالرغم من ذلك فانه مما يتفق مع طبيعة الأمور ، ويتمشى مع الطبيعة البشرية . أنه لابد وأن تشتد بعض الظروف إلى الحد الذى لا يمكن معه الصبر والاحتمال ، خصوصا وأن الاسلام كما أمر بالتسامح ، أمر برد الاعتداء

وتوقيع الجزاء والدفاع عن الإسلام وكرامة المسلمين ، ومع ذلك فلم يلجأ المسلمون إلى معاقبة البرىء المسالم بجريرة المعتدى المذنب ، وما تحركت مشاعرهم إلا نتيجة لأعمال مباشرة قام بها مسيحيو الشرق العربى أبان الحروب الصليبية .

ولقد ظهرت آثار ذلك واضحة منذ القرن الثانى عشر حيث قال عنها Belin P. 478 (اتهم المسيحيون فى زمن الحروب الصليبية ، باتصالهم بالصليبيين اتصالا ينطوى على الخيانة ، فجلبوا على أنفسهم قيوداً شديدة الحرج ، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد دينى) [1] .

جرت التقاليد أنه كلما خلا منصب المطران أن يطلب ملك الحبشة بديلا عنه من مصر ، وأن يرسل بذلك رسالتين ، إحداهما إلى سلطان مصر والأخرى إلى بطريرك الأسكندرية وعندئذ يلتمس البطريرك من السلطان السماح له بإرسال المطران .

وللأهمية البالغة لعدم ترك منصب المطران شاغراً فإن الأباطرة لم يكونوا يترددون فى التذلل إلى كل سلطان وبطريرك فى سبيل الموافقة على تنصيب المطران ، فقد كتب (يكونو أملاك) (عام ١٢٧٤) إلى الظاهر بيبرس يقول (أقل المماليك يقبل الأرض ، وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه ، أن رسولا وصل من والى قوص ، بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ماجاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جيـــداً عالما ، لايحب ذهباً ولا فضة . . . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس مسلمين ، وأما النصارى فكثير لايحصون ، والكل غلمانك وتحت أمرك . . . وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل المماليك ، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون . . . ونحن نحفظ كل من يأتى من بلاد المسلمين ، فسيروا مطرانا يحفظهم [2]) .

---

(١) ص ٩٨ الدعوه إلى الاسلام للسير توماس ارنولد .

(٢) ص ١٢٠ صبح الأعشى للقلقشندى الجزء ٨ .

ولكن فى نفس الوقت الذى ارسل فيه الملك (يكونوا أملاك) هذا الكتاب يتذلل فيه للسلطان بيبرس لكى يرسل المطران ، ويدعى فيه أنه يحافظ على المسلمين وأن «بجيشه مائة ألف فارس مسلم» فى نفس ذلك الوقت كان الامبراطور (يكونوا أملاك) يضطهد جيرانه المسلمين، ولقد جند كل ماالديه من قوه لمهاجمتهم ولكنه تحمل خسائر كثيره فى تلك الحروب ، وخرب المسلمين جهات كثيره من بلاده[1]

* * *

وبالرغم مما أظهره (يكونوا ملاك) من التذلل والزلفى والاعتذار ، فان الظاهر بيبرس ، تحت تأثير الظروف العصيبة التى تمر بها الدولة الإسلامية فى أواخر الحروب الصليبية وتحت تأثير مايعرفه عن عدم صدق الامبراطور فى رعايته للسلمين فى بلاده ، فانه أرسل إليـــه رداً يشعره بأنه خالف التقاليد ، ورفض إيفاد المطران ، مما اضطر الامبراطور إلى الاستعاضه عنه بمطران سورى ، بالرغم من الاختلاف فى المذهب الدينى ، ولذلك لم يقابله الشعب بالرضاء والتأييد .

* * *

وفى عهد الملك التالى (يجباصيون ١٢٨٥ — ١٢٩٤ Yagba Soon)[2] ذكر (مركوبولو Marco Polo) أنه بدأ بحملة عسكرية موفقة ضد سلطنة عدل (أو زيلع) وانتهت بقبوله لعقد هدنة مع جيرانه الأقوياء ، وبعدها أرسل إلى السلطان قلاوون رسالة ذكر فيها أنه سيتخذ سياسة غير تلك التى اتخذها والده من قبل ، وأنه يذود عن حقوق المسلمين فى بلاده ، وطلب ايفاد مطران مصرى إذ أن المطران السورى لم يستطع أن يقوم بأعباء الكنيسة الحبشية على الوجه المطلوب ، ونظر إليه الأحباش على أنه أجنبى

(١) ص ١٨٥ Bupge Vol. 1 P. 285

(٢) هذه الكلمات ليست أسماء ولكنها جملة معناها (سيصير الله صهيون) واسمه الحقيقى سولومون — ص ٢٨٧ سيربدج Budge

عنهم وعن كنيستهم ، وقد استجاب السلطان قلاوون لطلبه وسمح بترسيم المطران وسفره[1] .

ولم تسفر سياسة المهادنة التي اتبعها (يجباصيون) عن ايقاف الزحف الإسلامى وامتداد نفوذه ، واعتبر المسلمون (فى سلطنة ايفات) ذلك مظهراً من مظاهر الضعف لدى المسيحيين وبدأوا سلسلة من الاغارات على مملكة الحبشة ، ولكن كان لهذه الحملات أثراً عكسياً إذ أنها قوت الروابط بين المسيحيين ورفعت من روحهم المعنوية ووحدت صفوفهم ضد المسلمين ، ومنذ ذلك العهد أصبحت القوة المسيحية متكافئة مع قوة المسلمين ، بل كانت تتميز عن المسلمين بتركيزها فى منطقة صغيرة قصـــيرة المسافات والمواصلات ، بينما تشتت قوى المسلمين فى مساحات شائعة ، تتعذر بينها وسائل الاتصال كما سبق ذكره .

ولقد استمرت الحرب بين الفريقين طوال القرنين المتتاليين ، وخصوصاً فى عهود الملوك «عمداً سيدن وسيفاً أرعد» ثم «زرء يعقوب» الذى سيأتى شرح خاص لتاريخهم .

بداية الصراع العنيف:

رأينا فيما سبق كيف كان ملوك الحبشة المسيحية يحاولون التوفيق بين عدائهم للإسلام وإصرارهم على انتهاز الفرص للقضاء على الدول الإسلامية الناشئة التى تحيط بهم من كل جانب ، وبين اعتمادهم فى تثبيت أركان دولتهم على المطران وسلطة الكنيسة ، وأن المطران لابد وأن يكون مصريا موفدا بموافقة السلطان المسلم فى القاهرة ، وخلال هذه الفترة كانت اعتداءات ملوك الحبشة على جيرانهم المسلمين ، ونقضهم لعهود الهدنة وما إلى ذلك من مظاهر العدواة تصل أنباؤها إلى سلطان مصر ، فأضافت عبئا جديدا على كاهل السلاطين فوق مايلاقونه من الحروب الصليبية وآثارها .

---

(١) ص ٧٠ من Islam in Ethiopi Trimingham
و ص ١٧٤ بين الحبشة والعرب . لعبدالمجيد عابدين .

ولقد شهدت هذه الفترة تحصن الصليبيين فى قبرص ، واتخاذها قاعدة للقضاء على تجارة المسلمين وقوافلهم البحرية ، وتعدت ذلك بالهجوم على الإسكندرية والبقاء بها ثمانية أيام ، دمروا فيها المدينة ، ثم غادروها بسرعة (١٣٦٥ م) ثم غارتهم على مدينة طرابلس الشام فى ٧ يناير سنة ١٣٦٧ .

ولم تكن دولة الاسلام تطيق تحت هذه الظروف العصيبة أن تتحمل وجود دولة مسيحية فى جنوبها (مملكة النوبة) ودول أخرى مسيحيةتحارب المسلمين بلا هوادة وتحاول القضاء على الاسلام فى الحبشة ، فى الوقت الذى تلتمس فيه من السلطان إيفاد المطران وتسهيل مرور الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس .

ولقد كان ملوك الحبشة يعلمون بغضب سلطان مصر عليهم من جراء تصرفاتهم العنيفة تجاه المسلمين ، الأمر الذى جعلهم يلجأون إلى ملك اليمن لكى يتوسط لهم لدى سلطان مصر لإرسال المطران وأرسلوا رسائلهم للسلطان عن طريقه ، وفى مرة أخرى حاولوا إرسال طلبهم عن طريق ملك النوبة .

وما أن اكتشف السلاطين علاقة المسيحيين فى الشرق الإسلامى بالحملات الصليبية كما سبق أن ذكرنا ، حتى عولوا على أخذهم بالشدة . بعد أن ثبت لديهم أن سياسة التسامح التى سادت قبل ذلك فى عصر الدولة الأيوبية وفى حكم صلاح الدين على وجه الخصوص ، لم تكن ذات أثر ، ولم يقابلها الصليبيون والمسيحيون فى مصر والشام إلا بالجحود .

ويعمد بعض الكتاب إلى إغفال ذكر كثير من الحوادث وايرادها بصورة مشوهة ، لا تتفق مع واجب الكاتب فى تحرى الحقائق والالتزام بذكرها على وجهها الصحيح ، مثل ذلك ما جاء فى (ص ١٨٩ من كتاب الإسلام فى أثيوبيا لزاهر رياض) من أن الأوربيين «كانوا يعتقدون بأن التوابل تأتى من الجنة ، وأن المماليك يعملون من جانبهم على رواج هذه الخرافات لغرض أخفاء مصادر هذه التجارة عن الإفرنج لئلا يبلغهم خبر ملك مسيحى فى الجنوب هو ملك الحبشة فيقوم بينهما اتفاق لا يأتى إلا

بأبلغ الأضرار على مصر الإسلامية التى تقع بينهما ، ويؤيد ذلك بقصة الجاسوس الحبشى التى حدثت فى سنة ٨٢٢ هجرية (١٤٢٥ م) حين قبض عليه السلطان برسباى عندما كان موفدا من ملك الحبشة إلى ملك الفرنجة» . الى آخر القصة ، التى سنذكرها فيما بعد ويدلل على أن القبض على ذلك الجاسوس كان لمنع وصول أخبار وجود المملكة المسيحية فى أفريقيا الى الدول الأوربية التى كانت تجهل وجودها ، حتى لا تهتم بها وتعمل على معونتها .

والمعنى الوحيد الذى يمكن أن يخرج به القارىء من إيراد الحوادث على هذه الصورة ، هو إيهام القارىء بعدم وجود أية معرفة أو اتصال بين الصليبيين وبين ملوك الحبشة من قبل ، وهذا يخالف ما أثبته التاريخ فى كثير من المراجع الهامة ، ونخص بالذكر منها ما أجمعت عليه المصادر من أن السلطان صلاح الدين الأيوبى عندما استولى على بيت المقدس ١١٨٩ م ، (أى قبل التاريخ الذى جاء ذكره فى ص ١٩٨ من الكتاب المشار اليه ، بحوالى ٢٥٠ سنه) شمل دير الأحباش برعايته ، وأنه بالرغم من وعورة الطريق فقد تكاثرت أفواج الحجاج من الحبشة الى بيت المقدس [١] .

ولقد وقع السير بدج Bubge فى نفس الخطأ حين ناقش معلومات أوروبا عن ملك الحبشة المسيحى بما يفيد عدم وجود صلة أو معلومات عنه [٢] — بينما يقرر (رانسمان) أنه كان يوجد بالأراضى المقدسة مجمعات دينيه وأديرة للأقباط [٣] المصريين والأحباش وفى مدينة القدس بالذات ، وذلك قبل الحرب الصليبية [٤] .

ولعل فى هذه الأدلة التاريخية الهامة ما يؤكد وجود جالية حبشية مقيمة

---

(١) ص ٥٦ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

(٢) ص ١٢٥ سير بدج Budge .

(٣) وفى الوقت الحاضر يحتدم بين إقباط الحبشة على ملكية (دير السلطان) بالقدس وهو الدير الذى حماه لهم السلطان صلاح الدين إبان الحرب الصليبية ومنذ ذلك الوقت اشتهر بهذا الاسم — يزيح الستار عن أن الأحباش كانوا بالقدس إبان الحروب الصليبية وقبلها .

(٤) A Histry of the Crusades by Sir Steven Runciman ٢٩٥ Part 2.

فى بيت المقدس قبل ذلك التاريخ ، ولسنا بحاجة إلى كثير من إمعان الفكر حتى نؤمن بوجود صلة بين المسيحيين الأحباش وإخوانهم فى الدين من الصليبيين قبل ذلك العهد وبعده ، ممــا لا يستقيم معه ماجاء فى الكتاب المذكور ، وكذلك فى كتاب السير بدج ، عن محاولة المماليك حجب أخبار وجود دولة مسيحية إلى الجنوب من مصر ، حتى لاتتفق مع الفرنجة فيصيب مصر الاسلامية من ذلك ابلغ الأضرار ، ومع كثرة الأدلة على الصلة القديمة والمعرفة الوثيقة ، فاننا لانريد أن نقف كثيراً عند هذه النقطة ، مفضلين الاستمرار فى سرد الوقائع التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع كما درجنا عليه من تسلسل .

* * *

« والواقع أن وجود جاليه كبيرة من الأحباش مقيمة اقامة دائمه فى بيت المقدس ، ووجود دير لهم فى تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة ، أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولا بأول ، ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية فى غرب أوروبا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية ـ وهى الحبشة ، فى محاربة المسلمين ، وبخاصة فى الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر » .

ولقدسبق أن قدمنافى الفصل السادس أن البابوية أرسلت عدة سفارات فى القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة فى محاربة المسلمين ، وكان أن أفلحت تلك الاتصالات فى استثارة ملوك الحبشة ، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمــة مصر من ناحية الجنوب فى الوقت الذى هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥ ، كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) فى غزو مصر ـ وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦ م ،

وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات فى هذا الشأن ولكنها باءت بالفشل - راجع المقريزى - الإلمام ص ٤ ، (وكذلك النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ طبعة كاليفورنيا) كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجويع مصر ، وهى الفكرة التى ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أراجون والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى) [١] .

* * *

ومما يؤيد صحة وقوع هذه الاتصالات المريبة التى وقعت فى ذلك الوقت بالذات تلك الحادثة التى سبقت الإشارة اليها والتى حدثت فى عام ١٤٢٥ م (أيام حكم السلطان برسباى) عندما قبض على تاجر فارسى يدعى نور الدين على تبريزى ، اعترف بأن اسحق ملك إثيوبيا أرسله إلى ملك أراجون (الفونس الخامس) يدعوه إلى الانضمام له لمحق الإسلام ، ورفع لواء المسيحية بأن يغزوها من ناحية البحر فى الوقت الذى تغزوها فيه جيوش أثيوبيا من ناحية البر، وأن هذا الرسول قدسافرمن الحبشة فعلا إلى أوروبا عن طريق الصحراء، وأنه الآن فى طريق عودته إلى أثيوبيا يحمل نتيجة هذا السعى ، فقبض عليه فى مصر وحوكم أمام قاضى القضاه شمس الدين محمد ، وحكم عليه بالإعدام فأركب جملا وطوف به فى شوارع القاهرة والفسطاط وبولاق . . .) [٢] ولقد تأيدت هذه الواقعه بالمصادر العربية ، وكذلك من ملفات نابولى ، التى ورد بها نص الرسائل المتبادلة مع ملك أراجون (عهد الإمبراطور زرء يعقوب) .

* * *

---

(١) العصر المماليكى ص ٢٥٠ للدكتور سعيد عاشور .
الحركة الصليبيه ج ٢ ص ١٢١٣ — ١٢١٤ سعيد عاشور .

(٢) الاسلام فى أثيوبيا ص ١٩٠ زاهر رياض — ص ٢٨٠ ،Quatremer

وذكر بعض المؤرخين الأوروبيين (أن مسيحى الشرق انساقوا مع الصليبيين ، ولكن بعد أن تخلى الصليبيون عنهم وفشلت حركتهم الصليبية أظهر المسيحيون السوريون فيما بعد شعورهم الحقيقى نحو المسلمين ، أما طائفة المارونية اللبنانية فظلت على ولائها للكنيسة الرومانية والصليبيين ، وخدم أبناؤها فى جيشهم بإخلاص حتى ١١٨١ م) [1] .

« ومهما يكن من شيء فالحقيقة التى لا يمكن أغفالها ، أن الحروب الصليبية جلبت الشر على المسيحيين الشرقيين ، ومزقت علاقتهم الطيبة مع المسلمين ، وخلفت عندهم نوعاً من التعصب الأعمى ضد المسلمين ، قابله نوع مثله عند المسلمين ، صحيح أن السلطان صلاح الدين وأخلافه من بعده خففوا من حدة هذا التعصب ضد المسيحيين ، غـــير أن خلفاءهم من سلاطين المماليك ، كالوا لرعاياهم من المسيحيين الصاع صاعين ، بسبب استطالتهم على المسلمين بدمشق مدة استيلاء التتار عليها وتخريبهم المساجد والمآذن ، وشرب الخمر فى نهار رمضان ورشه على ثياب المسلمين فى الطرقات . . . ثم أدبرت الدنيا عن التتار ، وأقبلت على سلاطين المماليك فقتلوا عدة من النصارى وانتقموا للسلمين منهم [2] ، وعلى هذه الصورة جرى الزمن ، واتسعت الهوة بين الشعبين الإسلامى والمسيحى وورث الشرق الأدنى عن هذه الحروب الصليبية ذكريات التنافر بين المسلمين والنصارى والحزازات الدينية التى لم تنطفيء جذوتها [3] » .

ولقد شرح جرجى زيدان ملخصاً لتلك الحوادث فى الجزء الرابع من (تاريخ التمدن الإسلامى) ص ١٤١ وما بعدها وقال « على أن أفظع ماقاساه النصارى واليهود من الاضطهاد ، إنما كان فى دور الاضمحلال أو التقهقر فى

---

(1) Grousset ; L'Empire pp. 311-313 & Runciman A. 3 p. 477.
وصفحة ١٩٦ الحرب والاسلام زمن العدوان الصليبي — د . نظير حسان سعداوى .

(٢) السلوك ج ١ ص ٤٢٥ ، ٤٣٢ وكذلك ص ١٩٧ الحرب والسلام — د . سعداوى .

(٣) تاريخ العرب لفيليب حتى ص ٧٨٠ .

العصور الإسلامية الوسطى ، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية ، لأنها كانت سبباً كبيراً فى إثارة التعصب بين الأمتين ، فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الأفرنج سراً ، فبالغ أمراء المسلمين فى الفتك بهم ، فنصارى (قاره) مثلا — وهى بلدة بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين فى أثناء الحرب ، ويبيعونهم خفية للأفرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر فى أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم . . . . . لأن الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين فى بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشـــد منها ، وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصروا ، وإذا دخلوا بلداً إسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم فى الجوامع ، ولما تغلب نصارى الأندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن - أى المسلمين الذين يعيشون فى الأمارات النصرانية - ولما غلبوهم فى آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم».

«على أنك لو تدبرت ما كان يلحق النصارى من الأذى فى أبان التمدن الإسلامى لرأيت سببه فى كثير من الأحوال وشايه بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة فى العراق ، وكثيراً ما كان أهل النفوذ من النصارى أنفسهم أشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين»[1].

* * *

ولعلنا قد أفضنا فى الحديث عن هذا الموضوع البغيض وهو موضوع الاضطهاد الدينى ، ولكننا قصدنا أن يكون التفصيل توضيحاً لتلك الأعمال التى قام بها بعض سلاطين مصر فى ذلك العهد ، والأسباب التى حفزتهم عليها وأشعلت فيهم نار التعصب الدينى .

---

(١) ص ١٤١ وما بعدها - الجزء الرابع — من تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان .

ولسنا بعد ذلك فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح لعلاقة الأحداث فى الحبشة بالحروب الصليبية وما جرته على العالم من تعصب أعمى ، سفكت فيه الدماء وامتهنت الكرامات ودمرت المدن ومعالم الحضارة ، وتوارت الإنسانية خلالها وبرزت الهمجية والبربرية .

كذلك أصبح واضحاً - كيف استباح الملوك والحكام لأنفسهم اضطهاد ماالديهم من أقليات وكيف كان بعض ملوك الحبشة يرسل الرسائل المعسولة التى تفيض خضوعاً لسلطان مصر ، مشيداً ومتعاهداً على التسامح وحسن الجوار ، بينما هو فى نفس الوقت ينزل بالعسف والشدة على المسلمين كما حدث فى عهد « يكونوا أملاك » .

* * *

لذلك لايستغرب أن يلجأ السلطان الظاهر بيبرس ، وهو يعانى مايجابهه من ظروف عصيبة ، أن يرفض ارسال المطران إلى الحبشة ، « وأن يقوم السلطان برسباى بحبس البطريرك وضربه وفرض ضريبة كبيرة عليه ، وأخذ تعهد بألا يقوم البطريرك بالاتصال بملوك الحبشة بنفسه مباشرة ، ولا بوكيله لا ظاهراً ولا باطناً ولا يولى أحداً على بلاد أثيوبيا لا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ، ووقوفه على كتابته وأنه متى خالف ذلك وانتقض عهده ضربت عنقه » (١) .

« كما أن ماحاق بمسيحى مصر من الاضطهاد خلال الخمسين سنة الأخيرة من حكم المماليك والسنين الأولى من الحكم التركى » ، لم يجعل لهم مجالا فى التفكير فى أمور الحبشة فقـــد فرض السلطان العادل (١٤١٢ م) على الأقباط ضريبة خاصة وأنشأ لهذا الغرض مكتباً يقيد فيه أسماء مواليدهم ووفياتهم كما صرح السلطان المحمودى (١٤١٢ — ١٤٥٣) ، للمماليك

---

(١) ص ١٤٨ الاسلام فى أثيوبيا للزاهر رياض .

باضطهاد الأقباط فنشأت حالة من الاضطهـــاد البغيض ، كانت بالنسبة للمصريين كأنها تنفيس عما لحق بهم من قسوة وعنت طال صبرهم عليهما .

تلك كانت النتيجة المنطقية المحتومة التي يتوقعها أي إنسان ، من المسلمين بعد أن تعرضوا في بلادهم إلى مثل ما لحق بهم أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، وما جره عليهم التسامح من إمعان بني وطنهم من المسيحيين في مؤازرة العدو ، واستعداء الممالك المسيحية المجاورة والبعيدة على السواء ، لمعاونتهم في العمل على سحق المسلمين ـ ولا يسعنا في هذا المقام إلا الأسف الشديد على مظاهر الاضطهاد التي تعرضت لها طوائف الديانتين السماويتين ـ وندعو الله ألا يعيد مثل هذه الأيام ، وأن يستمر الجميع في العمل والتعاون في أخاء ومحبة .

* * *

وأصبح المجال مناسباً لأن نذكر في شيء من التفصيل عهود بعض الملوك البارزين من الأسرة السليمانية في تلك الحقبة التي نتكلم عنها من تاريخ الحبشة .

* * *

عهد عمداسيون الأول (Amda Syon) (١٣١٤ — ١٣٤٤)[١] :

وعمداسيون هو أحد الأباطرة ذوي الشأن العظيم في تاريخ الحبشة ، وهو في نظر المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة الحبشية ، حيث أخذت مملكة (أمهرا « امحره ») في عهده في تثبيت أقدامها وتوسع رقعتها ، وأصبح الحكم في الأسرة السليمانية مستقرا .

---

(١) عمداسيون عبارة عن جملة معناها (عمود صهيون ـ أو ركن صهيون أو دعامة صهيون) واسمه الحقيق هو جبرا مسكال أي عبد الصليب .



المقاطعات الإسلامية فى عهد عمدا صيون

(١٣١٤ - ١٣٤٤م)

(ص ١٦ الإسلام فى أثيوبيا - ترمنجهام)

ولقد امتد حكم عمداسيون مدة ثلاثين سنة، قضى نصفها الأول فى مغامرات الشباب وطيشه ، فيحكى عنه أنه عاشر خليلات أبيه ، وأختيه ، مما أثار عليه سخط رجال الدين والمطران ـ ولم يأبه بهم وقبض على المطران وشهر به فى الشوارع ـ ثم أحرق العاصمة ليلا متهما رجال الدين بإشعال النيران ، وبرر بذلك لنفسه أن يبدأ معهم سلسلة من الاضطهادات ، دفعتهم إلى الهروب ، والتجأ عدد كبير منهم إلى أديرة بحيرة تانا(١) ولقد سبق أن ذكرنا فى الفصل الثالث طرفا من أنباء هذا الملك ، وناقشنا ما جاء فى بعض المراجع العربية عن قصة اعتناقه للاسلام ، وأشرنا إلى عدم اقتناعنا بصحة هذا الخبر .

ولكنه تميز فى النصف الثانى من حكمه بتهديده للمسلمين ، وكذلك اشتهر عهده بما أدخله من التنظيم فى شئون الدولة ، وتمكن أثناء حكمه من بسط نفوذه على مقاطعة جوجام . (Gojam) التى يحيط بها النيل الأزرق ، وتخطى نفوذه هذا النهر إلى اقليم بيجمدير (Begemder) ، وبذلك وطد أقدام مملكة الحبشة المعروفة فوق الهضبة وحدد معالمها ، ووحدها فى إطار واحد تحت حكم أسرته ، وأصبح بذلك قادراً على توجيه اهتمامه إلى مواجهة الزحف الإسلامى والعمل على إيقاف خطره الذى بدأ يظهر فى الجنوب ، وامتدت حروبه إلى باقى السلطنات التى تحيط بمملكته من الشرق والجنوب تلك الحروب التى بقيت مستمرة طوال القرنين التاليين(٢) .

ولقد صادف حكمه حدوث موجة من الاضطهاد الدينى للأقباط فى مصر

---

(١) ص ٢٨٨ من ج ١ Budge

وص ٦٧ The Ethiopians by Ullendorff

(٢) نفس المرجع السابق .

فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة التى امتدت من ١٣٠٩ — ١٣٤٠) .

فلقد قام السلطان الناصر قلاوون بتدمير كثير من الكنائس ، مما دفع ملك الحبشة عمداسيون إلى ارسال وفد إلى القاهرة (٧٢٦ هـ - ١٣٢١ م) يطلب من السلطان إعادة بناء الكنائس ، والكف عن اضطهاد الاقباط ، وأنذره باتخاذ إجراءات مماثلة ضد رعاياه من المسلمين ، وهدده بتجويع أهل مصر بتحويل مجرى النيل ، فسخر السلطان من الوفد الحبشى وطرده(٢) .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى سلطان ايفات (حق الدين) تشجع وحول مناوشاته مع المملكة المسيحية إلى حرب حقيقية ، أغار فيها على الحدود الحبشية وأحرق عدداً من الكنائس وأجبر المسيحيين على اعتناق الإسلام .

وكانت هذه الأحداث سبباً فى إثارة الأحباش ، فقام الملك عمداسيون فى عام (١٣٢٨ م) بالقضاء على طلائع مملكة ايفات ، وأرسل الحملات العسكرية فى جميع الجهات مما نشر الفوضى فى الممالك الإسلامية ، وقبض على السلطان حق الدين ، ونصب بدلا منه شقيقه (صبر الدين) .

ولكن سرعان ما تمكن الملك الجديد صبر الدين من تجميع القوى الإسلامية حوله (من ممالك هدية ودوارو) واستعان بقبائل الأجاو فى داخل المملكة الحبشية ، وبينما كانوا يعدون الهجوم من ثلاثة مواقع ، علم الملك عمداسيون بالخبر ، فسبق بالهجوم على القوات الإسلامية واحدة بعد الأخرى وانتصر عليهم ، وللمرة الثانية عاد سريعاً إلى مملكة الحبشة بعد أن وضع على عرش الدول الإسلامية الشقيق الثالث (جمال الدين) .

وامتدت أثناء ذلك حدود مملكة الحبشة إلى أطراف الهضبة عند نهر أواش) .

---

(٢) ص ٧١ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام — نقلا عن المقريزى .

وفيما بين ١٣٣٢م ، ١٣٣٨م ، أرسل المسلمون وفداً إلى سلطان مصر تحت رئاسة عبد الله الزيلعى لكى يتدخل السلطان الناصر قلاوون لإيقاف الحملات الموجهة إليهم فلم يجد أمامه إلا أن يطلب من البطريرك بالكتابة إلى ملك الحبشة . وقد سبقت الإشارة إلى عبد الله الزيلعى الذى ينسب إليه الكثير مما كتب عن تاريخ الحبشة فى هذه الفترة .

عهد سيفا أرعد (Saifa Arlad) (١٣٤٤ - ١٣٧٢م) :

ومعناه (وعاء المسيح) وفى عهد الملك (سيفاأرعد) (Saifa Arad) (١٣٤٤ -- ١٣٧٢ م) استمر على نهج سلفه معززاً لسلطة المملكة الحبشية .

فلقد قامت السلطنات الإسلامية مرة أخرى فى ثلاث محاولات متتالية للتخلص من سلطة مملكة الحبشة وسيطرتها ولكنها باءت جميعها بالفشل ، وانتهت باستيلاء الملك على زيلع وكان فى ذلك نهاية لسلطنة إيفات ، وقتل فيها سلطانها (سعد الدين) الذى اعتبره المسلمون شهيداً .

وبعد زوال سلطنه ايفات أخذت مكانها سلطنة جديدة تدعى سلطنة (عدل Adal) التى كانت فيما مضى جزءاً من إيفات ، تقع إلى الجنوب من زيلع .

* * *

ومن الأحداث الهامة التى تستحق التسجيل أن عدداً من المماليك الذين هربوا من مصر أثناء التنافس السياسى بينهم والذى بلغ أشده فى أواخر عهد عهد المماليك ، هاجروا إلى الحبشة ، فى عهد الملك إسحق (١٤١٤-١٤٢٩م) وقاموا بتنظيم الجيش الحبشى ودربوا الأحباش على استعمال (النيران الأغريقية) وأنشأوا الورش التى تصنع لهم السيوف والدروع وآلات الحروب الأخرى كما قام أحد المهاجرين الأقباط بتنظيم مالية الدولة ووضع نظام الضرائب .

* * *

وأهم ما تجدر الإشارة اليه هنا ، أن السلطنات الإسلامية الناشئة ـ وهى منتشرة ذلك الانتشار الواسع ، كانت تتعرض دائماً للغارات والهجمات الخاطفة ، وما أن تنتصر فيها القوات الحبشية المسيحية المتكتلة فى الهضبة ، حتى تسارع إلى العودة إلى هضبتها ، وإلا فقدت ميزتها وطالت خطوط اتصالها وتعرضت للهزيمة ومن أجل ذلك سرعان ما تقوم السلطنات الإسلامية مرة أخرى فى صورة أخرى أو فى مكان آخر بنفس القوة والعزم والحيوية .

وجاء الوقت الذى قويت فيه شوكة هذه السلطنات ، وأصبحت الغارات والهزائم والانتصارات متبادلة بين الفريقين .

عهد زرء يعقوب (Zar'a Ya 'gob) (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م)[1]

ومعناه (زرع يعقوب ــ أو بذرة يعقوب) بلغت الأسرة السليمانية قمة مجدها فى عهد الامبراطور زرء يعقوب الطويل ، الذى قام بالاصلاحات العديدة فى البلاد ، مما رفعه إلى مصاف عظماء الملوك فى تاريخ أثيوبيا .

ولم يقصر زرء يعقوب فى تعقب المسلمين والعمل على القضاء على قوتهم بصورة قاطعة وبذله فى ذلك قصارى جهده ، فعندما تجددت فى عهده تلك المناوشات التقليدية ، هاجم سلطنة عدل . ولكنه لمس الحقيقة التى تكشفت بعد التجارب العديدة التى مرت على من سبقه من الاباطرة ، أن تلك السلطنات الإسلامية الناشئة ما تلبث أن تنهزم فى موقعة حتى تدب فيها الحياة والقوة بسرعة ، وتنتفض ثانية وتعود إلى عنفوانها مما أجهد مملكة الحبشة وجعلها دائما مهددة مهما أحرزت من انتصارات .

أزاء هذا الموقف لجأ زرء يعقوب اتخاذ سياسة جديدة حكيمة ، وذلك بتركيز جهوده فى جمع كلمة رعاياه المسيحيين وتوحيدهم وإزاله الخلافات ، ووضع هدف واحد نصب أعين الجميع وهو الدفاع عن المسيحية والتمكين

(١) ص ٧٤ ــ ٧٦ Islam in Ethiopia by Trimingham

لها والمحافظة على ما بلغته من سيطرة ونفوذ ، ولقد وجد أنه قد أصبح لزاماً عليه أن يكسر شوكة قبائل الاجاو التى كانت تناوئه فجرد عليها حملة عسكرية بجانب الحملة التبشرية ، وضعت النهاية لعصيان هذه القبائل ، وعزز هذه الأعمال بالاصلاحات الإدارية ، وعين على جميع المقاطعات موظفين من عنده بجانب أمرائها يأتمرون بأمره مباشرة ويبلغونه عن كل ما يرونه مخالفاً لأوامره ، ومنحهم من السلطات ما يمكنهم من تنفيذ سياسته .

وبالرغم من استتباب الأمر فى الحبشة للمرة الأولى فى التاريخ على هذه الصورة فإن الامبراطور زرء يعقوب شعر أيضاً أنه لا سبيل لزوال الخطر نهائياً عن المملكة المسيحية إلا إذا عزز جانبه بتوثيق صلاته مع الدول المسيحية الخارجية .

وفى نفس الوقت كانت غارات المغول على البلاد الإسلامية قد انتهت مما فتح الطريق أمام ضغط الإسلام على أوربا وكانت بادرته الأولى استيلاء المسلمين على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣م ، مما جدد عزم الدول المسيحية إلى تناسى الخلافات بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية ، لتدبير أمورهم أمام القوة الإسلامية الجديدة ، وكان قد انعقد مؤتمر فلورنسة (١٤٣٩-١٤٤١م) لمحاولة إزالة الخلافات بين روما والقسطنطينية ، حضره مندوبون عن كنيسة الأسكندرية ، ولقد جاء فى أخبار هذا المؤتمر أنه حضره وفد حبشى أرسله الامبراطور زرء يعقوب ، ويدل هذا الاجتماع على الاتصال الوثيق الذى بدأ يتخذ شكلا عملياً بين امبراطور الحبشة والدول المسيحية فى أوربا ، وأن كان قد سبقته اتصالات أخرى كتلك التى أرسلها الملك إسحق يستحث فيها الفرنج على الهجوم على مصر من الشمال بينما يهاجمها من الجنوب ليقضى على مصر والإسلام - كما سبق ذكره ، كما أنه ثابت من (ملفات نابلى) أن إسحق أرسل التماساً إلى الملك الفونسو الخامس (ملك اراجون) (١٤١٦ — ١٤٥٨) مقترحاً عليه التعاون فى القضاء على المسلمين ، إذ يهدد مملكته فريق منهم فى سلطنة عدل .

ولقد تأيد حدوث هذه الاتصالات وإيفاد الرسل ، بذلك الخطاب الذى أرسله الفونسو إلى زرء يعقوب فى عام ١٤٥٠ يقترح فيه عقد تحالف ، ويشير إلى العلاقات القديمة التى كانت تربط الدولتين[١] ، والثابت أن هذا الاتصال لم يكن الأول من نوعه إذ تفيد الأنباء أنه سبقه اتصال فى ١١٧٧ ثم فى السنوات ١٢٩٧ ، ١٣٠٧[٢] وهذه السنوات تتفق مع أوقات الحروب الصليبية وما أعقبها من مناوشات .

وبوفاة الامبراطور زرء يعقوب فى عام ١٤٦٨م ، انتهى العهد الأول من حكم الأسرة السليمانية ، الذى تميز بالصحوة الكبيرة للمملكة المسيحية ، وحروبها المتوالية وصراعها الطويل مع السلطنات الإسلامية الناشئة الذى انتهى بامتداد نفوذها وسيطرتها ، ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية من حكم الأسرة السليمانية — وهى مرحلة الدفاع .

---

(١) ص ٧٦ من الاسلام فى أثيوبيا رمنجهام .

La Politica Orientale di Alfonso di Argona Archivio Storico Per le Province Napolitane XXVii (1902) 39-43 & 65-66.

(٢) ص ٣١٠١ سير بدج Budge

الفصل الثامن

صراع الإسلام فى أوربا

امتد سلطان الإسلام وعظم شأنه ودخل إلى أوربا من جهات ثلاثة . أولها إلى أسبانيا حيث دخلها فى عام (٧١م — ٩٢هـ) وخرج منها فى (١٤٩٠م) بعد أن قضى بها ما يزيد عن سبعة قرون ، والثانية باستيلائه على صقلية فى عام (٨٢٧ م) ومعها جزر سردينية وكريت (اقريطش) وامتدوا فى جنوب ايطاليا إلى أن بلغوا روما ، وانسحبوا منها خلال القرن الحادى عشر -والثالثة بواسطة الأتراك العثمانيين الذين زحفوا على الامبراطورية الرومانية الشرقية واستولوا على آسيا الصغرى ودخلوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، وجعلوا منها قاعدة لغزو أوربا ووصلوا إلى مدينة فيينا ثم تراجعوا وبقيت القسطنطينية فى أيديهم إلى الآن .

وفى الحقيقة أن الإسلام كان لابد وأن يصطدم مع المسيحية منذ بزوغه ، وحدث هذا الصدام فعلا فى الجولات الأولى للجيوش الإسلامية فى فجر الإسلام ، وكانت موجهة الى الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن الخلاف العقائدى بينها وبين كنيسة روما وصراعهما الداخلى على النفوذ ، جعل الدول الأوربية الغربية غير حافلة بما تتعرض له الامبراطورية الشرقية من خطر المد الإسلامى .

ولكن لم يمض على ذلك قرن من الزمان حتى كان الإسلام يطرق أبواب أوروبا بعنف ، مما أيقظ دولها النائمة ، وبعث فيها من الحركة والعمل ما لمسنا آثاره العظيمة فى عهد النهضة بعد ذلك .

المسلمون فى أسبانيا :

كانت أسبانيا قبل الفتح العربى تعانى من الاضطراب الداخلى والتفكك ،

فأمراؤها يكيدون لبعضهم البعض ويتربص كل منهم بالآخر حتى ضعفت سلطة كبيرهم عـــلى صغيرهم ، بينما بلغت الفوارق الطبقية حداً مزق كيان الدولة .

قسم الأشراف ورجال الدين البلاد إلى إقطاعيات كبيرة وملكوا القصور الفخمة ، وانصرفوا إلى اللهو وماتت فيهم حمية آبائهم الشجعان ، وتركوا الصناعة والزراعة فى أيدى الأرقاء والفلاحين الذين كانوا يعيشون فى ذل وضعة ، كما أثقلوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب .

وكانت الطبقة الدنيا — التى يتكون منها أغلب السكان — تشمل العبيد والفلاحين الذين انصرفوا إلى الزراعة ، بينما كانت الطبقة الوسطى تلاقى من ضنك العيش أشد مما كان يلاقيه العبيد ، فكان يقع عليهم عبء الإنفاق على الدولة ، فهم الذين يؤدون الضرائب ويجمعون الأموال للأمراء ، مما جر الخراب والإفلاس إلى هذه الطبقة (١) .

تلك كانت حال أسبانيا فى الوقت الذى كان الحكم الإسلامى قد استقر فى شمال أفريقيا ، ونشر العدل والمعرفة وجمع القبائل والممالك حول عقيدة واحدة وأصبحوا أمة واحدة ، رفعت من روحهم المعنوية وعززت فيهم عوامل الكرامة والطموح ، ولا بد وأن أخبارهم قد انتقلت عبر المضيق وبلغت أسماع المظلومين والمهانين ، حتى أنه عندما عبر المسلمون إلى الشاطىء الأسبانى ، لاقوا أجمل ترحيب وتأييد من الشعب - من طبقة الكادحين والأرقاء ، خصوصاً وأن معلوماتهم عن الدين المسيحى كانت سطحية لعدم عدم عناية الحكام بأمورهم - وكذلك من الطبقة الوسطى ومن اليهود ، ومما زاد فى تمهيد الأمور أمام انتشار الإسلام أن الجيش الإسلامى وجد من بعض الأمراء المسيحيين تأييداً ، انتقاماً من منافسيهم من الأمراء الآخرين .

---

(١) ص ٨ ٣ ، ٣٠٩ من تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن .
وص ١٥٤ ، ١٥٥ من الدعوة للاسلام للسير توماس ارنولد

ولقد كان تأثير الإسلام فى أسبانيا باهراً منقطع النظير، فإنه سار لا يلوى على شيء، يبنى حضارة فائقة فى أنحاء البلاد مستندة إلى تقـــدم فى العلوم والآداب والفلسفة حتى أصبحت الأندلس عروس أوروبا ومركز الإشعاع العلمى والحضارى. وبالرغم من ارتداد الجيوش إلى ماوراء الحدود الفرنسية بعد أن استولوا على نصف فرنسا على أثر معركة تور وبوابتيه حيث صدتهم قوات شارل مارتل الفرنسية ، فإن العلوم والآداب والفلسفة والحضارة الإسلامية اخترقت الحدود وغمرت جميع دول أوربا. ولم ترتد مع ارتداد الجيوش الإسلامية.

* * *

وأخذ نجم العرب السياسى فى أسبانيا يأفل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة العربية فيها ذروتهـا ، وشرع النصارى الذين تكتلوا فى الشمال يستفيدون ممـا كان يقع بين المسلمين من الفساد والفتن وصاروا يغيرون عليهم».

« واستغاث عرب أسبانيا ببربر مراكش فى عام ١٠٨٥م ليحولوا دون توالى انتصارات ملك قشتاله وليون ، ولم يلبث البربر الذين جاءوا إلى أسبانيا حلفاء العرب أن ظهروا لهم بمظهر السيد ، وأسفر تنازع العرب والبربر عن انقسام الدولة إلى عشرين دويلة ، وعن قبض المرابطين والموحدين وغيرهم من البربر على زمام الأمور وعن انكماش العرب وتدرج الحضارة فى الانزواء».

« وانتهز النصارى تلك الفرص ، فوسعوا دائرتهم على حساب المسلمين، وأقاموا دويلات كثيرة ، تكتلت فى النهاية فى أربع دول وهى : البرتغال ونبره وأرجونه وقشتالة».

ولم يبق للعرب فى أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزوج ملك أرجونه (فرديناند الكاثوليكى) ملكة قشتالة (ايزابلا) حاصر

غرناطة فى سنة ١٤٩٢ م ، التى كانت آخر معقل للإسلام فى أسبانيا وفتحها ، ثم ضم إليه مملكة نبرة فأصبحت جميع أسبانيا — خلا البرتغال — تابعة لعرش واحد .

« ودامت دولة العرب فى أسبانيا نحو ثمانية قرون ، وأدى انقسامها إلى زوالها أكثر مما أدت اليه الغارات الأجنبية ، وظهر أن العرب وأن كانت عبقريتهم الثقافية من الطراز الأول ، إلا نبوغهم السياسى لم يكن على مستوى ثقافتهم خصوصاً فى عهدهم الأخير عندما سادت الخلافات بين طوائفهم وأمرائهم » .

* * *

وبالرغم من أن فرديناند قد عاهد العرب على منحهم حرية الدين واللغة ، فإنه لم تكد تحل سنة ١٤٩٩ م حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذى دام قرونا . والذى لم ينته الا بطرد العرب من أسبانيـــا . . . وكان تعميد العرب كرها فاتحة هذا الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين ، ولم تتم عمليه التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كردينال طليطلة التقى ، الذى كان رئيسا لمحاكم التفتيش ، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساء وشيوخاً وولدانا ، ولم يكتف الراهب الدومنيكى — « بليدا » — بذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ، أيضاً « فمن المستحب ، إذن قتل جميع العرب بحد السيف لكى يحكم الرب بينهم فى الحياة الأخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم » ، ولم تر الحكومة الأسبانية أن تعمل بما أشار به الراهب الدومنيكى وأيده فيه الأكليروس ، وخشيت الحكومة مما قد يبديه الضحايا من مقاومة ، وإنما أمرت فى سنة ١٦١٠ باجلاء العرب عن أسبانيا فقتل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق ، وأبدى ذلك الراهب — « بليدا » — ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين أثناء هجرتهم ، وهو

الذى قتل مائة ألف مهاجر فى قافلة واحدة كانت مؤلفةمن ١٤٠٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقية .

« وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها فى بضعةاشهر، ويقدر كثير من المؤرخين ، ومنهم « سيدبو » ، عددالمسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطه حتى إجلائهم الأخير بثلاثة ملايين ، ولا تعد مذبحة بارتلميو ازاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذعلى اقترافه مظالم قتل كتلك التى اقترفت ضد المسلمين(١) .

المسلمون فى صقلية وأيطاليا :

فى الأعوام الأولى من فجر الإسلام (حوالى ٣٢ هـ – ٦٥٢م) عندما تحطم أسطول الامبراطورية الرومانية الشرقية أمام الإسكندرية ، بدأت قوة العرب البحرية فى الظهور . ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع البحرى بين القوتين، متخذا أساليب القرصنة التى كانت أسلوب التنافس السائد فى البحار عند المسلمين والمسيحيين على السواء فى تلك العصور .

وما أن جاء القرن الثامن الميلادى حتى بدأت الغارات العربية على جزر الدولة الرمانية الشرقية وكان من بينها غارة على صقلية (١١١ هـ – ٧٢٩م) وأخرى على سردينيه (١١٧ هـ – ٧٣٥م) وثالثة على صقلية مرة أخرى (١٢٢ هـ – ٧٣٩ م) مما يشير إلى أن القوة البحرية العربية قد بلغت من القوة والبأس وسرعة الحركة ما جعلها تسود البحر الأبيض المتوسط .

أرسل العرب إلى صقلية حملة كبيرة فى عام (٨٢٧م)واستمرت فى حروب داخل الجزيرة مدة خمس سنوات ، واستقرت خلالها أوضاعهم بالجزيرة .

---

(١) صفحات ٢٦٦ ، ٢٧٢ من حضارة العرب لغوستاف لوبون (مترجم) .

وتأيدت قواتهم فى عام (٨٣١م) بالقوات الإسلامية التى وصلتها من الأندلس. فأتموا فتح « بالرمو » فى نفس السنة ثم مسينا فى (٨٤٣ م) ثم سيراكوز فى (٨٧٨ م) .

وفى عام (٨٣٧) استنجد أمراء نابلى بالعرب فنزلوا بها[١] ، وأخذوا يعملون لحسابهم واتخذوا من نابلى قاعدة لهم ، وسرعان ما أصبح جنوب إيطاليا تحت نفوذهم .

وفتح المسلمون باقى جزر ايطاليا وكورسيكا ومالطه وجميع جزر البحر الأبيض المتوسط وأصبحوا سادة البحر المطلقين ، ولم يسع البندقية إزاء ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم زمناً طويلا[٢] .

وما أن جاء القرن العاشر حتى دب الخـــلاف بين المسلمين فى صقلية وإيطاليا ، خصوصاً بين عرب الشرق وعرب الأندلس ، حتى عرب الشرق تنازعوا فيما بينهم على نحو ماكانت تتنازع القبائل المختلفة قبل الإسلام .

فلما ظهرت فى ذلك الوقت قوات النورمنديين ، وجدت هزيمة المسلمين هينة ميسورة فاستولت على مسينا فى ١٠٦٠ م ثم بالرمو فى ١٠٧٢ م ثم سيراكوز فى ١٠٩١م ، أما مالطة فقد استولى النورمنديون عليها فى ١٠٩٠م.

* * *

اقتصر النورمنديون على احتلال صقلية وما تبعها من البلاد التى دخلها المسلمون واحتفظوا بالمسلمين فى مختلف الأعمال والوظائف، محافظين بذلك على نظم الإدارة والحكم التى أدخلها المسلمون ، ونشأت من ذلك حضارة من نوع جديد ، خليط من (العربية والنورمندية) وكان هذا النوع من الحضارة هو الذى انتقل وتغلغل بعد ذلك فى كثير من دول أوربا .

---

(١) ص ٦٠٤ تاريخ العرب تأليف فيليب حتى الطبعة الثامنة (ماكيلان) .
(٢) ٣٢ حضارة العرب لفوستاف لوبون (مترجم) .

وبذلك أصبحت صقلية مركزاً هاماً للاشعاع الحضارى ، ولعبت دوراً كبيراً فى دفع النهضة الأوربية إلى الأمام(١) .

دخل العرب صقلية فى عام (٨٢٧ م) وتم استيلاء النورمنديون عليها فى ١٠٧٢ ولكن العرب استمروا بالعمل فيها تحت حكم النورمنديين، ناشرين للثقافة العربية حتى أجلوهم عنها فى عام ١١٩٤ م أى أنهم بقوا فى صقلية قرنين ونصف من الزمان حكاماً ، وقرناً آخر معلمين ومرشدين .

* * *

الإسلام فى أوربا وأثره فى الحروب الصليبية :

اشتعلت الحروب الصليبية أثناء حكم المسلمين لأسبانيا ،وعقب جلائهم عن صقلية بعد أن حكموها قرنين من الزمان .

ومما لاشك فيه أن نجاح المسلمين فى النفوذ إلى أوربا على الصورة التى ساد فيها الموقف فى أسبانيا وصقليه وهدد فرنسا وإيطاليا ، ونفذ إلى روما ، لابد وأن يكون فى كل هذا دافع خفى يملأ نفوس البابوات والملوك بالرغبة فى الانتقام ، ولابد أنهم كانوا خلال تلك العصور يشفقون على زوال الديانة المسيحية والمذهب الكاثوليكى بالذات — فما أن دوت صرخة (بطرس الناسك) واهتزت أوربا لخطبة البابا حتى تحركت ما انطوت عليه النفوس خلال تلك القرون واتحدت تحت هدف واحد وهو القضاء على الإسلام والاستيلاء على الأراضى المقدسة والإقامة فيها بصورة دائمة ، واندفعوا إلى الشرق فى جحافل وأساطيـــل ترفرف عليهم راية التعصب الدينى . ولكن كان الفشل نصيب تلك الحملات المتوالية التى استمرت ما يزيد عن قرنين من الزمان .

* * *

---

(١) ص ٦١١ — ٦١٢ تاريخ العرب لفيليب حتى .

غارات التتار :

ما أن زال خطر الصليبيين وانسحبت جيوشهم من البلاد الإسلامية فى عام (١٢٥٠) حتى زحف على الدولة الإسلامية خطر داهم من الشرق . وهو خطر التتار « المغول » .

وكان مركز القوة فى الدولة الإسلامية وقتئذ فى مصر والشام ، وإليهما يرجع الفضل فى الانتصار على الصليبيين وإجلائهم عن البلاد ، بفضل السلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك ، وأما الخلافة فكانت طوال تلك السنين باقية فى بغداد فى أواخر عهد العباسيين ، حيث كان الخلفاء يحملون اللقب دون أن يكون لهم أثر أو سلطة.

وصل المغول إلى شمال العراق فى عام (٦٣٤ هـ - ١٢٢٦ م)

وفى عهد هولاكو التفتوا إلى بغداد فدخلها المغول فى (٦٥٦هـ-١٢٥٨م) وأعملوا فيها القتل والتخريب فحطموا المدينة وبلغ عدد القتلى مليون قتيل، وانتهى بذلك عهد بغداد الذهبي وزال سلطانها ومجدها الذى استمر خمسة قرون منذ إنشائها وعندما أتى تيمورلنك فى أواخر القرن الرابع عشر قضى على ما تبقى منها ، وفر كثير من أهلها إلى مصر .

وجاء دور الشام ، فهاجمها المغول فى (٦٥٧ هـ - ١٢٥٩ م) وسقطت مدنها واحدة بعد الأخرى وآخرها دمشق ، وكان من أبرز الأمور فى حملة المغول على الشام وعلى الأخص دمشق - تحالف الأرمن ، وبقايا الفرنج من مخلفات الغزوات الصليبية فى سوريا وجبل لبنان - على توقيع أشد العقوبات بالشام العربى .

أراد هولاكو أن يكمل رحلته الدموية بغزو مصر فأرسل إلى سلطانها قطز (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) يهدده وينذره ، فرفض قطز التهديد والإنذار وأعد العدة للقاء هولاكو بجيش مصرى تحت قيادة الأمير بيبرس. ووقعت بينهم عدة مواقع انتهت بانتصار المصريين على المغول فى موقعة عين جالوت

(يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م) وتعتبر هذه الموقعة من أشهر مواقع التاريخ ، إذ أنها فضلا عن تدمير الجيش المغولى فإنها أوقفت زحفه وخطره على باقى أنحاء العالم .

واستمر زحف الجيوش المصرية فحررت دمشق وحلب ، واتحدت مصر والشام على إشلاء المغول .

وأغار تيمورلنك بعد ذلك على سوريا فى عام (١٤٠٠م) حيث استولى على حلب فى ثلاثة أيام وأقام هناك هرما آخر من جماجم عشرين ألفا من القتلى ، ودمر مدارسها ومساجدها ثم سقطت فى يده حماة وحمص وبعلبك. وانتصر على الجيوش المصرية التى سارعت لنجدة الشام واستولى على دمشق فى (فبراير ١٤٠١ م) ، وجرى فى دمشق ما أصاب غيرها من التـــدمير والحريق ولكنه قبض على مهرة الصناع فيها وأرسلهم إلى عاصمته (سمرقند)

ولكن تيمور لنك توفى فى عام ١٤٠٤م أثناء حملته على الصين ، وبموته اهتزت دعائم امبراطوريته وزال خطر المغول ، وانتهى عهدهم .

* * *

لا جدال فى أن ما لاقته الدولة الإسلامية فى مصر والشام خلال أربعة قرون متتالية من الحرب الطاحنة المدمرة والغارات العاتية التى تعرضت لها من الصليبيين من الغرب مدة قرنين من الزمان ، ثم من التتار من الشرق مدة قرنين آخرين ، أنهكت قوى الدولة الإسلامية ، ومما هو جدير بالذكر أن الدولة الاسلامية دافعت عن كيانها دفاع الأبطال وقدمت أرواح أبنائها وجميع إمكانياتها فى سبيل الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين ، ولقد كتب لها النصر على الصليبيين ثم على التتار ، ولكنها كانت قد استنفذت قوتها ودب الوهن والضعف إلى كيانها ، وكان هذا العهد نهاية لمرحلة هامة من تاريخ الإسلام والعرب ، وبدأت المرحلة التى زال فيها سلطان العرب وأصبحوا فيها توابع للامبراطورية العثمانية الإسلامية .

* * *

ظهور الامبراطورية العثمانية :

عندما زال خطر التتار وكانت دولة مصر والشام على ما وصلت إليه من ضعف وإنهاك ، وزالت الدولة العباسية فى بغداد ، أصبح الجو خاليا للأتراك العثمانيين لكى يرثوا جميع البلاد الاسلامية . ويتجاوزوا ذلك إلى الاستيلاء على الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

ولقد بدأ العثمانيون جولاتهم داخل أوروبا واستولوا على جانب كبير من دولها حتى وقفوا على أبواب فيينا ، وكانت هذه الفتوحات فى قلب أوروبا عاملا جديدا من عوامل التأثير الإسلامى الكبير على أوروبا . دهم أوروبا من الشرق عقب زوال خطرهم فى أسبانيا وصقلية ، مع فارق واحد وهو أن الخطرين الأولين كانا للعرب الذين يحملون معهم بجانب الدعوة للإسلام ، حضارة وثقافة ومدنية نقلت أوروبا من عهد الهمجية إلى عصر النهضة والنور ، أما الزحف الإسلامى من الشرق فقد جاء على يد الأتراك العثمانيين الذين حملوا معهم الدعوة إلى الاسلام فقط ، ولم يكن معهم إلا تعاليمه وقوانينه وتقاليده ولكن لم تكن معهم ثقافته وحضارته .

* * *

أخذت دولة المماليك فى مصر والشام تهتز أمام هذه الدولة الاسلامية الناشئة التى أخذت تخرج من نصر إلى نصر فى أوروبا . وحاول سلاطين المماليك واحدا بعد الآخر تعزيز سلطانهم ، وتلمس وسائل الوقاية من العثمانيين، وبدأت بينهم المناوشات فى عهد السلطان قايتباى فى مصر والسلطان بايزيد الثانى العثمانى (١٤٨١ - ١٥١٢ م) .

* * *

وفى عام (١٥١٦م) التقت جيوش العثمانيين مع جيوش مصر والشام فى عهد السلطان قنصوه الغورى ، فى مرج دابق - بالقرب من حلب - وانتصرت الجيوش العثمانية - وتابع سليم الأول زحفه حتى دخل القاهرة

فى (١٥١٧ م) وانتهى إلى الأبد عهد المماليك فى مصر ، وأصبحت مكة والمدينة وباقى بلاد الحجاز تابعة للامبراطورية العثمانية . بعد أن تنازل الخليفة المتوكل آخر خلفاء بنى العباس إلى السلطان سليم عن مخلفات الخلافة .

وسرعان ما امتد سلطان الامبراطورية العثمانية إلى باقى الدول الاسلامية الجزائر (١٥١٨م) ثم تونس (١٥٣٤ م) واليمن فى (١٥٦٨ م) وعدن فى (١٥٤٧) ومسقط فى (١٥٥١ م) وطرابس الغرب فى (١٥٥١) [1]

* * *

مما تقدم يتضح أن القوة البحرية العثمانية فى البحر الأحمر بدأت فى أوائل القرن السادس عشر ، ويمكن أن نستنتج أنها أصبحت ذات شأن فى جنوب البحر الأحمر فى منتصف القرن السادس عشر عندما تم لها الاستيلاء على عدن واستقرارها فى حكم اليمن والجزيرة العربية .

دور البرتغال :

منذ أن تقلص حكم العرب فى أسبانيا فى أواخر القرن الثالث عشر مقتصرا على مملكة صغيرة حول غرناطة ، ومملكة البرتغال تنهض بخطوات واسعة حتى تمكنت من التفوق فى فنون الملاحة والبحار .

وتتميز تلك الفترة من التاريخ بأهميتها الكبرى لكثرة حوادثها والآفاق الجديدة — التى شملتها ، إذ تفتحت البحار والمحيطات أمام المغامرين ، وتفوق البرتغاليون فى هذا المضمار ، وسيطروا فترة طويلة من الزمن على تجارة الشرق بجهود قوة بحرية لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل ، وبدأت حملات البرتغال البحرية فى مياه البحر الأبيض المتوسط ضد مسلمى شمال افريقيا ثم انتقلت بعد ذلك إلى شاطىء افريقيا الغربى يراودهم الأمل فى تحقيق

---

(١) ص ٧٠٢ — ٧١٢ تاريخ العرب لفيليب حتى (الطبعة الثانية ماكيلان) .

أهدافهم الجديدة ، وهى الوصول إلى مصادر التجارة التى سببت ثراء الدولة الاسلامية ، عن طريق آخر غير طريق البحر المتوسط الذى تنافسهم فيه القوات الاسلامية وتقطع عليهم السبيل فيه .

وأخذوا يتقدمون سنة بعد أخرى على طول الشاطىء الغربى لأفريقيا وخلال ذلك تقدمت معلوماتهم البحرية وخبرتهم بأعالى البحار ، وتعدلت على أساسها تصميمات السفن . فكبرت فى حجمها وزادت أشرعتها وكان بطل التقدم البحرى البرتغالى فى مرحلته الأولى هو الأمير هنرى (المتوفى فى ١٤٦٠ م) .

وأخيرا تمكن البحار البرتغالى باثولوميو دياز من اكتشاف الطريق المشهور حول افريقيا فى رحلته الكبيرة (١٤٨٦ — ١٤٨٨ م) حول رأس الرجاء الصالح .

وسرعان ماأتمت البرتغال تجهيز حملة بحرية كبيرة تتعقب اكتشافات دياز ، واستغرقت فى رحلتها عامين (١٤٩٧ — ١٤٩٩ م) تحت إمرة فاسكودى جاما ، وعادت بحمولة ثمينة وعلمت البرتغال من دى جاما أنه لكى يمكن المساهمة فى تجارة البهار والتوابل فلابد من قدر كبير من الصراع لأن تجارة الهند كانت فى يد المسلمين من بلاد العرب منذ قرون ، ويعتمدون على تأييد سلطان مصر الذى حصل على مكاسب ضخمة مما يجبيه من ضرائب على البضائع الهندية التى تمر ببلاده ليشتريها البنادقة لتوزيعها فى أوروبا ، ولم يكن من المنتظر أن يسمح السلطان بسهولة بزوال هذا الاحتكار ، وكانت لديه قوة بحرية كاملة التسليح[1] .

وصمم ملك البرتغال أمانويل (Emmanuel) على الفوز بسيادة البحار

---

(١) ص ٢٨٧ وما بعدها الجزء السادس من « تاريخ العالم » (المقاله من وضع الدكتور ا . ب . نيوتن) .

فجهز أعدادات بحرية منقطعة النظير وأغدق عليه البابا لقب (سيد الملاحة والفتح والتجارة فى أثيوبيا وبلاد العرب وفارس والهند) ، وبرزت خلال المعارك والصراع البحرى بطولة فرانسسكو دى الميدا (Francisco de Almeda) ثم الفرنسو دى ألبوكيرك (Alfonso de Albuquerque) .

أسس البرتغاليون مراكزهم الهامة فى كلكتا وجوانى شرق الهند وغربها ومنهما بدأت أساطيلهم فى السيطرة على البحار ، فاستولى الميدا على سوقطرة وهرمز اللتين تحرسان المداخل الضيقة للبحر الأحمر والخليج العربى وجاء من بعده البوكيرك الذى ضرب عدن بالمدافع .

ونشبت المعركة الحاسمة بين ألميدا والأسطول المصرى (فى فبراير سنة ١٥٠٩ م) أما ميناء (ديو Diu) [١] انتصر فيه البرتغاليون انتصارا حاسما وتمكنت مدفعيتهم الحديثة من إبادة الأسطول المصرى ابادة تامة . وبذلك خلا الجو للبرتغاليين ، وتسلم البوكيرك القيادة . فأخذ يعمل فى همة ونشاط للاستيلاء على جميع النقط الاستراتيجية حتى يمهد للاستيلاء على مكه ومصر ولاستعادة بيت المقدس والأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وبالرغم من ضخامة هذه الآمال ، فانها تدل على مغزى كبير وهو أن قادة البرتغال لم ينسوا بعد تلك الأفكار الصليبية . بل اعتبروا أنفسهم مكلفين بالثأر للحملات الصليبية الفاشلة ، وحملوا لواء الأهداف التى عجز عن تحقيقها ملوك أوروبا الصليبية السالفين .

وبالرغم من عدم تمكن البرتغاليين من تحقيق هدفهم الكبير فأنهم تمكنوا من تحقيق عمليتين كبيرتين .

الأولى : تطويق البلاد الاسلامية ، بالسيطرة على منافذ الخليج العربى والبحر الأحمر ، والمحيط الهندى .

---

(١) ميناء بالهند شمال بومباى .

الثانية : تحطيم الأسطول المصرى بحيث لم يعد له أية قيمة حربية يخشى منها ، وتم كل ذلك فى أوائل القرن السادس عشر .

وتذكر المراجع التاريخية أن قادة البرتغال فى حملاتهم البحرية كانت تدفعهم الآمال للالتقاء بالملك القديس جون (Prester John) وهكذا كانوا يسمون ملك الحبشة . تلك المملكة المسيحية التى يعملون على معونتها وتخليصها من سيطرة المسلمين [١]

ولقد أوفد ملك البرتغال (جون الثانى) حوالى عام (١٤٩٤ م)مندوبين للاتصال بملك الحبشة ، انقطعت أخبار أحدهما ، أما الآخر وهو (كوفيلهام Covilham) فقد وصل إلى داخل الحبشة حيث استقبله الامبراطور استقبالا حسنا واقطعه مساحة من الأرض وأسبغ عليه ألقاب الشرف ، ولكنه لم يسمح له بالعودة ، فتزوج من حبشية واتقن لغات الحبشة وعاداتها ، وكانت لهذه المعلومات فائدة كبرى بعد ذلك بثلاثين سنة ، عندما وصل إلى بلاط امبراطور الحبشة وفد ملك البرتغال برئاسة رودريجو دى ليما Rdrigo de Lima عام (١٥٢٠ م) بناء على طلب الملكة هيلينا ملكة الحبشة للاستعانة بهم على حرب المسلمين الذين أخذوا يهددون مملكة الحبشة . ولكن الأمور استتبت قبل وصول الحملة ، فلم يعد لبقائها مبرر فغادروا الحبشة فى (١٥٢٦ م) .

ولقد كان وفد دى ليما على هيئة حملة عسكرية ، نزلت فى مصوع وحولت مسجدها إلى كنيسة ، ثم أخذت طريقها إلى داخل البلاد حتى وصلت إلى النجاشى ، وبذلك تأسس الاتصال بين الحبشة والعالم المسيحى ، وكان من نتائج هذه الحملة أن أرسل ملك البرتغال (جون الثالث) إلى نائب الملك فى

---

(١) صفحات ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٥ Portugal in Africa by James Duffy وكذلك ص ٢٨٤ الجزء السادس من تاريخ العالم ، وكذلك الجزء الثامن عشر من دائرة المعارف البريطانية .

الهند لتجهيز حملة عسكرية وإيفادها إلى الحبشة لمساعدة النجاشى ضد الزحف الاسلامى الذى حدث بعد ذلك ، ووصلت الحملة عام (١٥٤١ م) [1] تحت قيادة كريستوفر دى جاما (Christopher Di Jama).

* * *

ولم تكن باقى دول أوربا بغافلة عن الحبشة ، بل كانت توليها من اهتمامها ماجعلها تعنى بأخبارها وشئونها ، وبينما كان البرتغاليون يجوبون الحبشة ويوطدون علاقاتهم بأهليها ويحصنون مراكزهم ، فان الدول الأوربية الأخرى كانت قد بدأت أبحاثها ودراساتها ، وكانت روما مركزا لهذا النشاط فلقد مر بنا ذكر أعضاء الوفد الحبشى الذى حضر مؤتمر فلورنسة (١٤٤١م) الذى تلاه بعض الوفود الأخرى ، وأخذ بعض الحجاج الأحباش يعرجون على روما فى طريق عودتهم من بيت المقدس ، وتحوى الوثائق البابوية مايؤيد تقديم المعونة المالية لهؤلاء الحجاج ، وفى عام (١٥٢٩م) خصصت لهم كنيسة روما مركزا خاصا بهم بجوار الكنيسة ، وأصبح منذ ذلك الحين مركزا للدراسات المتعلقة بالحبشة ، ونشطت حركة التأليف والترجمة التى كانت قد بدأت قبل ذلك باللغة الحبشية (الجعز) [2]

تمكن البرتغاليون من تعزيز مراكزهم على الشواطىء البحرية وأصبحت لهم السيطرة الفعلية على الخليج العربى والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، وعندما استولى العثمانيون على الدولة الاسلامية لم تتمكن من تحسين موقفها وظهر ذلك واضحا بعد فشلها فى حصار (ديو Diu) عام (١٥٣٨ م) . (شمال بومباى بالمحيط الهندى) .

* * *

لعل القارىء قد لمس مما أوردناه فى هذا الفصل ، أهمية الحوادث التى

---

(١) ص ٧٤ ، ٧٥ The Ethiopians by Ullendorff

(٢) ص ٥ نفس المرجع .

حدثت فى أوروبا فى تلك العهود ، وصراع الاسلام بها ، وكيف أن تسلسل الحوادث قد انتهى إلى ظهور دولتين كبيرتين كان لهما أبلغ الأثر فى مجريات الأمور بالعهود التى تلت ذلك فى الحبشة ، وهما مملكة البرتغال والامبراطورية العثمانية ، ولم يكن من المستساغ أن نقفز بالقارىء مباشرة إلى شرح دور هاتين الدولتين دون أن نخصص فصلا يشرح فى اختصار الظروف التاريخية التى سبقت ظهورهما على مسرح التاريخ ، خصوصا وأن تأثيرهما على مجرى الحوادث فى الحبشة ومنطقتها كان بالغ الأهمية .

* * *

الفصل التاسع

(الغزو الإسلامى فى الحبشة)

فى القرن السادس عشر

رأينا فى ختام الفصل السابع كيف تمكنت مملكة الحبشة من توحيد صفوفها أمام المد الإسلامى ، وكيف انتصر ملوك الحبشة المسيحية على القوات الإسلامية ووصلنا إلى عهد الامبراطور زرء يعقوب الذى بلغت المملكة الحبشية فى عهده أوج قوتها بحيث أصبح وهو فى عاصمته على الهضبة يبسط سلطانه على الممالك الإسلامية التى تحيط به إلى شواطىء البحر الأحمر والمحيط الهندى .

ولكن بعد وفاة الامبراطور زرء يعقوب (١٤٦٨م) لم تستمر الأمور على ما كانت فى عهده ، من سيطرة خلفائه على الممالك الإسلامية واستتباب الأمن ، بل عادت الأمور إلى سابق عهدها من مناوشات واشتباكات وحروب صغيرة . وسرعان ما أصبحت سيادة الامبراطور على الممالك الإسلامية إسمية وشكلية لا تتعدى فى أحسن أحوالها دفع الجزية السنوية ، وكان من أهم أسباب ذلك اتساع الرقعة الإسلامية وترامى أطرافها ، واستمرت الاضطرابات خلال عهود عدد من ملوك الحبشة تنقلت أثناءها الانتصارات من فريق إلى آخر ، حتى كان عهد الملكة هيلينا التى يئست من معاونة السلطان قنصوة الغورى آخر سلاطين المماليك فى مصر ، فى إقرار السلام بين المسلمين والمسيحيين فى الحبشة ، فاتجهت إلى طلب المعونة من البرتغاليين لأجل التعاون على قهر المسلمين (القساه الكفره) وهزيمة الجيش الذى يجهزه سلطان مصر والقضاء قضاء تاما على (جرثومة الكفار) الخ . الخ فى نفس الوقت كان سلطان عدل قد وصلته بعض الأسلحة من العثمانيين

فى الجزيرة العربية ، فتشجع وقام منفردا بمحاربة مملكة الحبشة ولكن الامبراطور هزمه واجتاح مملكة عدل وفى نفس الوقت قام الأسطول البرتغالى من البحر بحرق ميناء زيلع .

بعد كل التحام من هذا النوع ،كان الناس يعتقدون أنها آخر المعارك ، وأن الهدوء والاستقرار سيسودان البلاد ، ولكن سرعان ما تتغير الأوضاع وتتجدد الحروب وفى هذه المرة بدأت مرحلة هامة أخذت فيها الحرب مظهرا جديدا اكتسح فيها المسلمون جميع بلاد الحبشة واستولوا على السلطة فيها كاملة بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد ويطلق المؤرخون على هذه العملية اسم (الغزو العظيم) .

* * *

الغزو العظيم :

فى أعقاب الأحداث السابقة ظلت أحوال البلاد فى اضطراب فترة من الوقت ، لم يقتصر الأمر فيها على الاشتباكات بين الملوك والسلاطين ، ولكن نشطت فى البلاد حركة قطاع الطرق ، مما صرف الملوك والسلاطين الى بذل جانب كبير من مجهوداتهم للقضاء عليهم .

وفى عام (١٥٢٠ م) نقل السلطان أبو بكر بن محمد عاصمته إلى مدينة هرر وكون جيشاً من الصوماليين واستولى به على زيلع وقتل أميرها فى عام (١٥٢٥ م) ، واستمرت الاضطرابات بعد ذلك[1] .

وأهم المراجع التاريخية التى تسجل أحداث هذه الفترة ، هو (فتوح الحبشة) لشهاب الدين الشهير « بعرب فقيه » ، وبالرغم مما يبدو فى كتاباته من بعض الحماس للمسلمين فإنه ولا شك أوفى المراجع وأكثرها دقة .

ولقد بدأ شهاب الدين روايته عن أنباء هذا العهد . بقصة كثيراً ما تتردد أمثالها فى عصور الاضطراب والفوضى تعبر عما يخالج الناس من آمال فى ظهور رجل يخلصهم مما هم فيه .

---

(١) عن كتاب الاسلام فى أثيوبيا تأليف سبلسر ترمنجهام الصفحات (٨٤) وما بعدها

فيقول نقلا عن بعض من يثق بهم من الرواه أن أحدهم رأى فى منامه (النبى « ص » وعن يمينه أبو بكر وعن يساره عمر بن الخطاب وبجوارهم على ابن أبى طالب وبجانبه الامام أحمد بن إبراهيم ـ فسأل من هذا يا رسول الله ـ فقال ـ هذا هو الرجل الذى سيصلح الله به بلاد الحبشة) وكان الإمام فى وقت هذه الرؤيا جنديا بسيطا وعندما زار صاحبها مدينة هرر ووقع نظره على أحمد بن إبراهيم عرفه على الفور . . . الخ) .

ولعل الخيال قد لعب دورا كبيرا فى القصص التى حاكها الناس حول أحمد بن ابراهيم ، وحرص المؤرخ على إيرادها ، ولعله فى ذلك كان يهدف إلى تسجيل كل ما يدور فى ذلك العصر ، وعلى الأخص شدة تعلق الناس بالإمام أحمد بن ابراهيم الأشول .

ويبدو أن الخيـال قد امتد إلى مولد أحمد ونشأته ، بأنه قد روى عن نفسه أنه كان ابنا لأحد قساوسة إيجو ، ولـكنه ترك موطنه إلى عدل إحدى بلاد سلطنة أوفات حيث اعتنق الإسلام ، ولو أن هذه القصة قد وردت على لسان مؤرخ هذا العصر فى كتابه (فتوح الحبشة) إلا أن سبنسر ترمنجهام لم يقم لها وزنا ، وأورد عنه نشأة أخرى قد تـكون أقرب إلى الحقيقة .

* * *

الإمام أحمد بن ابراهيم : الملقب (بالأشول أو الأعسر) ويطلق عليه (أحمد قران Gran) (١٥٠٦ - ١٥٤٣) هو الذى قاد المسلمين وبسط نفوذهم على جميع أرجاء الحبشة .

ولقد قضى نشأته الأولى فى هوبات (Hubat) وهى المنطقة الواقعة بين جلديسا وهرر التى أصبحت فيما بعد مركزاً لعملياته العسكرية ، ولقد وضعه والده تحت رعاية أحد عبيده الذين حررهم يقال له (عدلى أو عدولى) الذى أصبح فيما بعد من كبار مؤيديه ، ولقد تزوج أحمد من (باتى) ابنة محفوظ إمام زيلع وكسب بذلك تأييد اتباع الامام محفوظ .

* * *

وكان الصراع فى ذلك الوقت قائماً بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على البحر الأحمر ، بعد أن قضى البرتغاليون على تجارة العرب فى الخليج العربى والبحر الأحمر ، وسببت زيارات البرتغاليين لملوك الحبشه قلقاً كبيراً للعثمانيين الذين بادروا بالاستيلاء على سواكن وزيلع — وأقاموا العلاقات مع مسلمى مصوع التى كانت فى تلك الفترة تحت حكم البرتغاليين .

وفى نفس ذلك الوقت كان الأسبان قد بدأوا يدخلون إلى الميدان منافسين للبرتغاليين ويروى أنهم عمدوا إلى إمداد المسلمين بالسلاح عن طريق ميناء زيلع فى إحدى محاولتهم للتغلب على تفوق البرتغاليين ، ولكنهم لم يعاودوا الكرة ، وليس ببعيد أن تكون الكنيسة قد تدخلت لإيقاف هذه المساعدة ، ولكن الأغلب أن الأسبان كانوا قد فضلوا الاختفاء من الميدان الأفريقى وتركيز جميع نشاطهم فى فتوحاتهم فى العالم الجديد (أمريكا) .

* * *

أمضى أحمد سنواته الأولى فى صراع مع السلطان أبو بكر فى هرر ، وانتهى ذلك الصراع بقتل السلطان وقام أحمد بتنصيب شقيق القتيل ملكا على هرر وتابعاً له ، وعندما فرغ من هذا الأمر أخذ يعمل على تحقيق الهدف الأكبر الذى شعر بأنه قد خلق له ، وهو أن يكون (إماماً للمسلمين) ويستولى على جميع أرجاء الحبشة . وسرعان ما أعلن رفضه لدفع الجزية لملك الحبشة وعندئذ أصبح قيام الحرب بينهما أمراً لا مفر منه ، وعندما تحركت الحبشة واجتاحت سلطنة عدل ، تصدى لها الإمام أحمد وهزمها شر هزيمة. وعندئذ اشتعلت فى نفوس المسلمين حماسة الجهاد فى سبيل الله ، والتى كانت كامنة فى نفوسهم وقتاً طويلا .

رأى الإمام أن يبدأ بوضع حد لحركات الأمراء الصوماليين ويوطد أركان حكمه فى الصومال ليحمى ظهره ، ثم بدأ فى تنظيم صفوف القبائل

التى انضمت له ، فى مهارة فائقة ، وجعل منهم قوة ضاربة منيعة ، وعندما تم له ذلك ، بدأ الجهاد .

ويروى أن بعض المسلمين خاطبوا الإمام قبل إحدى المعارك، يحذرونه من مغامراته التى لم يقدم عليها آباؤه أو ما سبقه من الملوك والسلاطين الذين كانوا يكتفون بمناوشة المملكة الحبشية بالاغارات التقليدية على حدودها فقط ، أما حربهم داخل بلادهم ففيه خطر كبير قد يعـود على المسلمين بالخسران ، ولكن الإمام أحمد أجابهم بأن الجهاد فى سبيل الله لا يمكن أن يعود بالخسران على المسلمين .

* * *

ولقد حاز الإمام أحمد نصرا كبيراً على الأحباش فى (١٥٢٩م) ، ولكنه كان قلقاً من (الجالا البدو) الذين يشكلون جانباً هاماً من قوته ، لما يتصفون به من خصال يصعب ترويضها ، فبالرغم مما بذله معهم من مجهودات، فضل كثير منهم العودة إلى مواطنهم حاملين معهم ما غنموه من أسلاب ، لذلك أخذ فى تكوين جيشه من جديد معتمداً على العناصر التى تدين له شخصياً بالولاء دون غيره . واستغرق ذلك منه عامين وأصبح على استعداد للقيام بغزوته الكبرى .

ومنذ ذلك التاريخ وانتصارات الإمام أحمد سلسلة متصلة فاستولى فى (١٥٣١ م) على دوارو وشوا ، ثم أمهره ولاستا فى ١٥٣٣ م ،وفى طريقه استولى على السلطنات الاسلامية — بالى وهديه وسيداما وجوراجى .

ولقد اتسمت غزوات الإمام أحمد بالسرعة والمفاجأة والحماس والشدة التى لا تقاوم وتخللتها كثير من مظاهر القسوة ، وما أن جاءت سنة ١٥٣٥م إلا وكان الإمام أحمد قد سيطر على وسط الحبشة وجنوبها ، وبدأ فى غزو مقاطعة تيجرى التى دانت له بالرغم مما بذلته من مقاومة عنيفة ، وامتدت

سلطته إلى شواطىء البحر من الشرق حتى مدينة كسلا من الغرب . وهناك اتصل بالمقاطعات الإسلامية التى كانت وقتئذ بشرق السودان .

وقد أدت هذه الانتصارات المتوالية التى أحرزها الإمام أحمد بن ابراهيم إلى انضمام كثير من أعداء الامبراطور (لبنا دنجل) اليه ودفعهم اعجابهم بالإمام أحمد إلى اعتناق الإسلام ، كذلك عاد إلى الدين الإسلامى جميع الذين أرغمهم أباطرة الحبشة فى السابق على ترك الإسلام ، كما فعل أحد القواد ومعه عشرون ألف مقاتل إذ كتب إلى الإمام أحمد يقول (أنا مسلم ابن مسلم ولكنهم أسرونى ونصرونى وما زال قلبى مطمئناً بالإيمان ، وأنا الان جار الله وجار رسوله وجارك ، إن تقبل توبتى ولا تؤاخذنى بما عملته ، فأنا تائب إلى الله وهذه جيوش الملك الذين هم معى ، أنا احتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا)[1] .

وأمام هذه الانتصارات المتلاحقة أصبح امبراطور الحبشة (لبنا دنجل) طريدا ينتقل من جبل إلى آخر ويهرب من مقاطعة إلى أخرى ، ولقد أحس فى آخر الأمر بحكمة الملكة هيلينا وبعد نظرها عندما نصحت الامبراطور بطلب النجدة من البرتغاليين ، واضطر أثناء فراره أمام قوات الإمام أحمد إلى إرسال مندوب إلى ملك البرتغال يطلب منه العون السريع ، ولقد استجاب ملك البرتغال بسرعة وأرسل أسطوله وعليه أربعمائة فارس وعندما وصلت الحملة البرتغالية (١٥٤١م) كان الامبراطور لبنا دنجل قد مات وحل محله ابنه الامبراطور (جلاوديوس Clawadewos) — «١٥٤٠ — ١٥٥٩»[1] (يسميه الكتاب الغربيون كلوديوس) .

* * *

ويؤكد المؤرخ الإسلامى فى (فتوح الحبشة ج ٢ ص١٧٦) على أن جميع

---

(١) الدعوة للاسلام للسير توماس أرنولد ص (١٣٨) وعرب فقيه ص(١٨١-١٨٢).

(٢) ص ٨٧ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

سكان الهضبة الحبشية اعتنقوا الإسلام ، ويبدو أن بعضهم قد اعتنقوه تمشياً مع الأمر الواقع ، واتباعاً لعقيدة القائد المنتصر كما يظهر ذلك من قوله « لم يعتنق سكان (جان زلق Jan Zalaq) الإسلام والتجأوا إلى الوديان والجبال ، فأرسل الإمام لهم قوة عسكرية بقيادة خالد الورادى الذى اضطرهم إلى اعتناق الإسلام .

كما أن المؤرخ كونزلمان[1] يقول أنه « لم يبق على مسيحيته أكثر من العشر وهؤلاء هم الذين فضلوا دفع الجزية ، ولقد حاول بعضهم مقاومة الإمام وتحصنوا فى بعض الاماكن فهجم عليهم الإمام فاستسلمت الغالبية وقبلت دفع الجزية ، أما من رفضوا فقد قضى عليهم الإمام » .

بعد أن أتم الإمام غزو (جوجام Cojjam) فى ١٥٣٣ م حتى بحيرة تانا ثم منها إلى حدود السودان ، حاول الامبرا طور جمع شتات جيوشه المنهارة وهاجم ، فهزمه الإمام هزيمة منكرة وتقدمت جيوش الإمام واستولت على أكسوم وحرقتها بعد أن غنمت ما كانت تحويه كنائسها من كنوز ، ثم احتلت شمال الهضبة ثم انحدرت إلى إقليم بيجمدير وتم له بذلك الاستيلاء على شمال الهضبة .

وبعد أن اجتاحت جيوش الإمام جميع أرجاء الحبشة عاد إلى عاصمته هرر (١٥٣٧) وأصبحت الحبشة كلها ، من ممالك إسلامية ومسيحية ، تحت إمرة الإمام وأصبح الامبراطور الحقيقى للبلاد ، وأخذت المسيحية فى الانهيار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتوالية ، وانتهت آخـــــر مظاهر المقاومة فى أقصى الشمال بين أعوام ١٥٣٨ — ١٥٤٠ ، وعندها بلغ الامبراطور (لينا دنجل) أقصى حالات اليأس ، وألح عليه الاجهاد والمرض ومات وهو فى أسوأ حالات البؤس والعوز[2] .

---

(1) Conzelman, Chronique de Clawadewos

(١) ص ٢٢٤ Budge vol II

وعندما استتب الأمر للامام أخذ ينظم البلاد ويرسى قواعد الحكم فى امبراطوريته فقسم البلاد إلى ولايات وأوفد لكل منها والى لحكمها وتصريف شئونها وجباية الضرائب والأموال ، ومما تجدر الإشارة اليه أن الإمام أحمد ابن ابراهيم الأشول الذى أصبح فى ذلك الوقت امبراطور الحبشة وصاحب السيطرة الكاملة على جميع ممالكها وسلطناتها لم يكن قد بلغ بعد الرابعة والثلاثين من العمر .

* * *

وأهم ما تجدر ملاحظته أن الإمام أحمد قد تمكن من تلك الانتصارات الهائلة بعد أن نجح فى توحيد كلمة السلطنات الإسلامية وسيطرته عليها ، والقضاء على أسباب الخلاف والتنافس بينها ، فحقق بذلك ما سبق أن أشرنا إليه فى هذا الكتاب (مما قاله عبد الله الزيلعى) من أنه (إذا اتحدت السلطنات والممالك الإسلامية فسوف تكون خطراً كبيراً على مملكة الحبشة المسيحية) ولقد تحقق ذلك على أكمل وجه بواسطة الإمام أحمد الذى جعل من قوة المسلمين المتحدين قوة ساحقة اجتاحت مناطق الحبشة فى مدة يسيرة لا تتجاوز العشر سنوات ، كانت فيها الجيوش الإسلامية منتصرة على طول الخط ولا تكاد الجيوش المسيحية تتجمع حتى تنهار .

* * *

تدخل البرتغال:

وصلت الحملة البرتغالية التى طلبها الامبراطور لبنا دنجل قبل وفاته ، إلى ميناء مصوع فى (١٥٤١ م) وكان لوصولها صدى كبير فى البلاد ، وكانت تتكون من ٤٥٠ من المحاربين المسلحين بالأسلحة والمدفعية الحديثة . وسرعان ما انضم إليهم بعض الأمراء القدامى وأتباعهم (مثل اسحق — بحر نجش - أى أمير المقاطعة البحرية) وتمكنوا من الحصول على مؤازرة

قبائل التيجرى ، ووجد الإمام أحمد نفسه مضطرا للحيلولة دون اتصال الجيش البرتغالى مع القبائل المعادية التى تضمر التأييد لملك الحبشة فى مقاطعة شوا ، ولكن عندما نشبت المعركة مع هذه التشكيلات الجديدة التى تستعمل من الأسلحة ما لم تعهده الحبشة من قبل لحقت الهزيمة بقوات الإمام أحمد فى ١٥٤٣ م وأصيب بجراح .

وفى معركة لاحقة ـ بعد بضعة أيام ـ لحقته الهزيمة مرة أخرى وتمكن بأعجوبة من الإفلات من الأسر ولم تكن لدى البرتغاليين من الفرسان من يمكنه تعقبه والقبض عليه .

ولقد كان لهاتين الهزيمتين أسوأ الأثر على الإمام أحمد الذى سارع إلى العودة إلى الجبال (زوبول) المطلة على وادى الدناكل ، لكى يعمل على جمع قواته وتنظيم صفوفه ، ووجد نفسه مدفوعا إلى طلب المعونة من الوالى العثمانى المقيم فى زبيد باليمن . وكذلك من شريف مكة فأرسلوا له قوة مؤلفة من ٩٠٠ فارس وعشرة مدافع ، فقام الإمام أحمد بالهجوم على القوات البرتغالية والحبشية وانتصر عليهما وقبض على القائد البرتغالى كريستوفر دى جاما وقتله . وفى هذه المعركة فقد البرتغاليون نصف قوتهم وكمية كبيرة من الأسلحة والذخائر .

توهم الإمام أحمد أن مركزه قد توطد ثانية ـ فوقع فى غلطة كبيرة عندما ظن أن الأمر قد استتب له وأعاد الجنود العثمانيين والعرب إلى بلادهم ، وعاد هو إلى مركز قيادته بجوار بحيرة تانا . ولم يكن على بينة بما أصاب مركزه من ضعف وما تعرضت له قواته من انهـــاك ، وسرعان ما جمع البرتغاليون صفوفهم الباقية مع قوات الامبراطور (جلاوديوس) وانتصروا على الإمام أحمد الذى توفى فى تلك المعركة وتفرقت جيوشه (أكتوبر ١٥٤٢ م) وبذلك تغير مجرى التاريخ فى الحبشة . وسارعت أقاليم الهضبة لتقديم فروض الولاء والطاعة مرة أخرى للامبراطور ،

وعادت الأمور إلى سابق عهدها قبل عهد الإمام أحمد بن ابراهيم الأشول[١] .

ولقد كانت الحروب الصغيرة التى امتدت عدة قرون بين الإسلام الناشىء والمسيحية القديمة فى بلاد الحبشة التى انتهت بهذه الغزوة الكبيرة فى عهد الإمام أحمد ، قد اتخذت طابعاً من القسوة والوحشية من الجانبين . فلقد درجت جيوش المسيحيين كلما أتيحت لهم الفرص عند دخول بلاد المسلمين أن يخربوا المساجد وأماكن العبادة بالإضافة إلى الإفراط فى القتل ، كذلك حذت جيوش المسلمين حذوها وطاردت فى أثناء زحفها رجال الدين المسيحى وخربت الكنائس وأفرطت فى القتل والانتقام . ولم تكن جيوش البرتغاليين بخير من هذين المتحاربين فقد عملت على تحطيم المساجد منذ دخولها مصوع فى طريقها إلى داخل البلاد .

ولما كانت الحرب سجالا بين الطرفين خلال تلك القرون تنقل فيها النصر بين الفريقين لذلك كان التخريب شاملا ممتدا .

* * *

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن غزوة الإمام أحمد كانت الغزوة الأولى فى تاريخ الحبشة التى أمكن فيها لقائد أو لملك أو لامبراطور أن يوطد فيها أركان ملكه بغير منازع على جميع أرجاء الحبشة ، وكان عهده فى ذلك فريدا فى بابه لم يتيسر لأحد من الملوك إلا فى أوائل القرن العشرين فى عهد الامبراطور منليك الثانى ـ كما سيأتى ذكره فيما بعد .

* * *

ولقد كانت معونة الأتراك العثمانيين للامام أحمد قصيرة ومبتورة ، ولم يكن مركزهم فى البحر الأحمر قويا ، بل كانت تتحكم

---

(١) ص ٨٩ Islam in Ethiopia by Trimingham

فيه القوة البرتغالية بشكل واضح ، الأمر الذى كان يمكن البرتغاليين من استعمال ميناء مصوع والنزول منها إلى أرض الحبشة فى سلام واطمئنان .

وكان لدخول هؤلاء البرتغاليين وحماسهم فى حروبهم بجانب امبراطور الحبشة ضد المسلمين ، أكبر الأثر فى انتصارهم وإيقاف زحف القوات الإسلامية ، ولقد حققوا بذلك هدفهم من معاونه الملك المسيحى (Prester John) وكانوا فى عملهم هذا محققين لبعض الآمال التى قصرت الحروب الصليبية عن تحقيقها .

* * *

وينحى المؤرخون باللائمة على العثمانيين لتخلخل وضعهم الاستراتيجى فى ذلك الوقت الذى بلغت فيه امبراطوريتهم الفتية عنفوان قوتها .

فبينما امتدت الامبراطورية العثمانية فى قلب أوروبا إلى أبواب فيينا ثم سيطرت على أقاليم شمال إفريقيا ، فإنها وقفت عند حدود مراكش ولم تتعداها بدون سبب أومبرر مفهوم ، وكانت الضرورة الاستراتيجية تلزمهم بضرورة احتلالها لكى تطل على المحيط الأطلسى ، فكانت نتيجة توقفهم عند هذا الحد أن أصبح الجو خاليا للأساطيل البرتغالية ثم بعدهم الأسبان فالهولنديين فالانجليز والفرنسيين لكى تجول وتصول فى شواطىء أفريقيا الغربية،وما أن عبر البرتغاليون رأس الرجاء الصالح حتى وصلوا إلى شواطىء العرب والهند وطوقوا الامبراطورية العثمانية فى الشرق وسدوا عليها السبل عن ذلك الطريق الطويل .

وكان ارتياد هذه البحار المترامية حافزا للبرتغاليين ومن بعدهم باقى الأساطيل الأوروبية على ادخال التحسينات على سفنهم لمواجهة الأسفار فى

أعالى البحار ، فكبر حجمها وازدادت أشرعتها وأدخلت التحسينات العديدة على تصميماتها وصناعتها ووسائل تسليحها ، مما كان له أكبر الأثر فى تفوقهم العسكرى البحرى .

* * *

نتائج الغزو العظيم على المسيحيين والمسلمين :

لم تكن الخسائر فى الممتلكات والأرواح التى صاحبت الغزو العظيم مهما عظمت بذات بال بجانب التغيير السياسى الذى غير وجه الامبراطورية، التى بذل الامبراطور زره يعقوب وخلفاؤه الجهد فى تأسيسها وتوحيدها حول الديانة المسيحية .

فلقد كان تأثير هذا الغزو على نفوس الأحباش بالغ الأثر ، إذ اعتنق الشعب الإسلام فى جماعات غفيرة ، وليس من اليسير تغيير ديانة الناس ثم العودة مرة ثانية إلى ديانتهم الأولى ، ولم تكن الكنيسة الحبشية ورجال الدين بقادرين على مواجهة هذا الموقف ، خصوصا وأن فترة الخمسة عشر عاما التى سيطر فيها الإمام أحمد على الحبشة — بالرغم من قصرها ، قد فصمت عرى الروابط التى كانت تربط أفراد الشعب بملوكهم .

وعندما أرادوا أن يجمعوا شملهم ، كان الملوك يشعرون بضرورة اعتمادهم، فى تعزيز ملكهم ، على الدول الأوروبية الغربية ، بينما شعرت الكنيسة بما فى هذا الاتجاه من خطورة على كنيستهم مما أوجد جفوة بين الامبراطور وبين الكنيسة واتخذ رجال الدين موقفا منعزلا محافظا أقرب ما يكون إلى الجمود .

* * *

ولم يكن تأثير تلك الحروب على المسلمين بأقل من ذلك خطرا . فقد شعر المسلمون أن حالتهم بعد الغزوة كانت أشد ضعفا من حالة أعدائهم.

المسيحيين بل أصبحت من الضعف بحيث صارت أرضا ممهدة لأن تكتسحها قبائل الجالا من الجنوب . فلقد انهكت البلاد حروب الامام أحمد وتسببت هزيمته فى فقد كثير من الأموال والأرواح وخصوصا بين قبائل (العفار Afar) والصومال الذين اعتمد عليهم الامام فى غزوته .

* * *

صحوة مؤقتة :

بعد انتهاء الغزوة الكبرى ، أخذ الامبراطور جلاوديوس فى إعادة تشكيل جيوشه وتنظيمها ، بينما كان (الوزير عباس) يجاهد فى تكوين دولة اسلامية من مقاطعات دوارو وفاتاجار وبالى ، ولكن جلاوديوس قضى على تلك المحاولات وقام باحتلال تلك المقاطعات ولكنه كان احتلالا سريع الزوال ، حيث وصلت طلائع قبائل الجالا إلى بالى وجعلوا منها مركزا للموجات التى أخذت تنبعث منها بعد ذلك .

وكان من أثر ذلك أن أخذت عوامل الاتحاد تظهر بين المسلمين فى هرر وخصوصا تحت تأثير زوجة الامام أحمد التى عزمت على الانتقام لزوجها ، وكان نصيبها الفشل فى محاولتها الأولى ، ولكن فى عام (١٥٥١م)(٩٥٦هـ) تولى القيادة (نور بن الوزير مجاهد ــ أحد أقارب الإمام) الذى تزوج من أرملة الامام بعد أن تعهد لها بالانتقام له ، فقام نور بتحصين مدينة هرر وبنى سورها الذى لايزال يحيط بها إلى الآن ، وكانت محاولاته فى غزواته الأولى غير موفقه ولكن سرعان ماتغير موقف المملكة المسيحية ، عندما أصبحت مهددة من الجنوب من قبائل الجالا ــ ومن الشمال بواسطة الأتراك .

ففى عام ١٥٥٧ م كانت أحوال الاتراك العثمانيين قد أخذت فى التحسن فى البحر الأحمر فاستولوا على مصوع وحرقيقو وتغلغلوا داخل الايتريا وبنوا قلعة فى (داباروا Dabarwa) وقام القائد التركى بعدة مناوشات

عسكرية فاشلة انتهت بعودته إلى قواعده فى سواكن ومصوع وحرقيقو التى بقيت تحت الحكم العثمانى .

وفى أثناء ذلك كان نور بن مجاهد يعزز قواته فى هرر واشتبك مع قوات الامبراطور جلاوديوس فى معركة انتصر فيها على جلاوديوس وقتله (٢٣ مارس سنة ١٥٥٩) ، وتوفى نور بن مجاهد فى عام ١٥٦٧ ، ودفن فى هرر ، ويزور مسلمو اثيوبيا قبره إلى اليوم .

* * *

الفصل العاشر

(قبائل الجالا GALLA)

فى الحقبة التى وصلنا إليها من تاريخ الحبشة ، أخذت تطغى قبائل الجالا على مسرح الحوادث ، وأصبحت احدى العناصر الهامة التى يتكون منها سكان الحبشة . وتميزت بكثرة العدد وانتشارها فى مساحات شاسعة فى أغلب المناطق ولقد سبق أن تكلمنا فى الفصل الثانى عن نشأتهم والعوامل التى أدت إلى هجرتهم . التى بلغت ذروتها فى القرن السادس عشر وفى تلك الفترة التى نحن بصددها مما يدعو إلى تفصيل الحديث عنها وعن الدور الكبير الذى بدأت تلعبه فى تاريخ الحبشة .

وكما سبق أن قدمنا — تفرعت قبائل المهاجرين إلى ثلاثة فروع كبيرة — صومال وعفار ساهو — وجالا وسرعان ما نشأت بين هذه الأجناس فى تكاثرها نزعة إلى التنافس والاستئثار بمناطق الرزق ، وأدى هذا التنافس إلى اضطرار قبائل الجالا التى بدأت تتكاثر بشكل كبير إلى الهجرة إلى داخل الحبشة .

وبينما تأثرت قبائل الصومال وعفار ساهو بالثقافة السامية ، واعتنقت الاسلام منذ ظهوره ، بقيت قبائل الجالا تسيطر عليها الطبيعة البدوية ، مما جعلها بعيدة عن التأثر بالأديان أو بالحضارات المتقدمة ، وبقيت عدة قرون فى وثنية وهمجية منعزلة عن جيرانها . لها جميع خصائص البدو الرحل الذين يتجولون فى جماعات صغيرة منتشرين فى أنحاء البلاد .

وعندما أسلمت قبائل الصومال وعفار أصبحت فى القرن السادس عشر قوة متماسكة تمكنت من دفع ابناء عمومتهم قبائل الجالا إلى المضى فى هجرتهم

إلى الشمال ، وفى نفس الاتجاه الذى اتخذته الفتوحات الاسلامية من الصومال والشواطىء إلى داخل الحبشة . وكان لانتشار قبائل الجالا أثناء هجرتهم فى أنحاء الحبشة أكبر الأثر فى أحوال البلاد وتكوينها . وأصبح لها أثرها الفعال فيما مر بالبلاد بعد ذلك من أحداث تاريخية .

ولقد امتلأت بهم مقاطعات العروسى وهور . وامتدوا إلى نهر ديدسا (Didessa) وسيطروا فى طريقهم هذا على مقاطعة سيداما ، بينما بلغت موجة هجرتهم إلى الانتشار فى مقاطعة شوا ومقاطعة واللو واستقروا فى مجمعات وثنية فى قلب أقاليم مملكة الحبشة المسيحية .

وسرعان ما استقرت بعض قبائل الجالا فى مقاطعات (واللو - شوا - جيما - وهرر) وتركوا البداوة وأصبحوا يعملون فى الزراعة وتربية المواشى ومنذ عهد هذا الاستقرار أخذ الإسلام ينتشر بينهم[١] ونبين فيما يلى تفصيل العوامل التى رافقت انتشار الإسلام بين الجالا - سواء من استقر منهم أو من بقى على بداوته .

* * *

الاسلام بين قبائل الجالا :

تكاثرت قبائل الجالا فى الحبشة وانتشرت فى البلاد على النحو الواسع المترامى الذى سبق ذكره ، وأصبحت فى بعض الاحصاءات تقدر بثلث سكان الحبشة أو يزيدون ، ومن هنا نشأت أهميتهم ، وأهمية البحث فى شئونهم والتعرف على مدى انتشار الاسلام بينهم .

ولقد رأينا فيما قدمناه من مختصر عن ما أورده ترمنجهام فى كتابه (الاسلام فى أثيوبيا) وكذلك أولندورف فى كتابه (الاثيوبيون) من أن غالبية قبائل الجالا قد اعتنقت الاسلام ، إلا أن السير توماس أرنولد (فى كتابه الدعوة إلى الاسلام) قد أولى هذا الأمر عناية خاصة مستندا

---

(١) ص ٨ ، ٩ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

إلى كثير من المراجع الحديثة العهد . مما يجدر توضيحه هنا فيما يلي حيث يقول فى ص ٣٨٤ من كتابه المعرب :

« أما قصة دخولهم فى الاسلام فيكتنفها الغموض ، فبينما يقال إن بعضهم أدخلوا كرها فى الديانة المسيحية ، نجد أن الأمر على عكس ذلك بالنسبة للاسلام لعدم وجود أية سلطة سياسية فى أيدى المسلمين تسهل امكان القيام بأى نشاط أو ضغط فى تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو ، وفى القرن الثامن عشر قيل إن معظم الذين فى الجنوب يعتنقون الاسلام أما الذين كانوا فى الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون » ، وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى فى عـــدد المسلمين ، وفى سنة ١٨٦٧ تنبأ مونتسنجر Munzinger) بأن كل قبائل الجالا ستدخل فى الاسلام فى مدة قصيرة [١] . وإذ قد قيل عنهم (أنهم متعصبون جدا) فانا نستطيع أن نستنتج أنهم لم يكونوا بحال ماغير متحمسين أو متراخين فى اعتناقهم هذا الدين [٢] » .

« وبعض السكان ، فى قبائل الجالا التى تقيم فى بلاد الجالا الصميمة مسلمون» (إذ كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الاسلام حـــول سنة ١٥٠٠ م) [٣] ، وبعضهم الآخر وثنيون ماعدا تلك القبائل التى تقيم على حدود الحبشة مباشرة والتى أرغمها ملك هذه البلاد على اعتناق المسيحية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر [٤] والمسلمون بين الجبال قله أما فى السهول فقد صادف دعاة الاسلام نجاحا رائعاً ، ولقيت تعاليمهم قبولا بين الناس أخذ ينموا نموا سريعا فى خلال القرن الماضى . ويذكر انطوينوستشى (Antonio Cecchi) الذى زار مملكة (لمو) الصغيرة فى سنة ١٨٧٧

(١) Munzinger ص ٤٠٨

(٢) ص ١٠٠ I.L.Krapf Vol. 2 p. 106 (1898)

(٣) Morie Vol. 2. p. 408

(٤) Reclus, tome X P. 309 & Basset PP. 270 - 271.

قصة عن اسلام (أباباغيبو Abba Baghibo) والد الأمير الذى كان يحكم إذ ذاك، على أيدى مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون فى نشر الدعوة فى هذه البلاد فى زى التجار ، وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجالا المجاورة ورجال حاشيتهم وظفرت العقيدة الاسلامية بعدد من العامة كذلك - واستمرت تتقدم بينهم ، ولكن السواد الأعظم منهم كان يتشبث بعبادته القديمة ، وكان بقاء التجار فى البلاد مددا طويلة سببا فى تهيئة الفرص الكثيرة التى عرفوا كيف ينتهزونها للعمل فى نشر الدعوة الاسلامية — وحيثما وضعوا أقدامهم كان من المؤكد أن يظفروا بعدد كبير من الداخلين فى الاسلام فى مدة قصيره من الزمن[1]» .

« وقد دخل الاسلام هنا فى نزاع مع مبشرين مسيحيين من أوروبا ، صادفت جهودهم نجاحا ضئيلا . على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل — وحتى الذين نصرهم (الكاردينال مساجا Cardinal Massaga) فانهم (بعد أن طرد من هذه البلاد) إما أسلموا ، أو عادوا مرة أخرى إلى الوثنية حتى قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة بين الذين كانوا فى أقصى الغرب ونعنى بهم قبائل الليجا ، قد أخذت فى طريقها إلى الزوال ، وقد أخذ تأثير الدعاة المسلمين فى النمو وأصبح دخول كل قبائل الجالا فى الديانة الاسلامية فى مدى سنوات قليلة أمر محتملا» .

ولعل فى التفصيل السابق مايؤيد أقوال ترمنجهام وأولندورف المشار إليها من أن أكثرية الجالا يعتنقون الاسلام — ولقد عنى ترمنجهام فى ص١٦ من كتابه بتقديم جدول شامل لتوزيع مختلف قبائل الحبشة بين المسيحية والاسلام والوثنية وفى رأينا أن لهذا الجدول أهمية كبيرة سوف نرجع إليه فيما بعد ولكننا ونحن نتكلم عن قبائل الجالا نكتفى الآن بأن نلفت النظر إلى

---

(١) ص ١٠٢ جـ ٤ من كتاب الكاردينال مساجا Massaga

ماجاء من توزيعهم فى هذا الجدول مما يؤيد من النظرة الأولى اعتناق غالبية الجالا للدين الاسلامى .

* * *

ويعود ترمنجهام[1] ويتعرض لنقطة هامة فى تاريخ الأديان فى الحبشة ويقول «لما كانت المسيحية هى الدين الرسمى للدولة وللقابضين على الحكم فيها ، فإن زعماء قبائل الجالاقد تعرضوا للضغط من الحكام حتى يتحولوا إلى المسيحية ، وكانت أبرز عهود هذا التحول الدينى فى حكم الامبراطو منليك وعلى الأخص فى مقاطعة (وللامو Wallamo) . ولا يغيب عن البال أن جميع موظفى الدولة وجميع القوات العسكرية وقوات الأمن من المسيحيين، ولقد كانت مقاطعة هرر خالية من المسيحيين فى عهدها السابق ولكنها بعد استيلاء منليك عليها فى ١٨٨٧ م أصبح عدد المسيحيين بها ٣٠٦ر٠٠٠ نفس من بين مجموع السكان البالغ عددهم ١ر٥١٧ر٠٠٠ نفس» .

ولقد أجبرت الحكومة قبائل (الواللوجالا) القاطنين بالهضة على ترك الاسلام فى عهد الامبراطور يوحنا ، ولكن الحقيقة أن غالبيتهم بقيت سرآ على دين الاسلام ، ولقد أحرزت المسيحة بعض النجاح بين قبائل الجوراجى وكمباتا وكفيشيو وازداد نشاط بعثات التبشـير الغربية الكاثوليكية والسويدية» .

كان لابدأن نستطرد فى البحث ونتعدى ماوصلنا إليه فى الفترة التاريخية الهامة فى القرن السادس عشر . لكى نبين أهمية قبائل الجالا — وخطورة الدور الذى لعبته فى تاريخ البلاد . وأصبح لزاما علينا أن نعود ثانية إلى المرحلة التى وقفنا عندها فى تاريخ الصراع داخل الحبشة .

* * *

الهجرة الكبيرة لقبائل الجالا :

كانت غزوة الإمام أحمد مرحلة هامة فى تاريخ الحروب المتصلة المتوالية

---

(١) ص ٢٤ الاسلام فى أثيوبيا .

بين القوتين المتصارعتين فى الحبشة وكانت هذه الحروب بالغة الشدة والضراوة مما أجهد الفريقين، وأحدثت دمارا شاملا فى البلاد وخسارة كبيرة فى الأرواح، وعادت قوات الفريقين إلى قواعدها مثخنة بالجراح محطمة القوى، الأمر الذى أدى إلى زعزعة سلطة الملوك والسلاطين والرؤوس على اتباعهم، ولم تكن سلطة أى منهم تتعدى حدود المدينة التى يقيم بها . وأصبحت البلاد فيما بين تلك المدن المتباعده خالية من السلطان وسيطرة الحكومات .

وخلال الأحداث السابقة كانت قبائل الجالا المشتته قد بدأت تتجمع ووجدت فرصتها الذهبية فى ملء الفراغ الذى حدث بعد حروب الإمام . وبدأت فى غزوها لبلاد الحبشة ، ولم يكن ذلك الغزو على هيئة هجره غزيرة الأعداد فى مبدأ أمرها ، ولكنها اتبعت فى حركتها تلك العادات المتأصلة فى القبائل البدوية ، بأن تشن غارة على جارتها وتعود منها بسرعة ، وبعد قليل من الوقت كبرت هذه الغارات وأصبحت حروبا احتلت فيها كثيرا من أقاليم الحبشة . وبالرغم من هزيمتها فى بعض المعارك إلا أن هذا لم يؤثر كثيرا فى عملية الزحف التى قامت بها القبائل . فاستولت على دوارو وبالى فيما بين عامى ١٥٤٥ ، ١٥٤٧ م ثم استقروا قليلا فى اقليم بالى حيث المرعى الخصيب والمياه الوفيرة ، وبعد ذلك ولوا وجوههم شطر هرر واستولوا عليها فى عام ١٥٦٧ وانزلوا بها كثيرا من الخراب والدمار كما فعلوا بمقاطعة شوا وماجاورها من الأقاليم .

وفى ذلك الوقت أخذوا يجهزون قوات الفرسان المشهورة ، بعد حصولهم على الخيل من أبناء عمومتهم فى الصومال ، وتمكنوا من السيطرة على البلاد التى دخلوها وأصبح مركز الأمراء والسلاطين مزعزعا، ولم يعد فى مقدورهم تعزيز مراكزهم أو استعادة نفوذهم .

وما أن قارب القرن السادس عشر من نهايته حتى كانت قبائل الجالا قد توغلت فى بلاد الحبشة واخضعت تحت سلطانها جميع الأراضى الخصبة فى شرقى الهضبة ، ونفذت إلى مقاطعات أمهره وبيجمدير التى تتكون منها قلب مملكة الحبشة ، وفى نفس الوقت بدأ زحف جانب آخر من قبائل الجالا فى

الأقاليم الغربية والجنوبية فاستولوا على (واللاجا Wallaga) (وسيداما Sidama) وشوا وأصبحت قوات الامبراطور عاجزة تماما عن صد تيارهم ، وما أن بدأ القرن السابع عشر حتى كانت قبائل الجالا تحتل ثلث الأمبراطورية الحبشية[1] واضطربت الأحوال فى مملكة الحبشة المسيحية ، كما اضطربت فى الممالك الاسلامية وبذل الأمبراطور جهودا كبيرة فى محاولة جمع الشمل ، ولكنه كان تائها فى وسط بحر هائج من أفواج الجالا فى كل مكان فعادت حروبه منهم على دولته بمزيد من الخسائر .

وفى نفس الوقت أخذت سلطنة هرر وقواتها فى الاضمحلال وكانت قد انهكتها حروب الامام أحمد ، فلم تعد تقوى على الصمود أمام زحف الجالا . الذين قطعوا الطريق بين هرر وميناز يلع وبذلك ساءت حالة هرر التجارية .

ولكن أحد حكام هرر (ويدعى عثمان) تمكن من إنقاذ الموقف ، بأن عقد معاهدة مع الجالا صرح لهم فيها بارتياد أسواق هرر ، فكانت هذه الاتفاقية فاتحة لترويض الجالا ودفعهم إلى طريق السلام والتفاهم ، وبعد سلسلة من القلاقل الداخلية القصيرة الامد فى هرر استتب الأمر وهدأت الأحوال فى عهد (محمد الخامس) الذى سرعان ما راودته فكرة الحرب . فجهز جيشه وتقابل مع قوات ملك الحبشة المسيحية عام ١٥٧٧م فى معركة كان نصيبه فيها الهزيمة والقتل . وكانت هذه المعركة خاتمة القوة العسكرية لهرر التى لم تقم لها قائمة بعد ذلك .

وبينما كان الجيش الهررى يخوض تلك المعركة سالفة الذكر ، انتهزت الجالا الفرصة وأغارت على حدود هرر وحطمت مايفوق عن مائة قريه وحاصرت مدينة هرر نفسها . ومنذ ذلك الحين وهرر شعبا وحكاما يعيشون تحت تهديد دائم من قبائل الجالا مما زاد فى اضطراب الأحول الداخلية وانتقال الحكم من إمام إلى آخر .

---

(١) ص ٩٣ ، ٩٤ الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام .

وهكذا تضاءلت القيمة العسكرية لأقوى السلطات الإسلامية فى شرق أفريقيا، والتى عرفت فى بداية عهدها باسم ايفات التى استولت فى أوج قوتها على إقليم شوا ، وعرفت بعد ذلك بمملكة عدل وعاصمتها زيلع ، وعرفت فى آخر عهدها بسلطنه هرر ، وتوقف عهد الازدهار والتقدم والمدنية التى كانت تتمتع بها هرر بما لم يكن له مثيل فى جميع ارجاء الحبشة ، وانقطعت عنها القوافل التى كانت تجلب إليها البضائع من مختلف البقاع ، وتعطلت وسائل التقدم الفنى والحضارى الذى جلبه إليها الدين الإسلامى . ووقف الإسلام جامداً، وتوقفت قدرته السابقه على الامتـــداد والتغلغل . وفقد حيويته التى كانت تهدد جميع ارجاء الحبشة ، ولابد من الإشارة بأن الخلافات الداخلية بين امراء هرر كان لها كبير الأثر فى الوصول إلى هذه الحالة من الركود .

* * *

وفى خلال تلك الفترة التى قاست فيها السلطنات الإسلامية ما قاست من هزيمة وتشتيت ،كانت الحبشة المسيحية مشغولة بأحداثها وحروبها ضد قبائل الجالا وقبائل الأجاو والفلاشة وسيداما، ثم بعدذلك وقعت الحروب بينهم وبين الأتراك العثمانيين فى مصوع ، انتهت بعقد صلح بينهما ، انسحب بعده الأتراك بعد أن اكتفوا بتعيين نائب فى مصوع وحرقيقو مع بقاء هذه المنطقة تابعة للحكم العثمانى .

وسرعان ما دب الخلاف داخل المملكة الحبشية المسيحية وعادت المنازعات القديمة بين الأمراء ، الذين أخذ كل منهم ينزع إلى الاستقلال . فى الوقت الذى كانت فيه المملكة تحت تهديد دائم من قبائل الجالا ، التى انتهزت فرصة هذه الخلافات وأمعنت فى تغلغلها داخل المملكة الحبشية[1] .

وبذلك سادت الحبشة كلها ـ بمناطقها الإسلامية والمسيحية مرحلة

---

(١) صفحات ٩٣ — ٩٨ الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام .

جديدة من الاضطراب والعزلة – وانقطعت أخبارها عن العالم مدة قرنين من الزمان كانت فيها البلاد نهبا للاضطرابات ، وتنافس الأمراء على السلطة والنفوذ ، وتفتت البلاد إلى عدد كبير من هذه الامارات التى ظل ينازع بعضها البعض إلى منتصف القرن التاسع عشر — عندما خرجت الحبشة من عزلتها مرة ثانية فى عهد الملك تيودور[١] .

---

(١) صفحات ٨٦ — ٧٨ The Ethiopians by Ullendroff

الفصل الحادى عشر

العلاقة بين الديانتين

فى القرنين

السابع عشر والثامن عشر

حدث فى عهد العزلة التى ذكرناها فى ختام الفصل العاشر ، أمر لم يكن فى الحسبان ، وهو تحالف بين القوى الاسلامية والمسيحية فى الحبشة ضد النفوذ الأجنبي . وهو بالرغم من غرابته فانه يبعث الأمل فى إمكان تحقيقه مرة أخرى فى الوقت الحاضر ، ولذلك فهو جدير بما يستحقه من تفصيل .

* * *

الدعوة الكاثوليكية ومقاومتها :

لم تكن الإمبراطورية الرومانية الشرقية — بعد أن حطمها الاسلام الناشىء ثم من بعده الأتراك العثمانيين — بقادرة على نجدة الحبشة المسيحية التى تعتنق مذهباً قريب الشبه لمذهبهم وإن اختلف فى بعض التفاصيل ، لذلك وقع واجب الدفاع عن مسيحية الحبشة على عاتق الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت فى حملها لهذا الواجب داعية إلى امتداد الحروب الصليبية عن طريق آخر ، قد يؤدى إلى نتائج تخفف من وقع الهزائم التى لحقت بالصليبيين الأوائل .

وكان البرتغاليون هم الذين وقع عليهم عبء تنفيذ هذه المهمة الدينية ، فعملت على تحقيقها بكل ما أتيح لها من قوة وتضحية . وتم لهم النصر على الإمام أحمد ، وأعادت المملكة المسيحية إلى عرشها ، ومكنت لها من وسائل

المنعة ببناء القلاع والحصون وتدريب القوات المسيحية على أحدث وسائل الحروب وتزويدها بالأسلحة الحديثة .

وبعد أن استتب الأمر على هذا المنوال ، تحركت فى نفوس البرتغاليين كوامن النزعات المذهبية وأخذت تعمل جاهدة على تحويل الحبشة المسيحية إلى المذهب الكاثوليكى ، وفصم عرى الصلات التى تربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية ، ولقد ذكرنا طرفا من هذه الأمور فيما سبق من الكتاب بقدر ما كانت تستدعيه المناسبات ، وأصبح الآن من الواجب إيفاء هذا الموضوع حقه من التفصيل .

* * *

بعد أن انتهت غزوة الإمام أحمد وانتهى أمر المناوشات والحروب المحلية التى تلتها وأخذت البلاد تعود إلى نوع من الهدوء الذى فرضه التعب من الحروب . وسادت عوامل الضعف والإنهاك . تحرك البرتغاليون يريدون انتهاز الفرصة لتحقيق هدفهم الكبير .

ولقد كان باقياً بالحبشة عدد لا بأس به من البرتغاليين ، الذين تزاوجوا وأنجبوا وأصبحوا هم وأبناؤهم يشكلون الصفوة الممتازة بين الأحباش ، وكان نفوذهم بناء على ذلك خطيراً ، ولقد ازدادوا أهمية عندما استقر رأى حكومة البرتغال على اتخاذ الخطوات الجدية لإتمام كثلكة المسيحيين فى الحبشة ، بأن أرسلت عدداً كبيراً من القساوسة الجزويت لتوجيه الجانب الروحى من عملية التحويل .

وكان استقبال البلاد لهؤلاء القساوسة ودياً ، وفى عام ١٦٢٢ م تمكن أقدر هؤلاء القساوسة (بدروبايز Pedro Paez) من إقناع الأمبراطور باعتناق المذهب الكاثوليكى ، وأخذ ذلك الامبراطور يحاول إقناع شعبه ، فكانت النتيجة أنه فقد ولاء الشعب وأثار عليه رجال الدين .

ولقد كان البرتغاليون قد شغلوا منصب المطران قبل ذلك فى عهد غزوة

الإمام أحمد واضطروا الأمبراطور لتعيين مطران كاثوليكى برتغالى (برمودز ١٥٣٨ م) ولا جدال فى أن الهزائم التى كانت تتوالى على المملكة المسيحية وتعرضها للزوال ووصول البرتغاليين لنجدتهم ، جعلت الظروف غير مواتية لرجال الدين للاحتجاج فى ذلك الوقت ، خصوصاً وإن علاقتهم مع كنيسة الأسكندرية كانت مقطوعة منذ وقت طويل .

ولكن موقفهم فى هذه المرة كان مخالفاً تمام المخالفة ، فلم تكن هناك حروب تشغلهم ، لذلك أخذت تستثيرهم التعاليم الكاثوليكية وإجراءات تطبيقها على الشعب داخل الكنائس وخارجها ، مما أدى إلى قيام ثورة شاملة بين جميع طبقات الشعب حتى أن بعض أمرائهم نادى (بأنه يفضل اعتناق الاسلام عن أن يخضع لهؤلاء البرتغاليين) [1] .

وتأزمت الأمور إلى الحد الذى اضطر الأمبراطور إلى إصدار بيان على الشعب يعتذر فيه عن اعتناقه للمذهب الكاثوليكى ويعلن عودته وعودة شعبه إلى مذهب أبائهم وأجدادهم ورأى الأمبراطور أن يتخلى عن العرش لنجله الأمبراطور (فاسيلاداس (Fasilades) (١٦٣٢ — ١٦٦٧ م) .

* * *

بعد هذه الحوادث لم يعد هناك محل للتسامح المذهبى الذى كان سائداً فى العصور السابقة ، وازدادت حساسية الشعب المسيحى وتعلقه بالمذهب (الأرثوذكسى اليعقوبى — التابع للكنيسة المرقسية بالأسكندرية) ، وترتب على ذلك طرد الجزويت من الحبشة ، وعندما وصلوا الى الهند (جـــوا) أرسلوا إلى ملك أسبانيا (كانت أسبانيا فى ذلك الوقت قد فاقت البرتغال فى القوة) يقولون أن الوسيلة الوحيدة لتحويل الأحباش إلى المذهب الكاثوليكى هى تجريد حملة عسكرية عليهم .

---

(١) ص ٩٩ الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام .

التحالف مع المسلمين :

اهتزت كنيسة روما لهذه الحوادث فحاولت التدخل فى هذا الصراع وأرسلت بعض الرسل الفرنسيين مما أزعج الأمبراطور فاسيلاداس ، ودفعه ذلك إلى عقد اتفاقية مع الولاة العثمانيين فى سواكن ومصوع لإعدام جميع القسس الذين يحاولون دخول الحبشة (١٦٤٨ م) ، وكانت هذه الاتفاقية أكبر دليل على فشل سياسة الكنيسة الكاثوليكية فى الحبشة ، وذهاب مجهوداتها ومساعداتها هباء . ومن المؤكد أن معالجتهم للعملية كانت تنطوى على سوء تصرف وتسرع وقصر نظر ، فإن الشعب المسيحى بالحبشة رفض تغيير مذهبه . فى الوقت الذى كان فى الإمكان إجراء هـذا التغيير بوسائل طابعها العلم والمعرفة وكسب مودة الشعب واتخاذ الوسائل البعيدة المدى التى تتسرب إلى نفوس الشعب تدريجياً ، فربما كانت تلك السياسة تلقى النجاح . إذا تهيأت لها بعض الظروف الأخرى وأهمها سكوت كنيسة الأسكندرية عن هذا النشاط .

ولم يقتصر فاسيليداس على اعتماده على العثمانيين ، بل عمد إلى توثيق الصلة مع جيرانه المسلمين ، بأن أرسل مندوباً إلى إمام اليمن (الموحد بالله) عام ١٦٤٢ يطلب منه أن يطرد أو يقتل أى برتغالى يمر ببلاده ، وأرسل مندوباً آخر فى عام ١٦٤٨ للإمام الذى تلاه على عرش اليمن (المتوكل على الله) يعرض عليه صداقته ويقترح تبادل السفراء [١] .

* * *

ولقد كان اعتماد الأمبراطور فاسيلاداس على المسلمين لحماية الحبشة من التدخل الغربى قلباً للأوضاع القديمة ، التى كانت الحبشة تعتمد فيها على البرتغاليين لحمايتها من المسلمين ، وذلك بواسطة استيلاء البرتغاليين على

---

(١) ص ١٠٢ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

موانىء البحر الأحمر ، وأصبحنا الآن نشاهد ظرفاً جديداً تقطع فيه علاقات الحبشة مع العالم الغربى ، ويصبح المسلمون حلفاء للحبشة ضد من أخذ الأحباش يعتبرونه خطراً أكبر — ذلك الخطر الذى يهددهم ويعمل على القضاء على مذهبهم الدينى الذى تلتف حوله جميع الروابط القومية للشعب المسيحى ، ولقد ظهرت فى هذه التصرفات نزعة الأحباش إلى المبالغة فى الاعتداد بالنفس والتمسك بأهداب الكرامة ، فوجدوا فى موقف المتصلب ضد الكنيسة الكاثوليكية تعبيراً عن استقلالهم وعدم الرضوخ لأى قوة تفرض عليهم .

* * *

عودة الاسلام إلى الإنتشار :

فى أثناء تلك الاضطرابات ، عاد الاسلام مرة أخرى ، ووجد طريقه إلى الانتشار بعد أن وقف زحفه فترة طويلة من الزمن نتيجة الصدمات العنيفة التى تعرض لها فى الماضى القريب ، وظلت المملكة الحبشية لاهية عن عودة الاسلام إلى الانتشار ، ولكن الصراع مع الكاثوليكية كان قد انتهى بانسحاب الجيزويت وانقطاع الصلات بهم ، بعد أن تركوا فى البلاد أثراً كبيراً وهو انتشار عادة مناقشة الأديان وتعاليمها ومقارنة الفروق بين المذاهب والتفسيرات المتضاربة ، مما استمر يشغل رجال الدين ، ويلهيهم عن الانتباه لاستمرار الاسلام فى التغلغل ، وفى هذه العهود كان انتشاره بتؤده وثبات لا يعتمد على القوة أو الحروب ، وأثناء ذلك كانت حدود المملكة المسيحية تنكمش بالتدريج ، حتى أن (مانويل دالميدا Manuel de Almeida) الذى عاش فى الحبشة من (١٦٢٤ م — ١٦٣٣م) كتب يقول إن فى فترة وجوده بالحبشة كان المسلمون منتشرين فى جميع أنحاء الامبراطورية وكانوا يشكلون « ثلث السكان » [١] — ملحوظة :(كان

(١) ص ١٠١ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

الوثنيون فى ذلك العهد لا يزالون يشكلون ما يقرب من نصف السكان مما يثبت أنه منذ ذلك العهد أخذ عدد المسلمين يزيد عن عدد المسيحيين فى الحبشة ، وذلك يؤيد ما سوف نصل إليه من معلومات فى مكانها المناسب من الكتاب) .

* * *

عندما أثار الكاثوليك المناقشات المذهبية التى استمرت بعد رحيلهم تشغل تفكير الشعب ووجد فيها الكثيرون مادة للمقارنة والنقاش ، لم يتمالك الناس من إظهار إعجابهم بالاسلام الذى يتميز ببساطته وتمشيه مع المنطق السليم وخلوه من التعقيدات وكان لذلك أثره الكبير على أفراد القبائل التى كانت لا تزال على وثنيتها .

ومما زاد فى ترحيب الوثنيين بالاسلام أنه كان فى نظرهم الدين الذى يهدد سلطة الجنس الأمهرى الذى يفرض سلطانه على القبائل الوثنية ، ولقد فتح الاسلام ذراعيه لاستقبال هؤلاء الوثنيين كأخوة ، ثم هو لا يكلفهم من الطقوس أو التعاليم لاعتناقه سوى ترديدهم جملة واحدة هى « النطق بالشهادتين » ولقد كان مما يغرى الوثنيين باعتناق الاسلام أنهم يصبحون بعد اعتناقه أخوة لهذا العنصر القوى المثقف المتحضر الذى تتحطم لديه جميع الحواجز العنصرية [1] .

* * *

العودة إلى الخلاف مع المسلمين :

ما أن تولى الأمبراطور يوحنا الأول العرش (١٦٦٧ — ١٦٨٢) حتى هاله ما وصل إليه المسلمون من تقدم وانتشار ، فدعا مجلساً للانعقاد فى جوندار ليقرر السياسة التى يجب اتباعها للتغلب على الاضطراب الدينى ،

(١) ص ١٠٢ الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام .

ولقد أسفر هذا المؤتمر على اتخاذ قرارهام . بالتفرقة الدينية . وذلك بإجبار بقايا الافرنج (سلالة البرتغاليين) إما اعتناق مذهب الحبشة أو مغادرة البلاد . أما بالنسبة للمسلمين فلم يكن فى الامكان طردهم وقد أصبحوا جزءا هاما من البلاد - عدديا واقتصاديا - ففرضت عليهم الدولة ألا يعيشوا فى مكان واحد مع المسيحيين ، فعليهم أن يسكنوا فى قرى مستقلة بهم ، أما فى المدن فعليهم أن ينتقلوا إلى أحياء خاصة بهم كذلك حرموا من امتلاك الأراضى ، ويبدو أن هذا القانون لم يطبق بدقة فى أول الأمر مما أدى إلى إعادة إصداره ثانية فى عام ١٦٧٨ (١) .

ولقد كانت هذه القوانين سببا فى زيادة خطورة الاسلام ، بدلا مما قصد بها من إضعاف للمسلمين . فنشأت مع تلك القوانين بعض العادات التى تهدف إلى تحقير المسلمين ومعهم اليهود الفلاشة والارمن والمجوس ، كان يمتنع النصارى عن مشاركتهم فى الطعام ، أو الجلوس معهم والاختلاط بهم ، ومخاطبتهم بصورة تدل على التحقير .

قابلهم المسلمون بالمثل وانضم إليهم فى ذلك اليهود والأرمن ، ولما حرمتهم الدولة من تملك الاراضى الزراعية ، اتجهوا إلى التجارة والحرف فأصبحت قاصرة عليهم وملكوا عن طريقها زمام البلاد ، وكان إحترافهم للتجارة وسيطرتهم عليها عاملا جديدا لتنقلهم بين مختلف البلاد والأقاليم للتعامل فى أسواقها مما جعلهم يتصلون بكثير من القبائل ويزيدون فى رقعة الإسلام وعدد المسلمين .

الانقسامات الاقليمية : (٢)

لما كان هدفنا هو العناية بتفصيل أخبار الاسلام فى الحبشة ، فسوف

(١) ص ٧٩ ، ٨٠ The Ethiopians by Ullendorff

(٢) الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام ص ٤٠١ وما بعدها .

تتقصى من حقائق هذه الفترة من تاريخ البلاد ما يتعلق بموضوعنا الأصلي وما يكفي لابراز الصورة التي كانت عليها أحوال تلك البلاد .

أتى إنشاء مدينة جوندار وتركيز العاصمة بها بنتائج عكسية لم تكن متوقعة إذ أنه قبل انشائها لم تكن للامبراطور عاصمة محددة ، بل كان يتنقل من مقاطعة إلى أخرى ومعه حاشيته ورجال حكمه ، وكانت بذلك تنتقل معه السلطة من مكان إلى مكان حتى تشمل جميع المقاطعات ، فما يكاد يصل الامبراطور إلى أية مقاطعة حتى يتخذ من الاجراءات ما يقيم بها العدل ويقضي على المنازعات ويوطد أركان حكمه ، وما أن تصبح الحاجة ماسة إلى إقرار النظام مرة أخرى في أي مقاطعة حتى يكون قد أتى دورها من زيارات الامبراطور .

فما أن أقام الامبراطور فاسيلاداس في جوندار حتى قلت زياراته للأقاليم الأخرى ، وقصرت مدة اقامته بها وعلى الأخص تلك المقاطعات البعيدة عن العاصمة ، ولم يعد في إمكان الامبراطور السيطرة الحقيقية إلا على المقاطعات القريبة منه وهي مقاطعات أمهرا وبيجمدير ، وعلى درجة أقل سيطرة في مقاطعات جوجام وداموت . بينما فقدت باقي المقاطعات شعورها بسلطة الامبراطور .

وبتركيز الحاشية ورجال البلاط في العاصمة طوال الوقت ، بدأت فيما بينهم التكتلات والمؤامرات التي لعبت فيها الاطماع دوراً كبيراً حتى أصبحت الانقلابات وحوادث القتل والاعتداء على الملوك من الأمور الشائعة ، وبذلك بدأت قيمة مملكة جوندار في التدهور ، وتهيأت الفرصة للجنود المرتزقة ، وأسرى قبائل الجالا لكي يلعبوا أدواراً بالغة الأثر في تاريخ الدولة حتى جاء الوقت الذي أصبحت فيه العاصمة تحت سيطرتهم .

* * *

تعاقب على العرش عدد من الأباطرة الذين دبت في عهودهم عوامل

الفوضى والانحلال ، وكانوا يجاهدون فى يأس ، ويتلمسون الوسائل التى تقوى من شوكتهم وتحفظ لهم سلطانهم .

وتعرضت هيبة الامبراطور (إياسو الثانى) إلى كثير من الضعف عندما لحقت بجيوشه الهزيمة الساحقة من جيوش مملكة الفونج الإسلامية (فى السودان) على النيـــل الأزرق عام (١٧٣٥ - أو عام ١٧٤٤ م) ، وكذلك عندما تعرض وفد ملك الحبشة إلى مصر للحصول على مطران ، لاعتداء الأتراك العثمانيين فى حرقيقو ومصوع فى ذهـاب الوفد وفى عودته .

ولقد عمدت والدة الامبراطور وقتئذ على تقوية مركز نجلها بتزويجه من ابنة أحد زعماء الجالا الأقوياء ، وبذلك اختلط دم الأسرة المالكة بعنصر جديد ، واكتسبت الجالا مقاما ساميا بعد أن أصبح من أبنائهم من ارتقى إلى مركز الإمارة ، وأصبح من بين ملوك الحبشة المسيحية من يجرى فى عروقه دم قبائل الجالا ، وما أن حدث هذا الاختلاط حتى أمعن الجالا فى الحصول على النفوذ والثروة وازدادت قوتهم واكتسبوا المزيد من السلطة وأصبحت لهم خطورة من نوع جديد ، وتسنموا من المناصب الكبرى ما كانت فى السابق وقفاً على أمراء البيت المالك ، ومن ذلك تعيين اثنين منهم محافظين للمقاطعات [1] .

أدت هذه الأحداث إلى ماليس منه بد ، وهو إنقسام الامارات وقويت شوكة بعض الأمراء بحيث أخذ كل أمير يتصرف مستقلا عن الملك أو الامبراطور ، ودارت بين هذه المقاطعات المناوشات والحروب الصغيرة والغارات . ومنذ ذلك الوقت بدأت دولة الحبشة تتخذ شكلها القديم وهو عبارة عن مجموعة من الممالك المستقلة التى يتنافر بعضها مع بعض ، على رأسهم نجاشى لا يملك إلا السلطة الرمزية التى لا تمتد فى حقيقتها خارج حدود عاصمته جوندار .

---

(١) ص ١٠٤ — ١٠٥ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

تفكك الامبراطورية وسيطرة الجالا على العرش :

لم تكن الامبراطورية الحبشية في أى عهد من عهودها متجانسة من الوجهة السياسية ، بل كانت دائماً عبارة عن مجموعة من الامارات أو السلطنات، ومن هنا جاءت تسمية الامبراطور (بملك الملوك) ، ولذلك كان توحيد الدولة بطيئا ، ولم يصل فى التاريخ إلى الوحدة الحقيقية الكاملة ، والحقيقة أن سلطة الحكومة المركزية لم تكن تبرز وتتأيد إلا كلما كان هناك خطر مشترك يحاول الجميع دفعه كالاتحاد بين الممالك المسيحية لمواجهة الزحف الاسلامى . أو كلما تسلم العرش ملك قوى وعاونته الظروف على السيطرة على أنحاء البلاد المختلفة ـ بالقوة ـ

وكما كانت الوحدة بعيدة ، بطيئة التحقيق كذلك كانت التفرقه الكامله بين الإمارات المسيحيه بعيده التحقيق أيضاً ، إذ كانت سلطة الأسرة السليمانية التاريخية وكذلك نفوذ الكنيسة من العوامل التى حالت دون حدوث التفرقة الكاملة فى المملكة المسيحية .

وبالرغم من ذلك كانت سلطة الامبراطورية تتضاءل كلما امتد زحف قبائل الجالا التى تمكنت من الانتشار بحيث أحاطت بكثير من الإمارات وعزلتها عن جاراتها مثل مملكة سيداما ، وامتد انتشارهم إلى منطقة النيل الأزرق وشمل أغلب إقليم شوا ، وبينما تسلق فريق منهم منطقة الجرف الكبير فى الغرب كان الفريق الآخر يمتد إلى شرقى مملكة الحبشة إلى نهر أواش ، وفيما بينهما توغلوا فى صميم الهضبة وتمكنوا من تكوين مجموعات قوية من قبائلهم مثل (الواللو Wallo) و (الياجو Yajjo) و (الرايا Raya) .

ولم تقتصر أهمية الجالا على تغلغلها فى البلاد وتمزيق الروابط بين مختلف الممالك وسيطرتهم على الحرس الامبراطورى ، وإنما ازدادت خطورتهم لأنهم اعتنقوا الاسلام[1] ، وعندما استقروا وتركوا طبيعتهم

(١) ص ١٠٦ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

البدوية وأصبحت لهم مراكز ثابتة واشتغلوا بالزراعة والرعى - تكونت منهم كتل قوية مركزة تتميز بصفاتها الحربية الممتازة ، مما جعل الامبراطور يستزيد من اعتماده عليهم ، وحذا حذوه باقى الأمراء والملوك ، أما من جانبهم فقد حافظوا على استقلالهم وتكتلاتهم وفى القرن الثامن عشر عززوا استقلال شخصيتهم باعتناقهم الاسلام[1] .

وبالرغم من اشتراك جميع قبائل الجالا فوق الهضبة فى اعتناق الإسلام إلا أن فروعهم المختلفة لم تفكر فى الاتحاد مع بعضها تحت هدف واحد بل كانت مكتفية بما وصلت اليه من نفوذ . ولم يطرأ من الحوادث ما يدفعها إلى التفكير فى الاتحاد والتكتل ، ولقد كتب فى ذلك الميجر هارس (Maior Harris) الذى أوفد فى مهمة إلى ملك شوا عام ١٨٤٠ وقال . (ولقد كان الجالا يكرهون المسيحيين والوثنيين على السواء ، ويعاملونهم بقسوة وشدة كلما أتيحت لهم الفرصة لذلك ، ولو أن قبائل الجالا المذكورة تهيأت لها الظروف للاتحاد ووقعت الحبشة تحت سلطة حاكم مسلم لاكتسحت قبائل الجالا جميع البلاد وقضت على ما عداها من سلطات) .

ولكن قبائل الجالا لم تفكر فى مثل هذه الأمور ولم تتطلع إلى العرش وبذلك بقيت مملكة الحبشة — على ضعفها — محافظة على عرشها الرمزى ، بالرغم من أن المملكة انقسمت إلى أربع مقاطعات هامة فوق الهضبة تتمتع كل منها بقدر كبير من الاستقلال ، ولم يكن يجمعهم إلا الولاء الاسمى للامبراطور وولائهم جميعاً للكنيسة الحبشية . وهى مقاطعات أمهره وتيجرى وجوجام وشوا .

ومرت بهم كثير من الأوقات التى زالت فيها سلطة الامبراطور الرمزية وأخذت الإمارات الأربع تتصل مع الدول الأجنبية مباشرة وتعقد معها المعاهدات السياسية . ولكن هذه الظروف ما لبثت أن انتهت ، بعد أن بدأ

---

(١) ص ١٠٧ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

امراء الحبشة يشعرون بالخطر الذى يتهددهم بازدياد النفوذ الإسلامى وقوة الممالك الإسلامية التى زاد نشاطها فى مصر والسودان والبحر الأحمر .

كذلك بدأ الأمراء يشعرون أيضاً بخطر آخر يهددهم من ازدياد قوة الدول الأوربية وأطماعها التى أخذت مظهراً خطيراً منذ بداية القرن الثامن عشر .

كل هذه الظروف مجتمعة هيأت الظروف لظهور شخصية كبيرة فى الحبشة وقضت على سلطة الجالا ، وتغلبت على أمراء المقاطعات المختلفة ووحدت المملكة الحبشية المسيحية فوق الهضبة تحت سلطانها وقطعت تسلسل الحكم من الأسرة السليمانية وهذه الشخصية الهامة هى شخصية ملك الملوك النجاشى تيودور الثالث الذى تولى العرش فى عام ١٨٥٥ م[١] . التى سيأتى تفصيل ذكرها فى فصل قادم مستقل .

* * *

تقدم الإسلام أثناء الانقسامات الاقليمية [٢] :

كان الإسلام فى بداية القرن التاسع عشر يمر بفترة ركود . فقد أثناءها حماسته ونشاطه نحو التقدم والانتشار ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار انتشاره بين قبائل الجالا وقبائل البانتو .

وأما ممالك سيداما فانها بعد مقاومة دامت قرنين من الزمان اعتنقت الإسلام ، وأهمها ممالك (جيما Jimma) (وجوما Gomma) (وليما أيناريا LimmaEnarya) (وجيوما Guma) وجميعها فى الجنوب الغربى من الحبشة ولم يكن اعتناق هذه الممالك للاسلام راجعا لنفوذ قبائل الجالا وحده ، بل كان يعود إلى النشاط الذى بذله التجار المسلمون وتقدير شعوب هذه الممالك لهم ، لما كانوا يجلبونه للبلاد من خير ورواج ، ولقد عاش هؤلاء التجار

(١) ص ١٠٥ وما بعدها الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

(٢) ص ١٠٩ وما بعدها نفس المرجع .

بينهم واختلطوا بهم وتزوجوا منهم ولم يكونوا ليغادروا تلك البلاد إلا مرة واحدة كل عام ، إما إلى السودان أو إلى الشاطىء الشرقى من افريقيا ، وبذلك أتيحت لهم الظروف وساعدهم الوقت على نشر الدعوة الاسلامية ، فما أن جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى كان ملوك هذه الممالك والغالبية الكبرى من شعوبهم قد اعتنقت الاسلام .

ولقد تمكنت مدينة هرر فى تلك الأثناء من استعادة نشاطها كمركز للاشعاع الاسلامى فى أنحاء المقاطعة وعلى وجه الخصوص بين قبائل الجالا التى كانت تعيش إلى الجنوب والغرب من هرر ، أما منطقة العروسى فلم ينتشر فيها الإسلام إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وأما فى مملكة الحبشة نفسها (فوق الهضبة) فقد بلغ انتشار الاسلام فيها مبلغا كبيرا عن طريق إسلام قبائل الجالا الذين استقروا فوق الهضبة كما سبق أن قدمنا وزاد على ذلك أن ظهر من بينهم كثير من الأمراء الأقوياء الذين حجبوا سلطة الامبراطور الاسمية فى جوندار ، وأصبحت امارة بعض الامارات وراثية بينهم فى بعض المقاطعات مثل مقاطعة بيجمدير . ولكن للحصول على لقب الامارة أو تسنم الملك حتى ذلك العهد كان من التقاليد والقوانين القديمة فى مملكة الحبشة الا تكون الامارة إلا بين المسيحيين لذلك كان المسلمون الذين يطمعون فى لقب الامارة يختصرون الطريق ويوفرون على أنفسهم كثيرا من المشاكل والعقبات ويعلنون اعتناقهم الدين المسيحى ، وماكان ذلك منهم الا تمثيل ظاهرى يقتضيه الموقف ، وكانوا فى حقيقة الأمر محافظين على اسلامهم ويظهر ذلك منهم فى تصرفاتهم وشعورهم وسياستهم التى يتبعونها بين رعاياهم بتأييد الإسلام والمسلمين ، ولذلك كان من أظهر الشواهد على ذلك انتشار اسم «على» و «الإمام» بين هؤلاء الأمراء ولقد كان من نتائج هذه الطريقة العجيبة أن زاد الاسلام فى داخل مملكة الحبشة المسيحية حتى بلغ حسب تقدير (ماسايا Massaia) إلى ثلث السكان مما ينم عن انتشار الإسلام بين الممالك المسيحية بشكل لم يكن منتظرا .

وبينما يعتقد البعض فى أن التقدير السابق يميل إلى المبالغة ، فان التقديرات الأخرى التى تميل إلى التقتير (كتقدير ستيرن H.A Stern, 1860) يقول أنه ولو أن أتباع النبى العربى ليسوا عديدين إلا فى العاصمة جوندار فان هذا لا يمنع وجودهم فى تجمعات صغيرة منتشرة فى جميع أنحاء البلاد (كل هذه التقديرات السابقة تتعلق بانتشار الإسلام فوق الهضبة داخل مملكة الحبشة المسيحية ولا تتعلق بتعداد السكان فى باقى مناطق الحبشة التى تشكل ثلاثة أرباع البلاد وينتشر فيها الاسلام انتشارا واسعا ، ويشمل من بينها ممالك بأكملها). (١)

* * *

ولقد أتيحت الفرصة للاسلام فى عهد الاضطرابات التى سبق ذكرها أن ينتشر بين قبائل التيجرى التى تسكن شمالى الحبشة وكذلك جزءا من المنطقة المعروفة لدينا الآن باسم (اريتريا) ، ولقد كانت هذه القبائل التى بالاريتريا تعتنق المسيحية قبل ذلك ، ولكن جانبا كبيرا منها تحول إلى الإسلام وكان ذلك عائدا إلى سببين أساسيين ، ذكرهما (بلاودين Plowden) (٢) أولهما انتشار الفوضى والاضطرابات فى المنطقة وتخاذل الحكام المسيحيين وثانيهما نشاط التجار ومعهم الدعاة المسلمون ، وكانت أحوال الكنيسة ورجال الدين المسيحى فى ذلك العهد تمر بمرحلة من الضعف والاضطراب بلغت بهم إلى حد اليأس ، فتضافرت جميع الظروف إلى دفع السكان إلى أحضان الإسلام وظهرت فى ذلك الوقت مجهودات دعاة الإسلام المشهورين من أمثال الوهابيين والسيد / أحمد بن ادريس الفاسى ، اللذين امتد أثرهم حتى شمل جميع القبائل التى تتكلم اللغة التيجرية ، بالاضافة إلى قبائل بنى عامر وباقى فروع البجه التى سبقتهم إلى الإسلام بتأثير مملكة الفونج السودانية ، وبلغ نشاط دعاة الإسلام ذروته فى عهد محمد عثمان الميرغنى الذى أوفده أحمد بن

---

(١) المؤلف .

(٢) W. C. Plowden, Travels in Abyssinia (1868) p 15

ادريس فى عام ١٨١٧ م وما أن جاء الفتح المصرى حتى تم اسلام جميع هذه المناطق .

ولقد ذكر الرحالة الذين زاروا هذه البلاد ، أن السبب فى نجاح الإسلام فى المناطق المسيحية هو التفوق الروحى الذى تميز به المسلمون عن المسيحيين [١] وذكر (روبل Ruppel) [٢] أن المسلمين « الجبرته » كانوا يتميزون عن المسيحيين بالنشاط ، ولقد كان أطفالهم يقبلون على تعلم مبادىء القراءة والكتابة بينما لم يكن يعنى المسيحيون بتعليم أبنائهم أى شىء ، اللهم الا بعض هؤلاء الذين كانوا يعدونهم للخدمة بالكنيسة . ولذلك كان من الطبيعى أن يتولى المسلمون جميع المناصب التى تتطلب الكفاءة والثقة .

* * *

ومما ساعد على انتشار الاسلام فى الحبشة كما حدث فى المناطق الأخرى من افريقيا ، أن الحبشى المسيحى يعتبر نفسه محاربا أو راعيا ، ويحتقر التجارة والتجار ، لذلك سيطر المسلمون على التجارة الداخلية والخارجية مما جعلهم يتميزون بالصفات التى تكتسب من الحركة والسفر والاتصال .

ولكن انتشار الاسلام فى تلك الفترة كانت تسوده العوامل الطبيعية الهادئة فى التغلغل ، ولم تتسرب إلى الأذهان نزعات التكتل والاتحاد التى تثيرهم المسيحيين ضدهم . فلم يأبه المسيحيون بما يجرى حولهم ، ومع ذلك فانهم أخذوا يشعرون بالخطر الذى يداهمهم من جهة قبائل الجالا وتسللهم إلى معاقل المسيحية فوق الهضبة ، ولكن الكنيسة كانت فى حالة من الضعف والانحلال فلم تتمكن من ايقاف هؤلاء الجالا المسلمين عند حدهم فتحطمت الملكية وساد عهد الانقسامات الاقليمية فترة من الزمن .

---

(١) ص ١١٣ الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام .

(٢) E.Ruppel, Reise in A bysinien (1388) 327-8, 366.

وقد ذكر الكاردينال (ماساجا) الذى أمضى خمسة وثلاثين عاما يعمل فى التبشير فى الحبشة ، (أن نفوذ الاسلام فى ختام هذا العهد قد وصل إلى الحد الذى لو أتيح له وجود إمام آخر مثل الامام أحمد الاشول ، ليرفع راية الرسول لتحولت جميع الدولة إلى الاسلام) ويدل تصريح ماساجا هذا على مقدار ماوصل إليه نفوذ الإسلام فى ذلك الوقت ، ولكن الخطر جاء إلى البلاد بعد ذلك من الخارج [1]

الفصل الثانى عشر

الامبراطور تيودور
والحملة الإنجليزية

وصلنا فى تسلسل الحوادث إلى نهاية القرن الثامن عشر عندما انقسمت مملكة الحبشة المسيحية (على مرتفعات الهضبة) إلى عدة ممالك كل منها تتمتع بقسط كبير من الاستقلال وتضاءلت سلطة الامبراطور ولم تكن تتعدى حدود مدينته جوندار . عاصمة ملكه، واستمر هذا الانقسام فى المملكة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى اتيح للمملكة من وحدها، ظهر فجأة واختفى فجأة فكان حكمه كالشهاب ، ما أن سيطر على البلاد فى سرعة خاطفة حتى اختفى بنفس السرعة — وكان حكمه للحبشة لمحة من لمحات التاريخ .

ولد كاسا (الذى سمى نفسه فيما بعد — تيودور) فى عام ١٨١٨م وكان والده من موظفى الحكومة وكانت والدته من اسرة متواضعة ، وكانت ولادته بين قبائل الاجاو فى غرب الحبشة سبباً فى معرفته للغة (كوارو) بجانب معرفته للأمهرية ، ولقد مات أبوه وهو لايزال طفلا صغيرا ، وعندما شب التحق بالدير ليتلقى التعليم التقليدى لرجال الدين . مما كان له شأن كبير فى تفانيه وتعصبه فى خدمة الديانة المسيحية فيما بعد . وشاءت الظروف التى سادت البلاد فى ذلك العهد أن يحطم الدير ، فدفعت به الاقدار لكى يكون زعيما لاحدى عصابات قطاع الطرق (الشيفتا Shifta) التى كانت مقصورة على الشباب الذى يتمتع بالشجاعة والجرأة والقدرة على الحركة والقتال ، ولقد كانت لتلك الفترة أهم أثر فى حياته ، إذ كانت أساسا لنبوغه فيما بعد كجندى قدير وكقائد وزعيم .

ولقد حازت غاراته وغنائمه شهرة واسعة لفتت إليه الأنظار وجعلته أهلا لكى يتزوج من ابنة الرأس على أمير بيجمدير . واستمر فى جولاته وغاراته حتى تمكن من هزيمة كثير من الأمراء وعلى رأسهم أمراء قبائل الجالا ومن بينهم والد زوجته ، وبذلك قضى على سلطة الجالا ونفوذهم، وبعد ذلك أخضع مقاطعة تيجرى ، وما أن جاء عام ١٨٥٠ حتى كان قد قضى على جميع الملوك والأمراء المتنافسين .

ونصب نفسه امبراطورا فى عام ١٨٥٥، وسمى نفسه الامبراطور تيودور الثالث[١] وأدعى بأنه نسل الأسرة السليمانية الحاكمة وهذا يخالف ما عرف عن حقيقة نشأته ، كذلك زعم أنه هو المقصود بنبوءة قديمة تقول بظهور ملك اسمه تيودور يحطم الإسلام ويعيد الاستيلاء على بيت المقدس[١] ، ولذلك رسخ فى ذهنه أنه بطل جديد لحروب صليبية ضد المسلمين وسيطرت هذه الفكرة عليه واستمرت بارزة فى جميع تصرفاته .

* * *

ولقد كان النفوذ البريطانى قد بدأ فى الظهور فى هذه الجهات منذ وقت غير بعيد ، وبدأ نشاط بريطانيا فى إنشاء العلاقات مع مختلف الممالك وتوطد صلاتها فأوفدت إلى الحبشة قنصلا لها يدعى (بلاودن Walter C. Plowden) الذى عاصر الامبراطور تيودور وعرفه عن قرب وكان موضع ثقته وعاش بالحبشة مدة طويلة ويعود اليه الفضل فى كتابة تفصيل هام لتاريخ هذه الفترة، ولقد كتب بلاودن فى وصف تيودور ما يعتبر أدق وصف لشخصيته العجيبة المليئة بالتناقض .

« لقد كان تيودور فى كثير من أفعاله قريب الشبه بايفان الرهيب، وفاق

---

(١) ص ٢٠٧ The Blue Nile by Alan Moorehead

(٢) ص ١١٧ Islam in Ethiopia by Trimingham

فى قسوته جميع المقاييس الحبشية ، ولكن تمر به بعض المناسبات الطيبة التى تظهر عليه فيها لمحات من النبل ، ولقد كان سريع الغضب والانفعال ولذلك لم يكن ذلك الشرير الذى يدبر الشر ، ولكنه يقوم بأفعاله الجنونية دون سابق تحضير أو تفكير .

« وعندما كان تيودور صغيراً كانت تغلب عليه سمات اللباقة والرقة ، ولما كبر وتسلم زمام السلطة أصبح عنيف الغضب ، يرتجف منه الجميع ، ولكنه كان جم النشاط والحزم متديناً — بالغ الكرم — متحلياً بجميع الصفات التى يتحلى بها كثير من الزعماء من شجاعة وطموح وخيال وتفان فى تحقيق الإصلاح والتقدم ، ولكنه بجانب هذا لم يكن يتحمل الفشل »(١).

ولقد كانت تلك الصفات العنيفة المتناقضة سبباً جوهرياً فى اضطراب تقديره للأمور وعواقبها ، ولم تسمح له بأن يتبين طريقه بحيث يعلم أين يتوقف ، وعندما لحقته الهزيمة أخذ فى ثورة هوجاء يضرب ذات اليمين واليسار محطماً أعوانه كما حطم أعداءه ، يتملكه شعور الأطفال الذين يرتكبون الأخطاء وهم يعلمون أنها أخطاء ثم يندمون بعد ذلك ويطلبون المغفرة .

• • •

تمكن الامبراطور تيودور من السيطرة على مملكة الحبشة وتوحيدها ، وقضى على سلطة الملوك والأمراء وأعاد إلى الكنيسة هيبتها ومكانتها بين الناس ، وعاد الشعب للالتفاف حولها ، وبذلك أخذت تبرز إلى الوجود شخصية الدولة الحبشية الحديثة .

ولقد بادر بإجراء كثير من الاصلاحات فى شئون الدولة . بأن ألغى

---

(١) ص ٢٠٦ . The Blue Nile by Alan Moorehead

تجارة الرقيق وتعدد الزوجات . وإن كان تحقيقهما الكامل لم يتم ، إلا أن اتجاهه فى سبيل الإصلاح لمثل هذه الأمور ينم عن حبه للعدل وشغفه بحماية رعاياه .

ولقد شعر تيودور بأن اتخاذ جوندار عاصمة للدولة كانت له آثاره السيئة فى انهيار سلطة الأباطرة ولذلك نقل عاصمة ملكه إلى (مجدلا Magdala) التى تتوسط الدولة وتتميز بحصانة موقعها ، وعاد إلى عادات الاباطرة القدامى بكثرة التنقل بين الأقاليم حتى تظل سيطرته قائمة، ويظل الأمن مستتبا والولاء له مستمراً وساعده على تنقلاته وسرعة حركته ما كسبه فى شبابه من خبرة عندما كان زعيما لاحدى عصابات قطاع الطرق (الشيفتا) ولقد أضاف إلى تنقلاته مظهراً جديداً وهو استعماله للمرة الأولى عدداً كبيراً من الخيام له ولأفراد حاشيته وجنوده .

• • •

علاقته مع بريطانيا :

فى عام ١٨٦٠ توفى القنصل البريطانى (بلاودن) وهناك اعتقاد بأنه مات مقتولا فأرسلت بريطانيا فى عام ١٨٦٢ قنصلا آخر يدعى (كابتن كاميرون Captain Cameron) وحمل معه خطاباً إلى تيودور من الملكة فيكتوريا ، وحرر تيودور رداً إلى الملكة ، ولأهمية هذا الكتاب وما نشأ عنه من سوء تفاهم وما ترتب عليه من أحداث جسام نورد فيما يلى ترجمته الكاملة .

(باسم الآب والابن والروح والقدس — الإله الواحد فى الثالوث ، من ملك الملوك المختار من الرب — تيودور ملك أثيوبيا إلى صاحبة الجلالة ملكة انجلترا) .

« أتمنى لجلالتك الصحة الطيبة — وأننى فى خير حال بمشيئة الله . إن

آبائى الأباطرة بعد أن نسوا الخالق فإنه قدأعطى ملكتهم إلى الجالا والأتراك، ولكن الله قد بعثنى ورفعنى من التراب ووضع هذه الامبراطورية تحت حكمى ، ومنحنى من القوة ما مكننى من الوقوف فى مكان أجدادى ، وبهذه القوة تمكنت من التغلب على الجالا ، أما بخصوص الأتراك فإننى أخطرتهم بترك بلاد أجدادى ولكنهم رفضوا ولذلك سوف أتصارع معهم » .

« ولقد دأب مستر بلاودن وكذلك مرافقى الخاص الإنجليزى بل (Bell) على إخبارى بأنه توجد ملكة مسيحية عظيمة تحب المسيحيين . وعرضوا على أن يعملا على تعارفنا وعقد الصداقة بيننا ، مما ملأنى سروراً بحصولى على نوايا جلالتكم الطيبة » .

« والموت مقدر على جميع الرجال ، ولقد قام أعدائى بقتل أصدقائى (بلاودن وبل) ولكنى بمشيئة الله قضيت على هؤلاء الأعداء ولم أترك منهم أحداً ، بالرغم من أنهم كانوا من أفراد عائلتى ، حتى أحظى بصداقتكم بمشيئة الله ، وأن الأتراك الذين يسيطرون على شواطىء البحر يمنعوننى من إيفاد بعثة إلى جلالتكم عندما أكون فى شدة . ولقد وصل القنصل كاميرون ومعه كتابكم وهداياكم ، ولقد سررت بسماع أخباركم وتأكيد صداقاتكم ، وأشكركم على هداياكم » .

« وإنى أخشى إذ أنا أرسلت وفداً من عندى يحمل هداياى اليكم أن يقبض عليهم الأتراك ، ولذلك أرجوكم أن تقوموا بالمحافظة على سلامة رسلى فى جميع مراحل الطريق ، وأود أن أتلقى رداً على كتابى هذا عن طريق القنصل كاميرون الذى يحمل رسالتى إلى انجلترا ، انظرى كيف يظلم الإسلام المسيحيين » .

ولقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى لندن ، وشاءت الظروف أن يهمله أحد موظفى وزارة الخارجية ، ولم يصل تيودور رد فى الوقت المناسب مما أثار غضبه . واعتبره إهانة ، زادت فى نظره خطورة عندما علم أن

كاميرون قد عاد من لندن إلى شرق السودان « كسلا » لكى يدرس إمكان زراعة القطن بها بعد أن نقص الوارد منه إلى انجلترا بسبب الحرب الأهلية الأمريكية . وكانت السودان فى ذلك الوقت العدو اللدود للامبراطور تيودور . وتبلغه بين الحين والآخر أخبار استعداد (المصريين) فى السودان وتأهبهم لغزو الحبشة .

ولقد كانت حمى التنافس الاستعمارى قد بدأت فى الحبشة ، وكان بها عدد من الأوربيين من مختلف الجنسيات . بدرت من بعضهم نزعات التربص وانتهاز الفرص ، وأساء البعض الآخر فهم العقلية الحبشية وكانت بعض تصرفاتهم تسىء إلى أهل البلاد وعلى الأخص نشاط البعثات التبشيرية التى حاولت تحويل الشعب إلى المذهب الكاثوليكى ، دفعت جميع هذه الأمور مجتمعة الامبراطور تيودور إلى الريبة فى جميع الأوروبيين واتخاذ الحيطة من أساليبهم وغضب الامبراطور غضباً شديداً عندما بلغه أن المبشر الانجليزى شيترن (Stern) ألف كتاباً فيه إهانة للامبراطور وأسرته — وتطوع الفرنسيون بترجمته للامبراطور .

وعندما تخيل تيودور من كل ما سبق من أحداث أن الإنجليز يتآمرون مع الأتراك والمصريين للقضاء على الحبشة . انقض على الارساليات الأوروبية الموجودة فى جوندار وكبلهم بالاغلال ووضعهم فى السجون . وما أن عاد كاميرون فى ١٨٦٤ إلى الحبشة حتى قبض عليه الامبراطور ووضعه فى السجن مع الآخرين .

فشلت جميع وسائل الشرح والاقناع والتفسير مع الامبراطور تيودور الذى تغلب عليه أسوأ صفاته واحتدمت نيران غضبه وأمر بتعذيب كاميرون ، ووصلت أخبار تلك الحوادث إلى عدن فى ١٨٦٤م ومنها إلى لندن ، وأدت إلى تحرير كتاب من الملكة فيكتوريا إلى الامبراطور تيودور تقول فيه : —

(بلغنا أخيراً أن جلالتكم قد سحبتم ثقتكم وعطفكم من خادمنا ، ونحن على ثقة من أن ذلك يعود إلى تفسيرات خاطئة يبديها إليكم أشخاص لا يحملون لكم مودة ويهمهم أن يعكروا صفو العلاقات وشعورنا الطيب نحوكم ، وليس هناك دليل على حسن نوايا جلالتكم أبلغ من إطلاق سراح خادمنا كاميرون ومن معه من الأوربيين ومساعدتهم وحمايتهم فى طريق عودتهم إلى الأماكن التى يرغبون العودة إليها) .

ولكن تيودور استمر فى عناده ولم يقم وزنا لكتاب الملكة فيكتوريا وأمعن فى إهمال وفودها ثم حجزهم فى بلاده ومنعهم من العودة ثم أمر بسجنهم ، ووضع الأغلال فى أيدى وأقدام أغلب المعتقلين ، واستعمل مع مندوبى انجلترا أساليب المراوغة التى اشتهر بها الأحباش ، وبلغ فى ذلك أقصى ما عرف عنهم فى هذا الشأن ، واستمر تعذيبه لمندوبى انجلترا ومن معهم من الأوربيين ما ينوف عن أربع سنوات — مما لم تجد انجلترا معه بداً من الالتجاء إلى القوة . فجردت عليه الحملة الشهيرة تحت قيادة (سير روبرت نابيير Sir Robert Napier) . التى سنروى تفصيلها فيما بعد .

* * *

وكان تيودور يعتبر الحبشة والمسيحية صنوان لا يفترقان ، لذلك جعل همه بعد انتصاره على الجالا وإخضاعه جميع الممالك ، أن يستعمل القوة فى إجبار المسلمين والجالا وكذلك الفلاشة والأجاو على اعتناق المسيحية ولكنه فشل فى تحقيق ذلك [1] بالرغم من قوة الإجراءات التى اتخذها فى هذا الشأن .

ولقد ساءت علاقة تيودور مع الكنيسه القبطية فى عهد البطريرك كيرلس الرابع لأنه استجاب لرغبة خديوى مصر فى السفر إلى الحبشة للتوسط

---

(١) الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام ص ١١٨

لدى الأمبراطور تيودور لتحسين العلاقات بين مصر والحبشة ، ولقدكانت هذه أول مرة يقوم فيها بطريرك بزيارة الحبشة ، ولكن تيودور لم يكن على استعداد للاقتناع بمهمة البطريرك وكيف يمكن أن يكون وهو رأس الكنيسة القبطية رسولا لدولة مسلمة ، ولذلك قابله ببرود فى ديسمبر سنة ١٨٥٦ م ، ثم سجنه بضعة أيام ولم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا فى نوفمبر سنة ١٨٥٧ م ، وسوف يأتى تفصيل لموقف مصر من الحبشة خلال تلك الفترة فى الفصل القادم [1] .

* * *

قدمنا أن تيودور قام بكثير من الاصلاحات الجريئة ، وكان من الواضح أن تلك الاصطلاحات قد لاقت الترحيب من الشعب ، بينما وقف منها الأمراء الإقطاعيون موقف العداء ، ولكنهم أمام سلطة تيودور وبطشه اتجه عداؤهم له يتخذ طابع التآمر السرى ، وتمكنوا من إثارة بعض القلاقل التى قمعها تيودور بمنتهى الشدة والقسوة ، وعندما شعر بأنه وحيد ولا يؤازره أحد من الأمراء ، أمعن فى البطش والعنف ، وأصبح ضارياً لا يمكن تهدئته أو التفاهم معه ، وطغت قسوته على ما كان لديه من صفات حميدة ، وسيطرت عليه عصبية بلغت حد الجنون .

لذلك لم يكن توحيده للحبشة ذا فائدة أو معنى حقيقى ، إذ أنه وحد البلاد بالقوة ، واكتسب عداء جميع الأمراء الذين أخذوا يتحينون الفرص للنيل منه . مما اضطره للاعتماد الكامل على قواته العسكرية ، يقفز بها من مكان إلى آخر لإخماد الفتن والثورات .

* * *

طغيان تيودور :

عندما أصبح تيودور فى أوج قوته عمل على تحقيق ثلاثة أهداف هامة :

(١) ص ١١٨ نفس المرجع .

١ — القضاء على سلطة الطبقة الأرستقراطية والإقطاعية فى البلاد .

٢ — القضاء على الجالا أو اعتناقهم المسيحية .

٣ — طرد جميع المسلمين الذين لا يعتنقون المسيحية .

بدأ حروبه مع الجالا وفى طريقه استولى على مملكة شوا ، ولما مات ملكها استولى على ما عنده من مدافع ، (التى كان قد أهداها الميجر هاريس إلى سلفه سهلا سلامى) وأسر زوجة الملك وابنها منليك — ولكنه أحسن معاملة منليك وعامله كابن له . بالرغم من أنه إحتاط وحدد إقامته داخل قلعة مجدلا .

وفجأة ركب تيودور الغرور وتغيرت أخلاقه وأصابته لوثة من الجنون فى القتل والفتك بالناس . فكان يجمعهم (٧٠٠٠ فى إحدى المرات) ويحرقهم مرة واحدة ، ثم أمر مرة أخرى بإطلاق النار على ٤٥٠ قسيس خرجوا بالطبول لاستقباله فقضى عليهم دفعة واحدة — بدون سبب — وأحرق فى إحدى نزواته ١٧٠٠ من الفلاحين والعمال ، وأمر جنوده بالاستيلاء على ما فى مدينة جوندار من غنائم — واعتدى جنوده على الأديرة وسلبوا ما فيها من كنوز وتحف ولم يبقوا فيها شيئاً حتى ملابس الرهبان والأثاث والصلبان والستائر الحريرية والحلى الذهبية ، ونقلوها جميعاً إلى دبرا تابور ، ثم نقلت فيما بعد إلى مجدلا .

وتقول المصادر الأثيوبية التى سجلت هذه الحوادث أن تيودور قد أسكرته خمرة النصر والقوة ، فتعدت وحشيته جميع الحدود المألوفة حتى بين العصابات المتوحشة فى الحبشة .

ولكنه استمر يعامل منليك معاملة طيبة وزوجه من ابنته — ولكن منليك ووالدته تمكنا فى إحدى الليالى من الهروب من قلعة مجدلا — ويبدو أن ذلك تم بمعاونة باقى الأسرى ومعظمهم من قبائل الجالا وكان معهم المطران

الذى كان معتقلا وقتئذ ، وعاد منليك إلى مملكة شوا واستقبله الشعب هناك استقبالا رائعاً — فثار غضب تيودور واستدعى أمامه ٢٤ رئيساً من زعماء الجالا وقطع أيديهم وأرجلهم ثم قذف بهم من ربوة عالية فتحطموا [١] .

تجمع زعماء الجالا وقرروا العصيان ، ووحدوا قواتهم (١٨٦١ — ٦٣) وقاموا بثوراتهم — وعند وصول منليك إلى شوا أعلن استقلاله ، وفى وسط هذه المجازر التى يقيمها تيودور أخذ الشعب ينظر إلى منليك فى اعجاب وأمل — ولقد كانت نفس تيودور تراوده على الاستيلاء على مصر والسودان والنوبة وأواسط أفريقيا — ولكن الحكومة المصرية سبقته إلى ضم السودان إليها ، وبدأت تهـــدد حدوده ، وفى نفس الوقت كانت قوات الدول الأوروبية البحرية تنتشر فى البحر الأحمر وتنتزع الموانىء الهامة من العثمانيين واحدة بعد الأخرى ، وأصبح تيودور محصوراً ، وأخذت منطقة نفوذه داخل بلاده فى الانكماش .

وكان أهم الملوك الذين ظهروا فى الحبشة فى ذلك الوقت واستقلوا عن الحكم التيودورى — منليك ملك شوا — ويوحنا ملك تيجرى — وجوباز ملك امهرا . ولقد أخذوا فى مراوغة تيودور وتحاشوا مجابهته فى معارك حربية . بل كانوا ينسحبون ويتحصنون فى الجبال عندما تتقدم قواته ، فكان تيودور يصب جام غضبه على الفلاحين ويقتلهم ويحرق منازلهم . ولقد أنهكته هذه المطاردات وقضت على جنوده الذين أبادهم البرد والجوع ، وانخفضت جيوشه من ٥٠٫٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ جندى [١] .

* * *

---

(١) الصفحات ٤٩٣ وما بعدها — السير بدج Budge

(٢) ص ٥٠٠ سير بدج Budge

حملة نابيير (Napier Expedition) [1]

أثناء هذه الظروف التى كانت سائدة بالحبشة تحت حكم تيودور ، وصلت الحملة البريطانية تحت قيادة نابيير ونزلت فى ميناء (زولا) جنوب مصوع فى عام ١٨٦٧ وكانت قد سبقت ذلك عدة اتصالات وافق بعدها خديو مصر على أن يمد يد المعونة للإنجليز ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الانجليزى فى نزوله إلى البر ، ووضع الأسطول المصرى تحت تصرف الانجليز ينقل مهماتهم ومؤنهم من السويس إلى مصوع [2] . ولقد كان من أسباب منح بريطانيا هذه التسهيلات ، سوء العلاقات التى نشبت فى ذلك الوقت بين تيودور وسعيد باشا والى مصر .

وقد قامت الحملة من بومباى بعد دراسة مستفيضة لجميع الظروف المتوقعة وغير المتوقعة ومتطلبات الحرب من أسلحة وأغذية ووسائل المواصلات الحديثة ، وأصبحت العناصر الأساسية للحملة تتألف من ٣٢٠٠٠ رجل منهم ١٣٠٠٠ جندى والباقى لأغراض الحملة المختلفة ومن بين الجنود ٤٠٠٠ أوربى فقط ، وكان للحملة ٥٥٠٠٠ من الدواب للركوب ونقل الأغذية والعتاد ، وكذلك ٥٠٠٠ طن من اللحوم المملحة ومثلها من لحم الخنزير و ٣٠٠٠٠ جالون من الخمر وكميات كبـــيرة من الخضروات المكبوسة واللبن المجفف .

ومن أهم مستحدثات الحملة احتوائها على ٤٤ من الأفيال المدربة لحمل المدافع وكذلك معدات كاملة لمد خط سكة حديد طوله ثلاثون كيلو مترا

---

(١) لهذه الحملة تفاصيل مطولة شائقة جديرة بالاطلاع عليها وعلى الاخص فى
C. R. Barkham - History of the Abysinian Expedition
وكذلك الصفحات من ٢٠٥ — ٢٧٤ من The Blue Nile by Alan Moorehad
واما هنا فـكتفى بما ورد عنها باختصار فى ص ١٨ ، ٨٨ ، ٨٩ من كتاب
The Ethiopians by Ullendroff

(٢) ص ١٤١ من كتاب عصر إسماعيل بقلم عبد الرحمن الرافعى .

(من زولا إلى سينافيه) ومعدات كاملة لإنشاء رصيفين لرسو البواخر ، وجهازين من أجهزة تقطير مياه البحر لإعداده للشرب ، ولم ينس قائد الحملة أن يجهز معه سلاحاً من أهم الأسلحة وهو نصف مليون ريال حبشى (مارى تريزا) الذى له فعل السحر فى الحصول على معونة الشعب (ملحوظة — استعمل الطليان نفس السلاح فى عام ١٩٣٦ ، واستعمله الانجليز مرة أخرى فى الحرب العالمية الثانية فى حملتهم لطرد الطليان من الحبشة عام ١٩٤٢) وكان إعداد الحملة على هذه الصورة فريداً فى بابه واستحداثاً فى أساليب الحرب والتجهيز الحربى .

* * *

ولقد استفادت الحملة الانجليزية فى اجتيازها للستمائة كيلو متر التى كان عليها أن تقطعها لتصل إلى مجدلا عاصمة تيودور ، من المساعدات والتسهيلات التى قدمها لها رؤساء القبائل التى مرت بها لاشتداد كراهيتهم لتيودور وحكمه وعلى رأسهم الملك كاسا ملك التيجرى ، ولم تصادف فى طريقها إلا بعض المناوشات البسيطة ، ولم تقع إلا معركة حربية كبيرة واحدة بالقرب من مجدلا . لقى فيها كثير من المحاربين الأحباش مصرعهم .

تبادل نابيير بعد المعركة بعض الرسائل مع تيودور لم يكن لها نصيب من التوفيق ويبدو أنها لم تؤد الغرض المطلوب منها لما طرأ عليها من تحريف فى الترجمة ، وعدم إلمام الانجليز بعقلية الأحباش وعاداتهم . واضطر نابيير إلى الهجوم على مجدلا ودخلها فى أبريل سنة ١٨٦٨ ، وعندئذ انتحر الأمبراطور تيودور بأن أطلق على نفسه الرصاص .

ولقد اختار تيودور لنفسه خاتمة عنيفة تتفق مع حياته العنيفة ، وليس هناك من شك فى شدة تعلقه ببلاده واندفاعه فى حبها وشغفه بتوحيدها ورفعة شأنها ونشر الدين المسيحى بين ربوعها وتأييده وتثبيت أركانه ، ولكن صفاته الأخرى التى جعلت منه حاكما طاغيا لاحدود لقسوته طغت على

صفاته الطيبة ، فانطفأت شعلة حياته فجأة ، ومر عهده بالحبشة كالشهاب الخاطف .

* * *

استولى نابيير على الكنوز والنفائس التي جمعها تيودور من جميع الكنائس والأديرة والقصور وكدسها فى قلعة مجدلا ، ومن بينها المخطوطات والكتب والمراجع - التى بلغت حوالى ١٠٠٠ مخطوط ، وزع نابيير بعضا منها على الكنائس مرة ثانية ، ونقل الباقى — وهو الجزء الأهم منها إلى لندن — وأودعت النفائس فى متحف فيكتوريا والبرت — أما المخطوطات فوضعت فى المتحف البريطانى .

ومن بين النفائس التى حملها معه نابيير تاج تيودور - الذى أعيد إلى الحبشة مرة أخرى إلى الرأس تفرى (هيلاسلاسى) [1] .

* * *

هدية الاسلحة الانجليزية للرأس كاسا (الامبراطور يوحنا)

قبل أن نختم هذا الفصل ، حرى بنا أن نتعرض لذكر أمر بالغ الخطورة فى تاريخ الحبشة ، وله أكبر الأثر فى الانتصارات الحربية التى أحرزتها مملكة الحبشة على السلطنات الاسلامية وأخضاعها فيها بعد ، وهو أمر هدية الاسلحة الانجليزية الحديثة للمملكة الحبشية المسيحية التى سبقت الإشارة إليها ، وقبل أن نمضى فى ذكرها نرجو من القارىء أن يضيفها إلى قائمة الخطط البريطانية التى سنفصل ذكرها فى الفصل القادم عند الكلام عن الحملات المصرية على الحبشة .

* * *

ذكرنا عند الكلام عن عهد تيودور كيف تجهزت حملة نابيير وكيف تفننت فيها انجلترا فاحتوت على مقادير هائلة من أحدث أسلحة الحرب

---

(١) ص ١٦ ، سير بدج Budge

وأكثرها ملاءمة للحروب فى البلاد الجبلية مثل أراضى الحبشة — وكيف كانت حملة نابيير مقتصرة على إنقاذ الأسرى الأوروبيين وعندما تم لها ذلك عادت إلى بلادها بسرعة .

ويبدى الكثيرون عجبهم من هذه السرعة التى انسحبت بها حملة نابيير بعد نجاحها الساحق وانتصارها على تيودور وقتله وخلو الجو تماما لها ولسيطرتها التـــامة على البلاد ، ولم نعهد فى بريطانيا ولا فى غيرها من الدول الاستعمارية فى ذلك الوقت أن تنسحب من بلاد حققت مثل ذلك الانتصار فيها ، ولطالما تعللت بأتفه الأسباب للبقاء ، وهكذا كونت امبراطوريتها الواسعة .

لقد كانت مهمة حملة نابيير تحرير الأسرى الأوروبيين من سجون تيودور وأعلنت ذلك وأكدته فى كل مناسبة ، وكان يبدو أنه لا يعنيها أمر الحبشة أو من الذى سيملأ الفراغ الذى تركه تيودور ، ولم يكن بالبلاد فى ذلك الوقت غير بعض الأمراء ذوى النفوذ وأهمهم ثلاثة كما قدمنا ـ وهم منليك ملك شوا ـ وكاسا ملك تيجرى ـ وجوبازى ملك أمهرا .

ولا يمكن أن يسلم الانسان ببراءة هذه السياسة التى أعلنتها بريطانيا ، وجميع المنطقة تغلى بالصراع بين الدول الكبرى للحصول على مناطق نفوذ ومستعمرات بشكل جنونى . ولا بد وأن يكون انسحاب بريطانيا من الحبشة بعد انتصارها الكبير هناك ، أمراً اقتضته الظروف السياسية فى ذلك الوقت ولكنه فى نفس الوقت انسحاب مدروس مخطط ، تمهد معه بريطانيا للحصول على ماتبتغيه . وكانت انظارها متجهة إلى جميع المنطقة ، وأصابعها ممتدة إلى صميم الدول المحيطة بالحبشة ، فهى متغلغلة فى السودان تحت اسم الحكومة المصرية . وتعمل على انتزاع أوغندا والانفراد بها بعد أن فتحتها الجيوش المصرية . ثم تجوب أساطيلها شواطىء البحر الأحمر لتمكن من سيادتها وتتحفز لانتهاز الفرص . وفوق كل ذلك فهى لاتخرج عن إجماع الدول

الأوروبية على تعزيز مملكة الحبشة المسيحية ، والعمل على تأييدها وبسط نفوذها .

ومما لاشك فيه أن بريطانيا قد أخذت فى اعتبارها طبيعة البلاد الجبلية بالحبشة وطبيعة أهلها ، وماسوف يكبدها ذلك من مجهود ونفقات للبقاء فى تلك البلاد ، ومع أن هذه النفقات والمجهودات فى مقدورها ، ألا أن الموقف على هيئته الشاملة فى المنطقة لايستدعى بقاء القوات البريطانية فى الحبشة — ومما لاشك فيه أن بريطانيا فضلت اتباع خطة أعظم فائدة وأكبر أثرا بالاستيلاء على مصر وتوابعها فى السودان وأوغندا والصومال والبحر الأحمر وركزت جهودها فى هذا السبيل .

ومما يؤيد يقيننا بخطة بريطانية بعيدة المدى مترامية الأطراف ، ذلك التناقض العجيب فى المظاهر الواضحة للخطة . فبينما يتم لها الانتصار الساحق على الحبشة تسارع إلى الانسحاب وتترك هدية لاتقدر بمال من الأسلحة الحديثة لملك الحبشة ، وتبين للعالم أجمع بأنها لم تدخل الحبشة إلا لتنفيذ عمل بطولى وهو انقاذ الأسرى الأوربيين وأنها أوفت بعهدها بعد انتهاء مهمتها بسرعة الانسحاب .

وفى نفس ذلك الوقت كانت تحيك الدسائس وتدبر الخطط حول مصر وما أن استنجد بها الخديو توفيق حتى دخلت بجيوشها لتثبيت عرشه فى ١٨٨٢ على أن تغادر البلاد بعد ذلك ولكنها بقيت أكثر من سبعين عاما .

فان بريطانيا كانت فى ذلك الوقت تنصب الفخاخ للخديو اسماعيل وتضيق الخناق عليه وتفرض عليه من رجالها حكاما على المناطق المصرية الهامة وأهمها السودان الذى أرسلت إليه صمويل بيكر ثم من بعده جوردون الذين حكما السودان خلال الفترة التى نتكلم عنها ، وظهرت نوايا بريطانيا واضحة جلية من اعجاب جوردون بالامبراطور يوحنا لمجهوداته فى تنصير المسلمين وكذلك رفضه تلبية اوامر الخديو اسماعيل لمعاونة الحملة المصرية التى نزلت

على شواطىء الصومال اتماما لخطة تثبيت أقدام الفتوحات المصرية — كما سيأتى ذكره فيما بعد .

* * *

لقد لعب الكولونيل(ميرويذر Merewether) المقيم البريطانى فى عدن دورا بارزا فى حملة نابيير على الحبشة واليه يرجع الفضل الأكبر فى تسجيل تاريخ هذه الحملة ، وهو الذى قام بالجانب السياسى منها وكان محورا للرسائل المتبادلة فى كل مايتعلق بالحملة منذ قيام الأزمة حتى نهايتها ، وكان المشرف الأول على جهاز المخابرات البريطانى فى تلك المنطقة الذى مهد للحملة على الشاطىء وفى داخل البلاد ثم رافق الحملة عند وصولها وكان دائما فى مقدمتها .

ومنذ اللحظة الأولى ركز ميرويذر اعتماده على زعيم قبائل التيجرى الثائر على حكم تيودور وكان يدعى وقتئذ(كاسا Kassa) ثم أصبح فيمابعد الامبراطور يوحنا الرابع ، ومن المعلوم أن الحملة كان عليها أن تمر فى كل اقليم تيجرى لكى تصل إلى مجدلا حيث يتحصن الامبراطور تيودور .

انتصرت حملة نابيير ولم تستعمل مماجلبته معها من اسلحة وعتاد إلا النزر اليسير ، وبقيت لديها مقادير هائلة منها . قدمتها هدية إلى كاسا زعيم تيجرى فأصبح بفضل هذه الأسلحة قويا لايمكن منافسته فى الحصول على العرش وبسط نفوذه على البلاد [١] وكانت هذه الهدية عبارة عن مجموعة من مدافع الميدان الحديثة ، ومدافع المورتار وبنادق حديثة الصنع تكفى لتسليح فرقة كاملة [٢] .

وليس بالعسير على الفهم أن نتصور ما لمثل هذه الأسلحة من الاثر فى صد الاعتداءات التى تعرضت لها الحبشة من المهدى فى السودان ومن الايطاليين فى الاريتريا ، وكذلك فى تقوية ساعد الامبراطور فى البطش

---

(١) ص ٨٩ The Ethiopians by Ullendorff

(٢) ص ٥٢٠ سيربدج Budge

بالمسلمين والتنكيل بهم على النحو الذى ستتميز به العهود المقبلة ، والتى لم يتمكن فيها الاسلام فى الحبشة من أن تكون له أية قوة أو قيمة عسكرية .

* * *

ويشرح (آلان مورهيد Alan Moorehead)[1] الموقف فيقول : « لقد كافأت بريطانيا (كاسا) على معاونته للحملة باهدائه كمية هائلة من البنادق والذخيرة والمعدات الحربية . وسواء كان وراء هذه الهدية هدف سياسى أم لم يكن لها هدف ، فان مستقبل كاسا قد تحدد بحصوله عليها ، إذ أصبح أقوى زعيم فى الحبشة كلها . وكل رجل يحوز مثل هذه الأسلحة فى تلك البقاع الجبلية حرى بأن يستعملها ويستولى على البلاد » .

« وإنه لمن العسير أن يصدق الانسان أن ميرويذر لم يكن يقدر هذه الأمور ويعلم عواقبها ، ولو أنه كان متحفظا عندما أورد فقرة عابرة فى تاريخه الرسمى الذى كتبه عن الحملة تلقى بعض الضوء على الموضوع عندما قال (أحسن مايمكن توقعه من آمال فى تمتع الحبشة بالسلام هو أن تقسم مقاطعاتها بين حاكمين على الأقل ... فأنه من المستبعد أن يقوم كاسا بمهاجمة (واجشام جوباز Wagsham Gobaze) بينما يحتمل أن يحاول واجشام مد نفوذه على مقاطعة تيجرى ، وعندئذ تصبح هدية الأسلحة التى حصل عليها كاسا ذات فائدة فى الدفاع عن نفسه ـ وعلى أى حال فقد كان صديقا حميما للحملة البريطانية ، ويمكن الاعتماد على أن يكون حليفا عظيم الشأن فى المستقبل »[2] ولا يمكن لبريطانيا أن تنسحب على هذه الصورة ، إلا إذا كانت على ثقة تامة من نجاح يوحنا فى تحقيق مآربهم وتوطيد أركان حكمه ، وهو لهم حليف ومؤتمر بأمرهم ، ولعل فى الموقف الدولى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ، تتصارع فيه الدول الكبرى على الحصول على النفوذ فى المنطقة مادفع بريطانيا إلى اتباع تلك السياسة البارعة . ومما يؤيد ذلك ، عقد معاهدة التحالف بين يوحنا وبريطانيا (١٨٨٤) .

---

(١) ص ٢٧٣ The Blue Nile.

(٢) ص ٢٧٣ The Blue Nile by Alan Mooreheab

مزيد من الأسلحة — من روسيا :

لم تشأ روسيا أن تبتعد عن هذا الصراع - فأرسلت فى ١٨٨٥ مندوبا عنها إلى الملك يوحنا ، فأستقبله استقبالا حسنا ، ومنحه تصريحا ببناء كنيسة وأقطعه مساحة كبيرة من الأرض ، أطلق عليها اسم (موسكو الجديدة) - وانتهز الملك يوحنا الفرصة وطلب تسليح الجيش الحبشى وحصل بذلك على ٥٠٠٠٠ بندقية طويلة ، ٥٠٠٠٠ بندقية فرسان ، ٥٠٠٠ مسدس ، ٤٠ مدفع ، ٥٠٠٠ سيف ، كمية وافرة من الذخيرة [١]

---

(١) ص ٥٢٥ سيربدج Budge

الفصل الثالث عشر

عهد الامبراطور يوحنا الرابع (١٨٧٢ — ١٨٨٩ م)

لختام هذه المرحلة يجب الكلام عن عهد الامبراطور يوحنا الذى دام سبعة عشر عاما . لأنه كان شديد التعصب للسيحية ، متطرفاً فى كراهيته للاسلام ، مما جعل عهده سلسلة متواصلة من الحروب ضد المسلمين الذين يتاخمون مملكته ، وفى نفس الوقت يعمل على حماية بلاده من تسلل الأوروبيين ولقد استفاد أيما فائدة من هدية الأسلحة الضخمة التى سبقت الاشارة إليها والتى تركتها له بريطانيا بعد حملة نابيير .

وهو الامبراطور الذى قال عنه جوردون — كما سبق أن قدمنا — « من الغريب أن يوحنا يشبهنى — فانه متعصب دينى — وله رسالة لابد وأن يحققها وهو تنصير جميع المسلمين » .

ولقد تميز عهده بشدة ضغطه وقسوته على المسلمين والوثنيين واليهود ، وحدد للجميع فترة أقصاها ثلاثة سنوات يتحتم أن يتحول الجميع أثناءها إلى الدين المسيحى ، وبطبيعة الحال اختص المسلمين بمزيد من القسوة ، وفرض عليهم أن يبنوا كنائس على نفقتهم بجوار مساكنهم ، وأن يدفعوا عشورا خاصة للقسس والكنائس التى فى منطقتهم ، وأخذ يستعمل مختلف الوسائل لتعذيبهم والحط من شأنهم ، فلجأ كثيرون منهم إلى الفرار من الهضبة إلى المناطق البعيدة عن سلطانه . بينما اضطر الكثيرون إلى التظاهر باعتناق المسيحية حتى يأمنوا على أنفسهم وعلى أرزاقهم ، ولكنهم ظلوا فى صميم قلوبهم مسلمين متسترين على اسلامهم ، حتى إذا حانت ساعة وفاة أحدهم نطق بالشهادتين ، وأصبحت هذه عادة معروفة لدى جانب كبير من المسلمين الذين يعيشون فى المناطق المسيحية أو المناطق التى تزداد فيها سلطة الامبراطور

وكان الامبراطور يوحنا على وشك أن يقضى على شوكة الإسلام . لولا أنه انشغل فى ابان حكمه بصد الهجمات التى تعرض لها ، وخصوصا من الغارات والحروب التى وجهتها إليه جيوش المهدى فى السودان . وكذلك الحملات التى بدأت ايطاليا فى توجيهها ضده من الاريتريا وكانت قد استولت عليها بعد جلاء المصريين عنها .

* * *

صراع يوحنا مع الاسلام :

استلم يوحنا حكم الحبشة والاسلام يتقدم فى ثبات ، ونفوذه يزداد فى جميع المناطق وبين جميع الأجناس حتى نفذ فى قوة إلى داخل الهضبة - معقل المسيحية ، ولقد أيد مستر بلاودن هذه الحقائق ووصف الكيفية التى كان ينتشر بها الاسلام . « وهناك شهادات مماثلة أدلى بها رحالون آخرون (Peke 51 Isenberge p ·36) تؤيد تقدم الاسلام فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، فقد وجد هؤلاء الرحالون جموعا من المسيحيين فى تحول مستمر إلى هذا الدين » ... وقد مد هذا الدين الآن جذورا بعيدة الغور فى أرض الحبشة ، حتى أن أتباعه ملكوا ناحية التجارة كلها ، كما ملكوا المهن الصغيرة بأنواعها فى البلاد ، ونعموا بأملاك واسعة وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق هامة ، وظفروا بنفوذ قوى على جمهرة الشعب ، وقد قدر مبشر مسيحى عاش فى الحبشة خمسة وثلاثين عاما نجاح دعاة المسلمين وحماستهم تقديرا عظيما بقوله ، لو أن هناك أحمد قرآن آخر (الامام أحمد الأشول) ينهض وينشر راية النبى لصارت بلاد الحبشة مسلمة بأسرها (مساجا Massaja Vol. IV p. 124

« وفى سنة ١٨٧٨ عقد الملك يوحنا مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية ، ونادوا به حكما أعلى فى المسائل الدينية ، وقرروا وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء البلاد . وأعطى المسيحيين على اختلاف طوائفهم الذين لا يعتنقون مذهب اليعاقبة . مهلة عامين ليصحبوا بعدها متفقين فى الرأى مع

كنيسة البلاد » ، وألزم المسلمين باعتناق المسيحية فى خلال ثلاث سنين والوثنيين فى خلال خمس . وأذاع الملك مرسوما بعد ذلك بأيام قليلة ، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التى منحها للمسلمين ليست بذات أهمية ، وذلك أنه لم يقتصر على الزامهم ببناء كنائس مسيحية فى مناطقهم كلما احتاج المسيحيون إليها وكذلك دفع العشور للقساوسة الذين فى مقاطعاتهم فحسب، بل أنه أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا فى خلال ثلاثة شهور بين قبول التعميد واعتناق المسيحية أو التخلى عن مناصبهم، وكان مثل هذا التنصير الاجبارى الذى لا يشتمل إلا على طقوس العماد ووضع العشور، عديم الأثر بطبيعة الحال، ففى الوقت الذى تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا فى الخفاء يؤكدون ولاءهم لدينهم القديم - وقد شاهد «مساجا Massaja» بعضا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التى عمدوا فيها قاصدين المسجد ، يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه، وأن ماجعل كل هذا التنصير أضعف أثرا وأقل قيمة هو أنه كان مقصورا على الرجال دون النساء ، وهى حالة ربما دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد فى مستقبل الاسلام فى بلاد الحبشة كما أن مساجا يقيم البرهان الساطع على ماقامت به النساء المسلمات من دور خطير فى سبيل نشر دينهم والمحافظة عليه فى هذه البلاد .

ويقول « مساجا » أن الملك جون (يوحنا) أرغم حول سنة ١٨٨٠ مايقرب من خمسين ألف من المسلمين على التعميد كما أجبر عشرين ألفا من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجالا ، ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور ، فلا عجب إذا عرفنا أن هذه الوسائل التى تقوم على العنف والأرهاب ، لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء فى نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين جميعا نحو الدين المسيحى (١)

وقد اغتنم ملك كافا Kaffa فرصة ارتباك الملك يوحنا الذى هدده الايطاليون واتباع المهدى فى وقت واحد فأعلن استقلاله واعتنق الإسلام ليكون بذلك

---

(١) ص ١٤٣ الدعوة للاسلام للسير توماس أرنولد ترجمة د . حسن ابراهيم حسن .

أقوى نفوذا ، وقد أفلح فى مقاومة كل هجوم حتى سنة ١٨٩٧ حين غزا الامبراطور منليك بلاده . (الذى كان قد وطد سلطانه فى جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الامبراطور يوحنا سنة ١٨٨٩ وعاد الدين المسيحى دينا رسميا فى ولاية كافا) ... ولكن هذه التدابير الصارمة التى اتخذت لصالح المسيحية قد اخفقت فى وقف نمو النفوذ الاسلامى فى حلال القرن التاسع عشر ، فقد أسلمت قبائل بأجمعها كانت يوما ماتدين بالمسيحية ، ولاتزال تحمل اسماء ـ مسيحية مثل قبائل تاكلية Takles (أى نبات يسوغ) وهبتيه Haptes (أى عطية يسوع) وتيا ريام Temaryam (أى عطية مريم) وكذلك قبيلتا منساع Mansa حول منتصف القرن التاسع عشر ، ثم دأن السواد الأعظم منها بالاسلام فى مستهل القرن العشرين ويلوح أن الجهود التى قام بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم إلى الإسلام ، كانت ممهدة السبيل بسبب جهل رجال الكنيسة . كذلك قامت حركة مماثلة بنشر الاسلام ظلت مستمرة بعض الوقت بين قبائل أخرى[1]

وللحديث عن عهد يوحنا بقية ـ تتصل بما يشمله الفصل القادم من تاريخ الحملات المصرية على الحبشة .

---

(١) ص ١٤١ ، ١٢٤ نفس المرجع .
وكذلك Littman pp 68 - 70 No4 - & Cederquist, Islam and Christianity in Abyssinia p. 154

الفصل الرابع عشر

الحملات المصرية

— على الحبشة —

ترتبط مصر بالحبشة بروابط قل أن نجد لها مثيلا بين دول العالم، وترجع هذه العلاقة إلى أقدم عصور التاريخ . فهناك شريان هائل يفد من الحبشة إلى مصر ويغذيها بالقدر الأكبر من مائها وطميها وهو النيل الأزرق — وتتدفق مياه الحبشة فى نيل مصر سنة بعد أخرى فى نظام رتيب وتوقيب محكم دارت حوله عجلة الحياة فى مصر . وتغلغل فى صميمها متحكماً فى أعمال الناس جميعاً ونشاطهم ، محدداً لهم صورة حياتهم ، وهو فى أغلب تاريخه مخلص أمين يأتى إلى البلاد بالقدر المعلوم الذى ألفه الناس ويترقبونه عاماً بعد عام ويستقبلونه بالأفراح ، ولكنه يشح أحياناً فيعم القلق ، بينما يزيد عن معدله أحياناً أخرى فيفيض على البلاد ، ويحطم الجسور وينشر الخراب ويدفع بجميع الناس إلى العمل الدائم ليل نهار لمكافحة ثورته . تعلقت حياة الناس وآمالهم به ولا حديث لهم إلا عنه حتى مرت عصور جعلوا منه إلهاً يعبدونه .

وحول هذا النيل كتب العالم أولى سطور الحضارة ، ونشأت الأسس الأولى للمدنية والعلم والمعرفة ، وعندئذ بدأ المصريون القدماء يعجبون لهذا النهر ويتطلعون إلى معرفة مصادره ، فانتشرت حوله الأساطير فترة من الزمن ، ولكن سرعان ما نشطت حركة الاستكشاف ، فاختلطت الشعوب وتزاوجت وحاربت وأثرت حضارة أحداها على الأخرى، واستمرت العلاقات بين مد وجزر خلال العصور المتعاقبه .

ولعل من أهم ما نشأ من صلات حول هذا النهر العظيم ، انتقال الاديان وتجاوبها بين مصر والسودان والحبشة ، وكان أظهرها أثراً انتقال الديانة ، المسيحية فى عصورها الأولى من مصر إلى السودان والحبشة ، ثم بعد ذلك انتشار الإسلام فى مصر أولا ثم فى الحبشة ثم فى السودان .

وفى كل مرحلة من تلك المراحل تبرز علاقة مصر بالحبشة بشكل يحجب ما عداه من الصلات . سواء كان ذلك لاشتراكهما فى قارة واحدة أم لوجود أهم مصادر لمياه المصرية داخل الحبشة ، أم للارتباط الوثيق بين الحبشة بمصر التى تتزعم العالم الإسلامى فى هذه المنطقة وتتركز فيها دعائم الإسلام ومعاهده ومراكز الدعوة إليه .

* * *

فليس بغريب بعد كل ذلك أن تكون مصر شديدة العناية والاهتمام بكل ما يجرى فى الحبشة وما يدور فيها ، وإنا وإن كنا قد عرضنا الكثير مما حدث فى الماضى ، إلا أن عصر النهضة قد شهد نشاطاً هائلا فى تطـــور وسائل المواصلات ، اتسعت معها الأطماع ودخلت إلى الميدان كثير من الدول الأوروبية الاستعمارية ، وانتقلت العدوى إلى الدول القديمة مثل مصر التى سارعت إلى امتداد سلطانها وتثبيت أقدامها ، ولا أقل من أن يكون نشاطها هذا مركزاً على حماية مصادر حياتها فى السودان والحبشة ، وأصبح لزاماً عليها أن تعمل لتحقيق ذلك بمختلف الوسائل من حملات عسكرية فى البر ، وأساطيل بحرية تسيطر على الشواطىء وأهمها البحر الأحمر . وكان الهدف الأول لنشاط مصر هو تأمين مصادر المياه التى يتوقف عليه حياتها . خصوصاً وأن ملوك الحبشة كثيراً ما هددوا مصر بتحويل مياه النيل عنها .

* * *

تم فتح السودان فى عهد محمد على فى بداية القرن التاسع عشر ، وإن كان الإسلام قد دخله قبل ذلك بكثير أيام المماليك وعن طريق المهاجرين

العرب الذين استقروا بالبلاد ، وكذلك سبق اعتناق فريق كبير من قبائل البيجة للاسلام كما قدمنا إلا أن فتح المصريين للسودان عجل بانتشار الإسلام فى غربى الحبشة والاريتريا ، ومنح المسلمين فى الحبشة نوعاً من الطمأنينة كانوا دائماً فى حاجة إليها .

ثم لا يجوز أن ننسى ذلك النشاط الكبير الذى بذله دعاة الإسلام من شرق أفريقيا وشرقى السودان ، الذى تميز بالنجاح الباهر المعتمد على الدعوة السلمية ، ولم يعتمد على سلاح أو حملات عسكرية وحقق نتائج عظيمة وكان له الفضل فى اسلام طائفة كبيرة من مملكة النوبة وامتد أثره إلى كردفان .

* * *

عندما ظهر محمد على فى مصر ارتفع بهـا إلى مصاف الدول الكبرى واكتسبت من الثروة والقوة ما جعلها تتفوق على الدولة العثمانية التى كانت لها السلطة الأسمية على جميع بلاد الإسلام فى الشرق الأوسط والمغرب العربى. ولما عجزت هذه الدولة عن الاحتفاظ بامبراطوريتها المترامية الأطراف اضطرت إلى الاستعانة بمصر ، وأوكلت إليها شئون جزيرة العرب ثم بعد ذلك استعانت بها فى غير ذلك من الأقطار - التى لا يعنينا أمرها فى هذا الكتاب .

وعندما سيطرت الجيوش المصرية على الحجاز ونجد ، تخلت الدولة العثمانية عن سيطرتها على موانى البحر الأحمر وأهمها مصوع للحكومة المصرية.

بدأت الحملة المصرية على السودان فى عهد محمد على فى ١٨٢٠ م وفى عام ١٨٢٢ كانت قد دانت له جميع بلاد شرقى السودان إلى حدود الحبشة .وكانت تراوده آنذاك أطماعه فى الاستيلاء على الحبشة .

وذكر محمد على لقنصل بريطانيا العام بالقاهرة (مستر سولت Salt) أنه يفكر فى الاستيلاء على الحبشة بعد سنار ، فأخبره سولت « أن الدول الأوربية سوف لا تتساهل أو تحتمل مها جمته للدولة الأفريقية الوحيدة التى حافظت على مسيحيتها » (١)

---

(١) ص ١١٥ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

ولا ندرى هل كان لهذا التهديد الصريح الأثر الذى منع محمد على من متابعة زحفه واستيلائه على الحبشة ، أم أنه كان أشد اهتماماً فى ذلك الوقت بالأحداث والحملات التى تعمل فى سورية فصرف نظره مؤقتاً عن مغامرة الحبشة ، ويبدو أن التعليل الأخير هو الأقرب إلى الصواب ، إذ أن محمد على — بعد انسحابه من سوريا إثر تدخل القوات الأوروبية التى تكتلت ضده وحصرته فى داخل القاهرة الأفريقية — ذهب فى آخر عهده فى عام ١٨٣٨ فى رحله شاقة خلال السودان ووصل إلى حدود الحبشة . رغم تقدمه فى السن .

قامت القوات المصرية بعد هذة الزيارة مباشرة بالهجوم على الحبشة ولكنها لم توفق ، فأعدت العدة لمعاودة الكرة ، مما أدى إلى تدخل الحكومتين الانجليزية والفرنسية وأجبرتا محمد على — على التخلى عن فكرة الحبشة . واستمرت الحال كذلك إلى عهد سعيد باشا .

الخلاف بين تيودور وسعيد باشا وإلى مصر :

عندما استتب الأمر لتيودور ، أخذ ينظر بعين القلق إلى مركز المصريين فى مصوع شرقا وفى السودان غربا ، وخصوصاً لما سمعه بأنهم يطمعون فى إنشاء خط حديدى يربط بين الجهتين وكانت محاولة محمد على للاستيلاء على الحبشة لا زالت ماثلة فى الأذهان ، بجانب ما تحرك فى نفس تيودور من أطماع بالقضاء على الدولة الإسلامية . وإعادة مجد الامبراطورية الحبشية القديمة ، الذى حدد لها بنفسه حدوداً لم تكن موجودة من قبل ، ولكنها فى الواقع تحرز مركز دولته الجديدة ، فتعددت غارات رجاله على السودان وكان الاعتقاد الذائع فى تلك المرحلة هو أن الانجليز هم الذين كانوا يحرضونه على العدوان ، ويثيرون كوامن حقده على الإدارة المصرية بالسودان على خلاف ما كان يدعيه قناصلهم فى مصر وقتئذ من أنهم إنما يريدون أن يسود السلام بين مصر والحبشة .

« ولقد تحدث عن أطماع تيودور ـــ القنصل الفرنسى فى مصر » بنديتى Benedetti « فذكر فى رسائله إلى حكومته فى ٥ ، ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٦ أن الامبراطور تيودور يهدد بالاغارة على السودان المصرى،ويريد تحويل مجرى النيل حتى يجعله يجرى صوب البحر الأحمر ، وأكد وجود هذه الأطماع لدى تيودور القنصل الانجليزى المقيم بالحبشة« بلاودن Plowden الذى كتب فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٥٦ يقول « أن تيودور يطلب البلادالعربية الواقعة على حدوده الشمالية حتى سنار ، كأنه يريدمصوع وكذلك مرتفعات البوغوض والمنسا والحباب وغيرها . . . . » وأما عن تحريض الانجليز لتيودور ، فقد تحدث عنه أيضاً القنصل النمسوى « هوبر » عندما قال فى رسالته إلى حكومته من الإسكندرية فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٥٦ « أن سعيد باشا كثير القلق من ناحية هذه الحركات التى يقوم بها تيودور الجرىء النشيط وخصوصاً ما يذاع فى القاهرة من أن وسوسة الانجليز فى أذن تيودور تزيده تذمراً وغضباً من الادارة المصرية فى السودان ، والواقع أن تيودور قد حصل على بعض المدفعية والبنادق لعساكره من عدن » وفى هذه الرسالة ذكر « هوبر » أن سعيد باشا يريدفى رحلته التى يزمع القيام بها إلى السودان تعيين حدود السودان التى لا تزال غير واضحة المعالم وموضع نزاع ،وذلك لتأمينها ضد هجوم يأتى عليها من جيرانها المتاخمين لها فى الشرق وهم الأحباش وفى الغرب من سلطنة دارفور »[1] .

لذلك وجد سعيد باشا نفسه مضطراً إلى المبادرة بمعالجة الموقف واتخاذ الإجراءات الكفيلة بإيقاف اعتداءات تيودور على حدود السودان ، فأمر حكمدار السودان بأن يكتب إلى امبراطور الحبشة كتاباً رقيقاً جاء فيه (فيلزم التبصر عن طلب إزالته فى سلك مكاتبة المودة التى تحررونها)[2] .

---

(١) ص ٧٥ مصر والسودان د . محمد فؤاد شكرى .

(٢) سامى باشا ـ تقويم النيل ـ المجلد الأول ج ٣ ص ١١٩ ـ ١٢٠

ويبدو أن مطران الحبشة كان يلقى الكثير من المتاعب من الأمبراطور تيودور ، عندئذ رأى سعيد باشا أن يوفد البطريرك كيرلس الرابع إلى الحبشة ليعمل على تهدئة الأمور وإحلال السلام محل الحرب وربط أواصر الصداقة بين الدولتين وإيقاف المناوشات على حدود السودان وتعزيز مركز المطران المصرى ، وسافر البطريرك مزوداً بهدايا ثمينة وزود بالخطاب التالى إلى حاكم السودان .

« جناب بطريرك الأقباط عرض لأعتابنا أن مطران بلاد الحبشة المقيم فى طرفه هناك حاصل له عىّ شديد ترتب على عطل أشغاله ويرغب التوجه بنفسه لإجراء ما يقتضى لضبط وملاحظة أشغال الملة ، والتمس الإذن له بالإجابة له فيما يطلب .

ومن حيث أنه من الوجوب ملاحظته ، ومراعاته كما هو من مقتضيات شميم مراحمنا وأن يصير له الاستعداد والمساعدة فى جميع الجهات التى يمر فى الذهاب والاياب أصدرنا أمرنا هذا إليكم . . . (١)

ولم يكن سعيد باشا مطمئنا إلى نتيجة مسعى البطريرك فسافر إلى السودان لتفقد الشئون الحربية وتظاهر بأنه يقصد بزيارته الوقوف على أحوال أهل السودان « ووضع وتأسيس النظامات اللازمة لعمرانها ولرفاهية تلك البلاد » . وفى الوقت نفسه أرسل لحكمدار السودان أمراً عالياً . نصه كالآتى :

« فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ (١٨٥٦) .. أعلموا أن ارادتنا اقتضت تحريك ركابنا . من جهة مصر المحروسة بقصد الحضور إلى جهة السودان .. فيلزم حالا وسريعاً تجمعوا كافة العساكر الجهادية الموجودين فى جهة

---

(١) نفس المرجع .

السودان ليكونوا حاضرين جميعاً بآلاتهم فى الخرطوم ، كذلك تجمعوا فيها كافة المدافع الموجودة المهيأة المطقمة ... » [1]

وكان استقبال البطريرك بالحبشة عظيما — إذ أن هذه هى المرة الأولى التى يطأ فيها الرئيس الأعلى لكنيسة الأسكندرية أرض الحبشة . ولكن الامبراطور تيودور لم يكن يستسيغ أن يقوم بطريرك الأقباط ورأس الكنيسة المسيحية بالتوسط من أجل سلطان مسلم، وسرعان مابدأ الامبراطور يعامله بجرو دوغلظة ووجد البطريرك صعوبة فى إقناعه بالكف عن الإعتداءات على الحدود السودانية ، وكان الأجانب الموجودون بالحبشة يوغرون صدر الامبراطور ويمعنون فى دسائسهم وادعاءاتهم .

وانتهز هؤلاء ما بلغهم من زيارة سعيد باشا للخرطوم وتجمع الجنود بها لاستقباله لإقامة الدليل على سوء نية المصريين — خصوصا وأن البطريرك كان قد توسط للامبراطور ونصحه بمعاملة المسلمين بالعدل والاحسان حتى يعامل سعيد باشا أقباط مصر ومسيحى السودان بالمثل ، عندئذ خامر الشك تيودور وقويت ريبته من البطريرك فأمر بالقبض عليه ومن معه وأودعهم السجن .

وعندما بلغ سعيد باشا ماحدث للبطريرك — أراد أن يطمئن الامبراطور فكتب له فى ٩ جمادى الأول ١٢٧٣ — ما يفيده بأن زيارته للسودان هى (بقصد النظر فيما عليه أهاليها من أحوال . هذا غاية قصدنا ولا قصد لنا سواه) فاطمأن الامبراطور وعرف خطأه وندم على تسرعه . واعتذر للبطريرك وأفرج عنه ومن معه .

ولكن الامبراطور لم يسمح للبطريرك بالعودة ، فأرسل له سعيد باشا كتاباً آخر بعد عام (فى ٢٨ ربيع الثانى) يبدى فيه قلقه وقلق أقباط مصر .

---

(١) سامى باشا — تقويم النيل — المجلد الاول جـ د ص ٣٠١ .

. . وإنما دعت الحاجة للمكاتبة الآن فيما يأتى إيضاحه ، وهو أن رئيس الطائفة العيسوية الأقباط بمصر عرض علينا مضمونه ، أن البطريرك تقدم توجه إلى الحبشة زائراً من مدة شهور وحضرتكم أبقيتموه هناك ولو أنه محترم عندكم . . . إلا أنه نظراً لغيابه تلك المدة تعطلت إقامة شعائرهم الدينية والدنيوية نوعاً ، والتمسوا المخاطبة من طرفنا لحضرتكم أملا فى برجوعه ليقوم إليهم بأداء تلك الوظائف . . . ومنه برد الجواب ليتواصل الود والاستحباب ، ودمتم كما رمتم »[1] .

وعاد البطريرك إلى مصر بعد أن غاب عنها سنة كاملة يحمل إلى سعيد باشا كثيراً من الهدايا ووعداً بالصداقة بين مصر والحبشة .

* * *

عهد اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) :

تسلم اسماعيل عرش الخديوية المصرية بعد وفاة سلفه سعيد باشا وورثه عنه دولة أشبه ما تكون بمسرح تتنافس فيه قناصل الدول الأوروبية ووراء كل منهم مجموعة من التجار والمغامرين والمرابين . وتم فى عهد سلفه أمران على جانب كبير من الخطورة — أولهما : استدانته ٠٠٠ ر ١٦ ر ١١ جنيه وبذلك بدأت سيطرة الحكومات الأوروبية على مصر عن طريق مرابيها ، وثانيهما : منح امتياز حفر قناة السويس لفرديناند ديلسبس الفرنسى ، ذلك العمل الذى كان له أبلغ الأثر فى تاريخ العالم وأسوأ الأثر فى تاريخ مصر .

جاء اسماعيل إلى الحكم ووجد أمامه هذين الأمرين الخطيرين . وكان بإمكانه أن يخفف من وقعهما ويرتب أمور الدولة بما يعود عليها بالخير ويمحى آثار الأخطاء السابقة ولكن شخصية اسماعيل كانت كامنة على نقيضين حطم أحدهما الآخر وحطم معه البلاد ، فبينما كان طموحا مفرطاً فى

---

(١) تقويم النيل أمين سامى باشا المجلد الاول ج ٣ ص ٢٦٠ .

الطموح — شديد الاعتداد بنفسه وثقته بإمكان الإرتفاع بمصر إلى مصاف الدول الكبرى وإنشاء امبراطورية كبرى ودفع البلاد فى سبيل الرقى والتقدم والقوة ، فإنه كان فى نفس الوقت متلافاً قصير النظر فى كل ما يتعلق بأمور المال والاقتصاد . منساقاً وراء اللذات والمظاهر .

سار فى سياسته العمرانية على أحسن ما يمكن أن يسير فيه حاكم عصرى متنور فتقدمت البلاد فى عهده فى جميع نواحى العمران والنشاط . وأصبحت لمصر امبراطورية ضخمة تمتد من قسمايو فى جنوب الصومال إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتتوغل داخل أفريقيا شاملة أوغندا ومنطقة البحيرات ، وأصبحت له الأساطيل البحرية القوية التى تجوب بحار هذه الامبراطورية معززة لأركانها . وفتحت فى عهده قناة السويس واحتفل بافتتاحها احتفالا يعيد إلى الأذهان أبهة ملوك فرنسا ، ولكنه بجانب ذلك ظهر قصر نظره فى أمور المال والسياسة وبنى القصور الرائعة بجانب مشروعاته الكبرى ، فتجاوزت أهدافه بذلك وما رافقها من إسراف وإنفاق على المظاهر والملذات ، جميع امكانياته ، وقفز الدين المصرى فى عهده إلى ما يقرب من ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ويقدر الماليون المبالغ الحقيقية التى وصلت إلى خزينة الحكومة منها بما لا يزيد عن نصف هذا المبلغ ، أما الباقى فقد بقى فى جيوب المرابين وخزائن البنوك الأجنبية على صورة أو أخرى من أتعاب وأرباح وفوائد .

وكانت هذه هى نقطة الضعف التى أمسك بها الأجانب وقضوا بها على الامبراطورية المصرية وفرضوا على مصر الوصاية بالتحكم فى مالية الدولة . وعن طريق ذلك تدخلوا فى صميم شئونها الداخلية ، وأوفدوا من رجالهم من يتحتم على اسماعيل تعيينه فى أسمى المناصب وأخطرها ، وتدخلوا فى تعيين الوزراء ممن يتوسمون فيهم الطاعة والولاء لهم ، أما من يعتز بمصريته ويحاول إصلاح بعض الفساد وإيقاف الأجانب عند حدهم ، فعمره قصير فى الحكم ، وليس للخديو خلال كل ذلك إلا الإذعان .

* * *

وسياسة الدول الأوروبية الكبرى . معروفة واضحة — فانها تتنافس وتتصارع فيما بينها وتتسابق فى الحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ والسيطرة على الأسواق ، وتبلغ فى منافستها مع بعضها حد الحروب ، وتتربص الواحدة منها بالأخرى . وعلى الأخص بين انجلترا وفرنسا حيث كان لهما النصيب الأكبر فى الصراع الاستعمارى فى القرن التاسع عشر . والذى زادت حدته بافتتاح قنال السويس .

ومهما بلغ هذا العداء والصراع بين الدول الأوروبية الكبرى ، فإنها سرعان ما تتحد مع بعضها وتتكاتف للقضاء على مصر إذا رفعت رأسها ، وبدا منها ما يشير إلى استرداد قوتها . وليس تاريخ تلك الدول من مصر فى عهد محمد على ببعيد حين تآلفت جميعها واتحدت بالرغم مما بينهما من تنافر وصراع لكى تقضى على القوة المصرية وتختم عملياتها بتحطيم الأسطول المصرى التركى فى موقعة نفارين . ولم يكن انسحاب الأسطول الفرنسى من المعركة وهو حليف لمصر — إلا انصياعاً للأهداف الأوروبية المشتركة التى يتضاءل أمامها فى نظر فرنسا أى تحالف معقود مع مصر .

* * *

تحت هذه الظروف التى سبق شرحها كان اسماعيل يعمل على تحقيق آماله ، ولسنا نريد أن نطيل فى شرد تفاصيل أعماله ، فهذه أمور لها مراجعها الحافلة المستفيضة ، ولكن يعنينا أن نذكر منها ما هو متصل بموضوع كتابنا هذا .

وكانت رأس اسماعيل مليئة بالآمال والمشروعات والأطماع الكبرى ، ولم يتوان فى اتخاذ العدة لتنفيذها ، وبدأ فى عام ١٨٦٥ باستصدار فرمان من السلطان بإحالة قائمقاميتى سواكن ومصوع إلى عهدته ثم جعلهما فرمان ٢٧ / ٥ ١٨٦٦ من ملحقات مصر وشملت مساحتها جميع السواحل حتى باب المندب .

* * *

واتجهت أنظار اسماعيل إلى قلب افريقية ومنابع النيل . ولكنه مع الأسف اعتمد فى تنفيذ ذلك على قواد من الأجانب ـ ونخص بالذكر منهم صمويل بيكر الانجليزى الذى عمل فى خدمة اسماعيل حتى عام ١٨٧٣ ، ثم تلاه جوردون فى منصب مدير خط الاستواء (١٨٧٤ — ١٨٧٦) وهى فترة خدمته الأولى بحكومة مصر ـ ثم فترة عمله الثانية (١٨٧٧ - ١٨٧٩) ثم الفترة الأخيرة من ١٨٨٤ التى إنتهت بقتله فى ١٨٨٥ .

ومن الغريب أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير انجليزيان لهما مقام معلوم لدى الحكومة الانجليزية ، ولا يمكن أن يكون ذلك من قبيل المصادفات فإن الجو فى ذلك الوقت كان زاخرا بالأحداث الخفية . وثبت فيما بعد أن إنجلترا كانت تعمل على تنفيذ خطتها للتدخل فى شئون السودان وتنفذ منه إلى قلب إفريقية وعن طريق ذلك تتحكم تحكما كاملا فى مصر . وليس من قبيل المصادفات أيضا أن يقع اختيارها الكولونيل جوردون بالذات ، فإنه كان الرجل الذى يفيض قلبه وطنية وإخلاصاً لبلاده ، ومن أبرز صفاته التى رشحته لهذا المنصب شهرته بالتعصب الشديد للدين المسيحى وتفانيه فى سبيل نشر مبادئه ، وعدائه السافر للدين الإسلامى .

* * *

ولقد أميط اللثام عن المآزق التى وقع فيها اسماعيل ومحاولاته اليائسة للتغلب عليها ، وعمل فى الخفاء على أن يسبق الانجليز فى أطماعهم ويستولى قبلهم على مناطق أعالى النيل . فكيف يتأتى له ذلك وجوردون الانجليزى يحكم باسمه فى السودان ؟

كان فى خدمة اسماعيل ضابط أمريكى يدعى القائمقام شاليه لونج بك . فعينه اسماعيل رئيساً لأركان حرب الجنرال جوردون فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ فى نفس الوقت الذى تم تعيين جوردون فيه مدير عاماً لمديرية خط الاستواء .

ولقد سجل شاليه لونج مايلى فى كتابه (حياتى فى أربع قارات ج ١ ص ٦٧ My Life in Four Continents)[1]

«كان الخديو اسماعيل يذرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة وهو متهيج تهيجا عصبياً عندما دخلت عليه يصحبنى طونينو بك القشريفاتى الثانى ليقوم بواجب المحافظة عليه - فسألنى الخديو هل رأيت جوردون» ؟

فأجبت : نعم رأيته يامولاى وقضيت معه الهزيع الأكبر من الليل : فقال الخديو حسن جداً والآن إصغ إلى ماأقول .

« لقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب أهمها حماية مصالح الحكومة . واعلم أن القوم فى لندن على وشك أن يجهزوا حمله تحت قيادة رجل متستر بالجنسية الاميركية يسمى استانلى Stanley وهو فى الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة إلى الدكتور لفينجستون Livingstone ، أما فى الباطن والحقيقة فلرفع العلم البريطانى على أوغنده ، فعليك الآن أن تذهب إلى غندوكورو ، إلا أنه يلزمك ألا تضيع شيئا من الوقت بل يمم فى الحال أوغنده واسبق هناك حملة انجلترا واعقد معاهدة مع ملك تلك البلاد . ومصر لاتنسى لك أبر الدهر هذا الجميل أذهب وليسر عقبك النجاح إنشاء الله » .

وسافر الكولونيل شاليه لونج عملاً بهذه الأوامر إلى أوغندة وأنجز مهمته . وعقد معاهدة مع متيسا ملك أوغندة الذى وضع مملكة تحت حماية مصر ، التى سارعت بإعلان ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرات فيكتوريا والبرت الكبرى .

ولقد قام شاليه لونج بإثبات اكتشاف بحيرة فيكتوريا باسم الحكومة المصرية ورفع العلم المصرى هناك وسجل ذلك فى الجمعية الجغرافية المصرية .

---

(١) تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية - الجزء الثالث - ص ٣٧٨

عند احتلال إنجلترا لمصر . وضعت يدها على دار المحفوظات المصرية بالقلعة ـ ونقبت واستولت على كل مايتعلق بهذه الحملة من رسائل ووثائق حتى لايبقى لدى مصر أى مستند عن حقوقها فى تلك المناطق ـ ولكن شاليه لونج عنى بتسجيل جميع تفاصيلها فى الكتب التى وضعها .

وفى نفس الوقت ظهرت نيات الإنجليز واضحة عندما رفض جوردون أوامر الخديو بمقابلة الحملة البحرية التى أرسلها اسماعيل إلى شرق أفريقيا (الصومال) لفتح الطريق إلى أوغندة من تلك الجهات . حتى تصبح منابع النيل تحت السيطرة المصرية من جميع الجهات ، بل على العكس من ذلك تماماً فقد كان جوردون هو الذى أمر الحاميات المصرية بإخلاء أوغندة بعد ذلك . حتى تستولى عليها بريطانيا فيما بعد .

* * *

كانت زيلع وبربرة من أملاك تركيا ، تابعتين للواء الحديدة فى اليمن ، ففكر الخديو اسماعيل فى ضمهما إلى أملاك مصر حينما عزم على فتح سلطنة هرر لأن زيلع هى مينا هرر الطبيعى ، فسعى إلى ذلك لدى الحكومة العثمانية وصدر له فرمان أول يولية سنة ١٨٧٥ بالتنازل له عن زيلع وملحقاتها مقابل زيادة فى الجزية مقدارها ١٥٫٠٠٠ جنيه عثمانى سنويا ، ويدخل فى ملحقات زيلع ثغور بربره وبولها وتاجوره .

وجعل منها اسماعيل محافظات عين لكل منها محافظا من كبار قواده . وقامت بها فى الحال أعمال العمران ومبانى الحكومة والجمارك والثكنات العسكرية والمساجد ومشروعات الميـــاه ومكاتب البريد — ووصلت الشواطىء التى تحت النفوذ المصرى جنوبا إلى رأس جردفوى على المحيط الهندى .

* * *

فتح هرر (١٨٧٥) :

فى عام ١٨٦٦ تولى الحكم فى هرر سلطان تحالف من قبائل الجالا واستعان بهم على توطيد حكمه باضطهاد شعب هرر فاستنجدوا بالخديو اسماعيل . فأرسل إلى رؤوف باشا قائد الحملة المصرية على زيلع وبربره الذى توجه إليها (٣٦٠ كيلو مترا) واستولى عليها فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بدون أن يلقى أية مقاومة تذكر ، وكان استيلاء المصريين على هرر لا يقتصر على كونه مرحلة من مراحل التقدم المصرى داخل البلاد ، بل كان له أثره البالغ فى انتشار الإسلام ، إذ أن الحملة المصرية عملت على كسر شوكة قبائل الجالا المحيطة بمدينة هرر والتى درجت على تهديدها وكان جانبا كبيرا منهم فى تلك المنطقة لا يزال وثنيا . ولم تأل الحملة جهداً فى إدخالهم إلى الدين الإسلامى .

وعادت هرر مركزا لبعث الدعوة الإسلامية منها وانطلقت مجموعة من الفقهاء لارشاد الناس إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة . وكذلك انتهى عهد الجالا وسيطرتهم فى هذه المناطق وأصبحت المنطقة كلها فى فترة قصيرة متجانسة .

* * *

فتح الصومال ١٨٧٥ [1] :

اعتزم الخديو اسماعيل فتح بقية بلاد الصومال فجرد لذلك حملة بقيادة الاميرال ماكيلوب باشا ، وكانت القوات البرية بقيادة شابى لونج بك مكلفة بفتح باقى شواطىء الصومال والوصول إلى مصب نهر جوبا (الجب) ثم فتح الطريق من هناك إلى منطقة البحيرات ـ لكى يتم اتصال أملاك الإمبراطورية المصرية حول شرق افريقيا ونهر النيل من منبعه إلى مصبه . ووصلت الحملة إلى رأس حفون ورفع العلم المصرى عليها ثم غادرها إلى بربرة ثم استمر

(١) ص ١٣٧ جـ ١ عصر اسماعيل عبد الرحمن الرافعى

فى طريقه إلى بلدة قسمايو وعسكرت الحملة بها استعدادا للسير غربا قاصدة بحيرة فيكتوريا وفقا للخطة المرسومة لها من قبل .

وكان اسماعيل قد كتب لجوردون حاكم خط الاستواء وقتئذ لكى يقابل الحملة ويمهد لها ويعمل على نجاح المهمة . ولكن الحملة عادت مرة ثانية إلى قسمايو ويقول قائدها ، أن من أسباب اخفاقها إغضاء جوردون عن الاتصال بها رغم الأمر الصادر له من الخديو اسماعيل ، وظهر فيما بعد من كتابات جوردون أنه فوجىء عندما وصلته أنباء خضوع أوغندة للقوات المصرية مما يؤيد أصرار جوردون على ألا يمتد النفوذ المصرى إلى تلك الجهات ومن البديهى أنه كان يعمل فى ذلك بتعليمات من الحكومة الانجليزية .

ولم يحاول الإنجليز اخفاء نواياهم فان الحملة قد ازعجت الانجليز فأوعزوا إلى حليفهم سلطان زنجبار لكى يحتج على نزول القوات المصرية فى قسمايو قريبا من حدوده ، وخابرت بريطانيا اسماعيل فى الكف عن الحملة وأرسل وزير خارجية انجلترا إلى الخديو مذكرة بهذا المعنى ، فخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الانجليزية وكان فى الوقت نفسه يجهز الحملة على الحبشة فأمر بانسحاب الحملة من الجوبا فى يناير سنة ١٨٧٦ وعادت إلى مصر بعد أن اخفقت فى تنفيذ مهمتها .

على أن الحكومة الانجليزية اعترفت بامتلاك مصر لبلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن بمعاهدة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ التى اعترفت فيها امتلاك مصر سواحل بلاد الصومال لغاية رأس جردفون ثم رأس (حفون) الواقع جنوبيه على المحيط الهندى . وقبلت مصر أن تبقى بربره وبولهار ثغرين حربين ، وأن لا تعطى فيهما أى امتياز أو احتكار لأحد ما[1] .

* * *

(١) ص ٣٥١ ، ٣٥٢ الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر . د . شوقى عطاالله الجمل .

الحرب بين مصر والحبشة :

مما تجدر الإشارة إليه أن الحملات المصرية قد سيطرت على بلاد يسود فيها الدين الإسلامى ، فقد كانت قد ربطت بين مصوع وبين كسلا وسنار فى شرق السودان مسيطرة بذلك على الاريتريا ثم انتشرت قواتها على الساحل إلى رأس جردفون فشمل نفوذها بلاد الصومال وتوغلت فى الداخل واستولت على هرر وبدأت تبسط نفـــوذها مرتكزة فى هرر . وحاصرت بذلك الدولة المسيحية .

ويبدو أن نجاح هذه الحملات كان سريعاً خاطفاً للدرجة التى أدهشت كثيراً من المؤرخين والكتاب ، خصوصاً وأن جميع الحملات كانت مصحوبة بخطة مدروسة لإدخال الحضارة والعمران واستتباب الأمن ورقى البلاد وتقدم الزراعة والتجارة . مما جعل الحكم المصرى فريداً فى بابه بالمقارنة مع الدول الاستعمارية .

ومن عجيب الأمر أن مصر كانت تقوم بتلك الحملات الباهظة فى وقت كانت فيه ماليتها تسوء من يوم لآخر ، ويقوم على رعاية شئونها فى السودان وخط الاستواء وولايات هرر وبربرة وزيلع أجانب مفروضون عليها من أمثال الجنرال جوردون . وفى الوقت الذى كان من المفروض أن تستقر الأمور فيما يسيطر عليه المصريون من أقاليم وسلطنات حتى تتهيأ الفرصة الصحيحة للإقدام على الخطوة الأساسية وهى الاستيلاء على مملكة الحبشة. فى هذا الوقت الذى يحتاج إلى الاستقرار وإلى خبرة القواد العظام الذين حققوا تلك الانتصارات السابقة ، أخذ جوردون يفصلهم واحداً بعد الآخر مبتدءاً برؤوف باشا فاتح هرر ورضوان باشا وأبو بكر باشا متصيداً للأخطاء ومتعللا بأتفه الأسباب ، ويمتنع عن تلبية أمر الخديو لمقابلة الحملة المصرية المتجهة من قسمايو إلى منابع النيل فى أوغندا ، مما أدى إلى فشل الحملة وبقاء أطراف الامبراطورية الجديدة بدون اتصال .

لا غرابة أن تصادف الحملة التى جردتها الجيوش المصرية فى عام ١٨٧٥م الهزيمة على يد الامبراطور يوحنا . الذى تشجع بهذا النصر ونادى فى البلاد بطلب المعونة وقام بجواره رجال الدين بالدعوة لتجنيد أكبر قوة ممكنة ، وانضم إليه الملك منليك ملك شوا ، وأوقعوا بالمصريين هزيمة ثانية بالقرب من (قورع Gura)[1] (١٨٧٦) وانتهت بعقد هدنة . ظلت مصر بعدها تسيطر على منطقة كيرين سنهيت (Keren) فى الاريتريا — بالإضافة إلى ما كان تحت يدها قبل تلك المعارك وهى الصومال وهرر والمناطق الساحلية.

ومما هو جدير بالذكر أن الأمير حسن نجل الخديو اسماعيل كان من بين الأسرى فأمر الملك يوحنا برسم صليبين على ذراعيه (بالوشم) وطالب بفدية مقدراها (٢٥ مليون ريال) — دفعها إسماعيل عن طريق قروض جديدة [2] .

ويذكر المؤرخ المصرى الكبير عبد الرحمن الرافعى حرب الحبشة بشىء كثير من التفصيل ، ومع أن آراءه لا تختلف كثيراً عن الآراء التى سبق شرحها ، والظروف التى أدت إلى هزيمة المصريين ، إلا أنه يضيف إليها رأيا خاصاً حين يقول « هى الحرب العقيم التى خاضتها مصر فى عهد إسماعيل والعقبة الكأداء التى اصطدمت بها فتوح مصر فى حوض النيل وملحقاته ومن أى ناحية نظرنا إليها نجد أن مصر لم تكن فى حاجة إليها ، ولا مصلحة لها فى خوضها ، وإنما ساق إليها النزق ، وسوء التـــدبير فانتهت بالهزيمة والخسران [3] » .

---

(١) بلغت خسائر مصر فى معاركها بالحبشة عدداً من القتلى والأسرى والجرحى وكميات كبيرة من العتاد ومبالغ ضخمة من الأموال، وبقيت لها فى النهاية بلاد البوغوص (الاريتريا) التى كانت تملكها فى السابق ، وكانت جميع تلك المناطق كافية لوصل السودان بالبحر — ولم يكن هناك مبرر للتطلع إلى احتلال الحبشة ، فى تلك الظروف التى كانت المالية المصرية أثناءها فى أسوأ حالتها .

(٢) ص — ٥٢٢ سيرج Budge

(٣) ص ١٤٣ ج ١ عصر اسماعيل عبد الرحمن الرافعى

« رأيت مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الأحمر وفتحت سنهيت (كبرين) وبلاد البوغوص (الاريتريا) شماليها وهرر المجاورة لها من الجنوب الشرقي ، فأحاطتها من الشمال والشرق والجنوب ، فضلا عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد محمد علي » .

« فهذه المواقع كان يكفي مصر أن تثبت سلطانها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى الحبشة مسالمة لها ، إذ تحتاج إليها للوصول إلى البحر ، ولكن اسماعيل حدثته نفسه بفتح الحبشة ، واكتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها الوخيمة ، فالحبشة كما يعرفها الذين جابوها وسبروا غورها ، بلاد جبلية لا يسهل على دولة أجنبية أن تحتلها أو تجتاز جبالها الوعرة ومغاورها الجرداء ، فضلا عن أن حربها لا تفيد مصر بحال من الأحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتكبدها من الخسائر والضحايا ما هي في غنى عنه »(١) .

ولا شك في أن الحرب بين مصر والحبشة كانت مغامره عقيمة ، قامت بها مصر في وقت يتحكم فيها الإفلاس ، واعتمد إسماعيل في حكم مناطق امبراطوريته الجديد وقيادة جيوشه على مجموعة من الأجانب المغامرين ، ويبدو واضحاً للعيان كيف أن بريطانيا قد استفادت من جميع الظروف وبسطت نفوذها في الخفاء وفرضت رجالها على الخديو ليتقلدوا أخطر المناصب . وإذا جمعنا ما لدينا من معلومات وما حدثت في تلك الفترة من أحداث وما نعلمه الآن عما كانت تدبره بريطانيا في الخفاء ، وعن إزدياد نفوذها في البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس ، وما تم فعلا بعد ذلك فإنه يظهر واضحاً جلياً أن هذه الأعمال والحوادث لا يمكن أن تكون من قبيل الصادفات(٢) .

* * *

(١) نفس المرجع

(٢) راجع خطابات جوردون ص ٢١٥ وما بعدها الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر تأليف د . شوقي عطا الله الجمل .

خطط بريطانيا :

بعد أفول نجم البرتغاليين ، تنافست الدول الأوروبية الكبرى فى المنطقة واشتدت بينهم الخلافات والمناوشات . فازداد نشاط الهولنديين فى المحيط الهندى والخليج العربى ، وحاول الأسبان الظهور فى المنطقة ولكن نجاحهم فى الكشف الأمريكى حول جميع جهودهم إلى ذلك الاتجاه ، أما أمر فرنسا فهو معروف منذ حملة نابليون على مصر وخططه المشهورة لقطع طريق الهند وتثبيت أقدامه بالشرق الأوسط ، وكانت الخطط البريطانية أبعد الخطط نظرا وأكثرها خطورة وتركيزا . لذلك كان النصر فى النهاية لبريطانيا . حيث تمكنت من الانفراد بالسلطة والسيطرة على جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط .

لذلك لانرضى للقارىء أن يتتبع أخبار منطقة من المناطق أو يدرس حادثة تاريخية فى نطاقها الضيق ، بل يتحتم الإلمام بجميع العوامل المحيطة بها والمقدمات التاريخية الطويلة التى تؤدى فى النهاية إلى النتائج الملموسة ، وفى خطط الدول الكبرى مايشير دائما إلى سياسة مرسومة لامحل للمصادفات فيها . ولكنهم فى تنفيذ سياستهم الأساسية البعيدة المدى ، يعالجون كل ما يعترضهم من مشاكل وعقبات حسب ماتقتضيه تلك الظروف ، ونصب أعينهم دائما تحقيق السياسة الاساسية البعيدة المدى التى لايغفلون عنها أبدا .

ويعود نشاط بريطانيا فى تلك المنطقة إلى القرن السادس عشر عندما بدأ البريطانيون فى ارتياد تلك المناطق ، يلتمسون وسائل الانقضاض عليها والتفوق على البرتغاليين . ومرت مجهوداتهم فى هذا السبيل فى عدد من المراحل الهامة التى تميزت بأحداث محددة منسجلة ، واحدة هنا وأخرى هناك شاملة لجميع أنحاء المنطقة . ولو أن الدارس لتاريخ تلك المناطق عنى بمقارنة أحداثها فى مختلف أنحائها ورسم لها صورة واحدة ، لاتضحت له حقيقة

التنظيم الاستعماري والتخطيط الواسع البعيد المدى ، ولارتبطت الحوادث بعضها بما لا يترك أى مجال لافتراض المصادفات .

* * *

لم تتحقق السيادة البريطانية الكاملة على مياه الخليج العربى إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وذلك لأن السياسة البريطانية كانت قد ركزت اهتمامها فى النصف الأول من ذلك القرن على قهر نابليون فى أوروبا والقضاء على آماله فى تكوين علاقات مع إيران وبلاد العرب وأفغانستان وتركيا ، بالإضافة إلى المتاعب التى كانت شركة الهند الشرقية مشغولة بها فى الهند . ولذلك بقيت السيادة على ربوع الخليج فى يد عرب الخليج ، سواء كانوا عرب مسقط وعمان بزعامة سعيد بن سلطان أو عرب القواسم فى ساحل عمان . . وفى سنة ١٨٠٣ كان سلطان بن صقر زعيم القواسم قد اشتهر فى جميع أنحاء الخليج بقوته وشجاعته وقسوته فى حروبه مع سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية . مما اضطر انجلترا إلى إرسال قوة بحرية (١٨٠٦ م) بمساعدة إمام مسقط تمكنت من القضاء على أسطول سلطان بن صقر . ولكن الأمور لم تهدأ بينهما واستمرت المناوشات البحرية تتوالى وتمكنت بريطانيا من إجبار القواسم على توقيع معاهدة ١٨٢٠ م ، ولكن الحروب بين القبائل العربية استمرت حتى وقع الشيوخ فيما بينهم ، وتحت رعاية بريطانيا « هدنة بحرية » عام ١٨٣٩ - وانتهت المناوشات البحرية والبرية - تحت رعاية بريطانيا أيضا - بتوقيع معاهدة السلم فى عام ١٨٥٣ التى لازالت نافذة المفعول حتى يومنا هذا [1] .

ويعتبر سعيد بن سلطان من أهم شخصيات الخليج العربى وكان حاكما لمسقط من ١٨٠٤ إلى ١٨٥٦ ، امتاز حكمه خلالها بالفتوحات الواسعة التى قام بها فى الخليج العربى وشرق افريقيا ، فلقد استولى فى ١٨٠٥ على مستعمرات ممباسا وزنجبار ، على الساحل الشرقى لافريقيا . . وهذا هو الذى دفعنا إلى

---

(١) ص ١٩ الخليج العربى والعلاقات الدولية . الجزء الأول د . محمود على الداود

العناية بالكتابة عنه هنا . . وكان سعيد بن سلطان على صفاء تام مع السياسة البريطانية وعاونها فى مشروعاتها وخططها بناء على المعاهدات المعقودة بينهما منذ عام ١٨٧٩ .

وعند وفاة الأمير سعيد بن سلطان تنازع ولداه على الحكم ، فتوسط (لورد كاننج) نائب الملك فى الهند ، وقسم بينهما أملاك السلطنة ، حصل أحدهما على سلطنة مسقط فى الخليج العربى ، بينما كانت زنجبار وممباسا وباقى ممتلكاتهما فى شرق افريقية من نصيب الثانى[1] .

ولقد انتهت عملية التقسيم هذه إلى نتيجتها المحتومة وهى إضعاف الجانبين وتضاؤل سلطانهما إلى الحد الذى أصبحا فيه يعتمدان اعتمادا كليا على بريطانيا للاحتفاظ بعرشيهما ، حتى أن سلطان مسقط وصل إلى حالة من الضعف بحيث أصبح يعتمد على إعانة مالية بريطانية تدفع له سنويا من حكومة الهند ، أما سلطان زنجبار فقد أصبح فى الحقيقة تابعا لبريطانيا يعمل بارشادها ويطيع أوامرها وان كان استقلاله قد نصت عليه معاهدة (١٠ مارس ١٨٦٢) المعقودة بين انجلترا وفرنسا .

* * *

ذكرنا هذا المختصر لتاريخ هذا الجزء الهام من شرق افريقيا فى ذلك العصر الذى نتكلم عنه لنبين كيف كانت خطط بريطانيا تنفذ على مجال واسع ، ويمكننا بذلك أن نكمل رسم الصورة الحقيقية للموقف فى المنطقة :

١ — التنافس بين فرنسا وانجلترا على مصر وانتصار بريطانيا الذى أدى إلى انسحاب حملة نابليون من مصر .

٢ — تحالف جميع القوى الأوروبية المتصارعة للقضاء على القوة المصرية الناشئة (مع القوة التركية) وتحطيم الأسطول المصرى التركى فى معركة نافارين البحرية وإجبار محمد على على الجلاء عن سوريا وبلاد العرب ، وحصره فى مصر وافريقية .

---

(١) ص ٢٠ الخليج العربى ــ نفس المرجع

٣ — عندما عزم محمد على على فتح الحبشة حذره القنصل العام البريطانى (سولت) من أن اعتداءه على الحبشة سوف يثير عليه الدول الأوروبية للدفاع عن الحبشة على اعتبار أنها المملكة الافريقية الوحيدة التى لازالت تحتفظ بمسيحيتها . ولهذا التحذير دلالته الكبرى على حماية الدول الأوروبية للحبشة بمختلف الوسائل .

٤ — عندما انتعشت الأحوال فى مصر ثانية ـ دخلت الدول الأوروبية من باب جديد وهو باب المرابين والقروض ، وتمكنوا من الانتفاع إلى أقصى حد من اسراف الخديو اسماعيل ونزقه ووصول الدين المصرى إلى ماينوف على ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ج وأصبحت بريطانيا تتحكم فى جميع مقدرات مصر وامبراطوريتها الجديدة التى امتدت على الشاطىء الافريقى بأجمعه إلى بلاد الصومال ، وتغلغلت فى داخل القارة الافريقية حتى وصلت إلى حدود مملكة الحبشة فوق الهضبة ، وعن طريق النيل وصلت إلى قلب افريقيا وبسطت سلطانها حتى شمل مملكة أوغندة .

٥ — فرضت بريطانيا على مصر مجموعة من الحكام والقواد ، على الأجزاء الهامة من الامبراطورية الذين أخذوا يتصرفون ظاهريا كموظفين فى الحكومة المصرية ، وفى حقيقة الأمر ينفذون المخطط الاستعمارى الانجليزى .

٦ — عندما أراد الخديو إكمال الحلقة الأخيرة التى تربط أطراف امبراطوريته وتثبت أقدامها رفض جوردون تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من الخديو . وتذكر المصادر البريطانية أن سلطان زنجبار قد احتج على نزول القوات المصرية فى قسمايو قريبا من سلطنته ، ولقد علمنا مما سبق شرحه كيف كان سلطان زنجبار عميلا لبريطانيا مرتبطا معها بمعاهدات من الحماية والولاء ، وأن شكوى السلطان قد تأيدت بتدخل الانجليز ومعارضتهم لبقاء الحملة المصرية ، فكانت معارضة بريطانيا من الطرفين ، من جهة جوردون ومن جهة سلطان زنجبار .

٧ — رأينا فيما سبق شرحه كيف عبر جوردون عن عدم رضائه عن اخضاع أوغندة للحكم المصرى ومنذ أن أصبح حاكما للسودان باسم خديو مصر — أخذ يعمل على عزل أوغندا من هذه الامبراطورية المصرية الجديدة .

٨ — ورأينا كيف تمكنت بريطانيا من فرض جوردون على الخديو اسماعيل ، وامتداد نفوذه حتى شمل جميع الأقاليم التى فتحتها مصر فى افريقيا الشرقية والحبشة ، فبادر بفصل القواد المصريين العظام الذين لهم فضل الفتوحات والانتصارات وأصبحت لهم الخبرة والدراية بتلك المناطق وأحوالها . وعين بدلا منهم كثيرا من الأجانب الذين يدينون له بالولاء .

٩ — عندما فازت فرنسا بالمشروع العظيم — مشروع قناة السويس — أخذت بريطانيا تتربص حتى تمكنت من التسلل إلى القناة عن طريق شراء نصيب مصر من أسهم الشركة (٤٧ ٪) بعملية الشراء التاريخيه التى قام بها دزرائيلى على مسئوليته الخاصة ، وعندما وقف أمام مجلس العموم البريطانى يدافع عن تصرفه قال « بغير القناة سوف لانسيطر على مصر وإذا لم نسيطر على مصر فسوف نفقد الهند » .

١٠ — عندما بدأت انجلترا تتفرغ للعمل على بسط نفوذها فى هذه الأرجاء كانت الدولة العثمانية والحكومة المصرية تسيطران على أغلب الموانى والشواطىء على جانبي البحر الأحمر ، فجاهدت انجلترا للحصول على مركز لها تعتمد عليه وتجعل منه نقطة لانطلاقها ، وتمكنت من التحالف مع بعض شيوخ المناطق النائية وصغار الأمراء ووقعت معهم سلسلة من معاهداتها التقليدية المشهورة بالتنازل عن بعض الأماكن ، وبهذه الطريقة استولت انجلترا على عدن فى سنة ١٨٣٨ م وأصبحت منذ ذلك التاريخ تعتبر (جبل طارق الشرق) ومنها أخذت تراقب حركات البحر الأحمر واستولت فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ على جزيرة موسى التابعة للسلطان محمد والى تاجوره ، وفى ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٠ استولت على جزيرة أوباط التابعة لحاكم زيلع . وحذا الفرنسيون

حذو بريطانيا واشتروا فى ١٨٦٢ (أوبوك) التى أصبحت تعرف فيما بعد بالصومال الفرنسى (جيبوتى) وابتاع الطليان مينـــاء عصب سنة ١٨٧٠ من القبائل المحلية ، وكان اسماعيل يطعن فى صحة البيع ويطالب انجلترا باخلاء الجزر حتى لا تمعن الدول فى الجرى على سنتها ولـكن احتجاجات الخديو اسماعيل ذهبت أدراج الرياح ، وكانت هذه الأماكن التى بيعت بطريق غير مشروع ، أساساً لتقسيم الامبراطورية المصرية بين تلك الدول فيما بعد (١٨٨٤)[1]

١١ — فى الوقت الذى كانت فرنسا تتفاوض للحصول على امتياز قناة السويس كانت بريطانيا تعمل جاهدة للحصول على امتيازات أخرى لا تقل أهمية ، وهى مرور الأسلاك البرقية البحرية الشهيرة التى تربط الامبراطورية البريطانية من استراليا إلى لندن . مارة بسنغافورة والهند (بومباى) وعدن . ولمـا كانت باقى الموانىء تحت الحـكم العثمانى والمصرى فقد عمدت بريطانيا على بذل الجهود للحصول على حق مرور هذه الـكابلات البحرية فى موانىء جدة وسواكن وبورسودان ثم السويس ومنها عبر الأراضى المصرية إلى بور سعيد والإسكندرية ومنهما إلى مالطة إلخ . إلخ . (ليس لهذه المجهودات مراجع مستقلة بها ، ولـكن المؤلف عنى بجمعها وينوى إصدار كتاب مفصل عنها بإذن الله) .

١٢ — وذكرنا فى عدة مواضع كيف أن جوردون وهو يعمل لحساب مصر أمينا على مصلحتها كان يؤيد الامبراطور يوحنا عدو مصر الأول فى هذه المنطقة . ومما لا جدال فيه أن جوردون وهو يتبوأ أخطر المراكز ، بسيطرته الـكاملة على مصالح مصر فى ملحقاتها فى أفريقيا ، كان يعمل قلباً وقالباً لمصلحة بريطانيا — وضد مصلحة مصر التى يعمل باسمها وموظف بها .

١٣ — كل ذلك يحدث وأحوال مصر المالية تسير من سيء إلى أسوأ ،

---

(١) ص ١٧ مصر فى شرق أفريقيا د . محمد صبرى .

وتتحسن معهـــا الظروف أمام الخطط البريطانية من حسن إلى أحسن . وخصوصاً بعد أن تمكنت من شراء الأسهم المصرية فى قناة السويس وبذلك أصبحت شريكة لفرنسا فيما حصلت عليه من نصر بحصولها على امتياز القناة .

١٤ — سنحت الفرصة ونضج المحصول وحان قطافه، فاستولت بريطانيا على مصر فى سنة ١٨٨٢ م وأصبح حكمها لمصر وما يتبعها من سودان وأوغندا وشرق أفريقيا — حبشة وصومال وأريتريا ، سافرا واضحاً ، لا محل فيه للغموض ، وما أن تم ذلك حتى قررت بريطانيـا أن تنسحب مصر من السودان . معتمدة على ثورة المهدى .

١٥ — هدية الأسلحة الانجليزية للامبراطور يوحنا التى شرحناها فى الفصل السابق ليعزز بها يوحنا حليف بريطانيا مركزه .

١٦ — استولى المهديون على القضارف فى ١٨٨٤ ولكن كسلا بقيت فى أيدى المصريين . ولقد حافظوا عليها خوفاً على أن يؤدى التخلى عنها إلى سقوط اريتريا بأكملها حتى مصوع وكانت جميعها فى أيدى المصريين . وهنا تدخلت بريطانيا لمساعدة الحبشة وكسب صداقتها فدفعت المصريين إلى التخلى عن منطقة (سنهيت — بيلين) للحبشة وأمرت بإخلاء منطقة القلابات — وكنتيجة لذلك لم تتمكن حامية كسلا من المحافظة عليها .

* * *

منذ احتلال بريطانيا لمصر فى ١٨٨٢ ، بادرت إلى القضاء على الجيش المصرى والبحرية المصرية ، فلم يكن يستقيم الأمر أن تحتل بريطانيا مصر ويبقى لمصر ذلك الجيش وتلك البحرية عماد الامبراطورية المصرية الناشئة ، ثم لماذا هذه الامبراطورية ، لابد من تحقيق المخطط البريطانى والاستيلاء عليها ، وفى يد بريطانيا مبرر تستعمله كيفما تشاء وهو إفلاس الخزينة المصرية واضطراب أحوالها المالية، ولو أن احتفاظ مصر بالاريتريا والصومال

والسلطنات المصرية فى الحبشة وشرق أفريقية بعد أن ثبتت أقدامها فيها كان يبشر بالحصول منها على موارد تسدد تكاليف الحملات العسكرية التى كلفت مصر الكثير من المال والعتاد والأنفس ، ويشكل ما أنفق عليها جانباً كبيراً من الدين العام الذى استندت عليه الدول الكبرى فى فرض الوصاية على مصر وانتهت باحتلال بريطانيا لها .

جميع الأسباب المنطقية كانت تؤيد ضرورة بقاء الحكم المصرى لهذه المناطق ولكن هذا المنطق لا يتفق مع المخطط الانجليزى . فلابد أن تنسحب مصر من هذه البقاع . فصدر إليها الأمر بذلك وتم انسحابها فى ١٩ فبراير سنة ١٨٨٥ م وكانت بريطانيا قد أمرت بأن يكون على باشا حاكم هرر تحت أوامر الميجر هنتر . الذى كلفته بريطانيا بتنفيذ عملية الانسحاب من هرر ، وقام نوبار باشا بتبليغ هذا الأمر إلى حاكمى زيلع وهرر فى أغسطس سنة ١٨٨٤ [1] .

تقاسمت الدول الكبرى — على عادتها فى تلك الأزمنة — الامبراطورية المصرية — متعللة كل منها بسبب أو بآخر وكانت النتيجة أن البلاد التى أخضعتها مصر للمرة الأولى فى التاريخ ونشرت بين ربوعها الاستقرار والمدنية والعمران ، وأنفقت فى سبيل ذلك كل غال من أرواح أبنائها وأموالها — تقسمت بين الدول الاستعمارية بالاتفاق مع بريطانيا التى حصلت منها على نصيب الأسد .

استولت إيطاليا على الاريتريا والصومال الإيطالى ، واستولت فرنسا على الصومال الفرنسى واستولت بريطانيا على الصومال الانجليزى وأوغندا . وعملت على استرداد السودان بحيث يكون لها فيه السلطة العليا(٢) .

* * *

---

(١) ص ٣٣٢ الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر د . شوقى عطا الله الجمل ص ١٢٣ التنافس الدولى فى بلاد الصومال د . جلال يحيى .

(٢) دخلت ألمانيا فى ذلك الوقت فى حلبة الصراع الاستعمارى — وتمكنت من الحصول على نصيبها فى شرق أفريقيا باحتلال المنطقة التالية للصومال الانجليزى .

فى هذا التقسيم بقيت هرر بدون صاحب . مما يدعو إلى العجب ، وقد كانت هرر أغنى هذه المناطق وتتمتع بموقع ممتاز وتبشر بمستقبل باهر الأمر الذى جلب إليها عدداً كبيراً من التجار الأجانب الذين أزعجهم نبأ انسحاب القوات المصرية ، وكأنما قد تعمدت بريطانيا بموافقة الدول الكبرى الأخرى على ترك هرر فى فراغ حتى تهيء الفرصة لقوات الحبشة باحتلالها — كحل طبيعى لما تنشده من القضاء على الإسلام وتعزيزاً لسلطة المملكة المسيحية فى تلك البلاد . ولا يمكن أن يكون عملها هذا من قبيل الصدف – بل يدعونا توافق الحوادث إلى اليقين بأن ترك هرر على هذه الصورة إنما كان عملا مدروساً مبيتاً ومتفقاً عليه ، يكمل قصة الأسلحة التى تركت هدية لملك الحبشة ، وليس لكل ذلك إلا معنى واحد تهدف إليه بريطانيا وسكتت عنه باقى الدول الكبرى لموافقتها عليه ، وهو تأييد ملوك الحبشة فى السيطرة الكاملة على المناطق الإسلامية .

* * *

استغرقت هذه الأحداث جميع عصر اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) وجانباً كبيراً من حكم توفيق الذى تم فيه احتلال مصر وتصفية امبراطوريتها .

وفى أثناء ذلك أيضاً قامت ثورة المهدى فى السودان — ورأت بريطانيا أن تجبر مصر على الانسحاب من السودان . ولما اعترض المصريون على ذلك لثقتهم فى إمكان السيطرة على الموقف والقضاء على الثورة المهدية . أقالوا الوزارة وعينوا وزارة جديدة تحت رئاسة نوبار باشا الأرمنى الشهير الذى أقر الجلاء عن السودان . ثم تلاه عدد آخر من رؤساء الوزارات الخاضعين للنفوذ البريطانى .

حروب الحبشة مع المهديين :

قامت كثير من المناوشات والحروب والغارات بين قوات المهدى والحبشة

ولجأت الحبشة إلى شن هجوم كبير على القلابات وأوقعوا بها هزيمة كبيرة وأحرقوها . وقتلوا حاكمها فى المعركة وكان ذلك فى أول يناير سنة ١٨٨٨ .

عندئذ اهتم الخليفة عبد الله التعايشى وأرسل لها جيشاً كبيراً معتبراً القلابات باب السودان الشرقى الذى يجب أن يحفظه مسدوداً . منذ ذلك الحين أخذت الحرب بين يوحنا والتعايشى تتخذ طابع العنف . وهناك من يعتقد أنها لم تكن لازمة ، وكان من السهل تلافيها . ويعودون باللائمة على الأحباش لأنهم هم الذين بدأوها . مما دعا الخليفة عبد الله التعايشى إلى الكتابة إلى يوحنا فى مارس سنة ١٨٨٧ يحمله مسئولية اعتداءاته المتكررة بالقتل والأسر والنهب والضرر . الذى يوقعه « بضعفاء المسلمين الذين بالقرب من بلده »[1] .

وفى يناير سنة ١٨٨٨ خرج جيش المهدى لغزو الحبشة ، وتوغل فى أرضها واتخذ الأحباش خطة الانسحاب حتى يبعدوا الدراويش عن قواعدهم ويسهل عندئذ القضاء عليهم ، ولكن خطتهم فشلت ، وتمكن الدراويش من دخول جوندار العاصمة فى ٢١ يناير سنة ١٨٨٨ وسلبوها وأحرقوها وعادوا بغنائمهم إلى القلابات ثم عادوا مرة أخرى وقاموا بنفس العملية فى يونية ١٨٨٨ .

ولقد انهكت هذه الحروب قوى الأحباش والمهديين على السواء ، وفى ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٨ اتصل يوحنا بالقائد السودانى يعرض عليه الهدنة وكان الدافع ليوحنا إلى هذا العمل هو تعرضه إلى اعتداءات الايطاليين فى الشمال من جهة الاريتريا وأصبح يوحنا يخشى منهم على بلاده . ولكن الخليفة رفض الصلح وطلب من يوحنا إذا شاء الصلح أن يعتنق الاسلام[2]

---

(١) ص ٣٨٩ مصر والسودان تأليف د . محمد فؤاد شكرى .

(٢) نفس المرجع السابق .

واستعد الفريقان لمعركة حاسمة وقعت (فى المتمة) كان فيها النصر الحاسم للقوات السودانية وأصيب الملك يوحنا بجرح مميت وتوفى فى المعركة (٢٩ مارس سنة ١٨٨٩) .

* * *

كلمة ختامية عن الحملة المصرية :

لم تكن العمليات العسكرية والمدنية التى اتبعت فى انشاء الامبراطورية المصرية مرتجلة أو معتمدة على المصادفات ولكنها كانت مدروسة دراسة دقيقة ، مجهزة بأحدث التجهيزات ، متبعة أحدث الوسائل وأدقها فى شئون الادارة والحكم .

فلقد أدخلت الخدمات التلغرافية التى كانت تربط أطراف الامبراطورية ببعضها وجعلت منها للمرة الأولى عماد الاتصال بين المركز فى القاهرة وبين باقى أنحاء الامبراطورية ، وجعلت من الأسطول البحرى - الحربى والتجارى - وسيلة النقل الأساسية التى تسير من ميناء إلى آخر فى رحلات منتظمة - وللمرة الأولى فى التاريخ أيضا يجرى نظام دقيق للتعاون الدائم بين القوات البحرية والقوات البرية .

وأدخلت مصر نظم الادارة الحديثة وعينت المديرين والرؤساء والشرطة ورجال الادارة ، فاستتب الامن وانتعشت الزراعة والتجارة وأصبحت البلاد تتطلع إلى مستقبل مشرق ورخاء لم يكن لها أمل فيه فى الماضى .

ولقد قام جماعة من المهندسين المصريين بأجل الأعمال فى انشاء خطوط التلغراف والموانى وأرصفتها ومستودعاتها وغير ذلك من المنشئات الحكومية وخططوا المدن وشقوا الشوارع المعبدة وبنوا المساجد ، ووصلوا المياه العذبة إلى مختلف الأماكن وبنوا المستشفيات والصيدليات والمخابز والمطاحن وأنشأوا مكاتب البريد، ولقد برز فى هذه الأعمال الجليلة عدد كبير من رجال مصر العسكريين والمدنيين الذين يضيق المقام هنا عن ذكرهم بالتفصيل ،

ونحيل القارىء إلى المراجع المتخصصة فى هذه الأمور للوقوف على المزيد من أعمالهم . مثل تقويم النيل ومؤلفات الرافعى والدكتور صبرى وغيرها .

واعتنى المصريون بانشاء المحطات فى طريق التجارة بين المدن والمراكز الكبرى بحيث تجد القوافل فيها وسائل الراحة ، وكانت فى نفس الوقت مراكز حفظ الأمن وسلامة التجار والمسافرين .

وعنى المصريون بنشر أسس الحضارة فأخذت فى نشر التعليم وتحسين وسائل الزراعة وتشجيع الحرف والصناعات ، مما أثار اعجاب جميع من اطلع على الأمور فى ذلك العهد ، وجميع من كتبوا عن هذه الإمبراطورية ومدنها زيلع وهرر ومصوع وبربرة وغيرها من المناطق ، الأمر الذى لم تقم به على هذه الصورة الانسانية أى دولة من الدول الاستعمارية المعروفة فى ذلك العهد .

وهذه الحقيقة يعترف بها كل كاتب منزه عن الهوى ، وقد فطن إليها الرحالة الألمانى « هلد براند » فى كتاب بعث به فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ إلى الدكتور شفاينفورث رئيس الجمعية الجغرافية المصرية قال بعد أن أظهر أسفه لوقوف انجلترا فى وجه الحملة المصرية على نهر الجب (الجوبا) (التى سبق ذكرها) « يلوح لى أن مصر لن توفق إلى بسط نفوذها فى افريقيا الشرقية وهذا أمر يحزن له إذ لا توجد أمة أصلح ـ فى اعتقادى من مصر لرفع مستوى المدنية فى أفريقيا »(١)

* * *

أنفقت مصر فى فتح هذه البلاد ونشر ما ذكرناه من عمران ، المبالغ الطائلة والمجهودات العظيمة ، وزاد بها عبء الدين المصرى ، ثم أمرت بريطانيا بجلاء القوات المصرية واقتسمت مع زميلاتها هذه الغنائم القيمة بطريقة بالغة اليسر والسهولة .

---

(١) ص ٧٦ مصر فى افريقية د . محمد صبرى .

تلك الدول التى ورثت هذا الميراث العظيم ـ هى نفسها الدول التى تدين مصر بدينها الثقيل ـ وهنا لا نتمالك من التعبير المؤلم عن عجبنا ـ كيف لم تقدر هذه الغنائم وتخصم تكاليفها من الدين المصرى .

فإذا كان انسحاب جيوش مصر أمرا محتوما ـ ولم يكن كذلك كما قدمنا فلا أقل من أن يرفع عن كاهل مصر جانب من الدين العام يقابل ماحصلت عليه تلك الدول الأوروبية من مستعمرات وغنائم وعلى رأسها بريطانيا التى كانت تحتل مصر آنذاك وتتولى عنها رعاية شئونها .

* * *

الفصل الخامس عشر

عهد منليك MENELIK

(١٨٦٥ — ١٩١٣)

ولد منليك فى عام ١٨٤٤ م وكان والده ملكا على اقليم شوا ، وعندما ظهر تيودور وأخذ فى القضاء على منافسيه من ملوك المقاطعات انتصر على ملك شوا الذى مات فى المعركة فى عام ١٨٥٥ ، وقبض تيودور على منليك وأخذه رهينة واحتفظ به فى قلعة مجدلا . ولكنه رعاه وعامله معاملة طيبة كما سبق أن قدمنا ـ ثم زوجه من ابنتا ، ولكنه مع ذلك ، احتفظ به داخل قلعة مجدلا محدد الاقامة .

وفى أواخر عهد تيودور عندما بدأت الامور تضطرب ، ويزداد عدد المقبوض عليهم فى قلعة مجدلا ومنهم الأسرى الأوروبيون والمطران (ابونا سلامة) وكانت العلاقات بين الانجليز وتيودور بالغة السوء وتنذر بالخطر ، وبدأ كثير من الملوك والأمراء باظهار عدائهم لتيودور ، خلال كل ذلك تمكن منليك من الهرب من قلعة مجدلا ـ وغالبا بمساعدة المطران وذهب إلى مقاطعته شوا وأعلن نفسه ملكا عليها فى عام — ١٨٦٥ فاستقبله الشعب استقبالا حافلا ، وانعقدت حوله الآمال لتخليصهم من مجازر الامبراطور تيودور .

وعندما انسحبت حملة نابيير (١٨٦٨ م) وبعد موت تيودور ، احتدم الصراع على الملك بين الأمراء الكبار انتهت باستيلاء الامبراطور يوحنا الذى توج ملكا للملوك فى ١٨٧٢ ، ولكن منليك ملك شوا بقى يتمتع باستقلال ذاتى وينافس الامبراطور ، الذى رأى ازاء مايهدد الدولة من

الأخطار الخارجية أن يوحدها ، فعقد تحالفا مع منليك يجعله وريثا للعرش بعد وفاة يوحنا ، ووطد العلاقات بينهما بأن تزوج نجل يوحنا إحدى بنات منليك (زاوديتو) التى منحها « مقاطعة واللو » كهدية زواج ، على أن يحمل زوجها (ابن يوحنا) لقب ملك ، وتحمل هى لقب ملكة ، وبذلك وضعت أسس السلم بين العاهلين ، وتركت لمنليك حرية العمل فى كثير من الأقاليم .

لذلك تبدأ أهمية منليك فى تاريخ الحبشة منذ عام ١٨٦٥ عندما أصبح ملكا على إقليم شوا ، إذ أنه أصبح منذ ذلك الحين خطير الشأن ، وبدأت حروبه وفتوحاته تلقى نصرا على الأقاليم الجنوبية وأخذت قوته فى الازدياد ، وفى تلك الأثناء تقرب الايطاليون من منليك وزودوه بمقادير كبيرة من الأسلحة ـ كما سيأتى ذكره فيما بعد ـ ولقد كان لهذه الأسلحة الفائدة الكبرى فيما حققه من انتصارات .

ولقد أتيحت لمنليك خلال تلك الفترة كثير من الفرص التى سارع لاغتنامها وأهمها ذلك الفراغ الذى نشأ فى مقاطعة هرر التى تقع إلى الشرق من مملكته مباشرة ، وذلك بعد أن انسحب منها الجيش المصرى وأصبحت لقمة سائغة ، وسرعان ماانتهز الفرصة واستولى عليها فى عام ١٨٨٧ م

وكان قبل ذلك قد حاز نصرا كبيرا على ملك جوجام ، وكذلك على مناطق الواللو جالا . مما دفع الامبراطور يوحنا إلى التدخل لوضع حد لازدياد نفوذ منليك ، وعقد معه المعاهدة التى سبق أن أشرنا إليها ، وكان أهم أسسها أن يتولى الامبراطور يوحنا السلطة فى مقاطعات جوجام والواللو جالا التى استولى عليها منليك ، وأن يستمر ولاء منليك وتعاونه فى نظير توليه عرش الامبراطورية بعد وفاة يوحنا .

وعندما انتصر المهديون على يوحنا وقتلوه فى معركة المتمة عام ١٨٨٩ ، تولى منليك العرش الامبراطورى وورث معه الجيش الذى كان لدى سلفه

يوحنا ، والكميات الضخمة من الأسلحة الحديثة والعتاد الذى أهدته بريطانية إليه ، وتلك التى حصل عليها يوحنا من روسيا ، وتلك التى حصل عليها من ايطاليا ، وبهذه الكميات المتزايدة من الأسلحة تمكن منليك من تحقيق الانتصارات التى حدثت فى عهده ، وتم له إخضاع جميع الأمراء والسلاطين الذين لا يملكون السلاح .

ولقد شملت فتوحات منليك وانتصاراته خلال عهده الأول كملك لشوا وعهده الثانى كامبراطور الحبشة ، جميع أنحاء البلاد . وكانت أهم أهدافه القضاء على قبائل الجالا التى ازداد خطرها وأصبحت تقرب من نصف السكان وبلغت من القوة والسلطة شأناً كبيراً فى كثير من المناطق الهامة ، وأصبح منها الأمراء والحكام والقواد .

ويتميز حكم منليك بخواص ثلاثة بالغة الأهمية — الأولى : امتداد امبراطوريته إلى الجنوب والجنوب الغربى مستولياً على الممالك الإسلامية والوثنية — والثانية : احتفاظه باستقلال الحبشة ودفاعه عنها ضد الحملة الإيطالية ١٨٩٦م . وتثبيت حدود امبراطوريته بالمعاهدات التى عقدها فى هذا الشأن ، (فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ للحدود بين الحبشة والسودان المصرى الانجليزى — ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٧ للحدود الجنوبية مع أفريقيا الشرقية البريطانية) — والثالثة : القضاء على سلطة الملوك والأمراء وجعل الدولة وحدة واحدة وأصبحت الممالك والسلطنات عبارة عن إقاليم يعين لها حكاما مؤقتين يتنقلون فى وظائفهم من مقاطعة إلى أخرى ، وبذلك قضى على تنافس الأمراء فيما بينهم ، الذى كان سببا فى تمزيق البلاد وإشاعة الفوضى والاضطراب الذى شاهدناه فى جميع أدوار التاريخ .

* * *

لقد كان لتعاون الامبراطور يوحنا مع منليك أكبر الأثر فى توطيد أركان الامبراطورية الجديدة ، فما أن تولى منليك العرش فى ١٨٨٩ حتى كان

يسيطر سيطرة تامة على الممالك المسيحية فى شوا وتيجرى وأمهره وجوجام وأخضع لسلطانه جميع الممالك والسلطنات الإسلامية المحيطة بالهضبة مثل هرر وسيداما وجيما وغيرها من المناطق ، وأن كانت بعضها قد ظلت تقاوم فى بسالة فترة من الوقت مثل (مملكة كافا Kaffa) التى لم تستسلم إلا فى ١٨٩٧ .

وكان أهم أهداف منليك هو القضاءعلى قبائل الجالا ـ ولقد تم انتصاره عليها أثناء مواقعه ، مع ماسبق ان قدمنا ذكره من ممالك لان الجالا كانوا منتشرين فيها ، ولكن أهم نصر مركز تم على تلك القبائل هو انتصاره على اللو اللو جالا الذين يقيمون فى قلب الهضبة وسط الممالك المسيحية (حول مدينة دبسى Dessie) القريبة من مجدلا عاصمة تيودور . وانتصر فيهامنليك على « السلطان محمد على » رغم مناعة موقعةبفضل ماحصل عليه منليك من أسلحة حديثة ، وخبراء عسكريين من الدول الأوربية الذين وفدوا إلى البلاد بعتاد كثير حديث تحت تشجيع البعثات التبشيرية التى عاونت منليك وقدمت له المساعدات الكبيرة .

* * *

كان انتصار منليك على السلطان (الرأس) محمد على أكبر انتصار احرزه منليك على السلطنات الاسلامية ، وحسب التقليد المتبع ، خير السلطان بين أن يعتنق الدين المسيحى أو يقتل ، فتنصر وتسمى بالرأس ميخائيل . فزوجه منليك من ابنته (اريجاش Aregash) وانجب منها ولد اسماه « ليبج ياسو » (قلب يسوع Lijj Yasso) ولم يكن لمنليك أبناء ذكور — ولذلك أوصى بأن يكون حفيدة وليا للعهد . كما سيأتى تفصيله فى الفصل التالى .

* * *

أسباب انتصارات منليك :

أول الأسباب التى ساعدت منليك على انتصاراته المتعاقبة وتوحيده

جميع بلاد الحبشة تحت سلطانه ،هى صفاته الشخصية ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة ويتمتع بكفاية نادرة فى تصريف شئون الدولة الحربية والمدنية، ولولا تلك الصفات لما تمكن من انتهاز الفرص التى أتيحت له . وبجانب ذلك تجمعت لديه من الكميات الضخمة من الأسلحة الحديثة التى لم تعهدها الحبشة من قبل ، الأمر الذى يسر له القضاء على جميع أعدائه[1] .

أما الأسباب الأخرى التى شاءت الظروف بأن تتجمع فى وقت واحد ومهدت السبيل أمام منليك ليحصل على ما حصل عليه من نصر فى أقصر ما يمكن من الوقت ، ويخضع تلك البلاد المستعصية بسهولة لم يكن يتوقعها أحد ، فإنها كانت أسباباً غاية فى الأهمية .

كان الصراع بين الدول الاستعمارية الأوربية قد بلغ أوج شدته فى أفريقيا وعلى الأخص فى شرقيها . وكانت تلك الدول تتسابق سباقاً محموماً ، لامتلاك المواقع والموانىء والسواحل ، وعقد المعاهدات مع رؤساء المناطق المحليين ، وكسب الصداقات وتقديم الهدايا والرشاوى ، واستعراض العضلات بالأساطيل البحرية التى تجوب البحار فى رحلات متتالية لا تكاد ترسو فى ميناء حتى تقفز إلى آخر ، تنافس كل دولة غيرها من الدول وتضع العراقيل أمامها ، ولقد تصادمت هذه الدولة مع بعضها وتبادلت من الرسائل مالا حصر له ، وعقدت بينها الاجتماعات المتوالية بغية تقسيم الشواطىء والموانىء ومناطق النفوذ ، واستغرق ذلك من تلك الدول وقتاً طويلا وجهداً شاقاً . وتركزت أدوار هذا الصراع فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا . فى الوقت الذى كانت مصر تسيطر على أهم الموانىء ويمتد نفوذها على الشاطىء امتداداً مستمراً حتى قسمايو فى جنوب الصومال .

ولم يكن هذا المركز الممتاز الذى تحتله مصر يرضى تلك الدول الاستعماريه

---

(٢) ص ٩٢ The Etnopians by Ullendorff

خصوصاً أنها كانت تقاسي من الاضطراب المالى ، وإذا كانت بفتوحها التى حققتها فى ذلك العهد قد فتحت أمامها أبواب القوة وأصبحت قادرة على جنى ثمار فتوحاتها وتسديد ديونها والتغلب على صعابها ، فليس من مصلحة تلك الدول الاستعماريه أن تصبر عليها حتى يتحقق لها ذلك ، بل يجب أن تنتهز الفرصة وتقضى عليها قبل أن تحاول استعادة قوتها .

ولقد كانت انجلترا قد جعلت من نفسها فى ذلك الوقت وصيه على مصر ثم بعد ذلك قامت باحتلالها . فسرعان ما أمرت بسحب الجيوش المصرية والأسطول المصرى وخلا الجو لتلك الدول الاستعمارية لكى تتقاسم الغنيمة، وإن كانوا قد تنازعوا عليها واتخذ النزاع بينهم مظاهر متعددة ليس هنا مجال شرحه، إلا أنه انتهى بتقسيم الامبراطورية المصرية فيما بينهم، وأخذ كل منهم قطعة ثمينة بدون مقابل .

وكان الصراع بين الدول الاستعمارية مركزاً على السواحل قبل الداخل لأن السواحل هى المنافذ ، ولم تكن أية دولة منها تعنى بتبديد جهودها فى الاستيلاء على المناطق الداخلية بل ركزت جهودها على الاستيلاء على أكبر قدر من الساحل ، ومنه يمكنهم التسلل إلى الداخل عندما تستقر أمورهم .

وكان الأمر بالنسبة لبريطانيا يمتاز عن غريماتها ، بأنها كانت قد توغلت فى داخل القارة الإفريقية كوريثة للسلطة المصرية التى كانت قد بلغت فى توسعها داخل القارة إلى أن شملت أوغندا .

لهذه الأمور مجتمعة كان انسحاب الجيوش المصرية التى كانت تعزز جميع السلطنات الإسلامية ، وتحمل عبء حمايتهـــا ، أكبر كارثة حلت بالمناطق الإسلامية إذ أنها تركتها مقسمة منزوعة السلاح لا نصير لها ولا توجد قوة تربطها مع بعضها، ممـا جعلها فريسة سهلة لكى يبسط عليها الامبراطور منليك سلطته فى يسر وسرعة وبدون مقاومة .

ومما لا شك فيه أن الدول الكبرى كانت تبارك هذه الحركة ، وتمدها بالمعونة فقد رأينا كيف تركت حملة نابيير المقادير الهائلة من الأسلحة والعتاد الحديث للامبراطور يوحنا — الذى استعملها أولا لتوطيد حكمه — ثم حارب بها المسلمين بعد ذلك — وورثها عنه خلفه منليك . الذى استعان بها فى حملاته على المناطق والسلطنات الإسلامية حتى تم استيلاؤه عليها ، بالإضافة إلى الكميات الأخرى من الأسلحة التى منحتها له إيطاليا — وتلك التى حصل عليها الامبراطور يوحنا من روسيا . وكذلك تلك التى حصل عليها منليك من إيطاليا فى عهد الامبراطور يوحنا .

وتحدثنا الوثائق العديدة التى رافقت إخلاء هرر ، عن إصرار الميجر هنتر ، الذى كلفته بريطانيا بالإشراف على انسحاب الجيوش المصرية — على سرعة إخلائها فى لهفة ، بالرغم مما تقدم له وللحكومة البريطانية من التماسات واحتجاجات من أن انسحاب القوات المصرية بهذه الصورة وعدم إحلال قوة أخرى مكانها سيدفع بالبلاد إلى الفوضى والخراب . ويعرض مصالح التجارة والأجانب إلى الخطر .

ولم تكن الدول الأخرى تتعارض مع انجلترا فى هذا الاجراء ، بل كانت تباركه حتى تتيح الفرصة للامبراطور ليقضى على الاسلام فى تلك البلاد ، وكانت تلك الدول شديدة الاهتمام بمستقبل المسيحية بالحبشة ، شديدة القلق من انتشار الاسلام ، وكانت البعثات التبشيريه الفرنسية برئاسة المنسنيور (تورهان كاهان) تقيم فى الحبشة منذ أجيال وكذلك البعثات السويدية ، وكان من أبلغها أثراً تلك البعثة التى يترأسها الكاردنيال (ماساجا Massaia) الذى كان وثيق الصلة بالامبراطور منليك ، وهو الذى كتب عن الحبشة وتاريخ هذه الحقبة من الزمن ، مرجعاً من أهم المراجع — ولقد أشرنا إليه فى كثير من المواضع فى هذا الكتاب ، ومن المعروف أن جميع هذه البعثات التبشرية كانت مؤيدة من حكوماتها ، لذلك كان الهدف مشتركا وهو إتاحة

الفرصة للامبراطور منليك لإتمام السيطرة على جميع الأقاليم الإسلامية والعمل على كسر شوكة الإسلام . ولقد كان المبشرون ومن جلبــوهم من المدوبين العسكريين خير المستشارين لمنليك وبفضـــل خططهم تمكن من تحقيق انتصاراته .

وعندما تمكن منليك من توحيد جميع أنحاء امبراطوريته الجديدة التى شملت جميع المناطق والممالك المسيحية والإسلامية على السواء ، نقل عاصمته إلى قلب البلاد . وفى مملكته القديمة شوا ، وأنشأ مدينة أديس أبابا (الزهرة الجديدة) العاصمة الحالية للامبراطورية .

* * *

حرب منليك مع إيطاليا :

وعندما كان منليك لا يزال ملكا على شوا وينافس الامبراطور يوحنا ، كان الايطاليون قد استقروا فى الاريتريا بعد انسحاب الجيش المصرى منها ، وكانت آمالهم معقودة على الانطلاق من مستعمرة الاريتريا الفقيرة إلى الحبشة الغنية ، فشنت بعض الحملات التى تمكن الامبراطور يوحنا من ردها .

فى عام ١٨٨٧ وقعت أول معركة بين الايطاليين ومنليك الذى كان فى ذلك الوقت ملكا على شوا ، وكانت المعركة فى «دوجالا» وانتصر فيها منليك مما حفز الايطاليين على تجريد حملة أخرى قوامها ٢٥٠٠٠ مقاتل ، ولجأوا فى هذه المرة إلى الاستعانة بالأساليب السياسية ، فعرضوا على منليك أن يعترفوا به ملكا على الحبشة ويتركوا له مقاطعة التيجرى ، شريطة أن يعاونهم على القضاء على الامبراطور يوحنا . ويترك لهم بلاد البوغوص (الاريتريا) وكيرين عاصمة الحاسين .

وقدم الايطاليون لمنليك المال ومعه كميات ضخمة من الأسلحة الحديثة والذخيرة ، بقصد معاونتهم فى محاربة يوحنا ، ولكنه لم يحاربه . وفى نفس

الوقت أبى أن يحارب الإيطاليون عندما طلب يوحنا منه ذلك[1] وبذلك فضل منليك الاحتفاظ بما حصل عليه من سلاح ، ووقف على الحياد بين الايطاليين والامبراطور يوحنا .

وعندما أصبح منليك امبراطورا ، فضل أن يتعاقد مع الايطاليين فى سبيل الحصول على مزيد من الأسلحة والمال لكى يتيسر له التغلب على أعدائه وعلى الأخص المقاطعات الاسلامية ، ووافقه الايطاليون على ذلك بينما اضمروا أن يقدموا له المساعدة والأسلحة حتى إذا تم له النصر انقضوا عليه واستولوا على امبراطوريته الجديدة الموحدة .

معاهدة أوشياللى :

تمكن الإيطاليون من اقناع منليك بتسوية الخلافات بينهما وتوصلوا إلى عقد معاهدة تنظم العلاقات بينهما ، ولقد عقدت تلك المعاهدة(معاهدة أوشياللى Uccialli) فى مايو سنة ١٨٨٩ ، وفى أكتوبر أوفد منليك الرأس ماكونن إلى إيطاليا حيث عقد معاهدة إضافية وافق فيها الايطاليون على أقراض منليك ٤ مليون فرنك بضمانه إيردات جمارك هرر ، وفى حالة عدم السداد تصبح كل مقاطعة هرر ملكا لايطاليا ، وأهدت إيطاليا إلى الامبراطور مزيداً جديداً من الأسلحة مقداره ٣٨٠٠٠ بندقية ، ٢٨ مدفعا وأعلنت ايطاليا على العالم أن الحبشة أصبحت تحت حماية ايطاليا .

وفى عام ١٨٩٠ عندما بدأ منليك اتصالاته مع بعض الدول الأوروبية الأخرى ، لفت الايطاليون نظره إلى المعاهدة التى بينهما ، ولكن منليك رفض الاعتراف بأن المعاهدة المعقودة تضطره لأن يكون الايطاليون وسطاء وبين الدول الأخرى . وظهر عندئذ أن النص الايطالى يقول (يجب على الحبشة أن تكون اتصالاتها مع الدول الأخرى عن طريق ايطاليا) بينما يقول النص الحبشى (يمكن للحبشة أن تتصل بالدول الأخرى عن طريق

---

(١) ص ٥٢٧ سيربدج Budge

ايطاليا) . فرفض منليك المعاهدة وألغاها ، ورد مبلغ الأربعة ملايين فرنك إلى ايطاليا ولكنه احتفظ بالأسلحة ، وفى ١١ فبراير سنة ١٨٩٣ أبلغ الدول الكبرى أنه لم تعد له ارتباطات مع ايطاليا ، وبدأت علاقته تسوء معها ، بينما أخذت تتوطد مع بريطانيا وفرنسا[1] .

وكانت كفة فرنسا راجحة فى علاقتها مع منليك ، وعقدت معه خطة للاستيلاء على المناطق الاستوائية ، واتفقت معه على الاستيلاء على السودان الجنوبى ، بأن تتقابل القوات الفرنسية القادمة من الغرب عبر افريقية مع قوات الحبشة القادمة من الشرق عند « فاشودة » وفعلا وصلت جيوش الحبشة (٥٠٠٠ مقاتل) إلى النيل الأبيض تحت قيادة (الرأس تساما Ras Tasamma) ومعه نفر من المستشارين العسكريين (فرنسى وسويسرى وروسى) ولكن لم يتم التقاء تساما مع القائد الفرنسى مارشان فى الموعد المحدد لتأخر مارشان فى الوصول فى الوقت المتفق عليه - ولم يطق الجنود الأحباش البقاء فى تلك البلاد الحارة الرطبة التى لم يتعودوا على جوها . وانتشر بينهم الموت . مما اضطر تساما إلى سرعة العودة إلى الحبشة .

وفى أثناء ذلك وصل كتشنر إلى فاشودة وأعادها إلى حكم مصر ، ولقد أعجب منايك بكتشنر مما كان له أثر كبير على العلاقات بين منليك وبريطانيا فيما بعد .

* * *

كان منليك يتوقع الشر من الايطاليين ، فاستمر فى شراء الأسلحة سرا من جميع الأسواق ، وعزز جيشه حتى بلغ فى عام ١٨٩٦ إلى ٢٠٠,٠٠٠ محارب .

وعندما اكتملت عدة جيوشه أرسل أول طلائعها تحت قيادة (رأس ماكونين Ras Makonnen) وهو والد الامبراطور هيلاسلاسى . حيث

---

(١) ص ٥٢٩ نفس المرجع السابق .

التحم بهم وانتصر على الايطاليين فى موقعة (أمبا ألاجى Amba Alagi) فى ديسمبر ١٨٩٥ ثم سلمت الحامية الايطالية فى (ما كالى Makelle) فى يناير ١٨٩٦ .

جمع الايطاليون شمل قواتهم وجددوا هجومهم بالقرب من (عدوه) بجيش يبلغ تعداده ٢٧٠٠٠ جندى ، على الجيوش الحبشية التى بلغت ٨٠٠٠٠ مقاتل ومن عجائب القدر أن يكون هذا الجيش الحبشى الضخم مسلحا تسليحا قويا مما سبق أن حصل عليه من أسلحة وعتاد من الايطاليين أنفسهم أيام معاهداتهم السابقة . وبلغت خسائر الايطاليين ١٠٠٠٠ قتيل وجريح ، ٧٠٠٠ أسير ، ٣٢ مدفع وكميات كبيرة من الذخيرة وجميع معـــدات المعسكرات .

ولقد احتدمت المعركة فى حماس بالغ من الجانبين وتم النصر فيها للحبشة وقضى بذلك على آمال الايطاليين فى الحبشة . على الأقل فى الأربعين سنة القادمة .

انتهت هذه المعركة الفاصلة بمعاهدة وقعهـا الطرفان فى أديس أبابا فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ م ، ومن الغريب أنه بعد هذا النصر الكبير اعترف منليك بحق الايطاليين فى الاريتريا كما كان .

تفرغ منليك بعد ذلك لتكملة وحدة بلادة والقضاء على جميع عناصر القلاقل ، وعقد اللجان مع الدول الكبرى لتحديد حدود بلاده من جميع جهاتها ، كذلك انصرف إلى ادخال الأساليب الحديثة فى الدولة ، والعمل على ترقية البلاد وانتزاعها مما هى فيه من تخلف .

* * *

اتفاق الدول الأوروبية الثلاثة :

كان كل شىء يسير على مايرام بناء على الخطط الذى اتفقت عليه الدول الأوروبية ، طالما يسيطر منليك على امبراطوريته الموحدة ـ ولكنه وقد

تقدم فى السن فقد تحركت أطماع تلك الدول ، كل منها تبغى لها نصيبا من خيرات الحبشة ، لذلك فان انجلترا وفرنسا وايطاليا عندما شعروا باعتلال صحة الامبراطور منليك ، وخشية من انحلال المملكة فى حالة وفاته ، تفاهمت فيما بينها وعقدت اتفاقا فى (١٩٠٦) أكدت فيها رغبتها فى المحافظة على استقلال الحبشة على، أن يعترف كل طرف بمنطقة نفوذ خاصة بكل من الشركاء الثلاثة فى حالة انهيار الامبراطورية وتفكك أوصالها وكانت مناطق النفوذ كالآتى .

(ا) المنطقة البريطانية : وتشمل اقليم بحيرة تانا — وحوض النيل الأزرق .

(ب) المنطقة الفرنسية : وتشمل الخط الحديدى الممتد من أديس أبابا إلى جيبوتى .

(ج) المنطقةالايطالية : وهى عبارة عن شقةمن الأرض تربطالصومال الايطالى بالاريتريا .

ولقد أعرب الامبراطور عن شكره للدول لاتفاقها على المحافظة على استقلال بلاده ، ولكنه اعترض على الاتفاق قائلا أنه لايوافق بأى حال من الأحوال على تقييد سيادته وسلطانه [1]

ولقدكان لهذا الأمر شأن كبير فيما بعد أمام عصبة الأمم .

* * *

أشتد المرض على منليك فى عام ١٩٠٨ ولم يعدقادرا على مباشرة سلطاته ولكن الامبراطورة (طايتو) وقفت إلى جانبه تعاونه وكان مرض الفالج الذى أصيب به شديدا بالاضافة إلى أن قلقه على مستقبل الامبراطورية كان يستبد به لعدم وجود وريث له يتولى الملك من بعده . مما دعاه إلى اختيار حفيده « ليج ياسو » وليا للعهد فى ١٩٠٩ .

---

(١) ص ٦٢ ، ٦٣ الحبشة د . راشد البراوى .

ومنذ أن مرض منليك ، أخذت عناصر القلق والمنافسة تعمل فى البلاد وبدأت سلسلة من المناورات وامتلأ الجو بالدسائس والمؤامرات ، وجاهدت الدول الأجنبية ، كل منها تحاول التأثير على ولى العهد الصغير .

* * *

ومات منليك فى ١٩١٣ - وتولى ليج ياسو عشر الامبراطورية وهو لا يزال فى السابعة عشر من عمره .

* * *

الفصل السادس عشر

ليج ياسو Lijj Yasso

(الامبراطور المسلم)

عندما زاد خطر قبائل الجالا تمكنت من النفوذ إلى قلب مملكة الحبشة المسيحية فوق الهضبة وتوغلت فيها . لأنه سرعان ما تكونت منها مستعمرات وتجمعات انتشرت فوق جميع جهات الهضبة . ولكن بعض هذه التجمعات قد اتخذ طابعا خاصاً من الانتشار والسيطرة بحيث أصبح يشمل المنطقة الوسطى من الهضبة بأكملها ، وامتلأت به تلك المنطقة الكبيرة التي تمتد من سهل الدناكل إلى بحيرة تانا والنيل الأزرق ومدينة جوندار العاصمة القديمة للحبشة ، وهذه المنطقة التي تتوسطها مدينة ديسى القريبة من مجدلا الشهيرة بحوادثها فى عهد تيودور .

ولم يقتصر خطر الجالا على ذلك بل اتخذ شكلا شاملا بعد أن أصبحوا يشكلون نصف سكان ممالك الحبشة وسلطناتها ، وبلغوا فى بعض المناطق من القوة بحيث أصبح منهم الحكام والأمراء . وازدادت قوتهم الحربية حتى إضطر الأباطرة لمهادنتهم حينا ومحاربتهم أحيانا ، وهم بين هذا وذاك يستمرون فى الانتشار والتوغل فى البلاد .

ثم ازدادوا خطراً عند إقبال هذه القبائل على اعتناق الإسلام حتى أصبحت غالبيتهم الكبرى تدين بالدين الإسلامى وتتعصب له ، مما جعل هم كل امبراطور قوى العمل على القضاء عليهم ، فكانوا تحت التهديد والضغط يتنصرون ظاهريا وهم فى واقع الأمر يحافظون على إسلامهم سراً ويترقبون الفرص للجهر بعقيدتهم الإسلامية .

وكانت أقوى قبائل الجالا شأنا وأكثرهم تماسكا ، قبائل « الواللوجا » التى امتلأت بها المنطقة الوسطى من الهضبة، لذلك كان من أهم آمال الامبراطور تيودور ثم يوحنا ثم الامبراطور منليك من بعدهما القضاء على هذه السلطنة الإسلامية . ولقد أتيحت لهما الفرصة بفضل ما سبق أن شرحناه فى الفصل السابق من تجمع الظروف التى مكنتهم من القضاء عليها وأهمها معاونة الدول الأوروبية المسيحية بتزويد الأباطرة الواحد بعد الآخر بالكميات الضخمة من الأسلحة الحديثة .

وكما سبق أن قدمنا تمكن منليك من التغلب على الرأس محمد على ملك الواللوجالا . وحسب التقاليد المتبعة خيره بين أن يقتله أو يعتنق الدين المسيحى ، ففضل اعتناق المسيحية ، ظاهرياً كما هى العادة - ولكنه بقى فى الحقيقة مسلما وإن كان قد اتخذ اسما جديداً حتى يحفظ لنفسه سلطانه على قبائله ومملكته ، وأصبح يدعى . الرأس ميخائيل - وكان الرأس محمد على يتميز بالمركز السامى بين أتباعه وكان قويا وشجاعا - مما جعل الامبراطور يوحنا يعتمد عليه فى محاربة الإيطاليين والمهديين فى السودان ، ولذلك رأى منليك أن يوطد علاقته معه ويكسب ولاء شعب الجالا بأن زوجه من ابنته (أراجاش Aragassh)[1] ورزق منها بولد أطلق عليه اسم (ليج ياسو Lilj Yasso) أى قلب تسوع .

* * *

نشأ ليج ياسو فى بيت أبيه المسلم الذى يحكم قبائل الواللوجالا المسلمة وإن كانت الظروف السياسية قد أجبرته على التظاهر باعتناق المسيحية لذلك شب الصبي وترعرع والدين الإسلامى يجرى فى عروقه . ويرفرف على المنزل الذى نشأ فيه .

---

(١) مما تجدر ملاحظته أيضا أن والدة هذه الاميرة كانت من قبائل الواللوجالا المسلمة أيضاً .

وسرعان ما استرد الرأس ميخائيل (محمد على) سلطاته وأخذ يعمل على أن يتولى نجله ليج ياسو العرش ، وكان يهدف إلى عودة السلطة إلى قبائل الجالا الإسلامية مرة أخرى . ولذلك بدأ يوطد علاقاته مع باقى القبائل والمقاطعات الإسلامية التى أصبحت فى ذلك الوقت تحت حكم الامبراطور منليك .

ولم يكن ينافس الرأس ميخائيل فى التطلع إلى السلطان إلا الرأس ماكونين حاكم هرر فى ذلك الوقت ، ولكن هذا التنافس زال عندما توفى الرأس ماكونين فى عام ١٩٠٦ تاركا ولدين أصغرهما يدعى (تفرى Tafari وهو الذى أصبح فيما بعد الامبراطور هيلاسلاسى[١] .

* * *

وعندما أصيب الامبراطور بالفالج ، ولم يكن له أبناء ذكور ، نادى بحفيده ليج ياسو وليا للعهد ، وعندما توفى فى عام ١٩١٣ ، أصبح ليج ياسو امبراطوراً للحبشه وهى فى السابعة عشرة من عمره[٢] . وفى الحال عادت قوة والده الرأس ميخائيل إلى الظهور مرة أخرى على هيئته الإسلامية السابقة ، وكان الامبراطور الجديد قدعينه نجاشيا على ممالك الواللو والتيجرى فى ١٩١٤ ، وفى السنة التالية على بيجمدير وجوجام .

كان ليج ياسو قد بدأ يعلن عن حقيقة عقيدته ويأتى من التصرفات ما يعبر بها عن ميله للإسلام وما أن تولى العرش حتى أعلن إسلامه[٣] .

وخلافا للتقاليد التى كانت تدفع الأباطرة إلى الادعاء بانحدارهم من نسل سليمان حتى ولو لم يكونوا كذلك — كى يوطدوا ملكهم ويكسبوا تأييد الشعب ، فأن ليج ياسو بادر ونفى عن نفسه أى صلة بالأسرة السليمانية ،

---

(١) ص ١٣٠ الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام .

(٢) ص ٩٤ The Ethiopians by Ullenborff

(٣) ص ١٣٠ الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام .

وتزوج ببضع فتيات مسلمات ، وأخذ يعمل على إثبات نسبة إلى النبي محمد[1] .

ولا شك فى إسلام ليج ياسو ، فهو ابن ملك مسلم ينتمى إلى قبائل الجالا المسلمة ، وما إعلان والده لاعتناقه المسيحيه إلا انصياعا لما هو مفروض على كل ملك يهزم فى الحرب ، وأمر المسلمين الذين تجبرهم السلطات على اعتناق المسيحية معلوم ومشهور فى الحبشة ، حيث يستمرون على عقيدتهم سرا ، وينطقون بالشهادتين عند الوفاة .

ولا شك أيضاً فى أن إعلان الامبراطور (ليج ياسو) إسلامه قد أصاب رجال الكنيسة والقبائل المسيحية بصدمة كبيرة ، وأصابهم القلق البالغ من انهيار قوائم السيطرة التى أقامها يوحنا ومنليك للدولة المسيحية فى الحبشة . ولقد كان من أشد أسباب قلقهم تلك السهولة التى يمكن أن تتحول بها البلاد إلى الإسلام ، وغالبية البلاد تدين أصلا بالإسلام ويغطى ثلاثة أرباع مساحة الامبراطورية ، فلن يحتاج الإسلام فى عودته إلى السيطرة والنفوذ أى مجهود ، وأما اعتماد المسيحية على القوة والأسلحة ومساعدة الدول الأوروبية فقد أصبح أمامها حاجز كبير وهو الامبراطور الذى اعتنق الإسلام .

* * *

وممن أذهلتهم المفاجأة أيضاً ـ الدول الأوروبية ـ التى سبق أن شرحنا كيف أنها عاونت يوحنا ومنليك على القضاء على الإسلام — وبعثاتهم التبشيرية لا زالت فى بلاد الحبشة تعمل فى صبر وأناة لتحقيق القضاء على هذا الدين .

وهذه الدول الأوروبية هى التى تمسك بزمام القوة فى العالم فى ذلك

---

(١) ص ٩٤ The Ethioplans by Ullendorff

الوقت وتسيطر سيطرة تامة على الشرق الأوسط وأفريقيا على وجه الخصوص .

أما الدول التى يمكنها الدفاع عن الإسلام فكانت قد بلغت إلى حضيض الضعف ، إذ أصبحت الامبراطورية العثمانية فى آخر مراحلها وتحمل لقب (الرجل المريض) وتتحفز الدول الأوروبية وتتفاوض فيما بينها لتقسيم ممتلكاتها ، ومصر لا حول لها ولا قوة وقد استبد بها الاستعمار البريطانى منذ ١٨١٢ م وجردها من أملاكها وسيطر على مقدراتها حتى أصبحت عاجزة غير قادرة على الحركة .

* * *

استمر الامبراطور ليج ياسو فى طريقه لا يلوى على شىء ، يعزز الإسلام والمسلمين ويبنى المساجد (فى دير داوا — وجيج جيجا الخ) . واتخذ لنفسه علما جديدا بإضافة الهلال إليه وأرسل منه هدايا إلى حكام بلاده المسلمين طالبا منهم الاستعداد للجهاد الذى ينوى القيام به لنصرة الاسلام والمسلمين ، وأرسل علما من هذه الأعلام إلى القنصل التركى فى أديس أبابا .

* * *

وفى تلك الأثناء قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وسرعان ما تكاتفت قوى الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا ، مع رجال الكنيسة وأوعزوا إلى بطريرك الأقباط فى مصر . والأنبا متاوس مطران الحبشة ، لكى يعزلوا الامبراطور ليج ياسو ، فأخذوا يحيكون الدسائس حوله ويحركون الأمراء المسيحين ويطلقون الشائعات عن خبل الامبراطور وسوء تصرفاته ، بينما يثيرون ثائرة الدول الأوروبية ضده من أنه يتعاون سرا مع الأتراك الذين كانوا يحالفون الألمان فى الحرب الكبرى الأولى وبالفعل

فإن الحلفاء - انجلترا وفرنسا وإيطاليا - تعاونت لإقصائه على العرش[1] ولقد اجتمع قناصل تلك الدول وقدموا له احتجاجات على تصرفاته واتهموه بموالاة الألمان ، ولما لم يأبه بهم ، تحفزت ضده القوات العسكرية الفرنسية في جيبوتي والإنجليزية في بربره ، والإيطالية في مصوع وحرضوا أمراء شوا على إعداد جيوشهم ضده[2] ،

ولقد كان قلق هؤلاء يزداد كلما طال الوقت ببقاء الامبراطور ليج ياسو على العرش ، لأن في هذا خطر كبير لسهولة تثبيت أركان حكمه ، لذلك سارعوا إلى اتخاذ الوسائل العاجلة للقضاء عليه بالتعاون بين جميع القوى المعارضة له . خصوصاً وأن ليج ياسو كان في الحقيقة ذكيا سريع الفهم نشيطاً يجيد العربية والفرنسية . وكان من الحكمة وبعد النظر رغم صغر منه ، مما كان يدهش له رجال الدولة لدقة استنتاجاته وتفهمه للأمور[3] الأمر الذي حفز الدول الأفريقية إلى العناية بتدبير وسيلة التخلص منه في أقصر وقت .

وعندما كان الامبراطور في إحدى جولاته في هررو كان والده في انكوبار أوعز بطريك الأقباط في مصر (بايعاز من بريطانيا التي كانت قد فرضت الحماية على مصر) إلى المطران متاوس باعلان عزال الامبراطور ليج ياسو وحرمانه ، وأظهر المطران أن إجراءه هذا بناء على طلب تقدم به رؤساء وحكام مقاطعة شوا يقولون فيه (نلتمس احلالنا من قسمنا بالولاء للامبراطور ، لأننا سوف لا نخضع للاسلام ، ولن نسمح بأن يستولى الأجانب على بلادنا عن طريق خيانه ليج ياسو ، الذى يقود مملكتنا إلى الخراب[4] ولن نسمح

---

(١) ص ٩٥ The Ethippians by Ullendorff .
وصفحة ٣٦٣ Inside Africa by John Gunther .
(٢) ص ٥٤٥ سيربدج Budge
(٣) ص ٥٤٣ سيربدج Budge
(٤) ص ١٣١ الاسلام في اثيوبيا لترمنجهام .

للك ترك ديننا أن يحكمنا . . وأضافوا « وسوف تصبح زاوديتو ابنه منليك ملكة علينا — والرأس تفرى وليا للعهد(٤) . »

وتم عزل الامبراطور ليج ياسو فى ٢٧ سبتمبر ١٩١٧ وأعلن المطران تنصيب زاوديتو أبنة منليك الأخرى امبراطورة ، وتعيين الرأس تفرى بن الرأس مكونيين وصيا على العرش ووليا للعهد .

قبض على الامبراطور ليج ياسو بعد بضعة مناوشات وبقى فى سجنه إلى أواخر الحرب الحبشية الإيطالية عام ١٩٣٦ ، وتناقلت أسلاك البرق نبأ وفاته وقتئذ . ويؤكد من سمعناهم فى أديس أبابا أن الامبراطور هيلاسلاسى أمر بقتله حتى لا يستعمله الايطاليون وينصبونه أمبراطورا مرة أخرى ، ويكسبون بذلك عطف المسلمين وتأييدهم ، ويذهب البعض إلى أن الامبراطور هيلاسلاسى هو الذى ذهب إلى سجن ليج ياسو بنفسه على حدود كينيا وقتله ، ونحن نستبعد هذه الرواية لبعد المسافة بين أديس أبابا وموقع سجن ليج ياسو ، وصعوبة المواصلات ، مما يستغرق الوصول إليه وقتاً طويلا لا يمكن للامبراطور هيلاسلاسى تضييعه فى تلك اللحظات الأخيرة من الحرب الحبشية .

وقد يكون كل ما سمعناه من هذه الأمور من قبيل الشائعات ، ولكن الذى لا شك فيه أن الامبراطور ليج ياسو مات فى سجنه قبيل دخول الطليان إلى العاصمة أديس أبابا فى عام ١٩٣٦ ، وأنه من المعقول لو أن الطليان أدركوه حيا لنصبوه امبراطورا . وبذلك يكون قد بقى فى سجنه عشرين عاماً .

* * *

(٥) ص ٤٠٣ سيربدج Budge الذى قال أيضاً أن الامبراطور ليج ياسو لم يعزل لانه مال للاسلام ولا لانه أخذ يتقرب إلى رجال الدين المسلمين — وإلى الألمان فى أفريقية الشرقية — ولكنه عزل لأنه حاول القضاء على الكنيسة الوطنية الحبشية ومن الواضح أن آراء السير بدج فى مجموعها فى حاجة إلى الانسجام والتعديل . بالنسبة لهذا الموضوع .

الفصل السابع عشر

العهد الأول للامبراطور

« هيلاسلاسى »

كان جده الأكبر الملك سهلاسلاسى الذى كان ملكا على إقليم شواقبل منليك ووالده الرأس ماكونين الذى قاد الجيش الحبشى الذى انتصر على الإيطاليين فى موقعة أمبا الاجى فى ديسمبر ١٨٩٥ . وكان يمت بصلة القربى إلى الامبراطور منليك . وكان والياً على مقاطعة هرر .

وولد تفرى Tafari فى ٢٣ يولية سنة ١٨٩١ فى إحدى قرى مقاطعة هرر حين كان والده واليا عليها. ونشأ بها وتلقى تعليمه الأولى فى مدرسة للارسالية الفرنسية ولذلك ظلت الفرنسية لغته الأوربية الأولى . وتوسم فيه منليك النجابة فعينه وهو لم يبلغ العشرين بعد ، حاكما على مقاطعة سيدامو. وعندما توفى والده وأخوه الأكبر ، عينه الامبراطور حاكما على مقاطعة هرر مسقط رأسه (١٩١٠ م) وفى عام ١٩١١ تزوج من (ويزارومينن Woyzaro Menen) التى جلست معه على عرش أثيوبيا .

ولم يكن نسب تفرى مكونين المباشر يؤهله لأن يطمع فى العرش، لبعده عن سلسلة التوارث السليمانية المباشرة ووجود من هو أقرب منه إليها، ولكنه ازداد قرباً إلى العرش بزواجه من منن ، ويرجع الفضل الأكبر فى تخطية العقبات وقفزه إلى مكان الصدارة إلى صفـــاته الشخصية التى حجبت جميع منافسيه .

وعندما أزفت الساعة الحاسمة فى عام ١٩١٧ بعزل الامبراطور ليج

ياسو قام بدور حاسم تميز بالدهاء والحزم ، أدى إلى اختيـــاره وصيا على العرش ووليا للعهد بجوار الامبراطوره زاوديتو إحدى بنات منليك(١) .

وإذا كان منليك قد تمكن من جميع شمل البلاد وتوحيدها تحت حكم واحد ، فإن الفضل يعود إلى هيلاسلاسى فى تثبيت أركان هذه الامبراطورية الموحدة وتحويل التقسيمات العنصرية إلى أقسام إدارية على هيئة محافظات، يتناوب عليها المحافظون مثل باقى مناصب الدولة ووظائفها .

ولقد كانت بداية عمله فى الحكم المشترك بينه وبين الامبراطورة زاوديتو محفوفاً بالمشاكل والتعقيدات ، فبينما تتمسك الامبراطورة بالتقاليد القديمة ولا تعطى تقدم البلاد ما يستحقه من عناية ، كان الرأس تفرى عصرياً يتوق إلى اتخاذ أسرع الاجراءات لدفع البلاد إلى الأمام ، ولم يحدث بينهما أى خلاف فى مبدأ الأمر إذ اختصت زاوديتو بالأمور الداخلية واختص تفرى بعلاقات الدولة الخارجية . ولقد حالفه التوفيق عنـدما تمكن من تحقيق الاعتراف الدولى للحبشة وأصبحت عضوا فى عصبة الأمم .

وسرعان ما وجد نفسه مضطرا للاهتمام بالشئون الداخلية ، وكان ينوى العمل على القضاء على جميع عوامل التفرقة والانقسام التى حطمت البلاد خلال العصور الماضية . وكذلك كان يهدف إلى تطبيق النظم الحديثة فى شئون الحكم والحياة الاجتماعية فى البلاد . ولقـد كان نشاطه وشبابه وحماسه وشخصيته أقوى من أن تقف أمامها الامبراطورة زاوديتو . وتمكن من أرغام الامبراطورة على منحه لقب نجاشى عام ١٩٢٨ . وفى عام ١٩٣٠ ، تمكن من أخضاع ثورة قام بها الرأس (جوكسا Cogsa) وتوفيت الامبراطوره بعد القضاء على تلك الثورة بيومين . وتولى الرأس تفرى العرش وأصبح ملكا للملوك وسمى نفسه الامبراطور هيلاسلاسى الأول .

---

(١) ص ٩٥ PP. 95, The Ethioplans by Ullendorff

موقفة أمام عصبة الأمم :

ولقد لفت الرأس تفرى — قبل أن يصبح امبراطورا — أنظار العالم إليه وإلى دولته عندما وقف أمامها يدافع عن بلاده ضد بريطانيا وإيطاليا فى عصبة الأمم .

فقد ذكرنا أنه فى أواخر عهد منليك خشيت الدول الأوربية من تفكك امبراطورية الحبشة بعد وفاة منليك فأرادت أن تتفق على طريقة حماية مصالحها وتقسيم مناطق نفوذها . فاتفقت فى ١٩٠٦ على أن يكون لبريطانيا نفوذ على منطقة تشمل بحيرة تانا وحوض النيل الأزرق وتشمل المنطقة الفرنسية الخط الحديدى الممتد من أديس أبابا إلى جيبوتى بينما تحصل إيطاليا على شريط من الأرض بعرض ٥٠ كيلومتر تنشىء فيه طريقا يربط بين الصومال الإيطالى والأريتريا .

ولقد علم منليك بالاتفاق وشكر الدول المذكورة على تفكيرها فى المحافظة على استقلال بلاده ولكنه اعترض على الاتفاق حتى لا يقيد بأى حال من الأحوال سيادته وسلطته .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى عاودت الدول الأوربية نشاطها وعلى الأخص بريطانيا وإيطاليا ، وفى هذه المرة كانت بريطانيا تهدف إلى أن تكون منطقة نفوذها هى غرب الحبشة حيث تقع بحيرة تانا والنيل الأزرق والأقاليم المتاخمة للسودان ، بينما تشمل منطقة النفوذ الإيطالى الجزء الشرقى من الحبشة حيث يقع الطريق البرى المزمع انشاؤه .

وتبودلت الرسائل والمذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بهذه الخصوص[١] وما أن وصلت تلك الرسائل إلى عصبة الأمم حتى بادر الرأس تعزى واحتج على تلك الرسائل التى تبادلتها الدولتان للتآمر على تقسيم الحبشة بينهما لكل

---

(١) ص ٢٢٥ وما بعدها In the Conutry of the Blue Nile by C.F. Rey

منهما منطقة نفوذ خاصة بها ، واتهمهما بالعمل على الاعتداء على استقلال بلاده . وفضح أساليبهما الاستعمارية . مما أدى إلى وضع حد حاسم لتلك المحاولات .

نشاط هيلاسلاسى فى عهده الأول :

بعد موقفة المشرف أمام عصبة الأمم ودفاعه عن حق بلاده واستقلالها عقد معاهدة صداقة مع إيطاليا فى عام ١٩٢٨ حتى يأمن جانبها . ووافق على أن تقوم شركة أمريكية بدراسة منطقة بحيرة تانا والنيل الأزرق بناء على طلب حكومة السودان (١٩٣٠) ، وعقد اتفاقات مع انجلترا وإيطاليا وفرنسا للحصول على الأسلحة .

ولقد قام فى ١٩٣١ بمنح البلاد دستوراً . ولم يكن لهذا الدستور أية أهمية لدى الشعب ، ولكنه كان مظهراً من المظاهر التى أراد الامبراطور أن يرفع به شأن بلاده أمام الأجانب ويبرر به بقاءه عضوا بعصبة الأمم ، ومن جهة أخرى فإنه كان يهدف منه إلى زيادة الروابط بين مختلف الأقاليم فى الامبراطورية . حيث يجتمع النواب الذين عينهم بنفسه ، مرة أو مرتين كل عام فى أديس أبابا فيوطد الروابط معهم وبينهم ، ويجعلهم يشعرون بأهمية أديس أبابا عاصمة الامبراطورية ويلتفون حولها . لما عرف عن قبائل الحبشة على مر العصور من عدم اهتمامهم الاهتمام الكافى بالولاء لعاصمة البلاد .

وقام بعد ذلك بتعيين الوزراء وتوزيع الاختصاصات والواجبات وتنظيم قوى الأمن ووضع الأسس للادارة المالية والجمارك والضرائب ، وكل ماعدا ذلك من مستلزمات الحكومات الحديثة ، ولكنه اصطدم بالعقبة الكبرى وهى فقر البلاد الشديد فى أبنائها المتعلمين الذين يمكن أن تسند إليهم وظائف الدولة ، ولذلك وجه همة إلى نشر التعليم وأوفد عددا من البعثات على نفقة الدولة إلى البلاد الأجنبية ، وبلغ من عنايته بهم أنه كان يستقبل أفراد البعثات قبل سفرهم وعند عودتهم .

وبدأ نفس الجهود فى نشر العناية الصحية ، وتحسين طرق المواصلات، وكان فى جميع هذه الأعمال يدفع الأمور بنفسه مركزاً السلطات فى يديه يتابع جميع الإجراءات صغيرها وكبيرها ، لذلك كان المجهود الذى يبذله هائلا،كان حرى بأن يصل إلى أحسن النتائج فى أقصر وقت ، لولا ما تلبد من غيوم دفعت بالبلاد إلى كارثة الحرب الإيطالية الحبشية فى عام ١٩٣٥(١) .

* * *

حالة المسلمين فى عهد هيلاسلاسى :

أما بالنسبة للمسلمين فإنه لم يلجأ إلى الآساليب السافرة من الاضطهادات الدينية الاجبارية التى كانت سائدة فى عهد تيودور ثم يوحنا . بل تظاهر بأن حرية الدين مكفولة وألغى ما يتعارض مع ذلك من قوانين . .

ولكنه أتبع نفس الاجراءات السابقة وأقرها بطريقة مستترة بأن سمح لهم بمزاولة النشاط التجارى ـ على أن يبعدوا عن الوظائف والمناصب العامة ومن جميع مايتعلق بحياة البلاد السياسية . وجعل بين المسلمين وبين الطبقة الحاكمة فاصلا واضحا ، وكان وضعهم على هذه الصورة مايمكن التعبير عنه (بالتسامح الدينى البسيط) . كما يفسره بعض الكتاب الأوروبيين ـ ولكنه فى الواقع ومن الوجهة العملية امعان فى التفرقة الدينية على أوسع نطاق ـ وتتميز عن خطط الاضطهاد السابقة انها تطبق الآن فى هدوء وسكون .

وتبذل الحكومة الحبشية الجهد لكى توحى إلى العالم بأن حالة المسلمين متحسنة وأنهم يتمتعون بالحرية والعدل فى عهد هيلا سلاسى ، « ولكن موقفهم بقى كما هو فى السابق من جميع الوجوه وعلى الأخص بالنسبة للوظائف والمناصب والحكم، بل أن أساليب التفرقة أخذت طابعا رسميا. إذ أن الدستور الجديد ربط بين الجنسية الحبشية والدين ربطا متينا قضى على آمال المسلمين فى تحسين مستواهم ، وأن كانوا تحت الحكم الحالى أصبح فى أمكانهم امتلاك

(١) ص ١٩٠ - ١٩٠ The Ethiplans by Ullendorff

الأراضى ، وتولى بعض المناصب فى البلاد التى تكون غالبيتها من المسلمين[1] ويقتضى الأمر وجودهم فى تلك المناصب مثل الأعمال التى تتعلق بالقضاء الشرعى » .

* * *

عبر المستر ترمنجهام بالفقرة السابقة فى اختصار ورفق عن حالة المسلمين فى العهد الأول من حكم هيلاسلاسى . وهى تعبر عن حالة المسلمين فى الحبشة تعبير صحيحا ، وهى أن كانت تشير إلى التفرقة الدينية الصارخة وما يتعرض له المسلمون من ظلم وحرمان ، فانها بالرغم من كل ذلك أقل من الحقيقة بكثير ، ونحن وأن كنا ندخر ماسوف نفصله عن هذا الموضوع إلى مانعتزم تخصيصه له فى فصل مستقل من هذا الكتاب ، إلاأننا نود أن نشير إلى نقطة واحدة وهى الوحيدة التى ذكرها مستر ترمنجهام عن مدى التحسين فى معاملة المسلمين فى عهد هيلاسلاسى والتى عبر عنها فى رفق بكلمة (التسامح الدينى البسيط Simple Tolerance تلك الظاهرة الوحيدة التى تغيرت فى معاملة المسلمين وهى السماح لهم بامتلاك الأراضى .

فمن المعروف أن الحبشى (ساكن الهضبة حيث تتركز المسيحية) لا يميل إلى الزراعة ويعتمد على تربية المواشى ، ولا يزرع حول كوخه إلا مايكفى لسد رمقه [redacted] . بخلاف المسلمين الذين يملأون السهول والوديان فهم يتميزون بالنشاط والدأب على العمل ، وكما نبغوا فى التجارة وسيطروا عليها فانهم كانوا فى نفس الوقت العماد الأكبر للزراعة ، لإقبالهم عليها ونشاطهم وكثرة عددهم واتساع الرقعة التى يعيشون فيها بحيث تشمل ثلاثة أرباع مساحة الحبشة كلها .

وعندما لجأت الدولة فى أوج عصور الاضطهاد إلى حرمانهم من تملك الأراضى كما سبق أن قلمنا ، تحول كثير منهم إلى التجارة ، وتأثرت الزراعة وتضاءل دخل البلاد منها وأصبحت أرضها الخصبة مهملة عاطلة عن الانتاج

---

(١) ص ١٣٦ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .

لم يكن هناك بد من العودة إلى السماح للمسلمين بتملك الأراضى لتشجيعهم على الزراعة . لما يعود ذلك على الدولة بالخير العميم . ولكن المسلمين وقد عادوا ثانية إلى تملك الأراضى أخذوا يتعرضون لدفع الضرائب الباهظة المفروضة عليهم علاوة على أن تلك الضرائب تجبى منهم عدة مرات فى العام الواحد . كلما شاء حاكم المنطقة أن يجمع لنفسه أو لاتباعه بعض المال . كذلك لايسلم المسلمون من سطوة رجال الحكومة ورجال الأمن الذين يتقاضون منهم ـ مايفرضونه عليهم من أتاوات لاينص عليها القانون .

لذلك يجاهد المسلمون فى نشاط وصبر وكد فى فلاحة الأرض ، ويعملون بذلك على رخاء البلاد وزيادة دخلها ، ولكن مايتبقى لهم يشاركهم فيه الحكام ورجال الأمن . ولنا إلى ذلك عودة .

* * *

الفصل الثامن عشر

الاحتلال الإيطالي

لم تكن إيطاليا لترضى بما حصلت عليه من مستعمرات فقيرة لا تبشر بأى كسب ولا تعود على الخزينة الإيطالية أو الشعب الإيطالي بالفائدة المنشودة ، وإذا كانوا يتحملون جهداً كبيراً في ليبيا الفقيرة وقتئذ ، فإنما كان يراودهم الأمل في أن تكون ذات فائدة كبرى عند الظرف المناسب لتكون نقطة انطلاق إلى غيرها من جاراتها الغنية ، ثم هي على مسيرة يوم واحد من الأرض الإيطالية مما يجعل موقعها مثاليا ، تتضاءل بجانبه المنفعة المادية العاجلة ، ويكفي منها أن تغطى تكاليف حكمها وإدارتها .

أما أن تسكت إيطاليا على بقائها في شرق أفريقية في مستعمرة فقيرة في الإريتريا ومستعمرة أخرى أفقر منها في الصومال الإيطالي وفيما بينهما بلاد شاسعة مفرطة في الخصب والإمكانيات التي لا حدود لها ، معتدلة في الجو طوال السنة ، وليس لهم عليها أى سلطان فإن هذا أمر لا تستسيغه النزعة الاستعمارية الإيطالية .

لذلك أخذوا منذ اللحظة الأولى التي استقروا فيها في الأريتريا والصومال في مناوشة الأحباش ، ووقعت بينهم المواقع الحربية التي انهزمت فيها إيطاليا شر هزيمة ، علمت بعدها أن تحقيق أهدافهم يحتاج إلى انتهاج أساليب أخرى . فأخذوا يساومون بريطانيا وفرنسا وعقدوا فيما بينهم اتفاقيات على تقسيم مناطق النفوذ ، ثم عاودوا الكرة بعد الحرب الكبرى الأولى ونشطوا في الاتفاق مع بريطانيا على تقسيم الحبشة بينهما ، ولم تعد تقتنع بشريط من الأرض لتنشىء فيه طريقا يصل بين الصومال وأريتريا . ولكن امتدت

أطماعها بأن تصبح جميع المنطقة الشرقية من الحبشة منطقة نفوذ تنفرد فيه بالتجارة والاستغلال بينما تنفرد بريطانيا بالمنطقة الغربية . التى يقع فيها النيل الأزرق وبحيرة تانا .

وعندما فضح الامبراطور هيلاسلامى (الرأس تفرى وقتئذ) هذه المؤامرات الخفية أمام عصبة الأمم عام ١٩٢٦ ، وأوقف العمل بها . لجأت إيطاليا لعقد معاهدة صداقة معه عام ١٩٢٨ ، ولكن هذا لم يكن ليثنى الإيطاليين عما يبيتونه من نيات وآمال . فأخذوا يعدون العدة ، ويتقنونها فى هذه المرة ويعززونها بأحدث ما وصلت إليه أساليب الحرب ، ويرتبون خطة الحلة بحيث يكون عملها سريعا وفعالا وخاطفا ، حتى لا تدع لدول العالم الفرصة لإيقافها أو عرقلة أعمالها . . . وأخذت تتحين الظرف المناسب .

* * *

موقف الدول الكبرى :

فى الوقت الذى كانت فيه الحبشة مهددة بسيطرة المسلمين الكاملة عليها تعاونت الدول الأوروبية الكبرى فى حماية الحبشة المسيحية وتمكينها من الانتصار على المسلمين والاستيلاء على جميع السلطنات الإسلامية وتوحيد جميع هذه المناطق تحت سلطة الامبراطور وتسابقت الدول فى تقديم المساعدات — وعندما تحققت النتائج التى تعاونت من أجلها بدأت كل منها تتصارع مع الأخرى وتتنافس حتى تنال من النفوذ فى تلك الدولة الناشئة المتحدة فوق ما يناله غيرها .

وليس هذا بالموقف الأول التى تقفه الدول الأوروبية — ولقد مررنا فى التاريخ بعديد من الأمثلة على ذلك ، وأبرزها وأعظمها شأنا ما حدث فى الحروب الصليبية . ولكن أقربها إلى أذهاننا فى عصرنا الحديث ، ذلك التحالف الذى عقدته الدول الأوروبية فيما بينها — رغم ما بينها من تنافس

وحروب - تحالفت لكى تقضى نهائيا على القوة الإسلامية فى الشرق الأوسط التى تمثلت فى قوة المسلمين التى تعززت فجأة وعلى غير انتظار من الدول الأوروبية بتلك القوة الناشئة الفتية لمصر فى عهد محمد على وتلك الامبراطورية الجديدة التى أخذت تمتد أطرافها وتتعزز قواتها بما يهدد مصالح الدول الأوروبية وآمالها فى التوسع والإستعمار . تحالفت تلك الدول حتى تمكنت من القضاء على القوة الإسلامية (معركة نفارين البحرية) وبعد أن تم لها ذلك عادت تلك الدول إلى تنافسها وتصارعها على مناطق النفوذ والاستغلال والاستعمار .

* * *

وبعد أن تمكن منليك من القضاء على السلطنات الإسلامية بفضل ماحصل عليه من مساعدات عسكرية وأسلحه من الدول الغربية - وإستتب أمر البلاد . أخذت نفس تلك الدول الأوروبية تعمل وتتنافس فيما بينها على الاستيلاء على الغنيمة . وظهر ذلك واضحا فى عام (١٩٠٦) عندما ضعفت صحة الامبراطور منليك - ثم بعد ذلك فى المؤامرات التى حاكتها بريطانيا وإيطاليا بعد الحرب الأولى وافتضح أمرها أمام عصبة الأمم (١٩٢٦) .

ولم يكن الأمر يقتصر على الحبشة فى ما يدور بين الدول الكبرى من صراع وتنافس بل كانت أطماعها تتشعب وأظافرها تمتد إلى غيرها من مناطق نفوذ ومستعمرات . لذلك دخلت تلك الدول فى ميدان المساومات فأصبحت المسألة الحبشية مرتبطة بغيرها من المشاكل من وراء ظهرها وبغير علم منها .

ولقد احتدمت تلك المساومات وأصبحت الشغل الشاغل للدول الكبرى ، وبلغت ذروتها فى الثلاثينيات وعلى الأخص فى عام ١٩٣٣ عندما استقر عزم إيطاليا على غزو الحبشة وهو نفس العام الذى استولى فيه التازيون

على زمام الحكم فى ألمانيا . ومنذ ذلك الحين ارتفعت حرارة التنافس إلى درجة الحمى ، وتورطت كثير من الدول فى عدد من الارتباطات التى أملتها أطماعها ، وازدادت بذلك حدة الصراع حتى انتهى بالعالم إلى كارثة قيام الحرب العالمية الثانية .

* * *

ولكل من الدول الكبرى وجهة نظر خاصة مرتبطة بمصالحها ويدافع عنها مؤرخوها ولسنا هنا فى مقام مناقشة تلك الآراء المختلفة ، خصوصاً وأن جميع تلك الدوافع والآراء تعود فى رأينا إلى أساس واحد ودافع واحد وهو الجشع والصراع على افتراس الشعوب الضعيفة - ولا يعنينا بعد ذلك تعدد الوسائل التى تتبعها تلك الدول ، ولا الظروف التى تصادفها فى تحقيق أغراضها وكيفية معالجتها والتغلب عليها ، ولا كيف تتقاتل تلك الدول فيما بينها لاقتسام الغنائم .

ولكننا ونحن بصدد المسألة الحبشية ، جدير بنا أن نشير فى اختصار إلى بعض العوامل البارزة التى سادت المعسكرات الأوروبية فى تلك الفترة ، والتى كانت وثيقة الصلة كبيرة الأثر فيما حل بالحبشة . والتى تمكنت إيطاليا من استغلالها وتلمس الثغرات فيها وانتهاز الفرص خلالها للإقدام على مغامرتها .

* * *

فقد كشفت اعترافات « المارشال إميليو دى بونو » أن موسولينى قرر غزو الحبشة فى خريف عام ١٩٣٣ ومنذ ذلك التاريخ أخذت إيطاليا تعمل فى همة ونشاط دائبين على تحقيق ذلك فى ميعاد أقصاه عام ١٩٣٦ .

وكانت الخطة أن يسبق الغزو العسكرى سلسلة من التآمر والرشاوى مع زعماء الأحباش مما كان له فيما بعد أثره الفعال فى تيسير مهمة الجيش

الإيطالى . حيث تمكنت تلك السياسة من تفتيت الحبشة سياسيا فى الداخل .

ولقد كان السنيور موسولينى قد استعرض مختلف المناطق التى يمكنه أن يحقق فيها توسعا لنفوذه ، وميدانا يستوعب نشاط السكان الايطاليين المتزايدين . فلم يجد أمامه خيراً من أثيوبيا . فهى فضلا عما بها من ثروات كامنة هائلة فإنها تربط بين مستعمرتيه الفقيرتين - الاريتريا والصومال - ولا يريد أن ينسى معاهدة أوشياللى (١٨٨٩) التى جعلت من الحبشة فى يوم من الأيام محمية إيطالية - وأن كان منليك قد بادر وألغاها (١٨٩٣) وأعقب ذلك بإيقاع هزيمة منكرة بالقوات الإيطالية فى موقعـــة عودة (١٨٩٦) .

وبالرغم من أن منليك رفض الاعتراف بمعاهدة (١٩٠٦) التى تقاسمت فيها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا مناطق النفوذ - إلا أن تلك الدول الكبرى بقيت فيما بينهما تحترم نصوصها - فهى وإن كانت تحفظ للحبشة استقلالها إلا أنها تعترف لكل من تلك الدول بمنطقة نفوذ تزاول فيها نشاطها ، وليس فى تلك المعاهدة ما يخول لأى دولة من تلك الدول بغزو الحبشة عسكريا .

ولكن أطماع إيطاليا التى سبق ذكرها . واحتدام الحوادث والصراع على المسرح الأوروبى خصوصا بعد ظهور هتلر وصحوة ألمانيا تحت الحكم النازى وإلغاءها لمعاهدة فرساى ونتائجها . خلق جوا من القلق . دعا فرنسا إلى العناية بمسألة الحبشة ، كذلك لم تكن بريطانيا بأقل اهتماما من فرنسا بهذا الأمر .

وفى ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤ وقعت إحدى حوادث التحرش الشهيرة ، بأن اصطدمت بعض القوات الإيطالية مع قوات الحبشة بالقرب من (ولواله Walwla) مما أدى إلى مقتل ٣٠ وجرح ١٠٠ من القوات الإيطالية ، بينما

كانت إصابات الأحباش أكثر عدداً ، ومهما قيل عن أسباب ذلك الاشتباك من الطرفين فى ذلك الوقت ، فإنه ظهر بما لا يقبل الشك ـ وخصوصا بعد الاطلاع على الأسرار التى أذيعت بعد الحرب الثانية . أن إيطاليا هى التى تحرشت بالحبشة تنفيذا لخطتها التى رسمتها لتبرير غزوها للحبشة . ولقد كان ذلك واضحا حتى فى ذلك الوقت ، إذ رفضت إيطاليا أى نوع من أنواع المتوسط والتصالح ، ورفضت الخوض فى بحث موقع الاشتباك . وهل هو فى داخل الأراضى الحبشية أو خارجها وأين يقع خط الحدود ؟ . وأصرت إيطاليا على موقفها السلبى حتى بعد إثارة موضوع الحادثة أمام عصبة الأمم . وفى نفس الوقت أخذت امتدادات إيطاليا للحملة الحبشية تتضح للعيان واشتهر أمرها فى أوروبا .

ومما أثار دهشة العالم وقتئذ إقدام وزير خارجية فرنسا مسيو بيير لافال على زيارة روما لتسوية ما بين الدولتين من خلافات والتعاون فى المجال الدولى . ويعتبر البريطانيون هذا العمل من لافال خيانة صريحة لبلاده لصالحة هتلر وموسولينى[1] ووصفه اللورد فانيستارت بأنه « أحد القلائل الذين لم يتمكن الميكروسكوب من أن يكتشف فيهم إلا الانحلال » فلقد هيأته الطبيعة لكى يكون نصابا وخائنا .

ولقد تمكن لافال فى خلال ثلاثة أيام من زيارته لروما أن يصل إلى اتفاق مع إيطاليا تتنازل لها فرنسا فيه عن بعض المناطق الأفريقية تضاف إلى الأريتريا وليبيا ـ ولو أنها قليلة القيمة من الوجهة الاقتصادية إلا أن فائدتها العسكرية كانت ذات قيمة . وكذلك منحها ٢٥٠٠ سهما (٢٠٪) فى الخط الحديدى الذى تملكه فرنسا والذى يصل أديس أبابا بالبحر عند جيبوتى — والذى تعتمد عليه الحبشة اعتمادا كليا فى تجارتها الخارجية —

---

(١) ص ١ من كتاب الأزمة الأثيوبية The Ethiopian Crisis by Ludwig Schaefer

والمقـال بقـلم . G. M. Gathorne - Hardy

وفى نظير ذلك حصلت فرنسا من إيطاليا على تسوية فى المسألة التونسية ، بأن تنازلت إيطاليا عن تمسكها باحتفاظ الإيطاليين الموجودين فى تونس بالجنسية الإيطالية .

والمتتبع لهذه الأمور يجد أن هذين الأمرين اللذين تمخض عنهما الاتفاق من التفاهة بحيث لا يمكن أن يكون لهما شأن فى المسرحية التى تمثل فى أوربا فى ذلك الوقت ، ولكن الأمر الخطير الذى حدث فى هذه الزيارة هو تقارب فرنسا من ايطاليا واتفاقهما على التعاون والتفاهم ومراعاة مصالح الطرفين . وجاء ذلك اعترافا من فرنسا وتصريحا منها لايطاليا لكى تكون لها حرية العمل فى الحبشة .

* * *

لم تكن بريطانيا لتقف مكتوفة اليدين على المسرح والحوادث تتوالى أمام عينيها لذلك قام مستر أيدن وزير خارجية بريطانيا وقتئذ بزيارة روما أيضا فى يونيه ١٩٣٥ واقترح على الدوتشى أن تتنازل الحبشة لايطاليا عن جزء من منطقة الأوجادين فى مقابل منح الحبشة ممرا إلى ميناء زيلع الواقعة فى الصومال البريطانى ، ولقد كان نصيب هذا الاقتراح الرفض من الجانب الايطالى .

ولقد كان من ضمن الاقتراحات التى لم تتعد مرحلة التلميح ، أن يكون لايطاليا فى الحبشة مركزا مشابها لمركز بريطانيا فى مصر ـ أى حماية ونفوذ تحت ستار استقلال ظاهرى للحبشة ـ وقد كان من المعتقد وقتئذ أن موسولينى سوف يستجيب لهذا الاقتراح ويكتفى به ـ ولكن الكتاب الايطاليين [1] ينحون باللائمة على تصرفات بريطانيا بعد ذلك التى جعلت موسولينى يركب رأسه ويندفع فى عملية الغزو والاحتلال الكامل . فان الايطاليين يتهمون بريطانيا بأنها شجعت هيلاسلاسى ضد إيطاليا ودفعته إلى رفض جميع

---

(١) ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ تاريخ أوروبا الحديث تأليف فيشر ترجمة أحمد نجيب هاشم .

الحلول ـ ولولا ذلك لكان قد قيل بسهولة أن يصبح مثل خديو مصر تحت سلطة بريطانيا أو بأى تونس تحت سلطة فرنسا .

وخلال كل تلك الأحداث لا ننسى أن فرنسا ومعها ايطاليا ، كانت تنقم على بريطانيا اتفاقها المنفرد مع ألمانيا فى يونية ١٩٣٥ الذى سمحت فيه لألمانيا ببناء أسطول يحتوى على غواصات مما يتعارض مع معاهدة فرساى ويقلب ميزان القوى ويهدد كيان فرنسا .

• • •

تلك كانت الحوادث التى تتعاقب على المسرح الأوروبى ـ وجميعها مؤامرات ومناورات ومعاهدات تعقد خارج عصبة الأمم مما أدى بالعصبة أن تفقد قيمتها وتهتز هيبتها ، وكان لاخفاقها فى محاولاتها لتسوية حوادث منشوريا وعجزها عن ايقاف الغزو اليابانى لها . أكبر الأثر فى تشجيع بنيتو موسولينى دكتاتور ايطاليا على الأقدام على غزو الحبشة ، وامتشاق الحسام فى وجه دولة صغيرة ضعيفة ، وأصبحت إيطاليا على أهبة الاستعداد لهذا الغزو فى عام ١٩٢٣ إلا أنها كانت تترقب الظرف المناسب . وكانت على تمام الثقة بأن الموقف الدولى المتأزم سوف يمنع الدول الكبرى من التعرض لها وأنقاذ الحبشة خشية أن يؤدى ذلك إلى وقوع ماهو أشد خطراً على العالم أجمع وهو نشوب الحرب العالمية [1] وبذلك أصبحت الحبشة ضحية وحيده لا سند لها .

* * *

الغزو الايطالى :

أرسل موسولينى قواته المعززة بمعدات حربية هائلة ، ومعها من المعدات المدنية المدروسة بعناية فائقة ما يلزم للبدء فى الحال فى استثمار البلاد ، وكانت تتكدس تلك المعدات فى أريتريا فى انتظار اليوم المنشود ، وزحفت كتائب

---

(١) ص ٦٤٥ تاريخ أوروبا فى العصر الحديث تأليف فيشر ترجمة د . أحمد نجيب هاشم .

ايطاليا فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ على تلك البلاد البدوية الضعيفة . وكانت نتيجة القتال أمرا مفروغا منه ، واستصرخ النجاشى هيلاسلاسى عصبة الأمم والأمم الكبرى لتمد له يد الغوث ـ ولكن صراخه ذهب أدراج الرياح ، بينما كانت بلاده تتعرض لفتك جميع المعدات الحربية الحديثة لدولة أوروبية من الدرجة الأولى فى المصفحات والطائرات والغازات السامة.

وكان الجيش الايطالى تحت قيادة المارشال بادوليو يتكون من ٢٠٠٫٠٠٠ جندى و ٤٠٠ طائرة ومقادير هائلة من الغازات .

أما عصبة الأمم ، وقد فشلت فى تهدئة الأحوال قبل الغزو الايطالى فانها أعلنت فى أكتوبر أن إيطاليا دولة معتدية وقررت فى الشهر التالى توقيع « العقوبات الاقتصادية » التى يفرضها عهد العصبة ، فطلبت من الدول الأعضاء أن تمتنع عن مدها بالسلاح والمال ، وقررت فرض الحصار البحرى عليها ، بيد أن ايطاليا كانت تملك الأسلحة والمواد . بينما كانت تفتقر إلى البترول ـ وحدث أن رفضت أغلبية الدول الأعضاء أن يكون من ضمن قائمة المواد المحظورة الحديد والصلب والقصدير وزيت البترول ـ الأمر الذى جعل من « العقوبات الإقتصادية مهزلة كبرى » وأضعف إلى مدى بعيد نفوذ العصبة الأدبى والقانونى .

وما أتى شهر مارس سنة ١٩٣٦ حتى كان الايطاليون قد قضوا على كل مقاومة حربية جدية من جانب الحبشة ، ودخلوا أديس أبابا فاتحين فى شهر مايو وكان الامبراطور هيلاسلاسى قد أكره على الفرار منها فى أوائل مايو وأعلن موسولينى فى ٩ مايو ضم الحبشة كلها إلى ايطاليا ونادى بالملك عمانويل الثالث امبراطورا على الحبشة ،وأظهرت انجلترا وفرنسا انهما تؤثران سياسة التهدئة الملتوية ، ومالبثت عصبة الأمم أن أقرت بعجزها ، ورفعت العقوبات الاقتصادية عن ايطاليا فى منتصف عام ١٩٣٧ (١) .

* * *

(١) ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ تاريخ أوروبا فى العصر الحديث تأليف فيشر ترجمة أحمد نجيب هاشم

تأثير الاحتلال الايطالى :

لسنا من أنصار الاستعمار ولا يمكن أن نوافق على اعتداء القوى على الضعيف ، ولكن لامناص لنا من الاعتراف بأن الحبشة التى ظلت تعيش فى دياجير الظلام ، وتدافع عن بلادها بما أوتيت من قوة وبقيت خلال تاريخها الطويل بينما تتقلب فى احضان الجهل والهمجية ، لم تتح لها فرص رؤية النور إلا على يد الغزاة الفاتحين . فلقد نقل إليها العرب عندما دخلوها مسالمين كثيرا من نواحى التقدم والمدنية التى عاصرت القرون الأولى من الاسلام ثم كان لدخول البرتغاليين لنجدتهم ضد المسلمين أثر بالغ فى تعريفهم بالعالم الخارجى ومابه من وسائل المدنية وأساليب الرقى ، ثم كان الفتح المصرى الذى أدخل إلى البلاد حضارة من نوع جديد تعتمد على الاستقرار وحسن الادارة ونشر الوعى والتعليم والتدريب بين طبقات الشعب وتوحيد الجهود فى سبيل رفعة البلاد بالقضاء على الخلافات والمشاحنات .

ولا شك أن الاحتلال الايطالى كان — فى العصر الحديث — كبير الأثر فى إفاقة الحبشة من نومها — وبقدر ماصحبه من فظائع الحرب والاستعمار فانه أدخل أحدث أنواع المدنية التى لم تكن لتدخل تلك البلاد لولا الفتح الايطالى .

ولم تكن ايطاليا تتصور أنها سوف تخرج وشيكا من الحبشة ، لذلك دخلت إليها ومعها برنامج واسع شامل لجعل هذه البلاد جزءا زاهرا من الامبراطورية الايطالية ، واتخذت سياسة تخالف ماجرت عليه بريطانيا وفرنسا فى مستعمراتهما ، فقد عولت على أن تزدهر البلاد ، ويتعاون فى ذلك المستعمرون وأهل البلاد بحيث تؤتى تلك البلاد الشاسعة ثمارها فى أسرع وقت ممكن حتى تحقق لنفسها أكبر فائدة فى أقصر وقت ، وجعلت هدفها أن تمتلىء جميع نواحى النشاط بالايطاليين الذين يستوطنون بصفة دائمة ويجعلون منها وطنا دائما لهم تابعاً للدولة الأم إيطاليا ، لذلك كان الايطاليون يشغلون جميع

الدرجات فى مختلف مرافق الحياة ، فمنهم سائق السيارة والصانع والكاتب والموظف والمهندس والمدير ونائب الملك ، وكان الايطاليون فى المراكز الدنيا يشتغلون جنبا إلى جنب مع زملائهم الأحباش الذين أغروهم وجلبوهم إلى حلبة العمل . حتى يستفيدوا من مجهودهم البشرى فى بداية الاستعمار ، ثم يتحولون فيما بعد إلى طبقة كادحة مستعبدة عندما تستقر الأمور للايطاليين وتزدهر مشروعاتهم .

ومن أجل ذلك كانت سياسة الايطاليين الرئيسية ادخال العمران المستقر فى جميع النواحى ، فكانت المبانى الفخمة والمكاتب الأنيقة والأثاث المريح والتجهيزات الحديثة فى كل مكان ، على صورة لم تعهدها افريقيا من قبل فى المستعمرات الفرنسية والانجليزية التى سبقت بما يقرب من خمسين عاما .

ولقد وضعت إيطاليا لتعمير الحبشة ثلاثة برامج متعاقبة مدة كل منها خمسة سنوات وكانت تهدف أن تصبح البلاد بعدها جنة تتلألأ فى قلب أفريقية ومصدرا هائلا من مصادر الثروة للامبراطورية الإيطالية - ولم يتم من هذه البرامج الثلاث إلا الجانب الأكبر من البرنامج الأول . فجاء رغم الصعوبات التى داهمته من جراء قيام الحرب العالمية الثانية فى ١٩٥٩ ، تحفة من روائع العمل الهندسى والفنى والادارى .

انتشرت فى جميع أنحاء البلاد طائفة من المشروعات الصناعية، وقامت الحكومة الجديدة فى الحال بإنشاء المزارع الحديثة وزودتها بأحدث وسائل الزراعة وأساليبها الميكانيكية، وكانت كل واحدة منها مزوده بآلاتها وورشها ومضخاتها وقنواتها وآلاتها ومنازلها ونواديها وأجهزتها اللاسلكية، وتفاوتت أحجامها بين ٥٠٠ فدان والخمسة آلاف فدان ولقد رأينا أحداها بالقرب من مدينة « ديسى » حيث كانت عبارة عن مجموعة متجاورة من الوحدات بلغت فى مجموعها ستين ألف فدان .

ودارت رحى البحوث فى كل مكان للبحث عن الثروة المدنية، واستغلال جميع أنواع الموارد .

وكان من أهم الإنجازات التى تمت فى تلك الفترة القصيرة تلك الشبكة العظيمة من الطرق وخصوصا ذلك الطريق العظيم بين أسمرة وأديس أبابا (١٠٨٠ كيلو متر) الذى ربط بين العاصمتين مخترقا هضاب الحبشة وجبالها ووديانها ، وسط طبيعة شديدة الوعورة مما استدعى إنشاء عدد لا حصر له من المعابر والجسور والأنفاق ، ومنها بعض الكبارى التى لم يسبق لها مثيل، مثل ذلك الجسر الذى يصل بين جبلين بالقرب من (دبراسينا Debra Sina) والذى تهدم مرة أثناء إقامته وتسببت عن ذلك بعض الخسائر والضحايا ، وأنه وأن تكن بعض الطرق الأخرى لم تكن قد غطيت بالأسفلت بعد ، إلا أنها كانت قد تم تمهيدها بحيث أصبح الوصول بالسيارات ممكنا ولو بشىء من الصعوبة للمرة الأولى فى التاريخ من أديس أبابا إلى جوندار واكسوم وهرر وجيما ولبكتى وبحيرة تانا ودبراما كوس ثم مقديشو .

وكذلك أنجزت إيطاليا عددا كبيرا من المشروعات الحيوية فى البلاد مثل محطات الكهرباء وشبكة المواصلات التليفونية والبرقية واللاسلكية ، وكان لها من المعدات اللاسلكية المنتشرة فى جميع البقاع ما يمكن العاصمة من الاتصال بجميع المدن والقرى ، وكذلك تصل أديس أبابا مع روما رأسا بمحطات كبيرة تعمل طوال الليل والنهار .

ومن البديهى أنه عندما استقر الإيطاليون بالحبشة فإنهم طبقوا نظامهم الإدارى الذى قضوا به على سلطة الحكام والرؤوس القدامى ، وانتزعوا منهم إقطاعياتهم وأراضيهم وعلى رأسهم أراضى الكنيسة الحبشية التى كانت تملك أكثر من ثلث أراضى الدولة وبذلك بدأت تفقد سلطانها وقوتها. ولئن تظاهرت إيطاليا بأنها تطارد الإقطاع وتقضى على الإقطاعيين إلا أنها حلت محلهم جميعا وجعلت من الحبشة كلها إقطاعية واحدة كبيرة ملكا خاصا لها .

ويقدرون ما أنفقته إيطاليا فى هذه الأعمال العمرانية بما يتجاوز المائتى مليون من الجنيهات .

* * *

سياسة الإيطاليين نحو الكنيسة الحبشية :

اتبع الايطاليون تجاه الكنيسة الحبشية سياسة رائدها الهدوء والتؤدة ، فكما أنها أخذت تعمل على تحويل الشعور القومى الأثيوبى فى هدوء وصبر إلى ولاء نحو ايطاليا ، فإنها اتخذت نفس السياسة تجـاه الكنيسة القبطية اليعقوبية حتى يتم تحويل ولاء الناس عنها بدون إثارة الاضطرابات أو اللجوء إلى وسائل القهر والاضطهاد ، ولقد حدثت بعض الأخطاء عند أول عهدهم بالبلاد كتلك التى قتل فيها جميع رهبان دير (دير الليبانوس) ولكن هذه الحادثة لم تتكرر مرة ثانية(١) .

* * *

سياسة الايطاليين مع المسلمين :

منذ اللحظة الأولى أعلن الايطاليون أنهم سيحمون الإسلام والمسلمين وسيعاملونهم على قدم المساواة مع المسيحيين . وأعلن موسولينى أنه سيضمن لهم السلام والعدل والرفاهية وسيعمل على احترام القوانين الإسلامية(٢) .

ولم يكن مسموحاً للمسلمين فى الحبشة أن يقيموا مساجد جيدة البناء . ولكن الايطاليون صرحوا ببناء مساجد جديدة لهم فى كل مكان يوجد به مسلمون ، سواء كانوا فيه أكثرية أو أقلية . وأعادوا إصلاح وترميم المساجد الموجودة فى المدن الإسلامية القـــديمة مثل مصوع وغيرها من المدن الساحلية ، وفى الحبشة نفسها (الهضبة) قاموا ببناء مسجد أديس أبابا

---

(١) ص ١٣٧ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام .
(٢) نفس الصفحة نفس المرجـــع

الكبير[1] وغير ذلك من المدن مثل سوكوتا ، شلجا ، وبارك ، اسلاجى ، دانجيلا ، بحيرة حيق ، ديسى ، متمة وجوندار ، وكذلك فى هرر ، ديرداوا جيجا ، ميسو ، عصب ، جوبا ، وعدداً آخر فى مقاطعات الجالا وسيداما . ولقد بنيت هذه المساجد من أموال الأوقاف الإسلامية التى أطلق الإيطاليون لها حرية العمل .

وقامت الحكومة بتعيين القضاة الشرعيين لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وأدخل تدريس اللغة العربية فى جميع المدارس التى أنشئت للمسلمين ، واستعملت فى المراسلات الرسمية فى مقاطعات جما وهرر ، وفى جما التى كانت تعتبر مركزاً عظيما من مراكز المسلمين أنشئت كلية (دار العلوم الإسلامية) للتخصص فى الفقه .

وبإمعان النظر فى تلك الإجراءات نجد أنها لا تعدو كونها تصريحاً للمسلمين بمباشرة شئونهم الدينية على نحو كانوا محرومين منه فى السابق ، ومهما وصل من إنشاء فإنه لم يكن ليقارن بما كان لدى المسيحيين من منشئات وكنائس وأديرة .

* * *

ونظرا لما عرف عن المسلمين من نشاط وما تميزوا به فى الحبشة من جد ومثابرة ومدنية وخلق قويم ، فإنهم بعد أن أزاحت عنهم الحكومة الإيطالية عوامل الكبت والظلم والعسف على النحو الذى سبق ذكره ، أنطلقوا من عقالهم كالمارد وملأوا الدنيا عملا ونشاطاً وفى لمح البصر أصبحت تجارة البلاد وزراعتهم ومختلف نواحى النشاط فى أيديهم ، واشترك معهم الايطاليون ومن رأى أن يحذو حذوهم من المسيحيين ولكنهم كانوا قليلى العدد .

* * *

(١) ص ١٢٧ الاسلام فى أثيوبيا — لترمنجهام .

قدمنا أننا لا نوافق على الاستعمار ولا نرضى باعتداء القوى على الضعيف، ولكن من الانصاف أن نقرر مدى ماتحدثه تلك الهزات العنيفة من تأثيرات تنير الأذهان، وتفتح العيون وتدفع الحكام إلى توخى العدل وتهديهم إلى سبل الرشاد. ومن بين ما فعله استعمار الايطالى أن أزاح الظلم عن كاهل المسلمين الذين يشكلون غالبية السكان فى الحبشه. ولقد أراد بعض الكتاب أن يصوروا هذا العمل من جانب إيطاليا على أنه تقرب من المسلمين حتى يستعينوا بهم على توطيد أقدامهم وكسر شوكة مواطنيهم المسيحيين. ومن الواضح أن هذا المنطق لا يقبله عقل أى منصف، فلقد كان أجدى بحكام الحبشة المسيحيين أن يحسنوا معاملة مواطنيهم المسلمين فيكسبوا مودتهم ويضمنوا تعاونهم أمام أى عدو مشترك.

كما أن الإيطاليين لم يفعلوا مع المسلمين شيئاً فوق المألوف. بل أن كل ما فعلوه لهم هو أن سمح لهم بان يرتفعوا إلى نفس المنزلة التى كان عليها المسيحيون وجعلوهم جميعاً على قدم المساواة. فجاء هذا العدل والمساواة إفراجاً عن المسلمين، وليس أدل على ذلك من حب كثير من طوائف الأحباش المسيحيين للايطاليين. فإننا عندما وصلنا إلى الحبشة فى أعقاب إنسحاب الايطاليين منها لمسنا حب أفراد الشعب المسيحى لهم واضحاً، لأنه كان قد خلصهم مما كانوا يلاقونه من ظلم سادتهم، ولم يكونوا يختلفون فى ذلك عن المسلمين، ورأينا كيف أخذ سادة البلاد من ذلك درساً مفيداً لتعديل سياستهم تجاه رعاياهم بعد عودتهم إلى حكم البلاد.

* * *

ولقد كتب الأمير شكيب ارسلان فى هذا الموضوع (١) فى أبان الاحتلال الايطالى يندد بهؤلاء الذين يتباكون على احتلال الحبشة يقول «افلا تذكرتم سلطنة هرر الإسلامية التى أغار عليها منليك الثانى النجاشى السابق ونسف

---

(١) مقدمة كتاب المسلمين فى الحبشة للصحفى الاستاذ تيسير ظبيان الكيلانى.

استقلالها واستحلها وذبح من أهلها خمسة آلاف رجل فى شوارع هرر وضبط أملاك كثير من المسلمين ، وجعل مسجدهم الأعظم كنيسة ، ومنع استعمال اللغة العربية فى هرر التى كانت من أعظم كراسى الاسلام والعروبة، ثم فى أثناء الحرب العامة عاد تفرى هذا (هيلاسلاسى) لحمل على أهالى هرر بتهمة ميلهم إلى ليج ياسو امبراطورهم المسلم السابق ، وذبح منهم عددا عظيما ، وهلا تذكرتم أن مسلمى الحبشة هم نصف سكان تلك المملكة بل يزيدون ، وأنهم مع ذلك محرومون من كل حق فى مناصب الدولة ، وأنه يوجد فى الحبشة عشرات ألوف العبيد أكثرهم مسلمون والباقى منهم وثنيون وأن النجاشى تفرى نفسه كان عنده ألفى عبد من هؤلاء ، أفلا تذكرتم كيف أصدر النجاشى يوحنا سنة ١٨٨٢ أمرا حازما بتنصير جميع مسلمى الحبشة بلا استثناء أو يرحلوا عن البلاد ، فتنصر منهم ألوف ورحل مئات الألوف ، وخرجت مدن اسلامية بتمامها (راجع دائرة المعارف الاسلامية) ، ولم ترجع الحبشة عن تنفيذ أمرها هذا إلا بد أن انتقم دراويش السودان لمسلمى الحبشة وزحفوا صوب هذه المملكة وتلاقوا مع النجاشى يوحنا وقتلوه ، وبعد ذلك رجع المسلمون المتنصرون إلى الاسلام إلا قليلا منهم لبثوا نصارى حرصا على وظائف كانوا قلدوهم أياها ، ونحن وان كنا على نفس المستوى الحماسى للمسلمين فى الحبشة مثل الأمير الجليل شكيب أرسلان إلا أننا لا نتفق معه فى أن يكون حماسنا هذا مبررا للاستعمار . ومهما أصاب الإسلام والمسلمين أثناء الحكم الايطالى من رواج ويقظة فان عقيدتنا التى لا جدال فيها ، أن الايطاليين ما كانوا ليستمروا على حسن معاملتهم للمسلمين ، وإنما هى أمور اقتضتها سياستهم فى فجر استعمارهم للحبشة ، ومن المؤكد أنهم عندما تستقر بهم الأمور كانوا سينكلون بجمع الأهالى مسيحيين ومسلمين على السواء ويجعلوا منهم جميعا عبيدا أرقاء .

القضاء على ايطاليا فى شرق افريقيا :

عندما دخلت ايطاليا الحرب العالمية الثانية فى يونية ١٩٤٠ ، كان لديها ٢٠٠,٠٠٠ جندى فى امبراطوريتها فى شرق افريقيا ، ولم يكن للحلفاء فى هذه المنطقة إلا ٨٥,٠٠٠ جندى فقط موزعين على مساحات واسعة فى شمال افريقية على وجه الخصوص، وكان تسليحها فى ذلك الوقت فى أسوأ حالاته وكانت قوات الحلفاء فى السودان على سبيل المثال لا تملك دبابات أو مدافع بينما كان مالديها من طائرات قليل العدد عتيق الطراز لا يصلح للحرب .

ولقد زادت حالة الحلفاء دقة عندما دخلت ايطاليا الحرب حيث أصبح أسطولها فى البحر الأبيض يجعل تعزيز قوات الحلفاء فى أفريقيا صعبا للغاية وكذلك كان الأسطول البحرى والجوى الايطاليين الموجودين فى البحر الأحمر ومركزها الاريتريا ، يهددان أية محاولة يمكن أن تفكر فيها الحلفاء باستعمال طريق رأس الرجاء الصالح . لذلك كان أمام الحلفاء طريقا واحدا وهو الوصول إلى مناطق الشرق الأوسط عن طريق البصرة — بغداد حيفا ثم الوصول إلى شرق افريقيا عن طريق ممباسا ، وكذلك طريق وادى النيل .

وكانت الجيوش الايطالية المعسكرة فى الاريتريا حسنة الاعداد والتدريب بما فى ذلك وحدات الجنود الوطنيين الذين تعاقبوا على الخدمة العسكرية قرابة نصف قرن من الحكم الايطالى للاريتريا ، أما نظراؤهم من الجنود الوطنيين فى الحبشة فلم يكن فى الامكان الاعتماد عليهم . ولكن بالرغم من أى مركز ممتاز يمكن أن يتحضنوا به ، فقد كانوا معرضين بدورهم للحصار البحرى الذى تفرضه البحرية البريطانية ؛ وبذلك تمكنت بريطانيا من حرمانهم من الامدادات الهامة التى لا يمكنهم الاستغناء عنها واهمها وسائل النقل والبترول وأطارات السيارات .

وبالرغم مما كان يداعب أحلام الايطاليين من نصر ، وامتداد امبراطوريتهم بحيث تشمل مصر والسودان وعدن والصومال البريطانى والصومال الفرنسى

واحتلال بعض المراكز العسكرية فى سوريا ولبنان وشرق الأردن ، فان المسئولين الايطاليين كانوا فى قلق من الدخول مع بريطانيا فى حرب استعمارية ولقد جاء فى سجلات الحرب أن الكونت شيانو قال لهتلر فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ مايلى :

« بالرغم من هدوء الحال فى أثيوبيا واستسلامها للحكم الايطالى ، ماعدا بعض مناطق الحدود التى تثير بريطانيا فيها بعض القلاقل بوسائل الدعاية وتوزيع النقود ، فان هذا الهدوء يبدو ظاهريا . ويكفى لبريطانيا عندما تبدأ معها المعارك - أن تقوم بعض الطائرات البريطانية بإلقاء المنشورات على الحبشة ، تقول فيها أن العالم قد قام يناهض ايطاليا وأن الامبراطور سوف يعود ، حتى تشتعل الثورة بين الأحباش ، ثم لايجوز أن ننسى أنه عند ابتداء المعارك سوف تنعزل الحبشة عن ايطاليا ويصبح مصير ٢٠٠,٠٠٠ جندى ايطالى فى الحبشة مهدداً » .

لذلك لم يكن هناك بد من أن تبادر ايطاليا بانتهاز فرصة ضعف القوات البريطانية وافتقارها إلى المعدات وتستولى على أقصى مايمكنها الاستيلاء عليه من المواقع ، فكما أنها زحفت فى سرعة صوب مصر ، فانها سارعت واحتلت كسلا والقلابات وبعض المناطق فى كينيا فى شهر يولية من عام ١٩٤٠ .

* * *

لم تكن بريطانيا غافلة طوال تلك المدة ، فبرغم أنها كانت تمر بفترة الضعف الشهيرة فى بداية الحرب فانها لم تغفل تعزيز صلاتها بأصدقائها وعملائها داخل أراضى أعدائها ، كذلك كان دور الامبراطور هاما فى هذا المجال ، وقد بدأ ينشط ، وينتهز الفرصة التى واتته بعد بقائه أربعة سنوات فى المنفى ، وكانت مجهودات بريطانيا والامبراطور تدور فى سرية تامة واقتصرت على الاتصالات التى تهيىء الجو للساعة الفاصلة . ولقد لعب (لورنزو تايزاز

Lorenzo Taezaz)(١) دورا هاما فى هذا الاتصالات حيث تمكن من دخول الحبشة والاتصال بأعوانهم وتبليغهم تعليمات الامبراطور . كذلك انتقل إلى القاهرة ليكون على مقربة من مركز الأحداث « الكولونيل ساندفورد » الذى كان صديقا للامبراطور وعاش بالحبشة خمسة عشر عاما ، وأخذ يجمع حوله اللاجئين الأحباش بالقاهرة والقدس والخرطوم وبدأت الحركة بإنشاء أول جماعة انجلو أثيوبية فى الخرطوم وبدأت عملية التدريب العسكرى . وعندما أعلنت ايطاليا الحرب . بدأت فى الحال الاتصالات مع زعماء الأحباش وغادر الامبراطور هيلا سلاسى ورفاقه انجلترا فى طريقهم إلى السودان . وفى ١٢ اغسطس تمكن ساندفورد وفرقته من دخول الحبشة . وفى ٢٥ أكتوبر كان قد أتم اتصاله بزعماء الثوار فى مقاطعة جوجام .

وأثناء التطورات الحربية الأولى ، اضطرت القوات الإيطالية إلى الانسحاب من الأراضى المصرية متكبدة خسائر لم تكن فى الحسبان ، كذلك اضطرت القوات الايطالية إلى الانسحاب من كسلا ومن باقى الحدود السودانية ، وحصنت مواقعها عند حافة الهضبة الحبشية فى الخط بين اجوردات ـ عدوة ـ جوندار . وعندئذ تشجعت القيادة البريطانية ، وشعرت بأن القضاء على الايطاليين أيسر مما كانت تتوقع وأتفقت جميع الآراء على سرعة توجيه الحملات . فصدرت التعليمات للجنرال (بلات Platt) لكى يتعقب الايطاليين حتى اسمرة عاصمة الاريترية ، وإلى الجنرال (كانجهام Cunningham) الذى يقود القوات البريطانية الموجودة فى كينيا بالزحف على الامبراطورية الايطالية مبتدئا بالاستيلاء على قسمايو ليجعل منها الميناء الذى ترتكز فيه البحرية البريطانية لتموين الحملات ، وأن تعمل عقب ذلك

(١) أصبح فيما بعد وزيرا للبريد والبرق والتليفون — وأشتغل معه المؤلف فترة من الوقت ولقد أنعم على لورنزو بلقب رفيع (بلاتنجتا Blatingeta) أى الوزير الأول . ولكنه لم يستمر فى حظوته لدى الامبراطور ، لأنه من أصل تيجرى وليس أمهريا . ولقد كان من القلائل الحاصلين على مؤهلات علمية عالية — حيث قد تلقى تعليمه على يد البعثات التبشيرية التى أوفدته بعد ذلك إلى فرنسا لاتمام تعليمه فى السربون .

مباشرة على قطع الطريق بين مقديشو وأديس أبابا فنقطع بذلك خط التموين الرئيسى للقوات الايطالية فى الحبشة ، وفى نفس الوقت دخل الامبراطور حدود الحبشة فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ومعه عدد كبير من أعوانه المهاجرين الأحباش والفرقة السودانية التى شقت معه طريقة إلى قلب البلاد .

تتابعت الأحداث فى سرعة فائقة ، وسرعان ماسقطت اجوردات وهرب الايطاليين من قسمايو فى الجنوب وتمكن البريطانيون من عبور نهر الجب، وتيسر لهم الاستيلاء على مقديشو ومنها إلى هرر ثم إلى ديرداوا حيث استولوا على الخط الحديدى الوحيد فى بلاد الحبشة ، وبلغ عدد القتلى والجرحى والأسرى من الايطاليين ٥٠٫٠٠٠ جندى . مما حطم الروح المعنوية لدى الإيطاليين .

وكما تقدمت قوات كانتجهام من الجنوب ، كانت قوات الجنرال بلات فى الشمال تذلل الصعاب التى أمامها فوصلت إلى الساحل وأستولت على مصوع ، وبذلك أصبح البحر الأحمر خالصا للحلفاء .

ولجأ الايطاليون إلى آخر أمل فى أيديهم وهو تعين حاكم لمقاطعة جوجام منافس قديم للامبراطور هيلاسلاسى وهو الرأس هايلو(Ras HayloTekla Halmanot) ولكن القوات السودانية والأثيوبية تحت قيادة الكولونيل (ونجت Col.O.C.Wingate) (1) اضطرت القائد الايطالى إلى الانسحاب إلى دبراماركوس . وبالرغم من التفوق الهائل للايطاليين فى العدد والعدة ، فان الفرقة السودانية قد أظهرت من البسالة والتفوق فى حرب العصابات مما تمكنت به من التغلب على الجيش الايطالى ، ولعل موقفهم البطولى فى المعارك بعد مالاقوه من شدة بالغة فى سيرهم من الخرطوم إلى أواسط الحبشة مخترقين أقسى ماعرفته الطبيعة من عقبات وبعد أن ماتت أغلب جمال الحملة ،

---

(1) هذا الضابط هو نجل ونجت المندوب السامى البريطانى على مصر سابقا وهو نفسه الضابط الذى قام بتدريب الفرقة اليهودية فى فلسطين وحارب العرب عام ١٩٤٨ .

لعل هذا الموقف هو أبرز مواقف البطولة فى الحملة الحبشية فى جبهاتها الثلاث .

وسرعان ماسقطت أديس أبابا واستسلمت جميع القوات الإيطالية فى شرق أفريقيا وتمت جميع العمليات الحربية فى آخر نوفمبر سنة ١٩٤١ عندما سقطت آخر معاقلهم فى جوندار [١]

وعاد الامبراطور هيلاسلاسى إلى عرشه فى أديس أبابا للمرة الثانية ودخلها فى ٥ مايو سنة ١٩٤١ .

* * *

(١) الصفحات من ٤١ إلى ٤٩

The middle East in the War
by George Kirk 1939 - 1946

الفصل التاسع عشر

العهد الثانى

للامبراطور هيلاسلاسى

قبل قيـــام الحملات البريطانية لطرد الإيطاليين من شرق أفريقيا ، وإعادة عرش إثيوبيا إلى الامبراطور هيلاسلاسى ؛ حاول الامبراطور أن يعقد اتفاقا مع بريطانيا يحدد فيه العلاقات بينهما بعد النصر ، ولكن الحكومة البريطانية رأت أن هـــذا أمر سابق لأوانه ، ورأت أنه يمكن الاكتفاء بالتصريحات التى أعلنها مستر أيدن وزير خارجية بريطانيا فى ٤ فبراير سنة ١٩٤١ ، والتى قال فيها « أن بريطانيا ترحب بعودة الدولة الأثيوبية المستقلة والاعتراف بحقوق الامبراطور هيلاسلاسى فى العرش ، وأن الحكومة البريطانية تقدر ما أبداه الامبراطور من حاجة بلاده إلى المعونة الخارجية، وترى أن مثل هذه المعونة والتوجيه فى الميادين الاقتصادية والسياسية يجب أن تشملها الاتفاقات الدولية عند عقد الهدنة ، وتؤكد بريطانيا أنه ليس لها أية أطماع إقليمية فى الحبشة ، وأن العمليات العسكرية التى تقوم بها القوات البريطانية سوف تتم بالتفاهم مع الامبراطور ، وينتهى عملها عندما يسمح الموقف بذلك »

وفور عودة الامبراطور إلى عرشه أصبحت الحاجة ماسة إلى سرعة الاتفاق على نظام العمل والعلاقات بين حكومة الحبشة وبين الحكومة البريطانية التى لا زالت جنودها منتشرة فى جميع أنحـــاء البلاد . وبدأت سلسلة من المفاوضات . تقدمت فيها بريطانيا باقتراحات رفضها الامبراطور فى إصرار لما كانت تحتويه من مواد « تجعل بريطانيا ، وصية على الحبشة

وتسلب سلطة الامبراطور وتجعل الحكومة الحبشية تحت السلطة المباشرة للفريق من المستشارين الانجليز الذين يستمدون توجيهاتهم من المقيم البريطانى فى أديس أبابا ، وتعطى بريطانيا حق الإشراف على شئون الحبشة المالية وبذلك تتحكم أيضا فى الطريقة التى تنفق بها المنحة المالية التى ستقدمها بريطانيا .

وبعد إصرار الامبراطور على موقفه تم الاتفاق بينهما فى معاهدة أبرمت فى ٣١ يناير سنة ١٩٤٢ ، على أن تظل سارية المفعول حتى يطلب أحد الطرفين إلغاءها فى أى وقت بعد عامين من أبرامها ، شريطة أخطار الطرف الآخر قبل ذلك بثلاثة شهور .

تعهد الامبراطور فى تلك المعاهدة بأن يسمح للقائد العام للقوات البريطانية فى إفريقية الشرقية باتخاذ ما يراه لازما من الإجراءات العسكرية ضد العدو المشترك . وأن تبقى منطقة (الأوجادين Ogaden) « التى أعلنت الحبشة ضمها إليها فى ١٨٩١ ولكنها لم تتدخل فى حكمها إلى الآن والتى لا يسكنها إلا الصوماليون وصارت منذ ١٩٣٦ جزءا من الصومال الإيطالى» تحت الإرادة البريطانية فى الصومال خلال فترة المعاهدة .

وكذلك للقائد البريطانى — متى رأى ضرورة ذلك — أن يستولى على السكة الحديديه التى تربط أديس أبابا بحدود الصومال الفرنسى ، وأن تحتل شريطا من الأرض قريبا من الحدود الفرنسية بعرض مقدار ٢٥ ميلا يربط بين الأريتريا والصومال[1] .

وتعهدت بريطانيا بأن تقـــدم للحبشة بعثة عسكرية لإعادة تكوين وتدريب الجيش الحبشى وتقوم بتسليحه بما يمكن جمعه من مخالفات الجيش

---

(١) أن هذا الشرط يعيد إلى الأذهان ما سبق أن طالبت به إيطاليا قبل ذلك ورفضته الحبشة فى إصرار وكان من أسبـاب توتر العلاقات بينهما — التى انتهت بالحرب الحبشيـة الإيطالية .

الإيطالى ، وتقدم بريطانيا كذلك مستشارين وموظفين للإدارة الإثيوبية والبوليس والقضاء شريطة ألا يقوم الامبراطور بتعيين مزيد من المستشارين الأجانب إلا بموافقة الحكومة البريطانية .

وتعهدت بريطانيا بأن تقدم معونة مالية سنوية تتناقص بالتدريج ، من مليون جنيه فى السنة الأولى إلى ٢٥٠,٠٠٠ جنيه فى السنة الرابعة . إذا كانت المعاهدة لا تزال سارية المفعول ، أما الأملاك الخاصة للأعداء فى الحبشة فيطابق عليها القانون الدولى وتبذل الحكومة البريطانية جهدها فى أن تعود إلى الحبشة تلك الأملاك العامة التى تكون قد أخذتها إيطاليا[1] .

الخلافات مع انجلترا :

لم يكن من الممكن أن تستمر العلاقات طيبة بين بريطانيا والحبشة . فسرعان ما نشأ الخلاف بينهما وبلغ مبلغاً كبيراً من التعقيد . فقد اصطدمت الأطماع الاستعمارية التقليدية لبريطانيا ، مع الحساسية الشديدة لدى الأحباش وكراهيتهم المعروفة للأجانب وحبهم للحرية والاستقلال .

« ولم يكن الأحباش على استعداد للاعتراف بأى فضل لأحد عليهم ، فليس هذا من دينهم ، وكأن الدور الذى لعبته بريطانيا فى تحريرهم لا يعود فى نظرهم إلا أنه عمل اقتضته مصلحة بريطانيا فى الحرب ومصلحة امبراطوريتها ومستلزماتها الاستراتيجية ، وأن إثيوبيا فى هـــذا الشأن ليست أول دولة ولا آخر دولة تتعرض لمثل هذه الأمور . وهى عند النصر تركز أكبر جانب من الفضل إلى كفاح المواطنين السرى ضد المستعمر . وتقلل من قيمة المساعدات العسكرية التى تحقق النصر الحقيقى بسببها ، ثم إن الأحباش بدأوا يتعمدون أن يعيدوا إلى الأذهان تاريخ الخمسة والعشرين عاما الأولى

---

(١) ص ٥٢ — ٥٤ The Middle East In the War by George Kirk (1939 — 1946)

من القرن الحالى . عندما كانت بريطانيا توجه المشاكل الدبلوماسية ضد الحبشة وتشترك فى معاهدات سرية تمس استقلالها ، وينحون باللائمة على انجلترا أنها لم تقف موقفاً حازماً فى جانب الحبشة عندما تعرضت للغزو الإيطالى، بل كان موقفها فى عصبة الأمم وخارج عصبة الأمم مائعا ، وبالرغم من أن انجلترا قد عاونت الامبراطور بعد ذلك فى خروجه من الحبشة ويسرت له سبيل المعيشة فى منفاه ، فإن كل ذلك لا ينفى أن بريطانيا لم تقدم له ما يكفى لمساعدته فى تلك الأوقات العصيبة التى تعرض فيها للكوارث التى لم يكن لها ما يبررها[1] .

* * *

واقد أقدم الانجليز على تنفيذ (المادة ١٣) من المعاهدة بصورة عجيبة أثارت كوامن النفوس الأثيوبية ، خصوصا وأنهم نفذوها فى سرعة خاطفة قبل أن ينتبه الأحباش لها وقبل أن يتمكنوا من أثارة احتجاجهم وإيقاف الإنجليز عند حدهم ، فلقد نصت هذه المادة على « أن يقوم الامبراطور — وبناء على طلب القائد العام — بتسليم القوات البريطانية الأملاك الخاصة للأعداء — التى يمكن أن تحتاج إليها هذه القوات، تلك الأملاك التى تفيض عن الحاجة المعقولة لأثيوبيا » .

واعتماداً على هذه المادة أسرف الانجليز فى ما استولوا عليه واعتبروه غنيمة حرب وسارعوا بنقل الكميات الهائلة من آلات الورش والمصانع والمولدات الكهربائية وآلات إنشاء الطرق والآلات الزراعية وغير ذلك مما لا حصر له ولا تقتضيه ضرورة الحرب ، ومما كانت تعود على الحبشة بالفوائد الكبرى لو أنها بقيت فى أماكنها واستخدمت فى خدمة البلاد .

بل لقد تعدت ذلك إلى ما هو أدعى للنقد ، إذ أن جميع وسائل النقل

---

(١) ص ٣٩٠ Government of Ethiopia by Perham.

العظيمة التى خلفتها إيطاليا ، استولى البريطانيون على جميع الكميات الصالحة منها وحملت عليها غير ما ذكرناه آنفا — كميات هائلة من أثاث المنازل على اختلاف أنواعه وعمدوا إلى نزع أحواض الغسيل وأحواض الاستحمام ودورات المياه والمصابيح الكهربائية من أماكنها وتحميلها لسيارات الشحن الإيطالية الكبيرة وهى فى رحلتها إلى المستعمرات البريطانية القديمة وعلى الأخص إلى كينيا .

ولقد شاهد كاتب هذه السطور أماكن الأجهزة التليفونية والمعدات البرقية التى نزعها البريطانيون من أماكنها على طول الطرق فى أثيوبيا ، وبذلك أصبح الاتصال بين أديس أبابا وباقى المدن مستحيلا . كذلك عندما كلفت الحكومة الأثيوبية كاتب هذه السطور للذهاب إلى هرر مع أمين عام الوزارة لاستلام الشبكة التليفونية من السلطات البريطانية . وجدنا أن هذه السلطات قد نزعت كل شىء من أماكنه ولم تترك لنا للاستلام إلا خط تافه لا يساوى شيئـــا يربط بين هرر وجيج جيجا (Jigjiga) فى منطقة الأوجادين ، وعند مناقشتنا لأحد الضباط البريطانيين فى هذا الموضوع قال « أن هذه غنيمة حرب . أضف إلى ذلك أننا نستعمر أواسط أفريقيا ما يقارب نصف قرن ولا زلنا نعيش (خارج العاصمة) فى أكواخ، معيشة بدائية،وحان الوقت لأن نتمتع بالمعدات الحديثة والأثاث الفاخر ومظاهر المدنية التى جلبها الإيطاليون الأغبياء » .

وبالرغم من التصريحات والمعاهدات فإنه قد بدا للحكومة الحبشية أن الانجليز يعملون بشتى الوسائل على تثبيت مراكزهم والحصول على الامتيازات بنفس الروح الاستعمارية المألوفة ، فأنه وأن كانت بريطانيا قد عمدت ، بناء على دواعى الحرب ، إلى السيطرة الكاملة على اقتصاديات الحبشة بالتحكم فى صادراتها عن طريق الشركة التجارية للمملكة المتحدة (U.K.C.C.) فإنها كانت تتحمل ذلك على مضض فى نظير أن ظروف الحرب نفسها جعلت حصول الحبشة على كثير من مستلزماتها من الخارج متوقف أيضاً

على ما يمكن أن تسمح لهم بريطانيا به ، وأهم تلك الواردات البترول ومشتقاته ، ولكن سكوتهم هذا كان يغرس فى نفوسهم القلق على مستقبل البلاد .

ومما زاد فى توتر العلاقات ، ازدياد مظاهر النفوذ التى بدت من الإنجليز فى المناطق الشرقية من الحبشة ، خصوصا وأن موقف الحرب العالمى وقتئذ لم يكن يبررها ، بل على العكس فأنه كان يبرر تخفيف قبضة الانجليز ، وتساهلهم فى تطبيق بنود المعاهدة ، ولقد ظهر آنذاك أن الانجليز يزمعون خلق الظروف التى تمكنهم من البقاء فى شرق الحبشة بحيث يجعلونه مكملا وموصلا بين الأريتريا والصومال ، وينشئون عبرة ذلك الطريق المشهور الذى كان الإيطاليون يحاولون إنشاءه فيما مضى . وكانت تقتضى سياسية الإنجليز هذه ، استمرار سيطرتها على منطقة الأوجادين ومنطقة هرر ومنطقة الدناكل والخط الحديدى الذى يمر خلالها بين جيبوتى وأديس أبابا ، وجعلوا من محطة دير داوا مركزاً هاما من المراكز البريطانية .

ويبدو أن الانجليز قد بدأوا يمهدون لذلك بخلق القلاقل والاضطرابات فى تلك المناطق وعلى الأخص منطقة الأوجادين مما يجعل لهم مبررا للبقاء وأحكام السيطرة . ولجأت فى هذا السبيل إلى أثارة القلاقل بين الصوماليين والأحباش ووزعت كثيرا من الأسلحة فى منطقة الأوجادين ، وافتضحت هذه اللعبة عندما أصيب احد الضباط البريطانيين فى تلك المنطقة إصابة استدعت نقله إلى أديس أبابا للعلاج السريع ، ولم يكن من الواضح سبب وجود هذا الضابط هناك .

ولقد قامت الكاتبة البريطانية (سيلفيا بانكهرست Sylvia Pankhurst) صديقة الامبراطور التى أصدرت صحيفة فى بريطانيا للدفاع عن حقوق الحبشة اسمها (New Times and Ethiopian News) قامت بنشر تفاصيل ماسبق ذكره من مؤامرات وأحداث فى عدد ٤ مارس سنة ١٩٤٤ . وأضافت إلى

ما سبق شرحه أن بريطانيا كانت تحضر لعملية استفتاء مزيفة فى تلك المناطق .

ولقد كان لاذاعة هذه الأسرار على تلك الصورة أثرا كبيرا فى بريطانيا مما دعا وزير الاستعلامات البريطانى أن يصرح أمام مجلس العموم فى ١٣ مارس سنة ١٩٤٤ « بأن هذه الجريدة عبارة عن (خرقة مسممة) وبالرغم مما تحافظ عليه بريطانيا من حرية الصحافة فان الحكومة مضطرة إلى مصادرة الجريدة . لأنهما لا تسمح بأن يقوم أى انجليزى بالتشهير على القوات البريطانية التى تخوض ميادين القتال »

ولقد كشفت سليفيا بانكهرست علاوة على ماتقدم . خطة بريطانية تهدف إلى تقسيم السودان وتفصل شماله عن جنوبه ، وإلى ضم الاريتريا إلى شمال السودان فى دولة واحدة متجانسة ـ وطبعا تحت سيطرة بريطانيا وكان مما قالته مس بانكهرست فى مقالها ، « أن الإريتريا بعد أن غادرها الطليان لا يمكن أن تتصرف فيها بريطانيا على هذه الصورة بدون موافقة جهات عديدة ومنها حكومة مصر التى لها الفضل الأول هناك منذ عهد الحكومة الخديوية » .

وعبرت مس بانكهرست عن أعمال بريطانيا تلك ، فى هذين الموضوعين بأنه (خيانة للأمانة Breach of Faith) .

* * *

لكل ماتقدم ـ ولكثير غيره ـ توترت العلاقات بين الامبراطور وبين الحكومة البريطانية أدت إلى قيام الامبراطور فى ٢٥ مايو سنة ١٩٤٤ بأرسال الأخطار الكتابى بالغاء المعاهدة بعد ثلاثة شهور . معبرا عن أمله أن تستبدل بمعاهدة جديدة ، وبدأت مرحلة جديدة من الاتصالات بقيت فيها مسألة أوجادين عقبة كأداء ، فلم يكن الإنجليز على استعداد لتلبية رغبة الامبراطور فى الجلاء عن أوجادين لمسئوليتهم عن سلامة نصف مليون صومالى يعيشون بها ولا يمكن الاطمئنان عليهم تحت حكم الحبشة الذى لم يكن قد استقر بعد.

وبالرغم من كل ذلك فقد توصل الطرفان إلى معاهدة جديدة . تم توقيعها في ١٩ ديسمبر ١٩٤٤ ، تنازلت فيها بريطانيا عن كثير من امتيازاتها في معاهدة ١٩٤٤ فلم يعد الوزير المفوض البريطاني يتقدم باقي الممثلين السياسيين للدول الأخرى ، ولم يعد الامبراطور مضطرا لاستخدام الخبراء البريطانيين أو الرجوع إلى بريطانيا عند حاجته للخبراء ، وأصبح على القوات البريطانية أن تنسحب من الخط الحديدي خلال ثلاثة شهور من قيام الحكومة باتخاذ الاعدادات التي تضمن حسن تشغيل الخط . . . ولكن القيادة البريطانية احتفظت بكامل سلطتها على المناطق بين السكة الحديد وجيج جيجا Jigjiga وكذلك منطقة الأوجادين ، على أن ذلك لا يمس الاعتراف بسيادة الحبشة على تلك المناطق ، وللتعبير عن ذلك يرفع العلم الحبشي دائما بجوار العلم البريطاني على مباني الحكومة في تلك المناطق(١) .

* * *

أعباء الدولة الجديدة :

عندما عاد الامبراطور إلى عاصمة ملكه أعلن أنه سيوجه قصارى جهده إلى إعادة بناء الدولة ونشر التعليم وتدعيم الزراعة والتجارة . ولكن تحقيق هذه الأمور الهامة لم يكن بالأمر الهين في دولة تعرضت لحروب مدة ست سنوات ، ونشطت فيها حرب العصابات وسيطر قطاع الطرق (الشيفتا Shifta) على كثير من أرجاء البلاد ، وعاون على زيادة خطورة الحالة وجود كثير من الأسلحة بأيدي المواطنين الذين حصلوا عليها من الجيش الايطالي المنهزم .

(١) الصفحات من ٣٣١ إلى ٣٧٦ The Middle East in the War by George Kirk (1939-1746).

ملاحظة هامة : مما تقدم يتضح أن مصير الاوجادين كان موضوع مساومه بين بريطانيا والحبشة — لعبت فيه أغراضهما الخاصة شوطا كبيراً — ولم يكن الصوماليون طرفاً في المباحثات ولم تكن لديهم الوسيلة للمطالبة بحقوقهم أو التعبير عن آرائهم ، بان الأوجادين مناطق صومالية بحته من جميع الوجوه .

وكانت الإدارة فى حالة من الاضطراب والفوضى ، لاختفاء التنظيمات القديمة التى كانت تدين لها القبائل بالولاء ، وكذلك لاضطراب المواصلات وصعوبة الحصول على وسائل النقل ، وتعطل جميع النشاط التجارى . مما أدى إلا نقص كبير فى الأغذية والملابس ،

ولقد عانت البلاد خلال محنتها من فقدها لعدد كبير من نخبة أبنائها المتعلمين الذين بذلت الدولة فى سابق عهدها الكثير فى تعليمهم وتدريبهم ، وكانت فى عهدها الجديد أشد ما تكون حاجة إليهم .

وكانت واجبات الدولة الجديدة تحتم عليها مكافأة جنود حرب العصابات، وكذلك كان عليها أن ترضى (الرؤوس) ورؤساء القبائل وتحدد مكانهم بالنسبة للنظام الجديد .

ولم تكن هذه الصعوبات بالأمور الهينة التى يمكن التغلب عليها بين يوم وليلة ، ولذلك يجدر بالمنصف الذى يكتب عن هذا العهد من عهود الحبشة ، أن يقدر ما يمكن أن يتم من أعمال فى مثل هذه الظروف . وقد يكون أقرب إلى العدل أن نقارن بين ما كانت عليه البلاد فى تلك الأوقات وبين ما هى عليه الآن ، أى بعد عشرين سنة فى العهد الثانى للامبراطور هيلاسلاسى .

ومما لاشك فيه أن الامبراطور قد استفاد فائدة كبرى من تلك الدفعة القوية التى دفعها الاحتلال الإيطالى للبلاد ، ولقد ترك لها عند انسحابه كثيراً من الأعمال العمرانية التى لم تكن للبلاد عهد بها فى السابق ولم تكن تحلم بها وأهمها شبكة الطرق والمبانى العامة والتخطيطات الجديدة للمدن ، وما كان على الدولة الجديدة ألا أن تعمل على إعادة ملء الفراغ الذى تركه الإيطاليون ، والمضى قدما فى تنفيذ المشروعات التى كانت قد تركها الطليان جاهزة للتنفيذ كاملة الدراسة فى مختلف نواحى الحياة والنشاط الزراعى والصناعى والعمرانى .

ولم تقصر حكومة الامبراطور فى هذا السبيل ، فأخذت تنشر التعليم وعلى الأخص فى المدن الكبرى ، ثم استعانت بكل ما أتيح لها من مساعدات دولية ومساعدات من الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا . فى المضى فى تنفيذ خططها ومشروعاتها ، فأعادت إلى البلاد رخاء لم يكن لها به عهد فى السابق وغيرت وجه البلاد . وأصبح المستقبل أمامها واضحا يبشر بالخير إذا تيسر لهذه البلاد المزيد من الاستقرار .

* * *

وبالرغم من أن الحوادث السابقة قد فتحت أبواب الحبشة على مصراعيها، وانقضى بذلك عهد العزلة ، وبدأت الحبشة فى الأخذ بأسباب المعيشة الحديثة ، فإن جميع أمور البلاد بقيت مرهونة بسلطة واحدة وهى سلطة الامبراطور الذى يهيمن بنفسه . على جميع مرافق الدولة . حقيقة أن نخبة من الوزراء يعاونونه ولكن فى حدود معلومه ويرجع إليه دائما فى إقرار جميع الأمور .

ولقد عمد الامبراطور مرة ثانية إلى وضع دستور للبلاد . ولكن يبدو أن ذلك الدستور لا يهدف إلا إلى إبراز مظهر خاص يرضى الحكومات الأجنبية ، ويسد ثغرة أمام الهيئات الدولية التى أصبحت الحبشة عضوا عاملا فيها .

فالدستور الذى أعلنه فى ١٩٥٥ لم يغير فى نظام الحكم ، ولم يدخل أى تعديل على نمط الحياة العامة ، وهو بذلك لا يرضى المتعلمين ، أما عامة الشعب فلا تكاد تحس به ولا تعرف له معنى . وبين هؤلاء وهؤلاء فراغ كبير ، لم يحن الوقت بعد لملئه ، ولكنه يشكل خطرا كبيرا على سلامة البلاد واستقرار الأمور فيها . ولعل هذا هو السبب الرئيسى لقيام الثورة الأخيرة التى كانت تهدف إلى الإطاحة بحكم الامبراطور هيلاسلاسى .

* * *

ومن أهم مواد الدستور (١٩٥٥) «أن تظل السلطة الامبراطورية متصلة فى سلالة هيلاسلاسى الأول ، حفيد الملك سهلاسلاسى الذى ينحدر بدون انقطاع من أسرة منليك الأول بن ملكة أثيوبيا ـ ملكة سبأ ـ والملك سليمان ملك القدس . وبفضل دمائه الامبراطورية وما أسبغ الله عليه من بركات فإن شخص الإمبراطور مقـــدس لا منافس لسلطته ولا نزاع فى حكمه . . . وتقع على الامبراطور مسئولية حماية المذهب الارثوذكسى المؤسس على تعاليم القديس مرقس الاسكندرى» .

وباقى مواد الدستور تؤكد سلطة الامبراطور فى حكمة المطلق ، ولو أن مجلس البرلمان قد رسمت لهما الاختصاصات العصرية إلا أن اجتماعهما القصير مرتين فى السنة لا يمكنهما من الاشتراك الفعلى فى نظام الدولة ويجعل الدولة كلها من الجهة العملية فى يد الوزراء ورجال الدولة الذين يعملون مباشرة تحت أوامر الامبراطور ، ومما يجعل من البرلمان صورة رمزية ، وأن الانتخابات المفروضة لمجلس النواب تتم بصعوبة لعدم إقبال الناس على التصويت لعديد من الأسباب أهمها التخلف . وأما مجلس الشيوخ فجميع أعضائه يعينهم الامبراطور .

* * *

حالة المسلمين فى العهد الثانى للامبراطور هيلاسلاسى :

سبق أن تكلمنا عن حالة المسلمين فى عهد هيلاسلاسى فى الفصل السابع عشر عند الكلام عن عهده الأول ، أما ونحن نتكلم عن عهده الثانى . فإن أشياء كثيرة قد تغيرت بين العهدين وكان منها انتعاش المسلمين بفضل سياسة المساواة التى اتبعها الطليان فلقد وجد المسلمون فى هذه المساواة فرصة نادرة للانطلاق حتى أصبح عماد البلاد متوقف عليهم ، لكثرة عددهم ونشاطهم وإقبالهم على الزراعة والتجارة والصناعة الناشئة .

ولكن ما أن عاد الامبراطور إلى الحكم مرة أخرى . حتى أخذ يعمل هدوء وبراعة لكي يعيد المسلمين إلى ما كانوا عليه فى السابق من حرمان إهمال وظلم . ويرخى عليهم ستارا كثيفا من النسيان ، يحجبهم عن العالم يحجب العالم عنهم .

أن كاتب هذه السطور تشرف بمعرفة الامبراطور وقابله عدة مرات راقبه وراقب أعماله عن كثب واستمر يتتبعها فى عناية مدة عشرين عاما ، لا يتمالك من أن يعبر عن إعجابه بشخصية الامبراطور وقدرته العجيبة لى معالجة الأمور وصبره وجلده وتفانيه فى خدمة بلاده الأمر الذى يثير عجاب العالم . خصوصا وقد أوشك حكمه أن يصل إلى نصف قرن من زمان ، الأمر الذى لم يتأت فى تاريخ العالم إلا للقلائل النادرين . وخلال ذا العهد الطويل تعرض للعديد من المشاكل العاتية ، كان تصرفه خلالها ثار الإعجاب لعمله الدائب فى خدمة بلاده .

ومهما وجهت إليه من انتقادات ـ خصوصا من شباب أثيوبيا المثقف ـ عن دكتاتوريته ووسائله العتيقة فى الحكم ـ فإنه مما لا شك فيه قد قفز بالبلاد إلى الإمام خطوات واسعة واستفاد بجميع الفرص التى صادفته أحسن فائدة .

ومما يؤسف له أن الامبراطور استعمل هذا الدهاء النادر والخبرة التى لا تجارى فى محاربة المسلمين والإسلام . واستعمل نفس الخبرة فى حجب أخبار المسلمين فى بلاده عن العالم الخارجى فى الوقت الذى يعمل فيه على إظهار نفسه بمظهر الحاكم المتسامح ـ بل المفرط فى تسامحه ، وعاونته على ذلك أجهزة الإعلام الغربية التى تسيطر على إعلام للعالم . حتى أصبح من المستحيل على من ليست له دراية بتلك البلاد معرفة الحقيقة ، ولا يمكنه الاعتماد على القراءة أو الاطلاع التى تسيطر عليها وسائل الإعلام الزائفة . ولم يعد هناك سبيل للاطلاع على الأمور ومعرفة الأوضاع الصحيحة إلا

بزيارة تلك البلاد والمرور خلالها والبقاء بها باحثا منقبا ، وهذا هو الذى أتاحته الظروف للمؤلف فأصبح عليه دينا لا بد من آدائه وهو تأليف هذا الكتاب .

* * *

سلاح رهيب يتقنه الأحباش ويتفوق فيه الامبراطور هيلاسلاسى ، وهو سلاح الإهمال والصبر والنسيان - يسددوه إلى المسلمين - فسرعان ما فقدوا جميع ما كسبوه فى عهد المساواة الذى ساد فى عهد الطليان . وعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وأصبح محرما على المسلم مرة أخرى — تولى الوظائف أو الالتحاق بالجيش أو الخدمة بالشرطة أو التمتع بوسائل التعليم الحديثة ، التى تعنى الدولة بها غاية العناية وتنفق عليها جانب هاما من أموال الدولة - الذى تحصل على أغلبه من الضرائب التى يدفعها المسلمون ، وأنك لا تجد مسلما موفدا فى بعثة من تلك البعثات التى تعلق الدولة عليها آمالها للمستقبل . وإذا أراد المسلمون أن يعلموا أبناءهم فعليهم أن يكتتبوا فيما بينهم ويفتحوا المدارس الأولية وربما الابتدائية التى تفتقر إلى جميع مقومات التعليم الحديث ، ثم هم بعد التخرج منها ليست أمامهم الفرص للاستمرار فى العلم ، اللهم إلا ما تسمح به الحكومة لبعض الطلبة القلائل الذين يلتحقون بالأزهر الشريف فى القاهرة ، لكى يتقلدوا بعد عودتهم الوظائف الوحيدة المفتوحة فى الدولة للمسلمين وهى التى تتعلق بشئون الدين والشريعة الإسلامية وهى فى أضيق الحدود .

* * *

ليست هناك جدوى من ذكر المزيد من التفاصيل فهذا أمر يطول شرحه ، وكل ما يمكن أن نضيفه هو أن ما يمكن أن يتصوره القارىء من وسائل الظلم والإهمال وسوء المعاملة يجده مطبقا على أسوأ حالاته - ولكن فى هدوء وبرود وبراءة ، والوضع السائد فى الحبشة هو طبقة متميزة

حاكمة تتألف من المسيحيين ، فمنها الحكام والموظفون فى جميع الدرجات، ومنها الجيش والشرطة ورجال الأمن . وقليل منهم يعملون فى الزراعة والباقون لازالوا يعيشون فى حالة مذهلة من التخلف والبداوة ، تبذل الحكومة أقصى جهدها لرفع شأنهم وتخصهم بعنايتها حتى تغير من أحوالهم من أقصر وقت حتى تزداد قوة المسيحيين تمكنا وثباتا . هذا بالإضافة إلى رجال الكنيسة الذين يبلغ عددهم حوالى ½ عدد المسيحيين ويعيشون على موارد ثلث أراضى الحبشة الموقوفة عليهم .

أما الطبقة الأخرى فهى من المسلمين الذين هم غالبية أهل البلاد وتتكون منهم الطبقة المحكومة ، تطبق عليهم أساليب التفرقة التى سادت منذ أقصى عصور التاريخ وكذلك فى العصور الوسطى من تقسيم الشعب إلى سادة وعبيد ، فالمسيحيون هم السادة والمسلمون هم العبيد . عليهم حراثة الأرض ومزاولة الحرف والتجارة ودفع عجلة الحياة فى البلاد ، تسوقهم الطبقة الحاكمة إلى ذلك سوقا ، وتجبى منهم الضرائب والعشور وتفرض عليهم أداءها عدة مرات كلما شاء لحكام المناطق ورجال الأمن الحصول على المزيد من هؤلاء المسلمين ومجهوداتهم ، تمتلىء منهم خزائن الدولة وتمتلى جيوب الحكام . ثم بعد ذلك كله يحرم المسلمون من التمتع بحقوقهم كمواطنين . بل تطبق عليهم قوانين مستورة تكسر من شوكتهم وتحيطهم بسياج لا يمكن تخطيه ، وتضغط عليهم للبقاء فى أوضاعهم بحيث لا يتمكنون من أن تقوم لهم قائمة .

ومن أهم الأسباب التى تدفع الحكام المسيحيين إلى الامعان فى الضغط والظلم وتضييق الخناق على المسلمين معرفتهم التامة بالحقيقة الخافية عن العالم، وهى ان المسلمين أصبحوا غالبية بين أهل البلاد ويتميزون بصفات لا تتوفر لدى المسيحيين ، ولقد أجمع جميع الكتاب والمؤرخون والرحالة الأجانب ، على أن المسلمين يتميزون بالنشاط والذكاء والدأب على العمل ، ويعرفون

بنظافتهم وتفوقهم فى مجال المدنية وتفتح الذهن والاستعداد الطبيعى لسرعة التقدم إذا أتيحت لهم سبل العلم والمعرفة ، لذلك اتفقت كلمة الحكام الأحباش على الأمعان فى إصرار وعناد على ما يفرضونه على المسلمين من حرمان وإهمال .

ويعلم الحكام أيضا ـ من حوادث تاريخهم القريب إلى الأذهان — أن المسلمين إذ تجمعت كلمتهم أصبحوا خطرا لاقبل لهم بمواجهته ـ لذلك يعتمد الحكام فى استمرار الوضع الراهن بتقطيع أوصال المسلمين والمقاطعات الإسلامية ومحاربة كل بادرة من بوادر الاتصال بينهم ، بل يعمد المسئولون على إثارة الخلافات القبلية والطائفية والعنصرية بين المسلمين ويعملون على توسيع أسباب الشقاق والخلاف بينهم . والحكام فى هذا السبيل لا يعدمون الوسائل المتعددة فهم يضاربون فريقا بفريق ويشترون ذمم بعض ضعاف النفوس ويختصون بوظائف الأئمة وقضاة الشريعة من يدين لهم بالطاعة والولاء ، وإذا لمسوا من أى مسلم نزعة إلى التحرر أو الاحتجاج نزلت به أقسى أنواع المعاملة ، من تشريد وحرمان وسجن ، ثم اغتيال إذا استدعى الأمر ذلك ، وهذا هو الواجب الأول على الحكام الذين يعينهم الامبراطور على مختلف مقاطعات الدولة .

* * *

الحالة الداخلية :

لاشك فى أن عهد الامبراطور هيلاسلاسى هو أعظم العهود التى مرت بالحبشة ، ولعله قد تفوق على الأباطرة العظـــام الذين سبقوه وهم زرء يعقوب ـ ويوحنا — ومنليك — والإمام أحمد الأشول ، ولاشك أيضاً فى أن العوامل التى جعلت عهده أعظم تلك العهود لم تتيسر لمن سبقه ، فليس أمراً هيناً أن يبقى ملك على عرشه خمسين عاماً . جاءت كلها فى عصر تقفز فيه المدنية فى قوة إلى آفاق بعيدة ، ولقد لقى من معونة الدول الأوربية ما كان

له الفضل الكبير الذى لا يمكن أنكاره ، أما ما تعرض له من محنة باحتلال الإيطاليين للحبشة مدة خمسة سنوات خلال عهده الطويل فإنه انتهى بنعمة الاستقلال مرة أخرى بعد أن هز البلاد هزة كبرى أفاقتها من نومها الطويل ، وفتحت عيونها على مدنية وحضارة لم تعدها ، وأدخلت من وسائل التقدم والعمران مالم تكن الحبشة بقادرة عليه فى عشرات السنين .

ولكن الجوانب المظلمة فى تاريخ الامبراطور هيلاسلاسى لا يمكن إغفالها . ولقد ذكرنا آنفا أشد أعماله ظلاماً وظلما بمعاملته للمسلمين .

وليس من الممكن لأى حاكم أن يقترف مثل تلك المظالم إلا إذا تمسك بالحكم المطلق والسيطرة الفردية الكاملة واتبع الأساليب الدكتاتورية إلى أبعد مدى. وهذا هو ما يفعلة الامبراطور رغم مايظهره أمام العالم من دساتير وبرلمانات ووزراء وهيئات قضائية ودستورية فجميعها عبارة عن واجهات براقة يعنى الامبراطور بأبرازها فى تمثيلية رائعة تتكرر فى كل مناسبة، لذلك لا نجد فى تلك البلاد أى شأن للصحافة أو التنظيمات السياسية أو الشعبية على أى صورة من الصور ، ولا الجمعيات أو النقابات أو النشاط التعاونى .

وكشأن أى نظام من الحكم يقوم على هذا النمط ، فإن الغلبة فيه دائما للقادر — والغنى ، أما أفراد الشعب الفقراء فمغلوب على أمرهم دائماً لا يكاد يعرفون لهم حقوقاً لذلك برزت النظم الإقطاعية وازدادت قوتها وسيطرتها ، وتتركز أهم مظاهر الإقطاع فى الكنيسة التى عادت إلى سابق عهدها بعد رحيل الطليان ، وعادت لتملك ثلث أراضى الدولة . ولتدعيم قوتها المادية التى تمكنها من تأييد النفوذ الروحى والتعاون فى تنفيذ السياسة المرسومة لاستمرار سيطرة المسيحيين وتثبيت نفوذهم .

* * *

وبالرغم من مجهودات يوحنا ومنليك التى اختتمت بعهد هيلاسلاسى الطويل ، فى السيطرة التامة على البلاد فإن الجميع قد عجزوا تماماً على توحيد

البلاد الحقيق . فالدولة وحدة واحـــدة تحت الضغط والسيطرة والحكم المطلق ، ولكنها فى الواقع لازالت مقسمة تقسيا عنيفاً بين مختلف العناصر التى تتألف منها الحشة منذ أقدم العصور . يتعصب كل فريق منهم لجنسه ولغته ودينه ومنطقته . ويتربص لاقتناص الفرص التى تعيد إليه استقلاله وتحرره من سلطة العنصر الأمهرى الذى لا يمثل غالبية المسيحيين بل أن قبائل التيجرى تفوقه عدداً ، وكثيرا ما رفعت لواء الثورة. وليست ثورتهم فى ١٩٤٤ ببعيدة . تلك الثورة التى كاد أن يكتب لها النجاح ، وكادت تمزق البلاد مرة أخرى على النمط التقليدى للتاريخ الحبشى .

ثم أن قبائل الجالا الكبيرة التى تشكل نصف السكان وغالبيتها من المسلمين لا يمكن أن تبقى ساكنة إلى الأبد . كل ما هناك أنها موزعة على عدد كبير من المناطق ولا توجد بينها روابط تجمع كلمتهم ، وتعمل الحكومة على منع إيجاد تلك الروابط كما قدمنا .

ولا ننسى فى هذا الاستعراض للعوامل الداخلية ـ ذكر القبائل الصومالية التى لا يمكن أن يكون لها رابط مع الدولة الحاكمة ، وكذلك قبائل البيجا ، والاريتريا التى أضيفت إلى الاتحاد وهى أيضا أبعد ما تكون صلة بالحكام الحاليين عنصراً ولغة وثقافة ودينا . وسوف نفرد لهـــا بابا خاصا بها لأهميتها .

ومن الواضح أن عناصر الفرقة والانقسام باقية كما هى ولكنها كامنة تترقب الفرصة المواتية للانطلاق .

وبالرغم من الوسائل الحديثة التى أتيحت للحكومة فى العصر الحديث فإنها لم تتمكن إلى الآن من التغلب على التخلف العجيب الذى يسيطر على مناطق شاسعة من أقاليم الحبشة والحياة البدائية التى تسيطر عليها شريعة الغاب . ولا تكاد تجد فيها أثرا للقانون والنظام . فإن الخواص المعلومة عن بلاد الحبشة اختفاء سلطة الحكومة وإدارتها المنظمة كلما ابتعدت عن العاصمة .

أو مراكز المقاطعات ، لذلك كان حفظ الأمن والسيطرة على البلاد قائما على الحملات التى يقوم بها الأمبراطور والحكام فى فترات منتظمة كل عام ، يزورون فيها مختلف المناطق يؤدبون فيها العصاة ويشنقون بعض المشاغبين ويوزعون العطايا ويقيمون المآدب . عملية مستمرة تتكرر كل عام تذكرنا بما كان يتبعه الاباطرة السابقون من اضطرارهم للتجول مع قواتهم خلال البلاد حتى تستقر لهم الأمور . مما يثبت أن حالة البلاد لا زالت على ما هى عليه من قديم الأزمان من فرقة وانقسام ، والاستعداد الدائم لنبذ سلطة الدولة والتخلص منها متى تهيأت الظروف .

* * *

ولعل من أدق ما كتب من وصف لحقيقة الحبشة فى الوقت الحاضر هو ما كتبه (أرنسيت لوثر Ethiopia Today P 1 الصادر فى ١٩٥٨) حيث يقول « أن أثيوبيا بلاد متناهية فى التباين والتنافر ، فى طبيعتها ، وجوها ، وطوائف شعبها ، ولغتها ، وعاداتها ، فهى تتألف من كتل تبلغ الخلافات بينها حد العداوة بين قبائلها وأجناسها . ولم تحتوها حدود واحدة إلا فى بداية القرن العشرين ، ولقد كتب عنها أحد الكتاب . أنها بلاد يسيطر عليها ماضيها البعيد ويتحكم فيها بقوة يصعب تفسيرها ، وتعيش هذه الدولة خلف قناع كثيف يحيط بعاصمتها أديس أبابا ، فإن هذه المدينة — نصف المتمدنة — لا تمثل إثيوبيا . فإن خارج العاصمة وكذلك خارج بعض المدن الأخرى ، تسير حياة الشعب على نفس النمط الذى كانت عليه خلال القرون الطويلة الماضية — فى بطء وتثاقل — لا يكاد يشعر الشعب بكيانه أو بعلاقته مع الدولة » .

* * *

لهذا الاختلاف بين الأقاليم والمقاطعات فى الدين واللغة والأصل والعادات تجد البلاد فى حقيقة أمرها ممزقة متنافرة يتربص كل فريق منها بالآخر ، لا تجمعهم آمال واحدة أو أصل واحد ، لذلك كان أصرارنا على

استعمال اسم الحبشة فى جميع أنحاء الكتاب ، فهو الإسم القديم الصادق . وبالرغم من الاسم الذى اختارته الدولة نفسها وهو (إثيوبيا) فى عهدها الأخير . فإن الاسم الأول الذى عرفت به فى أغلب عصورها هو الذى يعبر أحسن تعبير وأصدقه على حالة البلاد وطبيعتها ، ولا نعتقد أنه سوف يتغير حالهم أو يتحسن عن ذلك لأجيال طويلة مقبلة .

* * *

مرة أخرى بالرغم من وجود الامبراطور على العرش خمسين سنة فان البلاد لازالت ترزخ تحت الجهل والتخلف فلم تتجاوز نسبة التعلم فى البلاد عن ٥ ٪ . ولازالت الأنظمة والتقاليد العتيقة والخرافات تتحكم فى البلاد وكذلك لاتزال تسيطر على البلاد التكتلات القبلية والنزعات التى تعزز الانعزال والانطواء على النفس .

ومن أبشع المظاهر التى تعمل على تأخر الشعب (المسيحى) سيطرة الجهل الذى يتحكم به رجال الكنيسة فى الشعب . فالكنيسة وهى تملك ثلث أراضى البلاد تضم إليها من رجال الدين مايعادل ٢٠ ٪ من الذكور (أى مايزيد عن ثلث السكان المسيحيين) وغنى عن البيان أن هذا العدد الهائل من رجال الدين يعمهون فى مدارك الجهل والخرافات ، لحرمانهم من التعليم ، وهم يسترزقون من مهنتهم تلك على حساب الشعب البسيط ، ويشكلون بذلك نسبة عالية من المتعطلين الذين لايقتصر ضررهم على بطالتهم ، بل يتعداها إلى مايفرضونه من سلطان روحى متخلف على باقى أفراد الشعب .

* * *

جانب آخر شديد الخطورة فى الحبشة . وهو الحالة الصحية المنهارة التى يصطدم بها كل من زار الحبشة . فانتشار الأمراض الفتاكة يعصف بالأهالى عصفا ، وخصوصا الأمراض التناسلية التى تجد ضحاياها بالآلاف يجوبون

الشوارع ويتجمعون حول الكنائس وعلى الأرصفة يستعرضون مظاهر أمراضهم الخبيثة لأعين المارة ويستنجدون ببركات القديسين لشفائهم من تلك الأمراض وخلاصهم من الآلام .

وبالرغم مما تنشئه الحكومة من مستشفيات وعيادات فانها لاتتكافأ مع مايتسابق معها من انتشار فى الأمراض ، ثم أن ماتنشئه الدولة من وسائل الرعاية الصحية قاصر على المدن الكبيرة ، بينما تبقى جميع المناطق الأخرى خالية من العلاج والوقاية ، تتحكم فيهـــا أساليب الشعوذة والخرافات .

* * *

أما عن الحالة الاجتماعية ، فان الحكومة لازالت عاجزة عن محاربة الفوضى الضاربة فى كيان العائلة . فان الزواج الحقيقى غير معروف لدى السكان المسيحيين ، وأخف مايمكن أن يقال عنهم هو تفشى تعدد الزوجات بينهم ، بينما يحرم عليهم الدين المسيحى ذلك ، ولكن الأهم من ذلك هو عدم وجود الروابط الزوجية على النمط المعروف عند باقى شعوب العالم ، وانفصام عرى الزوجية بأيسر الوسائل وكذلك إتمام الزواج بأيسر منها . بحيث يمكن أن يقال بشىء كبير من الصدق والدقة أن الزواج السائد فى البلاد هو زواج المتعة . ولذلك تنتقل الزوجة من كنف زوج إلى آخر فى يسر وبدون شكليات فيختلط الأمر بين الأبناء . ويضطر الناس إلى نسبة الأولاد إلى أمهاتهم فى حالات كثيرة .

* * *

ولم يكن للكنيسة أثر فى تحسين هذه الحالة التى تزيد فى تمزيق الروابط فى البلاد . مع أن ذلك أهم ما يمكن أن يكون للكنيسة من عمل وواجب وبالرغم مما بذلته من مجهودات فإنها لم توفق فى أغراء الشعب على عقد الزواج أمامها ، واقتصر عملها فى هذا السبيل على زواج أبناء وأعضاء

الطبقة الراقية والعائلات الكبيرة التي تعتبر الزواج أمام الكنيسة من مظاهر أهميتها وسلطانها .

* * *

« وأنه مما يدعو إلى الأسف الشديد أن يكون الخلق السائد في البلاد هو الرياء ومداهنة الامبراطور ـ حيث تقوم نظم الادارة وتسلسل السلطات على أساس هذا الرياء ـ والمداهنات في جميع المستويات ، ولا يمكن لأحد أن يأمل في تقدم أو ترق إلا عن طريق الحظوه لدى الامبراطور ، لذلك تسود جميع الموظفين ـ من الوزير إلى الموظف الصغير ـ روح الحرص والمحافظة على المركز والقلق على النفس ، مما أشاع بين الجميع خصال الكيد والتفنن في تدبير المؤامرات ، كل منهم ضد الآخرين ، ويعم جميع الموظفين شعور دائم من الخوف من بطش الرؤساء ونزواتهم » .

« وطالما استمرت سلطة الامبراطور على هذه الصورة ، فان الأمل قليل في قيام حكومة ديمقراطية ، وعلى ذلك سيبقى الدستور عبارة عن سطور ميتة ، ويظل استقلال القضاء خيالا لا حقيقة فيه ولا أمل في تحقيقه ، وكذلك بالنسبة للحريات ، والتعبير عن الآراء السياسية ، فان كل ذلك سوف يبقى أملا بعيد المنال ، أقرب إلى الخيال والأحلام »(١)

* * *

محاولة انقلاب :

كل ذلك يحدث في البلاد أمام أعين طبقة جديدة من أبنائها ، أتيحت لهم ظروف التعليم والسفر في بعثات ومهام رسمية ، وكذلك أبناء البلاد الذين هاجروا خلال الحكم الايطالي وعاشوا في المنفى في دول تتمتع بمختلف أساليب الحكم الحديث ، وأطلعوا على العلاقات الاجتماعية والانسانية ،

---

(١) ص ١٥٠ ـ (أثيوبيا في الوقت الحاضر) تأليف ارنست لوثر (١٩٥٨)

والحريات التى تنعم بها الشعوب ، ومساهمتها الفعلية مع الحكام فى إدارة شئون الدولة . وغير ذلك من مظاهر المدنية التى تفتقر إليها بلادهم .

ولهذا كان من المتوقع أن يتحرك هؤلاء المثقفون محاولين القيام بتغيير جذرى فى البلاد وتطبيق النظم الثورية العاجلة ، لبناء المجتمع على الأسس العصرية ، شأنها شأن جيرانها من دول افريقية التى نالت استقلالها أخيرا، وكيف يتأتى ذلك وعلى رأس الدولة امبراطور يعاونه فريق من الوزراء والحكام الذين يحكمون البلاد بعقلية القرون الوسطى . فلابد اذن من تدبير انقلاب ، وكذلك فوجىء العالم بانقلاب ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٠ .

* * *

كان الإمبراطور فى زيارة رسمية إلى البرازيل فانتهز المتآمرون الفرصة وقاموا بانقلابهم . وكان من بينهم عدد من رجال الحكم الذين حازوا ثقة الامبراطور ، ووضعوا على رأسهم ولى العهد الأمير (أصفاوصن) الذى ألقى بيانا على الشعب يقول فيه ... « أن القوانين والأنظمة التى وضعت لم تحقق للشعب آماله بل استغلت لحرمان الشعب من حرياته فى سبيل حصول الأقلية الحاكمة المستغلة على الثروة والسلطة وأن انتظار الشعب الطويل لم يحقق له شيئا غير الاضطهاد والفقر والجهل ، ولم تعد تخفى على الناس حقيقة الوعود الجوفاء ، وأصبح الشعب يتطلع إلى إجراءات إيجابية تحقق له أرتفاع مستوى معيشته ، وأصبح ينظر إلى مايحدث فى الشعوب الأفريقية المجاورة متمنيا أن ينال مانالته تلك الشعوب من عناية ، وأن يسير فى نفس الطريق الذى يحقق لها التقدم المضطرد »... وأعلن رجال الانقلاب عزمهم على « القضاء على نظام الحكم المطلق الذى يعتمد على الظلم والاضطهاد وحرمان الشعب من حرياته وحقوقه ، وكذلك عزمهم على القضاء على النظام الأقطاعى ، والقضاء على تلك الأقلية من ذوى السلطان الذين ينفردون بالثروة القومية ويتحكمون فيها ، وكذلك العمل السريع الجدى لرفع مستوى

المعيشة ومحاربة الجهل والمرض ، وبذل الجهد فى سرعة تنفيذ المشروعات الحيوية فى البلاد .

وسرعان ماتبين أن الانقلاب لقى تأييداً من فريق من القوات المسلحة والشباب المثقف وجانب من رجال الأمن . وكان قيام الانقلاب مثار الدهشة لدى جميع من يعلمون حقائق الأمور بالحبشة . لأنه لا يمكن أن يتهيأ اجماع أو تأييد حقيقى يعتمد عليه فى بلاد تسود فيها العوامل التى سبق أن شرحناها فى أسهاب ، وسرعان ماتكشفت الحقائق وعلم العالم أجمع للمرة الأولى كيف تتكون عناصر الدولة الحبشية وكيف تتنافر بعضها مع بعض . وكيف يمكن للعناصر الرجعية أن تستغل عوامل الفرقة والانقسام فى البلاد ، وكيف يمكنها استغلال السلبية التى تعم جميع المناطق ، وبدا كل ذلك واضحا للعالم أجمع عندما رجع الأمبراطور إلى اسمرة بالطائرة واستقبله صهرة حاكم الأقليم ومن هناك سافر بالطائرة إلى أديس أبابا وذهب إلى قصره كأنما لم يكن هناك أى انقلاب ، فقد قضت القوات الموالية للامبراطور على القوات التقدمية التى قامت بالانقلاب والتى مافتئت أن اكتشفت أن المؤيدين الحقيقيين للثورة قليلون ، أما باقى عناصر الدولة ، فانها وأن كانت متحمسة ، إلا أنها اقتصرت على مراقبة الحوادث كأنما تشاهد تمثيلية تمثل أمامها . وسرعان ماقدم الثائرون ولاءهم لامبراطورهم وقبلوا الأرض بين أقدامه ، وعلى رأسهم ولى العهد ـ الذى أعلن أنه برىء من الانقلاب ، وأن الثوار سيطروا عليه واضطروه للوقوف هذا الموقف ضد والده تحت التهديد .

* * *

لقد كان اخفاق هذا الانقلاب دليلا على كثير من الأمور ، فإن الذين قاموا به هم فئة من المتعلمين المثقفين المتحمسين ـ وغالبيتهم الكبرى من القبائل الامهرية التى تحكم البلاد ، فلا ينتظر أن تلقى حركتهم تأييداً من قبائل التيجرى التى تفوقها فى العدد ، وتحمل الضغينة وتترقب الفرصة التى يعود إليها حكم البلاد .

ونصف البلاد من المسلمين ويزيدون . وهم فى نفس الوقت يعلمون جد العلم أن تلك الطبقة الجديدة من المثقفين لاتقل عن الطبقة القديمة تعصبا ضد المسلمين ، فان الطبقة الجديدة هى التى أعدها الامبراطور وأنفق عليها لكى تتعلم وتتثقف وتشغل وظائف الدولة ، ويتركز فى أيديها مستقبل البلاد ليقطع بهم الطريق على المسلمين ، ويستعملهم للامعان فى كبتهم وإذلالهم ، ويعلم أفراد هذه الطبقة الجديدة أن بقاءهم فى سيطرتهم على البلاد مرهون بتنفيذ هذه السياسة واستعمال معلوماتهم الجديدة وثقافتهم الحديثة فى التفنن فيها ، بقدر مايستعملونها للاسراع فى الأخذ بيد أبناء عنصرهم المتخلفين ، ليزدادوا بهم قوة على قوة ، وترسخ أقدامهم فى حكم البلاد . لذلك رأى المسلمون أن الطبقة الجديدة بالنسبة لهم امتداد للحكم القديم ، وبذلك لم نسمع اسما واحدا من أسماء المسلمين فى الحركة الانقلابية أو فى الحركة المضادة التى قضت على الانقلاب ، وأخيرا وليس آخرا فعدد المتعلمين فى جميع أنحاء البلاد لايتجاوز الخمسة فى المائة والباقى وهم ٩٥ ٪ تسيطر عليهم الأمية والتخلف وتتحكم فيهم النزعات البدائية والخرافات ، ولاشأن لهم بالحركات التقدمية .

* * *

كل ذلك يدل على أن الانقلاب جاء سابقا لأوانه ، ولم تجهز له عوامل النجاح الكافية بمحاولة ضم بعض الصفوف الأخرى إليه ، ولكن من الوجهة السياسية فان الانقلاب قد نجح فى أظهار الصورة الحقيقية للبلاد . وبدأ الناس يعلمون فى خارج الحبشة عن تعدد العناصر التى تتكون منها الدولة ووجود التنافر والفرقة بينها وزوال الروابط التى تشد أركان الدولة إلى بعضها ، ونجح الانقلاب أيضا فى إظهار مدى مايتغلغل فى البلاد من تخلف وجهل ، ومدى مايموج فيه عامة الشعب من فقر ، وماتتمتع به بعض العناصر المقربة من ثروة ونفوذ — وهى أوضاع لايمكن أن تبقى على هذه الصورة فى عالم

يتغير بسرعة فائقة فى ظل مبادىء العدل والمساواة ، والتقدم الاجتماعى والعلمى والثقافى والتكنولوجى .

* * *

ولكى تكتمل الصورة لدى القارىء . لابد لنا من الكلام قليلا عن ولى العهد الأمير (أصفا وصن Asfa Wassen) الذى وضعه الثوار على رأس الحركة فان هذا الأمير الذى ولد فى عام ١٩١٦ وتلقى جانبا لابأس به من العلم فى الحبشة ثم فى جامعة ليفربول ، على جانب كبير من الطيبة والهدوء والسماحة . وهى صفات يعتقد بعض الأحباش وعلى رأسهم الامبراطور أنها لاتبشر بامكان احتفاظه بالأوضاع الراهنة وبسيطرة الطبقات الحاكمة الحالية على البلاد عندما يصبح امبراطورا . علما بأن صفاته تلك قد تكون هى الأمل الوحيد فى نقل البلاد إلى عهد جديد من الديمقراطية تتمتع فيها جميع الطوائف بما تستحقه من حريات .

بل أن الامبراطور هيلاسلاسى يؤمن إيمانا قاطعا بأن ولى عهده غير كفء للاستمرار فى تنفيذ سياسته . وتأصلت فكرة الامبراطور عن ولى العهد عندما بدأ يشب وتظهر عليه تلك الصفات التى اكتسبها عن والدته ، وتعلقه بها ، وتقليده لها فى حبه لرعاياه من العناصر الأخرى سواء كانوا من قبائل التيجرى أو من المسلمين . لذلك بدأ الامبراطور يشعر بالخطر على الوضع العام بعد وفاته فعمل كثيرا على التخلص من ولى العهد ، حتى لقد شاع أنه أرسله على رأس القوة الحبشية عام ١٩٤٤ لاحباط ثورة التيجرى لكى يقضى عليه فى المعارك .

وفى نفس الوقت كان الامبراطور يتوسم فى نجله الثانى الأمير ماكونن تلك الصفات التى يتوخاها الامبراطور فى من يتولى الحكم من بعده ، لذلك ظهرت محبته للأمير ماكونن واعزازه له وبغضه لولى العهد فى نفس الوقت وأصبح أمر ذلك شائعا بين الناس ، وكانوا يتوقعون بين لحظة وأخرى أن

يقوم الامبراطور باجراء تغيير فى هذا الشأن ، ينحى به ولى العهد ويعين ماكونن بدلا منه ، ولـكن لم يكن هذا التبديل ممكنا فى حياة الامبراطورة التى تتمتع عائلتها بنفوذ كبير فى مناطقها فى شمال الحبشة وغربيها ، وأصبح شائعا أن القصر الامبراطورى تتصارع فيه قوتان فى الخفاء . قوة مع الامبراطور وأخرى مع الامبراطورة . ويدور الصراع حول تثبيت ولى العهد فقط ولم يكن يبدو أنه يمتد إلى أمور أخرى من أمور الدولة .

ولـكن الأقدار كانت فاصلة فى حكمها عندما لقى الأمير ماكونن (دوق هرر) مصرعه فى حادث سيارة ، وبذلك زالت عوامل النزاع ، ثم توفيت الامبراطورة بعد ذلك ، وأصبح ولى العهد بدون منازع . اللهم إلا إذا تفتق ذهن الامبراطور عن وسيلة لتنحية الأمير واستبداله بالأمير الأصغر سهلا سلاسى ، خصوصا بعد انغماس ولى العهد مع زعماء الانقلاب الفاشل

* * *

خلاصة القول . أن امبراطورية الحبشة لازالت كما هى منذ قديم العصور ممزقة متنافرة ، لاتجمع شعوبها كلمة أو هدف . وتسيطر على مشاعرهم خلافاتهم القبلية وتعصب كل فريق إما لدينه أو للغته أو لقبيلته وعنصره ، وما اختفت هذه الخلافات إلا تحت ضغط السلطة والسيطرة التى أتقن الامبراطور هيلاسلاسى استعمالها إلى الآن ، ولـكن كل هذه الخلافات كامنة متحفزة للظهور ، ولا يمكن التكهن بالصورة التى ستنطلق عليها فى المستقبل وبالرغم مما يتمتع به الامبراطور من صحة وقوة فان الأعمار البشرية لها نهاية ، ولاندرى ما سوف تكون عليه حالة البلاد عندما تحين الساعة .

ولـكن بالرغم مما قد تتطور إليه الأمور فان الامبراطور هيلاسلاسى سيبقى فى تاريخ الحبشة علما كبيرا ، ومن أبرز من جلس على عرشها من ملوك ، وعهده من أحفل العهود بالأحداث الكبيرة التى أثرت تأثيرا بالغا فى مستقبل البـلاد .

ومما لاشك فيه أيضا ، أن الدول الكبرى (الغربية) ستبذل قصارى جهدها ، وتتعاون مع بعضها تعاونا صادقا على إبقاء الوضع الراهن على ماهو عليه ، وقد ترى إدخال بعض التعديلات التى تزيد الطمأنينة والاستقرار للحكم ، ولكنها لن تكون بأى حال من الأحوال منصفة للمسلمين ، ولن يكون فى الإجراءات الجديدة المرتقبة مايسمح بزوال الضغط والظلم عن المسلمين ، او السماح لهم ولو بقدر قليل من الحرية والمساواة ، اللهم إلا إذا حدثت أمور ليست فى الحسبان .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الدول الغربية تعتبر الحبشة بوضعها الراهن حليفاً مخلصاً أميناً ، ومركزاً هاما من مراكزها الاستراتيجية ، الذى يمكن أن يكون قاعدة للاحتفاظ بنفوذها فى مختلف مناطق أفريقيا ، تنطلق منه متى دعت الظروف للقضاء على أية حركة معادية فى افريقيا .

* * *

الفصل العشرون

الأريتريا

انتشار الاسلام بالاريتريا :

مر بنا ذكر الاريتريا فى مواضع متعددة من الكتاب . فهى بحكم موقعها متصلة اتصالا وثيقا بالأحداث الهامة التى مرت بالمنطقة ، ولقد كان شاطئها أول مكان نزل فيه العرب بعد الاسلام - فى جزر الدهلك - ومنها انتقلوا إلى مصوع ، وأخذوا يمتدون من هناك جنوبا حتى شمل نفوذهم جميع الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر وقرن افريقية والمحيط الهندى .

وتغلغل العرب ومعهم الاسلام إلى داخل البلاد من مختلف المواقع الهامة التى انشأوها أوسيطروا عليها ، واستمرت مصوع فترة طويلة من الزمن باب التجارة الأساسى إلى الحبشة وبهذا أصبح تغلغل العرب - وهم سادة التجارة فى المنطقة - إلى داخل البلاد متواليا لاينقطع ، وكما سبق أن قدمنا فانهم أينما حلوا نشروا الاسلام ووطدوا دعائمه .

ثم زحفت قبائل البيجا من وادى النيل - من مملكة مروى (النوبة) ودخلت إلى الاريتريا من وادى بركة وملأت السهول والوديان والجبال إلى أن وصلت إلى البحر الأحمر ، وأصبحت عنصرا هاما أساسيا فى هذه المنطقة ، وجاء الوقت الذى أصبح نفوذ هذه القبائل سائدا على جميع الاريتريا والجزء الشمالى من مملكة الحبشة مهددا عاصمتها القديمة أكسوم .

بدأ الاسلام ينتشر بين قبائل البيجا ، وما أن أسلم شمال السودان حتى امتد الاسلام أيضا من الغرب ، ونشط دعاة الاسلام والوافدون من السودان وجزيرة العرب حتى أصبحت الاريتريا معقلا من معاقل الاسلام فى المنطقة

ولم يبق فى حدودها الحالية من يعتنق المسيحية إلا قبيلة التيجرى التى تعيش على مرتفعات الهضبة امتدادا للهضبة الحبشية ، وامتدادا أيضا لنفس القبائل التيجرية التى تسكن الحبشة .

لم يقتصر نشاط الاسلام فى الاريتريا على هداية الوثنيين كما حدث فى باقى المناطق ولكنه نجح فى تحويل كثير من القبائل المسيحية إلى الاسلام . خلال القرن التاسع عشر ، حتى أصبحت ـ بمختلف الطرق ـ قبائل قوية عديدة تعتنق الإسلام مثل قبائل (بيت معلا) فى شمال الاريتريا التى اعتنقت الاسلام فى القرن الخامس عشر ، وكذلك قبائل بنى عامر مع باقى قبائل البيجا ، بينما سبقتهم إلى الاسلام قبائل ساهو وعفر التى تقع على الساحل امتدادا للدناكل .

ولقد كان للحكم المصرى فى القرن التاسع عشر أثر كبير — بالرغم من قصر مدته — حيث بدأ الاسلام يتغلغل بقوة من كسلا فى الغرب ومصوع فى الشرق .

ويعود فضل كبير فى زيادة تغلغل الاسلام فى الإريتريا إلى العائلات الدينية الشهيرة ، أسرة الشيخ وأسرة السيد الميرغنى ، وكان الأول هو الشيخ الأمين بن حامد القرشى الذى جلب إليه كثيرا من الاتباع ، وتعلق به كثير من قبائل التيجرى الذين هجروا ديانتهم . ولقد ازداد انتشار اتباع الشيخ وأتباع السادة الميرغنية بشكل جعل منهم فى الاريتريا قوة لا يستهان بها ، وأصبحوا يملكون نواحى القوة والثروة فى البلاد ومركز الاشعاع الاسلامى ووصل نفوذهم إلى الساحل ، والتقى بالجموع الاسلامية التى وصلت أيضا من الشاطىء الشرقى من سواكن ووصلت إلى وادى بركة [1]

ومن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قبائل تاكلية Takles (أى نبات يسوع) وهبتية Haptes (عطية يسوع) وتيماريام Temaryam

---

(١) ص ١٤١ الاسلام فى أثيوبيا لترمنجهام

(عطية مريم) وكانت قبيلة منساع Mansa مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر ثم دان السواد الأعظم منها بالإسلام فى مستهل القرن العشرين[1] .

وبذلك يبدو واضحا مدى تغلغل الاسلام فى الاريتريا حتى أصبح دين غالبية السكان كما سنعود إلى مناقشته فيما بعد .

• • •

أهميـة الاريتريا :

وفى أدوار التاريخ التى مررنا بها كانت للاريتريا أهميتها الخاصة ، ولكننا نود أن نشير بصفة خاصة إلى ذلك العهد الذى تركزت فيه قوة الدولة العثمانية بها ثم تنازلت عنها وحلت محلها القوات المصرية ، وكانت فى هذا العهد وقبله تدعى بلاد (البوغوص) . التى كانت لها على مر العصور طابعها الخاص بالرغم من متاخمتها للحبشة ، ولم تقع تحت سلطة الحبشة إلا فى لحظات قصيره سرعان ماتنقضى وتعود شخصيتها المستقله إلى البروز .

ولقد أولتها الحكومة المصرية عناية خاصة ، فنشرت بها وسائل المدنية والعمران ، فشيدت المنشآت الهامة فى مصوع ومينائها ومهدت الطرق المعبدة إلى داخل البلاد وأدخلت السكك الحديدية بها والمواصلات التلغرافية ، وشملت بمشروعاتها العمرانية جميع أنحاء البلاد ، وكانت الحكومة المصرية تهدف من ذلك وصل الاريتريا بالسودان وجعلها اقليماً واحداً يسهل الوصول إلى جميع أطرافه عن طريق النيل وعن طريق البحر الأحمر .

وشاءت الظروف التى سبق أن أوضحناها أن تنهار المديريات المصرية فى شرق أفريقيا تحت ضغط الدول الأوروبية ، التى استغلت اضطرابها المالى للقضاء على الامبراطورية المصرية ، وتقسيمها بين الدول الأوروبية المتنافسة على النفوذ فى البحر الأحمر ، وبذلك صدر الأمر للقوات المصرية بالانسحاب من جميع مناطق شرق أفريقية ، وكان أن ارتبطت الأريتريا منذ

---

(١) ص ١٤٢-١٤٣ الدعوة إلى الاسلام للسير توماس أرنولد ترجمة د حسن إبراهيم

ذلك التاريخ بايطاليا ، وبدأت مرحلة جديدة يجدر الكلام عنها فى شىء من التفصيل .

* * *

الحكم الإيطالى :

أثناء التنافس والصراع فى سبيل الاستعمار بين الدول الأوروبية الكبرى ، عزمت ايطاليا على أن تحصل على نصيبها فى هذا المضمار ، فتمكنت (شركة روباطينو الإيطالية للملاحة Rubattino Shipping Co. من ابتياع منطقة صغيرة على الساحل بالقرب من مدينة عصب ، من أحـــد الشيوخ المحليين وذلك فى نوفمبر عام ١٨٦٩ ثم استمرت فى مجهوداتها حتى تمكنت من ابتياع بعض الأراضى المجاورة لعصب فى ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ولقد احتجت الحكومة المصرية على هذه الصفقات وأعلنت عـــدم اعترافها بها ، لأنها تتعارض مع حقوق السيادة المصرية على هذه الجهات ، وعندما كانت جيوش مصر تتعرض للغزو البريطانى فى عام ١٨٨٢ سارعت ايطاليا ونقلت ملكية عصب من الشركة إلى الحكومة الإيطالية .

وعندما صدر الأمر للقوات المصرية بالانسحاب من شرقى أفريقيا ، أرسلت الحكومة الإيطالية قواتها العسكرية واحتلت عصب فى يناير ١٨٨٥ ومنذ ذلك الوقت والحكومة الايطالية تراقب مجريات الأمور فى اهتمام زائد ، فكانت تتابع تطورات الثورة المهدية وكذلك الأحوال التى تجرى داخل الحبشة ، فما أن لمست ماتتعرض له مصر ومعها انجلترا من جراء الثورة المهدية فى السودان ، حتى اتصلت ببريطانيا تستفسر منها عن موقفها لو أن ايطاليا قامت باحتلال مصوع ، وكان رد حكومة بريطانيا . . . « أن الحكومة البريطانية لا يثير اهتمامها احتلال زولا أو بيلول أو مصوع لأن هذه الموانىء وقد تخلت عنها مصر انما تعود إلى تركيا ، وللطليان أن يتفقوا بشأنها مع الباب العالى . . . » فلم يتوان الإيطاليون فى احتلال مصوع ودخلوها فى ٥ فبراير ١٨٨٥ .

منذ ذلك التاريخ أخذت القوات الإيطالية تتوغل داخل المستعمرة المصرية فاصطدمت مع الأحباش الذين كانوا يطمعون فى ضم جزء كبير منها إلى مملكتهم ، واستمرت المناوشات والمفاوضات حتى اضطر الملك يوحنا ملك الحبشة إلى الانسحاب نتيجة لما بدأ يتعرض له فى الداخل من قلاقل ، ولصد الخطر الذى يهدد بلاده من الغرب ـ من جيوش المهدى فى السودان ، وفى أثناء ذلك كان الطليان قد تمكنوا من عقد معاهدة تحالف بينهم وبين منليك ملك شوا ليهادنهم إذا قامت الحرب بين الطليان والامبراطور يوحنا ، فى نظير أن يمده الطليان بالأسلحة — كما سبق أن ذكرنا فى فصل سابق من هذا الكتاب .

وعندما اعتلى منليك عرش الحبشة ثارت الخلافات بينه وبين الطليان وقامت بينهم المواقع الحربية التى انتهت بهزيمة الطليان الساحقة ، ولكنها انتهت بمعاهدة اعترف فيها الأحباش « بالأملاك الإيطالية فى البحر الأحمر ، والتى تمتد إلى الداخل إلى نهر المارب (أوخور الجاش) وهى حدود الأريتريا الحالية ، وتمكنت كذلك بعد حروب ومناوشات مع قوات المهدى من تحديد حدود مستعمرة الأريتريا الغربية بينها وبين السودان [1] .

وبلاد الأريتريا فقيرة قليلة الموارد ، وما كان الايطاليون ليقنعوا بها ، لذلك كان همهم أن يجعلوا منها قاعدة لانطلاقهم على الحبشة ، واستمروا بها يتحينون الفرص لغزو الحبشة قرابة نصف قرن من الزمان حتى تم لهم فتح الحبشة فى ١٩٣٦ ، كما جاء بالتفصيل فيما سبق .

* * *

كذلك عندما تم إجلاء الايطاليين عن شرق أفريقيا عند قيام الحرب العالمية وعاد الامبراطور إلى عاصمة ملكه فى الحبشة ، أما الأريتريا فوضعت تحت الإدارة البريطانية حتى يتقرر مصيرها بعد انتهاء الحرب .

---

(١) ص ٤١٨ — ٤٢٥ مصر والسودان د . محمد فؤاد شكرى .

ملحوظة هامه : نود ذكرها قبل أن ننتقل ، وهى أن الاريتريا وقد مر عليها الحكم المصرى ونشر فيها أسس المدنية الحديثة وأقام فيها المنشئات الهامة ، ثم حل بها الطليان وقضوا فيها مايزيد عن نصف قرن أضافوا الكثير إلى مابدأه المصريون ، حتى جعلوا من الأريتريا نموذجا ينبض بالحياة فى أفريقيا ، وارتفع بمستوى الشعب وخصوصاً المسلمين منهم ، رغم فقر البلاد ، إلى مستوى عال يفوق مستوى الأحباش بكثير ، وكانوا يتمتعون بأنواع من الحريات لاعهد للأحباش بها ، فكانت بالاريتريا صحافة وجمعيات ومدارس ، وكان اتصالها بالعالم الخارجى مستمراً وعلى الأخص ببلاد العرب واليمن ومصر وإيطاليا .

* * *

تقرير مصير الاريتريا :

احتلت القوات البريطانية جميع أراضى اريتريا خلال عام ١٩٤١ فى طريقها إلى تخليص الحبشة من الايطاليين ، وكان على بريطانيا أن تتولى إدارة الاريتريا إلى أن يتقرر مصيرها بعد انتهاء الحرب ، ووجدت بريطانيا نفسها أمام صعوبة تغلبت عليها بحل طريف .

لم يكن لدى بريطانيا من رجال الإدارة العسكرية والمدنية العدد الكافى الذى يمكن الاستغناء عنه لإدارة الأريتريا ، بينما وقع فى يديها عدد كبير من الأسرى الإيطاليين ، الذين كانوا يشكلون عبئاً ثقيلا على بريطانيا لإيوائهم وتغذيتهم ، لذلك قررت بريطانيا استخدام جانب كبير من هؤلاء الايطاليين فى تسيير دفة البلاد فى جميع المرافق والأعمال ماعدا تلك التى تتعلق بالأمن العام والشئون الخارجية ومايتعلق بالمجهود الحربى ، واعتمدت فى حفظ الأمن على قوة من الشرطة أنشأتها بريطانيا من أهالى البلاد ومن بعض السودانيين المدربين تحت إدارة ضباط من الإنجليز ، واستعانوا أيضاً ببعض الضباط الطليان الذين اختاروهم للعمل معهم بعد تحريات ودراسات دقيقة عنهم .

ولقد وجدت بريطانيا فى الاريتريا أثناء الحرب قاعدة حربية مثالية ركزت فيها كثيرا من قواتها ومستودعاتها ، ولقد استفادت فائدة كبرى من ميناء مصوع الطبيعى الكامل الأعداد والذى يربطه بأسمرة خط حديدى وطريق برى ممتاز وحبل هوائى (تليفريك Aerial Ropeway) أنشـــأه الإيطاليون لنقل البضائع من مصوع إلى أسمرة مباشرة (طوله حوالى ٨٠ كيلو مترا) ، كذلك استفادت القوات البريطانية فائدة كبرى مما أنشأه الطليان من مستودعات وورش ، واستخدموا فيها نفس الفنيين الإيطاليين المدربين الذين كانوا يعملون بها ، وأقامت أمريكا فيها مصنعا لتجميع الطائرات ، وأصبحت أسمرة مركزا لإصلاح الطائرات الحربية والمدنية ، واستغل الأسطول البريطانى والبحرية البريطانية ميناء مصوع للاصلاح والتموين بالأغذية والمياه والمواد البترولية . وأدى هذا النشاط الكبير إلى رواج عظيم فى الأريتريا ، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وقف هذا الرواج وعادت البلاد إلى سابق عهدها .

* * *

تقرر فى معاهدة الصلح التى عقدت فى ١٩٤٧ ، زوال الحكم الإيطالى من مستعمراتها السابقة . وتأليف لجنة من (فرنسا ، والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا والولايات المتحدة) لتقرير مصير تلك المستعمرات ، وإذا عجزت عن الوصول إلى حل بشأنها ، فإن الموضوع يحال إلى الأمم المتحدة ، ولم تتمكن هذه الدول الأربع الكبرى من الوصول إلى حل . وأحيل الموضوع إلى الأمم المتحدة ، ولقد تسبب ذلك فى صراع سياسى عنيف واستغرق وقتاً طويلا من أعمال الجمعية العامة مما أجهد مندوبى الدول وعلى الأخص فيما يتعلق بليبيا والأريتريا .

ولقد تعرض موضوع الأريتريا لكثير من التيارات العميقة المتصاربة ، وتشابكت فيها الخلافات الداخلية مع الاتجاهات الدولية بين الدول الكبرى وتعددت الحلول المعروضة عليها ، وظهرت فى الأريتريا (العصبة الإسلامية)

وطالبت باستقلال البلاد وعاونها فى ذلك الحزب التقدمى الحر ، ووافقا على أن يسبق هذا الاستقلال فترة وصاية لمدة محدودة كما يقتضيه الرأى السائد فى مثل هذه الأمور فى أروقة الأمم المتحدة .

ومنذ جلاء الطليان ، وأثناء عهد الإدارة البريطانية شعر المسيحيون فى الأريتريا بما يتعرضون له من خطر لو أن الأريتريا نالت استقلالها فإنهم بذلك سيصبحون محصورين فى منطقتهم الجبلية محاطين بالمسلمين من كل جانب مما يهدد مستقبلهم ، لذلك دفعتهم الحبشة وبعض الدول الأوروبية كى ينشئوا حزبا ينادى بانضمام الأريتريا إلى الحبشة ، وبذلك بدأت تظهر فى الجو خطورة منح الأريتريا استقلالها إذ أنها ستصبح مهددة من جارتها الكبيرة الحبشة وبين سكانها عدد يدين بالمسيحية وينادى بالاتحاد مع الحبشة ، مما يدعو إلى توقع أثارة القلاقل التى يحسن تحاشيها .

وفى وسط هذه الخلافات تقدمت إيطاليا بطلب عودتها كوصية على الأريتريا ولكن كان مصير هذا الاقتراح الرفض من الحبشة ومن ممثلى الأريتريا معا .

ونشطت الحبشة فى المطالبة بضم الأريتريا إليها واستندت فى طلبها إلى حرمان الحبشة من الموانى على البحر الأحمر ، وحاجة الحبشة فى عهدها آنذاك بالتقدم الصناعى الموجود بالأريتريا لتعاون فى إعادة عمران البلاد الحبشية بعد الحرب . واستندت أيضاً إلى أن الأريتريا فى الأصل بلاد فقيرة وبانضمامها إلى الحبشة سوف تتمتع بما فى الحبشة من خيرات ويتحسن الوضع الاقتصادى بها . وكما قدمنا . كانت الهيئة المسيحية فى الأريتريا تؤيد طلب الحبشة .

ولم تنس الحبشة فى طلبها أن تعدد الروابط القديمة التى تربط الدولتين وادعت أن لها من الحقوق التاريخية ما يبرر طلبها ، وضربت على ذلك أمثلة ببعض تلك الفترات القصيرة الأمد التى قضتها بعض الجيوش الحبشية فوق

هضبة الأريتريا أثناء الحملات والمناوشات الحربية التى مرت فى تاريخ البلاد .

ولم تنس أيضاً أن تقيم الدليل على ضرورة ضم الأريتريا إليها ، من أن كلا منهما يعتمد على الآخر اعتماداً كاملا بدليل أن الإيطاليين ربطوا بينهما رباطا وثيقا وجعلوا من ميناء مصوع ميناء طبيعيا للحبشة . تمر به جميع صادرات البلاد ووارداتها وتتركز فيه مستودعات التموين .

وأضافت الحبشة إلى أدلتها . أن جميع الحملات العسكرية التى هددت استقلالها وفدت إليها عن طريق ميناء مصوع والأريتريا لذلك فإن وجود حكومة أو إدارة فى أريتريا معادية للأحباش تنطوى على خطر يهدد استقلالهم [1] .

* * *

وفى دوامة هذه الخلافات ظهر أيضا اقتراح بالتقسيم بحيث تدمج الهضبة (المسيحية) فقط مع الحبشة ، وهنا ظهرت النوايا التى كانت تبيتها بريطانيا وسبق أن أشرنا إليها عند الكلام على ما أذاعته (مس بانكهرست) عن خطط بريطانيا السرية أثناء الحرب . وذلك أن بريطانيا صرحت بأن الحل السليم وهو التقسيم على أساس أن يضم القسم الغربى من الأريتريا إلى السودان ويبقى القسم الشرقى الذى يحتوى على الهضبة ومعها ميناء مصوع مع الحبشة .

* * *

وتتابعت الاقتراحات من جميع الدول ، من وصاية دولية إلى وصاية جماعية إلى منح أثيوبيا ممرا خاصا بها عن طريق ميناء عصب . وبعد عشرة سنوات يحصل الإقليم على الاستقلال وأخيرا قررت الدول الكبرى الأربع إيفاد لجنة إلى المستعمرات الإيطالية للبحث والدراسة وبقيت اللجنة فى

---

(١) ص ٧٩ ، ٨٠ من كتاب الحبشة . للدكتور راشد البراوى .

الأريتريا من ١٢ / ١١ / ١٩٤٧ إلى ٣ /١/ ١٩٤٨ ورجعت بنتيجة إحصائية لا تخرج عما سبق معرفته عن تأييد سكان الهضبة فقط للاتحاد مع أثيوبيا أما باقى البلاد فتطلب الاستقلال ، وكانت النسبة العددية « فى رأى اللجنة » متعادلة بين الفريقين .

عادت الاقتراحات وبدأت مرحلة أخذ الأصوات التى فشلت جميعها فى إيجاد حل لهذه المشكلة . فتألفت لجنة من الجمعية العامة من ممثلين لدول النرويج وجواتيمالا وجنوب أفريقيا وباكستان وبورما ، وفى أثناء ذلك بدأت فى البلاد حركة غريبة تعتمد على العنف والإرهاب والتهديد ، لأحداث الشقاق ، لعبت فيها الإدارة البريطانية والأموال الأثيوبية دوراً هاماً .

أدى هذا الموقف الجديد إلى اختلاف أعضاء اللجنة فيما بينهم . فقال ممثلو النرويج وجنوب أفريقيا وبورما أن قلة من السكان تطلب الاستقلال، أما مندبو باكستان وجواتيمالا فقالا إن الإرهاب وسوء استخدام الكنيسة لسلطاتها حال دون التعبير الحر عن الرأى ، وفى رأيهما أن الأغلبية تريد الاستقلال[١] .

وثارت الخلافات ثانية ـ وكما عبر بعض المشتركين فى تلك الاجتماعات أن الخلافات حول وضع ليبيا والأريتريا سبب صداعا لجميع الأعضاء — وتحت تأثير هذا الصداع وافقت الجمعية العامة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ على أن تكون أريتريا وحدة ذات استقلال ذاتى فى اتحاد فيدرالى مع أثيوبيا تحت التاج الأثيوبى » وأن يكون للأريتريا « سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية فى ميدان الشئون الداخلية ، وأن يمتد اختصاص الحكومة الفيدرالية إلى الدفاع والشئون الخارجية والمالية والتجارية الخارجية والتجارة بين الأقليمين والمواصلات الخارجية والمواصلات بين الإقليمين بما فى ذلك

---

(١) ص ٨٦ من كتاب الحبشة د . راشد البراوى

الموانى . . . أما اختصاص حكومة الأريتريا فيمتد إلى جميع المسائل غير الداخلة فى اختصاص الحكومة الاتحادية بما فى ذلك سلطة الاحتفاظ ببوليس محلى وجمع الضرائب لمواجهة نفقات الوظائف والخدمات المحلية واتخاذ ميزانية خاصة بها) . . (ويقام مجلس اتحادى امبراطورى من عدد متساو من الأعضاء عن كل من أثيوبيا وأريتريا ـ وتكون هناك جنسية واحدة فى الاتحاد كله) .

وتحددت فترة انتقالية يتم خلالها تنظيم حكومة أريتريا وإعداد دستور لها ووضعه موضع التنفيذ ، تحت إشراف مندوب من هيئة الأمم المتحدة .

وفى ١٠ يولية سنة ١٩٥٢ وافقت الجمعية العمومية على الدستور الأريترى وفيما يلى أهم ما اشتمل عليه : (١) .

(١) حدد الدستور السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لحكومة الأريتريا بأنها المسائل التى ليست من اختصاص الحكومة الفيدرالية ـ ومن هذه السلطات الاحتفاظ بقوات الأمن الداخلى وجباية الضرائب وأن تكون للإقليم ميزانيته الخاصة به .

(٢) يتكون المجلس الفيدرالى من عدد متساو من الأثيوبيين والأريتريين على أن يقوم رئيس السلطة التنفيذية بتعيين الأعضاء الأريتريين .

(٣) للامبراطور ممثل فى أريتريا يحاط علما بانتخاب رئيس السلطة التنفيذية ، والأخير مسئول أمام البرلمان الأريترى (اختار الامبراطور أول ممثل له زوج ابنته ماشاى) .

(٤) عندما يصدر المجلس قانونا يقدم إلى ممثل الامبراطور الذى له أن

---

(٢) نفس المرجع ص ٨٧ وكذلك ص ٤٣٠ ، ٤٣٢ السياسة والحكم فى أفريقيا د . عبد الملك عودة .

يطلب خلال عشرين يوما إعادة النظر فيه إذا تعدى الاختصاصات الفيدرالية .

(٥) يتكون البرلمان من عدد لا يقل من ٥٠ عضوا ولا يتجاوز ٧٠ عضواً .

(٦) السلطةالتنفيذية تتكون من رئيس يعاونه وزراء مسئولون أمامه وله حق إقالتهم .

* * *

فى داخل أريتريا . رحب أنصار الحبشة بالاتحاد بطبيعة الحال وعارضه الآخرون قائلين أن هذا الاتحاد الفيدرالى ما هو إلا لعب بالألفاظ ، فإن الحقيقة أن الأريتريا قدمنحت هدية للحبشة . وأصبح بذلك أهل الأريتريا المتقدمين المتعلمين الذين يتمتعون بمدنية وحرية لم تعهدها الحبشة ، أصبحوا تابعين لمن هم أقل شأنا ، ولا يستسيغ أهل أريتريا أن يوضعوا فى هذا الوضع المهين لكرامتهم ، وفى نفس الوقت يحرمون من حق الاتصال الرسمى بالعالم الخارجى إلا عن طريق حكومة أديس أبابا الرجعية الإقطاعية(١) .

* * *

ولقد كانت الأريتريا بهذا القرار أتعس المستعمرات الإيطالية مصيراً ، فبينما استقلت الحبشة فور جلاء الإيطاليين . فإن الصومال الإيطالى ومعه الصومال البريطانى نالا استقلالهما بعد فترة وصاية محدودة ، وكذلك نالت ليبيا استقلالها ، مع أن ظروفهما كانت أشد وأقسى ، وتعرضت فى هيئة الأمم المتحده لنفس المناورات العنيفة ، ومع ذلك فإن الأريتريا هى الوحيدة التى كان مصيرها إلى زوال شخصيتها وإلحاقها بأثيوبيا .

---

(١) ص ٢٧٢ Inside Africa by John Gunther

والمتتبع لتفاصيل المناورات المرهقة التى مرت بها مسألة الأريتريا يلمس فى وضوح ظاهر ، مدى انحراف الدول الأوروبية وتحيزها ، ورغبتها فى تعزيز الحبشة وتوطيد أركانها ، وأثبت البريطانيون أثناء توليهم إدارة البلاد كيف كانوا يبيتون لهذا الأمر ، حتى أنهم لجأوا آخر الأمر إلى تشجيع استعمال وسائل العنف ، وتهيئة الجو لأعوان الحبشة ورجال الكنيسة لاستعمال آخر ما فى جعبتهم من أساليب التهديد والشدة والرشوة لمقاومة أنصار الاستقلال ، حتى تصبح الأريتريا هدية يقدمونها للأمبراطور الذى يسالم السياسة الغربية ويستند عليها فى بقائه على عرشه ، ويعتمد على تأييدهم الخفى لإجراءاته التى يكتم بها أنفاس المسلمين — وهم غالبية السكان فى الأريتريا والحبشة على السواء .

* * *

الموقف بعد الاتحاد :

بالرغم مما حصلت عليه الحبشة من نصر فإنها ليست سعيدة به . إذ أن نظام الحكم الذى وضع للأريتريا والدستور والبرلمان المنصوص عليهما مع ما بهما من قصور وإجحاف يحتج عليها شعب أريتريا — فإنها تفوق مايسود الحبشة تحت نظام الحكم الديكتاتورى ، لذلك يخشى الأمبراطور ورجاله أن يؤدى هذا الاتحاد إلى أن تطالب الأقاليم الحبشية الأخرى بتطبيق نفس الأنظمة عليها . وفى هذا انتقاص كبير من سلطة الأمبراطور الحالية .

ولكن المشاهد أن الحكومة الحبشية تنوى القضاء على الاتحاد وتعمل على تحويله فى أناة وصبر ، إلى ضم نهائى لا شروط فيه ، وتصبح الأريتريا بعد ذلك إقليماً مثل باقى الأقاليم ، ضاربة عرض الحائط بقرارات هيئة الأمم المتحدة ، ولا بأس من أن تمهد لهذا بانتهاج سياسة خاصة فى حكم الأريتريا تؤدى إلى ما تهدف إليه من نتائج ، ولن يقتضى منها ذلك جهداً

وقد أصبحت الأريتريا تحت سيطرتهم الفعلية . وبفحص مواد الدستور الأريترى الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة ، تبدو للوهلة الأولى نقط الضعف ، ونظهر بجلاء المنافذ التى يتمكن من خلالها الأمبراطور من القضاء على كيان الأريتريا تماماً — وفرض سلطانه عليها بالصورة التى تتراءى له .

ولقد ظهرت بوادر ذلك عندما أصدر الأمبراطور الدستور الأثيوبى الجديد (١٩٥٥) حيث لم يشر فيه إلى الاتحاد الفيدرالى ، الذى يمثل الوضع القانونى المقرر فى هيئة الأمم المتحدة ، ولكنه يعبر عن الأريتريا « بالإقليم » ويتكلم عن الدولة التى لاتقبل التجزئة Sovereignty & territory are indivisable وبذلك يصبح الوضع فى نظر حكومة الحبشة ودستورها « دولة موحدة » وليست فيدرالية .

* * *

ومن المعروف أن مسلمى أريتريا كانوا من المعارضين للاتحاد مع أثيوبيا ولقد تحققت مخاوفهم حيث بدأت التفرقة فى شغل المناصب وتمييز الرعايا المسيحيين ، وكان الأريتريون يتوقعون أن يبدى الأمبراطور مظهراً من حسن النية بأن يعين نائب الأمبراطور بين أبناء الأريتريا بدلا من تعيين صهره .

وليس من المعقول أن ترضى حكومة الحبشة ذات السيطرة العليا — على ما تنفرد به الأريتريا من حريات ، ولذلك اتخذت الإجراءات الشديدة ضد الأحزاب الأريترية ، حيث أن الأحزاب ممنوعة فى الحبشة ، ثم أنها قررت تطبيق قوانين الانتخابات الحبشية وحاربت النقابات العمالية والجمعيات ، وضيقت الخناق على الصحافة وقيدت الكثير من الحريات التى كفلها الدستور .

* * *

وباتخاذ الإجراءات العنيفة التي ذكرناها نشاهد عناية حكومة الامبراطور بالقضاء على وسائل التعبير عن الرأى ووسائل الاجتماع ، حتى لا يكون هناك مجال لظهور أى تذمر فى البلاد ، وبذلك تمضى الحكومة فى تنفيذ برامجها ، ضاربة ستاراً كثيفاً حول أهل البلاد ولقد بدأت طوائف عديدة فى أريتريا تعانى الكثير من وسائل الظلم والعدوان وخصوصا طوائف المسلمين .

والموقف الآن ، هو كيف يمكن إثارة الموضوع أمام الأمم المتحدة ، لمطالبة الحبشة بتطبيق القرارات السابقة على أساسها تقرر قيام الاتحاد الفيدرالى ، وإعادة الحريات إلى الأريتريا بمختلف طوائفها وخصوصا المسلمين منهم ، وتطبيق الدستور الموضوع للأريتريا نصا وروحا ، واتخاذ الوسائل التى تكفل استمرار تطبيق تلك القرارات وحماية شعب الأريتريا من طغيان الحكم الحبشى بأى صورة من الصور ، وعلى الأخص حماية المسلمين الذين وإن كانوا أكثرية فى البلاد فإنهم كانوا الضحايا لهذا الاتحاد الفيدرالى ، وأسدل عليهم ستار النسيان وحرموا من وسائل التعبير عن شكواهم ، وأصبحوا بعد سيطرة الحكومة الحبشية الكاملة عليهم بدون نصير .

* * *

قبل ختام كلامنا عن الموقف فى الأريتريا بعد الاتحاد ، نود أن نوضح ملاحظة هامة خافية على الكثيرين ، عن وقت الصراع على تقرير المصير . ولكنها ظهرت فى قوة بعد الاتحاد .

ذكرنا أنه فى أواخر عهد دراسة تقرير المصير ، بدأت فى البلاد حركة غريبة تعتمد على العنف والإرهاب والتهديد لإحداث الشقاق ، لعبت فيها الإدارة البريطانية والأموال الأثيوبية دوراً هاماً .

وذكرنا أيضاً أن مندوبى باكستان وجواتيمالا فى لجنة تقصى الحقائق

كتبا فى تقريرهما « أن الإرهاب وسوء استخدام الكنيسة لسلطانها حال دون التعبير الحر عن الرأى وفى رأيهما أن الأغلبية تريد الاستقلال » .

ولئن تلجأ بريطانيا إلى مثل هذه الأعمال فهذا أمر أتقنته وليس بغريب عليها وليس هنا محل محاسبتها عليها — ولئن تلجأ الحبشة إلى استعمال أموالها لشراء الأعوان لتأييد الاتحاد فهذا أمر ليس بغريب أيضاً وهى تسعى لتحقيق أهدافها ، أما موقف الكنيسة التى أساءت استخدام سلطانها فهو ما يجب علينا مناقشته هنا .

علمنا مما سبق أن المسيحية تتركز فى الأريتريا فى المرتفعات الجبلية التى هى امتداد طبيعى لهضبة الحبشة حيث تتركز المسيحية أيضاً ، ويسكن الهضبة الأريترية مسيحيو قبيلة التيجرى الذين هم امتداد لنفس القبيلة التى تعيش غالبيتها بالحبشة . وتشرف كنيسة الحبشة على هؤلاء وهؤلاء . ومن المفروض أن يستجيب المسيحيون فى الأريتريا لنداء الكنيسة الحبشية . ولكن من المعلوم أيضا أنه بقدر ما يحمل المسيحيون للمسلمين من عداء ، فإن قبائل التيجرى فى عداء مستحكم دائم مع قبائل الأمهرة التى تحكم الحبشة . وكان نصب عين الكنيسة وقتئذ — وتنفيذاً لرغبة الأمبراطور — أن تعمل على استعمال نفوذها لتوحيد كلمة المسيحيين على تأييد الاتحاد ، وأن تبذل ما فى وسعها للتغلب على ما يساور نفوس المسيحيين الأريتريين من قلق نتيجة للخلافات القبلية المتمكنة فى النفوس .

وبالرغم مما بذلته الكنيسة من مجهودات رغم معرفتها التامة بحقيقة الأمور ، فإن كثيراً من المسيحيين كانوا أبعد نظراً وعلموا ماسوف يصيبهم لو أنهم اتبعوا التوجيهات المضللة التى تبثها كنيستهم تحت ضغط من كنيسة الحبشة . لذلك انحاز فريق كبير منهم إلى المسلمين فى تأييد الاستقلال . ولقد تعرض هؤلاء للكثير إلى ألوان التهديد والاعتداء بأساليب لا زالت تتناقلها الألسن إلى الآن ، ويذكرون دائماً قصة بطل من أبطال الاستقلال وهو مسيحى يدعى (ولديب ولدمريام Woldeab Woldmariam)

ويروون عنه أنه لابد وقد ضرب الرقم القياسي فى النجاة من محاولات الاغتيال السياسى ، فلقد أطلقت عليه النيران ، وألقيت عليه القنابل ودس السم له فى الطعام وتعرض للاعتداء والقتل سبع مرات [1] .

ولقد تحقق ظن ذلك الفريق من المسيحيين ، وثبت بعد نظرهم ، فانهم بعد الاتحاد تعرضوا لما كانوا يخشون منه ، بسيطرة الحكام الذى جاءوا من الحبشة ، من قبائل الأمهرة التى تبادلهم الكراهية والبغضاء ، وبالإضافة إلى ذلك لمسوا كيف أصبحت بلادهم تابعة لاحول لها ولاقوة ، وكيف ازدادوا فقراً على فقر ، إضافة إلى مافقدوه من حريات .

لذلك تجد جانباً كبيراً من المسيحيين تئن من وطأة الحكم الحبشى شأنه فى ذلك شأن بنى وطنهم من المسلمين .

* * *

كفاح شعب الأريتريا — للاستقلال :

سرعان ماشعر شعب الأريتريا بالكارثة التى حلت بهم بعد أن أصبحوا ضحية ذلك الاتحاد وفريسة للحكم الحبشى ، فتجمعت جميع طوائف الشعب تطالب أولا بالحريات وعندما عز عليهم ذلك أيقنوا بأنهم فى الحقيقة يتوقون إلى ماهو أهم وهو الاستقلال ، وقام من بين الشعب نفر من المجاهدين يرفعون لواء الاستقلال ، ومما يلفت النظر ويدعو إلى كثير من الغبطة أن نجد هؤلاء المجاهدين خليطا من أتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية يعملون جنباً إلى جنب فى الجهاد لنيل حقوق بلادهم وتحقيق أمانيهم .

من الطبيعى أن يكون جزاء هؤلاء المجاهدين السجن والنفى والتشريد ، وتمكن كثير منهم إلى الهرب خارج البلاد وكونوا الجمعيات ونظموا الصفوف للمطالبة باستقلال بلادهم وأصبح لهم نشاط ملحوظ فطبعوا العديد من

---

(1) ص ٢٧٤ Inside Africa by John Gunther
ويعيش هذا البطل فى الوقت الحاضر بالقاهرة

النشرات والمذكرات ، وقاموا بتوزيعها فى هيئة الأمم المتحدة وغيرها من المجمعات الدولية والاقليمية ، وانتهزوا كل فرصة تسنح لهم لمقابلة رجال السياسة البارزين فى مختلف الدول لشرح وجهة نظرهم وفضح أساليب الحكومة الحبشية التعسفية .

جاء فى إحدى هذه النشرات مايلى ، « لا يمكن الاستمرار فى النظر إلى الخلافات بين اثيوبيا والأريتريا على أنها من الأمور الداخلية بعد أن أقدم الامبراطور على القضاء على الأسس التى تقررت للاتحاد بواسطة هيئة الأمم المتحدة ، ولقد تأيد ذلك فى التقرير الختامى لمندوب هيئة الأمم — صفحة ٢٠١ من الفصل الثانى — ذلك التقرير الذى أقرته هيئة الأمم ، ولقد قرر الخبراء فيه بأنه بالرغم من الفكرة السائدة بأن مستقبل الأريتريا قد تحدد بعد صدور الدستور ، فان ذلك لايعنى أن مهمة الأمم المتحدة قد انتهت ولم يعد لهامبرر للاهتمام بهذه القضية ، بل أن قرار هيئة الأمم الخاص بالاريتريا يجب أن يبقى نصب عين هيئة الأمم كموضوع دولى هام بحيث يتعين على الهيئة أن تتدخل إذا حدث أى نقض لقراراتها السابقة » .

« كما نص دستور الأريتريا الذى وضعته هيئة الأمم (المادة ٩١) أن مجلس الاتحاد ليس من حقه إجراء أى تعديل فى الدستور أو إدخال أية إضافة عليه تتنافى مع القانون الذى وضع للاتحاد » .

« والأمر الواقع أن قرارات هيئة الأمم المتحدة ودستور الأريتريا لم يجر عليها تعديل أو إضافة فحسب بل ألغيت نهائياً من طرف واحد حين قضى عليها الامبراطور قضاء لارجعة فيه .

* * *

وجاء فى إحدى هذه النشرات ، أنه عندما أمعنت حكومة أثيوبيا فى أكاذيبها ونشر البيانات الخاطئة عن مدى معونتها لشعب الأريتريا ، وقف السيد / عمر أكيتو أحد النواب البارزين فى برلمان أريتريا عام ١٩٥٦ وألقى خطابا ضافيا مفندا المزاعم الأثيوبية ، جاء فيه « أن أثيوبيا طالمـــا عنفت

الأريتريا لقصورها الاقتصادى وادعت أن اقتصادياتها إنما كانت تعتمد على معونتها المالية لها — وفيما يختص بهذا الاتهام الخاطىء الظالم أود أن أبين هذه الحقيقة وهى أن جملة المبالغ التى دفعتها أثيوبيا لحكومة الأريتريا كنصيبها فى الضرائب الجمركية عن الأربع سنوات الماضية كانت خمسة ملايين ونصف مليون ريال أثيوبى فقط ، ومعنى ذلك أنه يقل عن النصيب الفعلى لأريتريا بمبلغ مائة مليون ريال أثيوبى - ولا يشمل هذا بالطبع باقى موارد أريتريا المالية التى اغتصبتها حكومة أثيوبيا بدون وجه حق » .

ولقد لاقى السيد / عمر أكيتو من جراء موقفه هذا مالا حصر له من المتاعب والاضطهاد فى حياته الخاصة والعامة .

* ° *

ذكرت إحدى النشرات بعض العبارات الطريفة التى جاءت على لسان أحد أفراد الشعب الأريترى «كان الايطاليون يقولون لنا كلوا ولا تتكلموا ، وجاء الإنجليز فقالوا لنا تكلموا ولا تأكلوا . . . . . وأخيراً جاء هيلاسلاسى ليقول لنا لا تأكلوا ولا تتكلموا » .

ولم تغفل تلك النشرات حقيقة هامة تؤيد ماسبق أن أوضحناه فى هذا الكتاب وهو تأييد الدول الكبرى الغربية لهيلاسلاسى وأثيوبيا وإغداق المساعدات وجميع أنواع الحماية له ولحكومته وتأييد الوضع الراهن والتمكين لبقائه ، بحيث تظل أثيوبيا على الدوام معقلا حصينا لهم ونقطة انطلاق فى افريقيا يسهل السيطرة منها على باقى الدول الافريقية .

فبالإضافة إلى انتشار الغربيين فى أغلب نواحى النشاط فى أثيوبيا وتكفلهم بانجاز أهم المشروعات فيها فان الحكومة الاثيوبية قدمنحت أمريكا مطارات اسمرا لتجعل منها قاعدة ذرية وقاعدة لإطلاق الصواريخ الموجهة ، وتشكل هذه المطارات مع محطة راديو مارينا باسمره حلقة هامة فى سلسلة القواعد العسكرية التى تطوق أمريكا بها مختلف دول العالم شرقا وغربا ، وازداد

أخيرا حجم القاعدة العسكرية الامريكية فى اسمرا وازدادت معداتها الضخمة بما يجعلها عند اللزوم بالغة الأثر فى السيطرة على افريقيا وجنوب الجزيرة العربية ، ثم مابعد ذلك من دول . ولقد تردد كثيرا أن الأمبراطور وعد أمريكا بأن تكون ميناء مصوع قاعدة بحرية لهم عند اللزوم .

ومما يزيد الطين بلة أن أمريكا قد أطلقت يد إسرائيل فى الاريتريا إلى المدى الذى انشأت به بعض القواعد العسكرية جنوب أسمرة - وأصبحت على وشك الاستيلاء التام على اقتصاديات الاريتريا .

* * *

ولا يمكن أن نسترسل أكثر من ذلك فى الكلام عن موضوع الاريتريا وتفصيل ادواره فهذا أمر يطول شرحه ويحتاج إلى كتاب قائم بذاته . ولكننا نكتفى بما أوردناه ونختتمه بتلك الفقرة التى جاءت فى المذكرة التى بعث بها شعب الاريتريا إلى الأمم المتحدة فى نوفمبر عام ١٩٥٧ وطار بها السيد محمد عمر القاضى إلى نيويورك حيث جاء فيها « لقد قاسى الشعب الاريترى فى الخمس سنوات الاخيرة على يد الحكومة الاثيوبية أكثر مما قاساه فى السبعين سنة من الحكم الاستعمارى » .

* * *

إضافة أخيره : تشاء الظروف أثناء تصحيح المسودات المطبوعة لهذا الكتاب - وتلك التى تتعلق بالارتيريا بالذات — أن تنقل إلينا الصحف والإذاعات أنباء الإضطهاد والتنكيل الذى تصبه حكومة الحبشة على أهالى الأرتيريا فى عنف وقسوة - الأمر الذى أدى بالكثيرين إلى الفرار ولجوءهم إلى السودان حتى بلغ عدد من هربوا من الإرتيريا مايزيد عن العشرين ألف

الفصل الحادى والعشرون

(السكان)

تسود الحبشة ظروف عاتية من التخلف والبداوة والانقسامات العنصرية والدينية والقبلية على نحو قد لا نجد له مثيلا فى باقى دول العالم . وترتب على ذلك أن يبقى تعداد السكان إلى الآن مجهولا ، وبالتالى نسبة العناصر والأجناس والقبائل والأديان إلى مجموع السكان ، وليس من الميسور فى مثل تلك الظروف التى تعم هذه البلاد أن تجرى عملية تعداد يعتمد عليها . لذلك جاءت جميع التقديرات لعدد سكان الحبشة منذ بداية القرن العشرين إلى وقتنا هذا متضاربة ، تتفاوت فيما بينها تفاوتا كبيرا .

وبين أيدينا الآن مجموعة من هذه التقديرات المختلفة ، سنحاول هنا أن نوفق فيما بينها ونلائم بين أقربها إلى المنطق وبين مشاهداتنا خلال المناطق المختلفة التى زرناها أو أقمنا بها . ولكن يكون عند القارىء صورة واضحة عن مختلف التقديرات سنورد لها بيانا كاملا مفصلا فى أحد الملاحق فى نهاية الكتاب ، على أن نبين فى سياق حديثنا التالى ملخصا لتلك التقديرات فى جدول مستقل .

* * *

تقدير السكان :

وقبل أن نستطرد فى البحث نشير هنا إلى بعض الأسس الهامة التى تعتبر من أهم عناصر التقدير .

وأول تلك العناصر هى مساحة الحبشة ، فإن مساحتها أيضاً لازالت محلا للتناقض بين مختلف المراجع ، ونلخصها فيما يلى :

(١) تقدير World Atlas, Hammond & Co. (1953)

الحبشة	٣٥٠ ...	ميل مربع
الأريتريا	١٦ ...	ميل مربع
المجموع	٣٦٦ ...	ميل مربع

(٢) تقدير أولندورف The Ethiopians by Ullendorff p. 23

مساحة الحبشة بما فيها الأريتريا ٤٠٠ر٠٠٠ ميل مربع .

(٣) تقدير لوثر Ethiopia Today by Luther p. 1

مساحة الحبشة بما فيها الأريتريا ٤٥٠ر٠٠٠ ميل مربع .

(٤) تقدير جون جنثر Inside Africa by John Gunther

مساحة الحبشة	٤٠٩ر٢٦٦	ميل مربع
مساحة الأريتريا	٤٧ر٨٧٥	ميل مربع
المجموع	٤٥٧ر١٤١	ميل مربع

(٥) تقدير الجمعية الجغرافية Nathional Geographic" April 65, p555

مساحة الحبشة تقريبا ٤٦٠ر٠٠٠ ميل مربع بما فيها الأريتريا ويجرى العمل حاليا فى عمل مساحة دقيقة للبلاد .

(٦) تقدير دائرة المعارف البريطانية (١٩٦٤) :

مساحة الحبشة	٤٥٧ر١٤٢	ميل مربع
مساحة الأريتريا	٤٧ر٨٧٥	ميل مربع
المجموع	٥٠٥ر٠١٨	ميل مربع

ويبدو من كل ماتقدم من تقديرات أن أقربها إلى الحقيقة هو ٤٠٠٫٠٠٠ إلى ٤٥٠٫٠٠٠ ميل مربع للحبشة .

أما بالنسبة للاريتريا فان التقدير ٤٧٫٨٧٥ ميل مربع كان بناء على قياسات دقيقة تمت أثناء الحكم الإيطالى والإدارة البريطانية .

لذلك يمكن تقدير المساحة للحبشة كلها بمافيها الأريتريا بين ٤٥٠٫٠٠٠ ميل مربع ، ٥٠٠٫٠٠٠ ميل مربع .

* * *

ولقد قامت هيئة التغذية والزراعة بتقدير لأنواع الأراضى فى الحبشة ـ (صفحات ٨ ، ٧٢ Ethiopis Today by Luther : فلو أننا أتخذناها رائداً فى تقديراتنا ، وأضفنا أمامها تقديرات كثافة السكان لكل نوع من أنواع هذه الأراضى متخذين مساحة الحبشة حوالى ٥٠٠٫٠٠٠ ميل مربع أى ١٫٢٥٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع — لأصبح تعداد السكان على هذا الأساس كالآتى :

تقديرات هيئة التغذية والزراعة	المساحة كيلو متر مربع	كثافة السكان كيلو متر مربع	مجموع السكان
٣٠ ٪ مراعى جيدة	٣٧٥ر٠٠٠	١٥	٥ر٦٢٥ر٠٠٠
٩ر٠ ٪ أراضى زراعية جيدة	١١٢ر٠ ٠	٣٠	٣ر٣٧٥ر٠٠٠
٢٢ ٪ أحراش وغابات	٢٧ر٠٠٠	٥	١ر٣٧٥ر٠٠٠
٣٩ ٪ أراضى غير منتجة	٤٨٧ر٠٠٠	٥	٢ر٤٣٧ر٠٠٠
المجموع الكلى للسكان			١٢ر٨١٢ر٠٠٠

وفى رأينا أن تقدير هيئة التغذية والزراعة يفتقر إلى الدقة فى تصنيف المناطق وتقدير نسبتها (وقد يعود الخلاف فى التقدير راجعاً إلى صعوبة التفرقة بين الأراضى الزراعية وبين المراعى وبين الأحراش وتحديد الحد الفاصل بين كل من هذه الأنواع المختلفة) ونميل إلى الإعتقاد بأن التقدير التالى أقرب إلى الواقع

التقديرات	المساحة كيلو متر مربع	كثافة السكان فى كيلو متر مربع	مجموع السكان
٣٠ ٪ مراعى جيدة	٣٧٥ر٠٠٠	١٥	٥ر٠٦٢ر٠٠٠
١٥ ٪ أراضى زراعية جيدة	١٨٧ر٥٠٠	٣٠	٥ر٦٢٥ر٠٠٠
٢٠ ٪ أحراش وغابات	٢٠٠ر٠٠٠	٥	١ر١٢٥ر٠٠٠
٣٥ ٪ أراض غير منتجة	٤٣٧ر٥٠٠	٥	٢ر١٨٧ر٠٠٠
مجموع السكان			١٤ر٥٦٢ر٠٠٠

* * *

وقبل أن نقدم الجدول الذى يحتوى على ملخص لجميع التقديرات التى عملت لمجموع سكان الحبشة ، نود أن نشير إلى العوامل الأخرى التى تتحكم فى معدل زيادة السكان .

وأهم تلك العوامل هى نسبة المواليد ونسبة الوفيات سواء بين الأطفال أو بين الكبار ، وكذلك متوسط عمر الفرد . ولجميع هذه النسب علاقة وثيقة بالحالة الإجتماعية والرابطة بين أفراد الأسرة ، والمستوى الثقافى ، ومتوسط دخل الفرد (والدخل القومى) ، وأخيراً وليس آخرا مدى تقدم الوسائل الصحية الوقائية والعلاجية .

ولقد أصبح لمجموع هذه العوامل قواعد مبنية على دراسات واسعة

لجميع مناطق العالم تتحدد بناء عليها نسبة الزيادة السنوية تبعاً لما يتجمع لكل منطقة من مختلف العوامل . ولعل أوفى وأحدث المراجع التى تفصل مختلف النماذج فى العالم هو كتاب (التخلف والنمو الإقتصادى تأليف هارفى ليبنشتين) [1] .

وأقرب النماذج انطباقا على حالة الحبشة هو النموذج « l b. » صفحة ٢٣١ المبنى على « متوسط ثابت لعمر الفرد ، ونسبة ثابتة لنسبة الوفيات ، ومعدل مرتفع لنسبة المواليد . واستمرار الوضع الراهن فترة طويلة من الزمن لعدم توفر وسائل التحسين فى الخدمات الصحية أو الإقتصادية بشكل محسوس » وهذا المعدل هو ٦٩ ر ١ ٪ فى السنة أى ٧ر١ ٪ تقريباً [2] .

وحتى نسهل عملية الحساب على القارىء نبين فيما يلى ما سوف يكون عليه تعداد السكان على أساس معدل الزيادة السنوية السابق الذكر ، كل خمسة سنوات ، لشعب تعداده الأصلى مليون نسمة :

بعد ٥ سنوات	٨١٩ ر ١٠٥ ر ١	بعد ٣٠ سنة	٣٢٠ ر ٦٨٨ ر ١
بعد ١٠ سنوات	٨٨٥ ر ٢١٩ ر ١	بعد ٣٥ سنة	٥٤٥ ر ٨٣١ ر ١
بعد ١٥ سنوات	١٩٧ ر ٣٢٣ ر ١	بعد ٤٠ سنة	٣٢٤ ر ٩٨٦ ر ١
بعد ٢٠ سنة	٥٢٩ ر ٤٣٧ ر ١	بعد ٤٥ سنة	٠٤٢ ر ١٥٢ ر ٢
بعد ٢٥ سنة	٤٠٧ ر ٥٧٥ ر ١	بعد ٥٠ سنة	٥٧١ ر ٣٢٨ ر ٢

وفيما يلى جدول يبين تقديرات سكان الحبشة فى مختلف المراجع ، مع بيان ما سوف يكون عليه تقدير كل مرجع فى عام ١٩٦٥ ، بتطبيق المعدل السنوى للزيادة (٧ر١ ٪) .

---

(١) ص ٢٣١ Economic Backwardness & Economic Growth by Harvey Leibenstein

(٢) حسب بيانات الامم المتحدة معدل الزيادة السنوية لحبشة ٦ر١ ٪ .
Demographic Year Book U. N. (1962)

حصور التقدير	عام	التقدير	التقدير عام ١٩٦٥ بمعدل زيادة سنوية ١ر٧٪	
١) موربى (بدج ص ١٢٩)	١٩٠٣	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠	بدون الأريتريا
٢) بدج (ص ١٢٩)	١٩٢٨	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٧ر٦٠٠ر٠٠٠	بدون الأريتريا
٣) تقدير حبشى (كيرك ص ٣٧٧)	١٩٣٠	٦ر٠ ٠ر٠٠٠	١١ر١٠٠ر٠٠٠	بدون الأريتريا
٤) تقدير ايطالى (كيرك ص ٣٧٧)	١٩٣٠	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	١١ر١٠٠ر٠٠٠	بدون الأريتريا
٥) ايطالى (دليل افريقيا الايطالية ص ٨٢)	١٩٣٩	٧ر٦٠٠ر٠٠٠	١١ر٨٣٣ر٠٠٠	بدون الأريتريا
٦) تقدير وزارة التجارة الحبشية .	١٩٤٩	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١٣ر٢٣٠ر٠٠٠	بدون الأريتريا
٧) تقدير بريطانى (ترمنجهام ص ١٥)	١٩٥٢	٧ر٧٣٧ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	بما فى ذلك الأريتريا
٨) تقدير بريطانى (أولندورف ص ٣١)	١٩٥٤	١٦ر٨٥٠ر٠٠٠	١٩ر٠٦٢ر٠٠٠	بما فى ذلك الأريتريا
٩) تقدير أمريكى (جون جنتر ص ٩١٠) .	١٩٥٥	١٣ر١٠٣ر٠٠٠	١٥ر٧٠٠ر٠٠٠	بما فى ذلك الأريتريا
١٠) تقدير بريطانى (لوثر ص ٢٥)	١٩٥٨	١٢ر٥٠٠ر٠٠٠	١٤ر٤٦٢ر٠٠٠	بما فى ذلك الأريتريا
١١) تقدير الحكومة الحبشية الجمعية الجغرافية مجلة ٤ / ١٩٦٥)	١٩٦٥	٢٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٢ر٠٠٠ر٠٠٠	بما فى ذلك الأريتريا

ملحوظة :

تقديرات الحكومة الايطالية والادارة البريطانية بالنسبة للاريتريا على جانب كبير من الدقة وتشير إلى أن تعدادها (١٩٥٢) هو ١ر٠٣١ر٠٠٠ أى حوالى ١ر٣٠٠ر٠٠٠ فى ١٩٦٥ .

ولو أننا أخذنا متوسطاً لما سبق أن قدرناه على أساس كثافة السكان فى مختلف المناطق وكذلك للتقديرات التى عملت (منذ عام ١٩٣١) إلى الآن من الجدول السابق يبلغ تعداد الحبشة بناء على ذلك حوالى ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ ، بما فى ذلك الأريتريا .

ولا يجوز أن يغيب عن الذهن أننا مهما اتخذنا من الدقة والحيطة فى افتراضاتنا فان التقديرات المترتبة على ذلك لا يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كليا ، والعبرة بالتعداد الحقيقى الذى يجب أن تقوم به الدولة وفق القواعد المعهودة ، وما عنينا بالبحث فى تقدير السكان بالطرق السالفة الذكر ، إلا لأن التعداد الحقيقى غير ميسور إلى الآن .

وأخيراً أشارت بعض الجهات بأن يجرى التعداد على أساس تصوير الحبشة من الجو وإحصاء المنازل من واقع الصور الجوية ، على أن يصحب ذلك دراسة موضعية لعدد كبير من النماذج لمعرفة متوسط السكان لكل كوخ ومنزل فى كل منطقة ، ويرى أصحاب الاقتراح إلى الحصول على نتائج مبنية على دراسات ملموسة وأن كانت تستند أيضاً إلى كثير من الافتراضات .

وبالرغم مما أوردناه من دراسة فانه لايمكن الجزم بحقيقة الأرقام ، إلا أننا يمكن أن نطمئن إلى أن نقدر سكان الحبشة فى حدود ضيقة تتراوح بين ١٤ مليون ، ١٥ مليون نفس بما فى ذلك الأريتريا .

* * *

نسبه المسلمين :

لكى نصل إلى تقدير عادل لنسبة عدد المسلمين فى الحبشة الحالية ، لابد أن نجمع شتات الموضوعات ، ونركز ما مر بنا من معلومات خلال هذا الكتاب ونناقش ماجاء فى مختلف المراجع وعلى الأخص الحديثة منها ، إذ أنه لم يعد من المستساغ أن يترك هذا الموضوع الهام نهباً للافتراضات

البعيدة عن الحقيقة والواقع ، تمعن وسائل الأعلام فى ترديد المعلومات الخاطئة عنه لكى تستمر مسيطرة على الأذهان كأنما هى حقيقة مسلم بها لا محل لمناقشتها أو ابقائها حقها من التحرى والتحقيق .

فمنذ أن خرجت الحبشة من عزلتها ، ودخلت مضمار النشاط العالمى ، كعضو فى هيئة الأمم المتحدة ، وبعد أن أظهر الاحتلال الإيطالى لها كثيراً من الحقائق التى كانت مغلقة مجهولة من الكتاب والباحثين ، بعد كل ذلك لم يعد فى إمكان الحبشة أن تستمر فى أحكام الستار الكثيف التى تسد له على الإسلام والمسلمين فى بلادها ، ولابد وأن تتسرب أنباؤهم إلى الخارج رويداً رويدا ، ومهما أمعنت الدول الأوربية الكبرى فى تركيز وسائل دعايتها لخدمة الحبشة المسيحية فانها وإن كانت قد نجحت فى ذلك إلى حد كبير فى الماضى ، إلا أنه لم يعد فى إمكانها أن تتمادى فى ذلك ، وأصبح لزاما محتما أن يقوم بعض الكتاب الغربيين ، فى استحياء لايخلو من شجاعة مشكورة ، إلى تقرير بعض الحقائق .

* * *

كتب جون (جنثر Inside Africa by John Gunther) فى ص ٢٤٩ عام ١٩٥٥ — « أن الفكرة السائدة بأن الحبشة دولة مسيحية ، فى حاجة إلى تعديل وتصحيح إذ أن نصف مجموع السكان يعتنقون الإسلام أو الوثنية » ثم يعود فى ص ٢٥٠ ويقرر بأن « المسلمين فى أثيوبيا قوة كبيرة ، فمقاطعة هرر التى نشأ فيها الامبراطور مقاطعة إسلامية وقبائل الجالا العظيمة التى تملأ جنوب الحبشة وغربها نصفها من المسلمين — بينما تنتشر فى جميع أنحاء الحبشة جنوب المجمعات الزراعية التى يملكها المسلمون . . . » .

وفى الكتاب الهام الذى ألفه سبنسر ترمنجهام عن الإسلام فى أثيوبيا والذى جاء ذكره فى كثير من مواضع هذا الكتاب ، أورد جدولا فى صفحة ١٥ يبين فيه (بدون الصومال أن) :

المسيحيين	المسلمين	الوثنيين	المجموع
٣ر٨٤٦ر٠٠٠	٢ر١٠٤ر٠٠٠	١ر٧٢٨ر١٦٣	٧ر٧٣٧ر٨٣٣
(٥٠٪)	(٣٠٪)	(٢٠٪)	

بينما إذا تأملنا بإمعان الجدول الكبير [١] الذى أورده فى صفحة ١٦ مع أبحاثه التفصيلية التى ملأت صفحات كتابه القيم تتضح الحقيقة وهى أن النسبة الحقيقية على العكس من ذلك تماما ، وأن المسلمين هم الأغلبية ، مما سوف نبينه فيما يلى ونحن نجمع أطراف الموضوع .

* * *

ولقد أعفانا مستر أرنست لوثر Ethiopis Today by Erneet Lnther (سنة ١٩٥٨) فى ص ٢٥ من كثير من العناء عندما قال « أن الأحباش الحقيقيين هم نسل مملكة أكسوم القديمة وهم لا يشكلون أكثر من ثلث السكان ، إذ أن قبائل الجالا قد فاقتهم عدداً ، وأما نسبة المسيحيين فانها أكثر من الثلث قليلا لأن بعض الجالا والوثنيين قد اعتنقوا المسيحية ، ولكن الأرقام الحقيقية بالرغم من ذلك غير ميسورة » ، وهذا تقدير على جانب كبير من الأهمية ويتفق مع ماسوف نبينه من المراجع الأخرى .

ثم يعود مستر لوثر ويقول فى صفحة ٢٥ « ولو أن المسلمين فى الحبشة يبلغون ثلث السكان ، فان نفوذهم فى شئون الحبشة المعاصرة يطغى عليه تماما نفوذ قبائل الأمهرة المسيحية التى تسيطر على البلاد » . . ثم يعود فيقرر « لقد كان من الممكن أن تصبح الحبشة كلها مسلمـــة لولا تدخل البرتغاليين فى ١٥٤١ م ، وكذلك فى عهد الامبراطور ليج ياسو لولا تكتل أمراء شوا مع القوات الأوروبية لمنع وقوع ذلك » .

* * *

(١) بالملاحق المرفقة بهذا الكتاب ترجمة كاملة لهذا الجدول .

أما « أولندورف The Ethiopians » فلم يشأ أن يتعرض لموضوع المسلمين وأكتفى بأن أحال القارىء إلى كتاب سبنسر ترمنجهام ، ولكنه فى ص ٤٢ قرر حقيقة هامة وهى أن « الإسلام هو دين الغالبية الكبرى لقبائل الجالا بالرغم من أن كثيراً منهم الذين يسكنون الهضبة قد اعتنقوا المسيحية — والمحتمل أن تستمر أفراد الجـــالا فى اعتناقهم لدين الدولة الرسمى . . . ولا تزال بينهم بعض الجيوب الوثنية » والذى نريد أن نلفت النظر إليه هناهو اقراره بأن غالبية الجالا من المسلمين ، وماتبقى منهم موزع بين المسيحية والوثنية ـ وهذا تصحيح لما جاء فى بعض المراجع وتأييد لما جاء فى البعض الآخر ، كما سيأتى ذكره .

وقبائل الجالا هذه ـ الذى تعتنق غالبيتها الكبرى الدين الإسلامى ، بلغ تعدادها ثلث سكان الحبشة فى القرن السادس عشر (راجع الفصل العاشر من هذا الكتاب وكذلك ص ٩٣ ، ٩٤ من كتاب ترمنجهام) وما أن جاء القرن الثامن عشر حتى كانت تلك القبائل تعتنق أغلبها الإسلام ووصلت فى تعدادها إلى نصف سكان الحبشة (راجع ص ١٠٧ من كتاب ترمنجهام ـ والفصل الحادى عشر من هذا الكتاب) .

* * *

كذلك القبائل الصومالية والدناكل الذين يملأون الجانب الشرقى من الحبشة فى مناطق الاوجادين وهرر والدناكل والعروسى . فجميعها من المسلمين كما جاء تفصيله فى جميع المراحل التاريخية التى مرت بنا فى هذا الكتاب .

أما قبائل البيجا التى زحفت منذ القرون الاولى من وادى النيل وملأت الاريتريا وشمال الحبشة . فقد سبق أن شرحنا كيف اعتنقت الاسلام تدريجيا حتى أصبحت فى القرون الاخيرة جميعها من المسلمين .

* * *

ولقد مر بنا أيضا كيف أن المسلمين فى القرن التاسع قد استولوا على مقاطعة شوا ونشروا الاسلام بها وبعد أن إنسحبوا منها فى القرن الثالث عشر ظل الاسلام منتشرا بين سكان الجانب الشرقى منها إلى الآن ، وعلى الاخص فى مدينة أديس أبابا الحالية حيث يشكل المسلمون ثلث سكان العاصمة ومقاطعة شوا من أهم معاقل المسيحية فى الحبشة .

وكذلك فى وسط الحبشة حيث تتركز قبائل الامهرة والتيجرى مر بنا كيف تغلغل الاسلام فيها ونفذت إليها قبائل الواللوجالا ، وامتد سلطانهم إلى أن هددوا العرش وأصبحوا قوة لايستهان بها فى العاصمة جوندار . ومعنى ذلك أيضا انتشار المسلمين فى قلب الهضبة أهم معاقل المسيحية فى الحبشة .

* * *

وقلنا فى الفصل الحادى عشر أن (مانويل دالميدا) الذى عاش فى الحبشة من (١٦٢١ - ١٦٣٣) كتب يقول أن فى فترة وجودة بالحبشة كان المسلمون منتشرين منثورين فى جميع أنحاء الامبراطورية وكانوا يشكلون ثلث السكان (ص ١٠١ ترمنجهام) ومن المعلوم أن الوثنيين كانوا لايزالون إلى ذلك العهد يشكلون مايقرب من نصف السكان - ولم تكن الجالا قد أتمت اسلامها بعد . ومع ذلك فقد كان المسلمون منذ ذلك العهد يشكلون ثلث السكان ، أى أنهم منذ ذلك التاريخ أصبح عددهم يتجاوز عدد السكان المسيحيين وزادوا بعد ذلك كثرة وتأييدا باعتناق غالبية قبائل الجالا للاسلام وقبائل الجالا وحدها نصف سكان الحبشة كما قدمنا .

وقد أيدت كتابات الكاردينال ماساجا Massaja جميع هذه المعلومات كما جاء ذكره فى مواضع متعددة من الكتاب .

* * *

ولدينا أيضا على لسان جميع الكتاب الغربيين أن المسيحية كانت تتركز فى مقاطعات الهضبة الشهيرة ، وهى أمهرة - تيجرى - جوجام - وشوا .

وبين يدينا تقرير هام جاء على لسان حكومة الحبشة عندما بدأت تنادى باستقلال كنيسة الحبشة عن الكنيسة المصرية ، ومن أهم الاسباب التى أوردتها واعتمدت عليها (عام ١٩٣٠) أن أقباط مصر أقلية بها ولايتجاوز عددهم عن ١ر١ مليون ، بينما يبلغ مسيحو الحبشة ٦ر٢ مليون من مجموع سكان الحبشة الذى يبلغ ٦مليون (ص٢٧٧ MiddleEast in War by George Kirk أى أن الحكومة الحبشية ـ وهى بلاشك تنزع إلى المبالغة حتى تؤيد لقضيتها وتعزز من موقفها فى المطالبة باستقلال كنيستها ـ قدرت المسيحيين بالحبشة بنسبة ٤٠ ٪ من مجموع السكان .

* * *

وبناء على هذه المعلومات يمكننا أن نعيد كتابة الجدول الشهير الذى جاء فى صفحة ١٦ من كتاب ترمنجهام بعد تصحيحه وايجازه للقارىء ـ واضافة عدد السكان التقريبى إليه ، على ضوء ماسبق من معلومات .

المنطقة	عدد السكان	المسلمين	المسيحيين	الوثنيين
الأريتريا	١ر٣٠٠ر٠٠٠	٧٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠	٠٠٠ر٠٠٠
وسط الحبشة	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	الجبرت ـ واللوجالا وبعض القاطنين فى شوا ١ر٠٠٠ر٠٠٠	تيجرى ـ أمهرة ـ شوا جوجام ـ أجاو ٣ر٥٠٠ر٠٠٠	٠٠٠ر٠٠٠
جنوب الحبشة	١ر٠٠٠ر٠٠٠	جوراجى — وغالبية سيداما ٦٠٠ر٠٠٠	جوراجى — بعض السيداما ٣٠٠ر٠٠٠	جوراجى — بعض السيداما ١٠٠ر٠٠٠
الجالا	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	منطقة قبائل الجالا ـ (لا تشمل الوالوجالا لسابق ذكرها ، ضمن المناطق الأخرى ولا تشمل الموجودين فى هرر) ٣ر٤٠٠ر٠٠٠	بعض القاطنين فى مقاطعة شوا ٩٠٠ر٠٠٠	بعض القبائل فى ليجا وعروسى وبوران ٢٠٠ر٠٠٠
عفر ساهو	٣٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٠٠٠ر٠٠٠
الصوماليين	١ر٥٠٠ر٠٠٠	مقاطعة هرر وتوابعها ١ر١٠٠ر٠٠٠	مقاطعة هرر وتوابعها ٢٠٠ر٠٠٠	مقاطعة هرر وتوابعها ٢٠٠ر٠٠٠
الزنوج	١ر٥٠٠ر٠٠٠	٤٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٩٠٠ر٠٠٠
	١٤ر٦٠٠ر٠٠٠	٧ر٤٠٠ر٠٠٠	٥ر٨٠٠ر٠٠٠	١ر٤٠٠ر٠٠٠

أى أن نسبة السكان كالآتى :

٥٠ ٪ مسلمين

٤٠ ٪ مسيحيين

١٠ ٪ وثنيين

ولقد كان تقسيم السكان الوارد فى كتاب(دليل افريقية الشرقية ص٨٢ Guida dell Africa Orientale) ذا دلالة هامة ، ولقد اهتمت به كثير من المراجع ، وقال عنه أولندورف (ص ٣٢) « ولو أن هذا التقدير يبدو أقل من الحقيقة ، ولكنه دلالة مفيدة على نسبة التوزيع العنصرى ، وعلى الأخص فان النسب التقديرية بين العناصر الواردة به تمثل الحقيقة إلى حد كبير .

ولذلك فقد رأينا أن نورده فيما يلى - بعد أن أضفنا الزيادة فى السكان من عام ١٩٣٩ — ١٩٦٥ بنسبة ١٫٧ ٪ التى التزمنا بها فى البحث . محافظين على نسبة توزيع عناصر السكان التى اعتبرها أولندورف أقرب إلى الدقة ، وقمنا بتوزيع كل عنصر منها بين الاسلام والمسيحية والوثنية بحسب المعلومات التى تجمعت لدينا خلال مراحل هذا الكتاب ومن حسن الحظ أن التقسيم الوارد فى التقدير الايطالى المذكور لايدع مجالا للخطأ الكبير ، إذ أن العناصر الثلاثة الكبرى فيه - واضحة معلومة .

العنصر الأول : الأحباش الأصليون بما فيهم الأجاو والبيجا . فمن المعلوم أن غالبيتهم العظمى مسيحيين ، وجانب منهم مسلمون (وهم من قبائل البيجا) أما بعض قبائل الأجاو فلا زالت وثنية .

العنصر الثانى : الجالا - وهم يشكلون نصف سكان الحبشة وغالبيتهم العظمى من المسلمين ، وبهم عدد من المسيحيين ، أما الوثنيون فعددهم قليل بعد أن فضل أغلب من تبقى من الوثنيين اعتناق الدين المسيحى ، الدين الرسمى للحكومة .

العنصر الثالث : الصوماليون — وجميعهم مسلمون .

أما العناصر الأخرى فمن الميسور تقدير نسبة توزيعهم بالاسترشاد بما جاء فى تاريخ المناطق التى يسكنونها .

وعلى ذلك فيكون الجدول المبنى على التقديرات الايطالية على الوجه التالى

	تقدير ١٩٣٩	تقدير ١٩٦٥ — بمعدل ١,٧٪ سنويا	مسلمين	مسيحيين	وثنيين
أحباش أصليين بما فيهم الاجاو والبيجا	٢ر٤٠٠ر٠٠٠	٣ر٨٤٠ر٠٠٠	٢٤٠ر٠٠٠	٣ر٣٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
الجالا	٢ر٣٥٠ر٠٠٠	٣ر٦٦٠ر٠٠٠	٢ر٧٠٠ر٠٠٠	٨٠٠ر٠٠٠	١٤٠ر٠٠٠
الصوماليين	١ر٤٠٠ر٠٠٠	٢ر٢٤٠ر٠٠٠	٢ر٢٤٠ر٠٠٠	٠٠٠ر٠٠٠	٠٠٠ر٠٠٠
سيداما	٢٠٠ر٠٠٠	٣٢٠ر٠٠٠	١٦٠ر٠٠٠	٨٠٠ر٠٠٠	٨٠ر٠٠٠
عفرساهو	١٥٠ر٠٠٠	٢٤٠ر٠٠٠	١٦٠ر٠٠٠	٨٠ر٠٠٠	٠٠٠ر٠٠٠
الزنوج	١ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٦٠ ر٠٠٠	٥٠٠ ر٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٩٠٠ر٠٠٠
المجموع	٧ر٥٠٠ر٠٠٠	١١ر٩٠٠ ر٠٠	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	٤ر٤٦٠ر٠٠٠	١ر٤٢٠ر٠٠٠

أى أن المسلمين ٥٠ ٪ من مجموع سكان الحبشة .
والمسيحيين ٣٨ ٪ من مجموع سكان الحبشة .
والوثنيين ١٢ ٪ من مجموع سكان الحبشة .

هذا ونود أن نعيد إلى ذاكرة القارىء ماسبق أن ذكرناه أن الأحباش أنفسهم قدروا نسبة المسيحيين بالحبشة عام ١٩٣١ بأربعين فى المائة (٤٠ ٪) عندما بدأوا ينادون باستقلال كنيستهم عن الكنيسة المصرية (ص ٢٣٠ - جورج كيرك) وكذلك قدرهم - ارنست لوثر - كما سبق أن قدمنا - بأكثر قليلا من الثلث (ص ٢٥ - لوثر) .

* * *

وفى ختام استعراضنا للتقديرات التى مرت بنا لايفوتنا أن نذكر مرجعا هاما صدر فى عام ١٩٦١ عبارة عن سجل لقارة افريقيا .

ولقد أصدره « كولين ليجوم » بالاشتراك مع هيئة تحرير مكونة من ٤٠ اخصائيا فى شئون افريقيا - وأورد هذا المرجع معلومات محددة على جانب كبير من الأهمية تتعلق بما نحن فيه من بحث نوردها فيما يلى .

قال عن أثيوبيا فى ص ٧٩ « عندما نفكر فى أثيوبيا يتجه بنا الفكر إلى تلك المناطق المسيحية التى تقع على أعالى الهضبة - وقد يكون السبب فى هذا هو أن حكام هذه الدولة ينتمون إلى قبيلة الأمهرة الذين يسكنون تلك المرتفعات علما بأن تلك المرتفعات تشكل ثلث مساحة البلاد فقط . كما أنه الأكثر احتمالا أن يكون المسلمون بالحبشة وكذلك الوثنيين أكثر عددا من المسيحيين » .

ولقد حدد الكتاب فى الخريطة الموجودة فى ص ٤٦٤ بصورة واضحة أن المسيحيين فى أثيوبيا يبلغون ٢١ ٪ من السكان .

ثم عاد فى صفحة ٤٦٨ وحدد عدد الأقباط فى القارة الافريقية بخمسة

ملايين فى مصر وأثيوبيا ـ فاذا استبعدنا الاقباط المصريين وعددهم ١٫٨٠٠٫٠٠٠ (٧٫٥ ٪ من تعداد ١٩٥٧ ومجموع السكان فى مصر عندئذ ٢٣ مليون) لبقى عدد المسيحيين فى الحبشة ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ وهذا التقدير يعود للتأكيد بأن نسبة المسيحيين فى الحبشة حوالى ٢١ ٪ السابق تقديره .

وعندما تعرض الكتاب للمسلمين ذكر فى ص٤٦٨ أن المناطق التى تغلب فيها الديانة الاسلامية هى ـ نيجيريا ومصر ـ شمال افريقيا ـ افريقيا الغربية الفرنسية ـ أثيوبيا ـ السودان .

* * *

وفى جميع تقديراتنا السابقة أغفلنا ذكر اليهود ، وأن كانت جميع المصادر الأوروبية تعنى بذكرهم فى مزيد من الاهتمام لايتناسب مع عددهم الذى لايتجاوز ٦٠٫٠٠٠ يهودى (الفلاشة) كما جاء تقديرهم فى جميع تلك المصادر وعددهم على هذه الصورة ضئيل لايقدم ولايؤخر فى الدراسة .

ملاحظة أخيرة هامة على التعداد ونسبة المسلمين إلى سكان الحبشة بما فيها الأريتريا أن دراستنا الحقيقية ومشاهداتنا على الطبيعة وتحرياتنا عن مناطق الحبشة وتتبعنا لمراحل التاريخ المختلفة التى أوردناها فى هذا الكتاب تعطينا من الادلة القوية مايشير إلى أن نسبة المسلمين فى الحبشة تزيد عن النصف ـ بل هى بنتيجة بحثنا ومشاهداتنا تصل إلى ٦٠ ٪ من السكان .

ولكننا فضلنا أن نكتفى بما أوردناه فى تواضع ، مقتصرين على مااستخرجناه من تقديرات غيرنا ، بعد تجميع شتات ماجاء متناثرا فى مراجعهم ، ولقد كنا على ثقة من أرقامنا طوال السنوات الماضية ولكننا أشفقنا على أنفسنا من التعرض لهذا الموضوع ، إلى أن أتاح الله لنا بعض الكتاب الاوربيين الذين بدأوا يكشفون الحجاب عن الحقائق المستورة وراء الستار الحديدى المضروب حول المسلمين فى الحبشة ، مما فتح لنا الباب ومهد لنا السبيل لكى ندلى بما عندنا من بيان ، مكتفين فى نفس الوقت بالمعلومات والارقام التى وردت فى مراجع هؤلاء الكتاب .

وإتماما للفائدة نرفق مع الكتاب خريطة لدولة الحبشة الحالية ، مبينا عليها توزيع السكان مسلمين ومسيحيين ووثنيين - ومنها يتضح أن الاسلام ينتشر فى منطقة تقرب من ثلاثة أرباع البلاد .

* * *

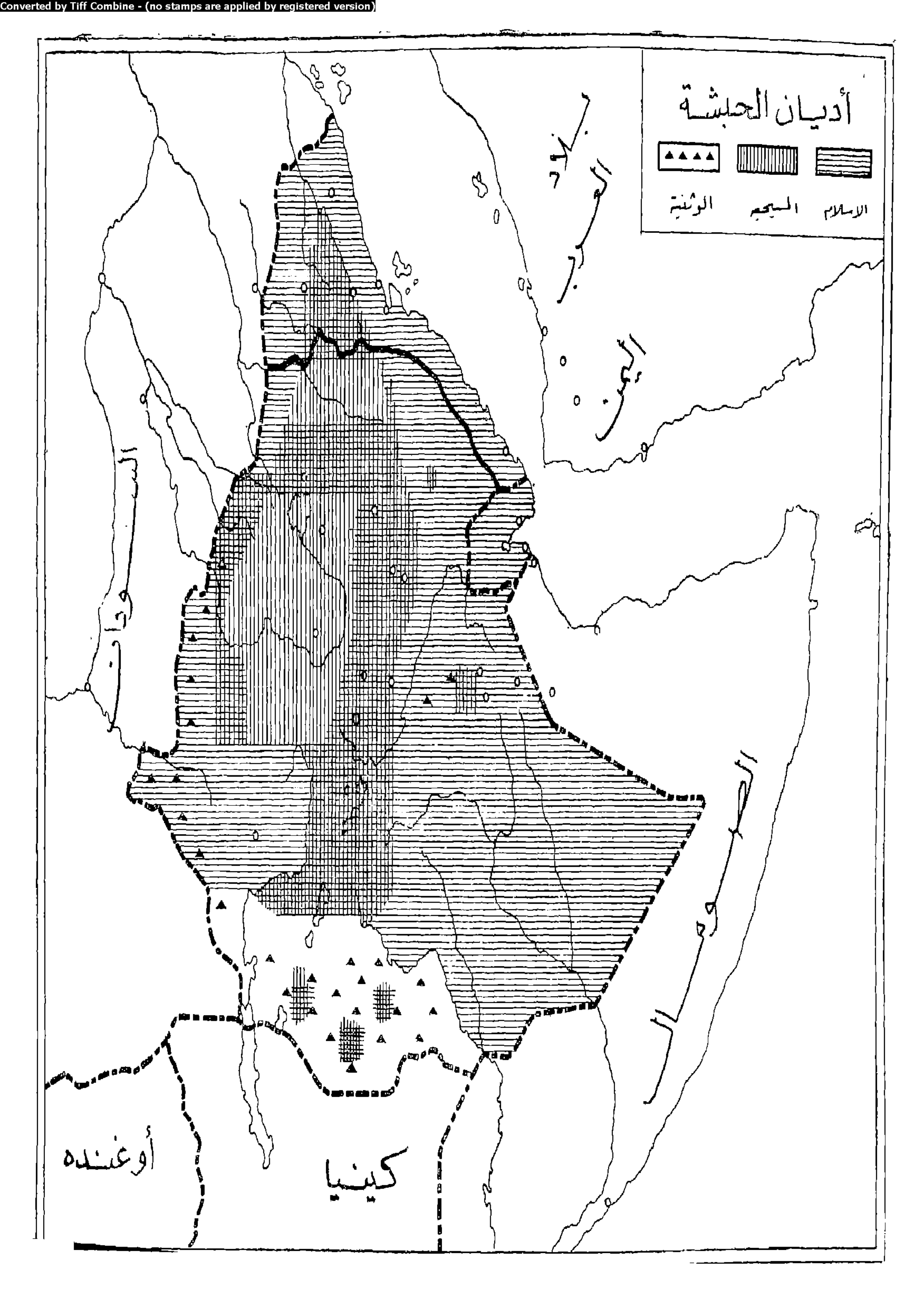
كيف سيطرت الحكومة المسيحية (الأقلية) على البلاد :

قد يعجب بعض القراء من هذا الوضع الشاذ ، وقد يتساءل بعضهم كيف تمكنت الأقلية من السيطرة على الأكثرية . ونعتقد أننا استوفينا هذا الموضوع بحثا بما عرضناه فى هذا الكتاب ومع ذلك فاننا نوجز هنا تلك الأسباب والعوامل التى جعلت الأقلية تتحكم فى الأكثرية ، ودفعت بالمسلمين وهم غالبية بلاد الحبشة وأكثر عناصرها نشاطا وانتاجا إلى ما يتقلبون فيه من ضغط وظلم وحرمان ونسيان واضطهاد .

* * *

فى عنفوان الحركة الصليبية وفى أعقابها ، دفعت العصبية الدينية دول أوروبا وأشعلت حماسها للعمل على حماية الدولة المسيحية الموجودة فى أعالى هضاب الحبشة من التغلغل الاسلامى الذى أوشك زحفه أن يقضى عليها ، وكانت الدول الاوروبية فى ذلك الوقت فى بداية عصر النهضة . الذى أخذت فيه دول أوروبا تبحث فيه عن مستعمرات ومناطق نفوذ ، وتسعى إلى السيطرة على مسالك التجارة ومصادر الثروة .

وكانت الامبراطوريات الاسلامية الكبرى قد انهكتها حروبها ضد الصليبيين وضد التتار ومع أنها انتصرت عليهما إلا أن قواها قد تضعضعت ، وبذلك ورثت الامبراطورية العثمانية سلطان الدول الاسلامية . وسرعان ما وقفت وجها لوجه مع جميع الدول الاوروبية الناشئة التى كانت تتجمع وتتحد تحت راية الكنيسة الرومانية ، وأخذت قواتها البحرية فى الظهور مبتدئة بذلك عهود الاستعمار الاولى .


أديان الحبشة
الإسلام
المسيحية
الوثنية
اليمن
الصومال
كينيا
أوغنده



ولو أن الدول الأوروبية وعلى الأخص مملكة البرتغال ، كانت على صلة مع ملك الحبشة إلا أن صلتهم هذه أخذت صورتها العملية الحاسمة عندما قام الامام أحمد ابراهيم الأشول بالاستيلاء على جميع أرجاء الحبشة وأقام من نفسه حاكما مطلقا على الدولة ، عندئذ استجاب البرتغاليون لاستغاثة ملك الحبشة وهبوا لنجدته .

وكان البرتغاليون قد نجحوا فى ذلك الوقت فى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصلت أساطيلهم البحرية إلى الشرق ، حيث أسسوا لهم قواعدهم الحربية فى شواطىء الهند - وتمكنوا من هزيمة الأساطيل المصرية وبعدها الأساطيل العثمانية فى المحيط الهندى والمناطق الجنوبية من البحر الأحمر ، وسيطروا على تلك المناطق .

ولقد كانت المساعدة الوحيدة التى تلقاها الامام أحمد بن ابراهيم الأشول هى نجدة عسكرية من العثمانيين وشريف مكة قوتها ٩٠٠ جندى وبعض الاسلحة الحديثة ، فانتصر فى موقعته الأولى مع البرتغاليين ، وعادت النجدة العثمانية إلى بلاد العرب . وعندئذ عاد البرتغاليون بأسلحتهم الحديثة وتمكنوا مع جيوش ملك الحبشة من القضاء على الامام أحمد الأشول .

ومنذ ذلك الحين ، وجميع الدول الأوروبية تعمل على تعزيز قوات المملكة المسيحية بمختلف الوسائل وتحت مختلف الظروف . فى الوقت الذى زالت فيه سيطرة الامبراطورية العثمانية ونفوذها فى البحر الأحمر ، ولم تقم للقوات الاسلامية قائمة بعد ذلك ، اللهم إلا تلك الفترة الخاطفة التى فتحت فيها القوات المصرية الشاطىء الافريقى الشرقى وأسسوا امبراطوريتهم التى لم تدم إلا لمحة قصيرة ، وعندما انهارت ماليتها انقضت عليها تلك الدول الأوروبية الكبرى ، واستولت على الامبراطورية المصرية بدون مقابل ، وتخلصت مملكة الحبشة المسيحية مرة أخرى مما تعرضت له من خطر . بل وتمكنت عندئذ من القضاء على جميع السلطنات الاسلامية التى فى داخل البلاد بفضل ماتلقته من كميات ضخمة من الاسلحة والذخائر - بينما كانت

السلطنات الاسلامية محصورة لاحول لها ولا قوة ولا معين عزلاء من السلاح.

ويكفى هنا أن نعيد إلى الأذهان بيان دفعات الأسلحة التى أخذت تنهال فى تلك الفترة على أباطرة الحبشة ، والتى مكنت لهم من النصر والسيطرة :

١ ـــ هدية الأسلحة والعتاد الحربى ـ التى تركتها حملة نابيير للامبراطور يوحنا الرابع وكانت عبارة عن مجموعة كبيره من مدافع الميدان الحديثة ومدافع المورتار ، وبنادق حديثة الطراز تكفى لتسليح فرقة كاملة (١٨٦٨)[١] .

٢ ـــ حصل الملك يوحنا الرابع على مزيد من الأسلحة ـ من روسيا ـ وكانت تتألف من ٥٠٫٠٠٠ بندقية طويلة و ٥٠٫٠٠٠ بندقية فرسان ، ٥٠٠٠ مسدس ، ٤٠ مدفع ٥٠٠٠ سيف وكمية وافرة من الذخيرة (١٨٨٥)[٢]

٣ ـــ فى عام (١٨٨٨) تلقى الملك منليك من الأيطاليين المال والأسلحة والذخيرة ثم عادت فى ١٨٨٩ وأهدته مزيدا من الأسلحة مقداره ٣٨٠٠٠ بندقية و٣٨ مدفعا[٣]

٤ ـــ عندما شعرت الدول الأوروبية ـ انجلترا وفرنسا وايطاليا ـ بميل الأمبراطور ليج ياسو (الامبراطور المسلم) إلى تعزيز الاسلام والمسلمين تحفزت ضده القوات الانجليزية فى بربره ، والفرنسية فى جيبوتى والايطالية فى مصوع وتحالفت مع امراء مقاطعة شوا ، وعزلوه عن الحكم (١٩١٦)[٤]

تلك هى الأسباب ـــ أقلية تملك السلاح الحديث ـــ وتؤيدها الدول الأوروبية الكبرى التى تحيط بالبلاد من جميع النواحى وتسيطر على جميع المنافذ البحرية المحيطة بالمنطقة بينما الأغلبية لاسبيل لها إلى السلاح ولا تجد لها من الدول الخارجية أى نصير .

وبذلك أصبحت الأقلية المسيحية ـ وعلى الأخص من القبائل الامهرية

---

(١) ص ٥٢٠ سيربدج Budge

(٢) ص ٥٢٥ نفس المرجع

(٣) ص ٥٢٧ ، ٥٢٩ نفس المرجع

(٤) ص ٥٤٥ نفس المرجع

يتألف منها الجيش والشرطة ورجال الامن والحكام والموظفون على الاطلاق وكل مايترتب على ذلك معروف لايحتاج إلى شرح .

* * *

ولقد عودتنا الدول الاستعمارية الكبرى على تنوع سياساتها وأساليبها فى مستعمراتها ومناطق نفوذها فى العالم . تنتهج من السبل مايتلاءم مع ظروف كل حالة وكل منطقة . ولكنها مع تعدد تلك الاساليب لها نتيجة واحدة متكررة وهى سيطرة أقلية مسلحة على أغلبية عزلاء . فى الهند وأندونيسيا والهند الصينية وجنوب أفريقيا والكونغو والمستعمرات البرتغالية وروديسيا .. الخ مما لاحصر له .

وفى رأينا أن الوضع فى الحبشة هو نفس الوضع الذى ارتضاه الاستعمار، وأتخذ نفس الشكل وأتبع فيه نفس الاساليب ، ولو أنها تختلف فى الصورة إلا أنها بالنسبة للدول الاوروبية الاستعمارية تخدم فى نفس الهدف ، مادامت تضع فى مركز القوة والنفوذ حكومة موالية لها معتمدة عليها ترتبط مصالحها بمعونتهم لها . ويمكن تعزيزها وتقويتها للاعتماد عليها لكى تكون معقلا دائما لها فى القارة الافريقية ، تنطلق منه لتحقيق مايعن لها من أهداف .

الفصل الثانى والعشرون

عــــدل

أما بعد ، فنحن نطلب للمسلمين فى الحبشة العدل والانصاف ولانطلب لهم الرحمة أو الإحسان .

* * *

لقد انقضت عهود الاستعمار والسيطرة والاذلال والاضطهاد واجتمع العالم بمختلف دولة وشعوبه حول هيئة الامم المتحدة التى تمثل الرأى العام العالمى ، وتسهر على اشاعة العدل بين الناس وبين الشعوب وبين الدول ، وتأخذ بيد الضعيف وتقدم له يد المساعدة ، وتنتزع له حقه من القوى . ولاتأل جهدا فى تحقيق ذلك بالوسائل السلمية والاساليب الانسانية التى تمليها القيم المثالية للحرية والمساواة .

* * *

حقوق الانسان :

من الاهداف الاساسية للأمم المتحدة أن تعمل على تحقيق المبادىء السامية لحقوق الانسان ، ولم يكن هذا الهدف حديث الابتكار ، ولكنه كان على مرور التاريخ أملا ينادى به الكتاب والمصلحون . وماأن بلغت الحرب العالمية الثانية قمة شدتها حتى شعر قادة العالم بالحاجة إلى وضع أسس الحريات على صورة أفضل مما كانت عليه فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لذلك عمدوا إلى تخصيصها بعناية متميزة ، وطالب الرئيس الامريكى روزفلت بالنص على تحقيق « الحريات الاربعة » ـ وهى :

حرية الرأى ـ حرية العبادة والاديان ـ الخلاص من الخوف الخلاص من الفقر .

ولقد صدر ميثاق الامم المتحدة فى ١٩٤١ ونصت المادة ٥٦ على أن تلتزم الدول الاعضاء فى الأمم المتحدة بالتعاون مع الهيئة للسمو باحترام العالم للحقوق الإنسان والحريات والمحافظة عليها .

وترك الميثاق لهيئة الأمم المتحدة مهمة العناية بهذه الحقوق وتفصيلها ووضع الأسس والأنظمة التى تتكفل بتحقيقها . وعلى أساس ذلك تألفت لجنة حقوق الإنسان التى عهد إليها باعداد مشروع إعلان المبادىء التى يتحتم على الأمم والحكومات أن تلتزم بها ـ بحيث تكفل حقوقا معينة للمواطن ـ وأن يكون تصديق كل حكومة على هذا الميثاق بمثابة تعهد منها بالامتناع عن اتخاذ أى وسيلة من وسائل الظلم والأضطهاد ضد أية طائفة من طوائف شعبها .

وعندما صدر « اعلان حقوق الإنسان » فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، نادى بحق جميع الناس كافة فى الحياة والحرية وفى سلامة أشخاصهم ، والتحرر من القبض التعسفى ، وفى حرية التنقل والسكن ، والكلام والصحافة ، والإجتماع والعبادة ، والحقوق القانونية الأخرى التى تحميها عادة الدساتير الديمقراطية

وفى عام ١٩٥١ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة تحديدا جديدا لتوضيح أنواع حقوق الإنسان على شكل ميثاقين : الأول ـ يتضمن الحقوق الإنسانية والسياسية ـ والآخر : يتضمن الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية

وعلى الدول التى تصدق على الميثاق الأول أن تلتزم بوضع القوانين الحامية لشعبها من الظلم والاستبداد . والدول التى تصدق على الميثاق الثانى تعترف بواجبها ومسئولياتها فى بذل كل ما تستطيع لتوفير أحوال معيشة أفضل وتعترف بحقوق قانونية معينة بالنسبة للضمان الإقتصادى والإجتماعى .

والقد نص الإعلان فى (مادة ٢١) على حق كل فرد من مشاركته فى حكومة بلاده بطريقة مباشرة أو عن طريق نواب ينتخبهم فى حرية تامة ، وكذلك لكل فرد الحق وتكافؤ الفرص فى تقلده لمناصب الدولة .

ولقد نصت المادة الثانية من ميثاق الحوق المدنية والسياسية ، على كل دولة تصدق على الميثاق ـ أن تتعهد بأن توفر لجميع الأفراد الموجودين داخل حدودها ويخضعون لقوانينها ـ جميع الحريات المحددة فى الميثاق ـ دون تفرقة أو تمييز من أى نوع ، كالتفرقة المترتبة على العناصر أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الآراء السياسية أو المنشأ أو المستوى الإجتماعى أو أى نوع من أنواع الفروق .

وكذلك نصت المادة ١٨ من أن لكل فرد مطلق الحرية فى الرأى والدين وأن يقوم بأداء شعائر دينية ويباشر ما يقتضيه ذلك من تدريب وتعليم . ولا يجوز أن يتعرض أى فرد لأى ضغط أو اضطهاد يحد من حريته الدينية أو يجبره على تغيير دينه أو معتقداته .

وكذلك نصت المادة الثانية من ميثاق الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية على نفس المبادىء السابقة الذكر .

* * *

وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٦٣ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة وباجماع الأصوات على الإعلان الخاص بالقضاء على جميع أشكال التفرقة العنصرية وقد عمدت فى هذا العدد إلى تأكيد المبادىء التى نص عليها ميثاق الأمم المتحدة وكذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وجاء فى نص القرار « أن ميثاق الأمم المتحدة يقوم على مبادىء الكرامة والمساواة بين الناس جميعا وأنه يستهدف ضمن أهدافه الأساسية تحقيق التعاون الدولى بتعزيز وتشجيع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين » « وأن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان انما يقر فوق ذلك مبدأ المساواة بين الجميع فى نظر القانون وأن لهم الحق ، بلا تمييز ، فيما يكفله القانون من حماية ، وأن للجميع الحق فى أن يستظلوا بحمايته ضد أية تفرقة أو أى تحريض على التفرقة » .

وتؤكد هيئة الأمم على نحو له صفة القداسة ضرورة القضاء بأسرع مايمكن على كل اشكال ومظاهر التفرقة العنصرية ، وتنص فى مختلف المواد وعلى الأخص فى المادة الثالثة بضرورة بذل الجهد لمنع أى تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو العنصر ، ولاسيما فيما يختص بالحقوق المدنية أو التمتع بحق المواطن أو التربية أو الدين أو الوظيفة أو المهنة أو السكن .

وتناشد الهيئة فى المادة الثامنة ـ أن تتخذ الدول كل الوسائل الفعالة فى مجالات التعليم والتربية والاعلام للقضاء على التمييز العنصرى وما يستتبعه من حيف ، والحث على أن تسود الأمم والطوائف العنصرية روح التفاهم والتسامح والصداقة .

* * *

ولسنا، فى حاجة إلى الاطالة فى ذكر هذه الحقوق ، فلا محل لمناقشتها أو انكارها وفضلا عن أن جميع المبادىء الإنسانية والكتب السماوية تؤيدها وتحض عليها فان القارىء ولاشك محيط بها فى غير ماحاجة منا إلى زيادة الايضاح .

ولكننا قصدنا تسجيل ملخص واضح للمبادىء التى أقرتها هيئة الأمم المتحدة ، والتى لم تعد كونها عبارة عن آمال ونصائح وأهداف مثالية تملأ كتب الفلسفة والأخلاق والاجتماع ، ولكنها اتخذت شكلا عمليا محددا بقواعد أقرتها هيئة الأمم وصدقت عليها الدول التى تستظل تحت راية الهيئة وعلى كل منها أن تعمل فى إخلاص وصدق على تنفيذ هذه المبادىء ، وألا تلجأ إلى التمويه والتهرب والتعلل بمختلف الأسباب ، أو التستر وراء ـ المادة العتيدة فى ميثاق الأمم المتحدة التى تمكن أى دولة من الاعتراض على التدخل فى شئونها الداخلية .

* * *

ونحن وقد أثبتنا هنا حقيقة كبيرة تعلمها حكومة الحبشة حق العلم منذ

زمن بعيد وهي أن غالبية شعبها من المسلمين ، نأمل أن يحصلوا فى عصر الحريات على أبسط المطالب التى تتمتع بها الأقليات فى البلاد المتقدمة أو البلاد التى تعمل على اللحاق بركب التقدم ، ولا نظن أن الحبشة تريد أن تتخلف عن هذا المضمار .

ولا نريد أن نستمع إلى أى نغمة تبرر تمييز عنصر عن آخر فى مثل بلاد الحبشة ، حيث لا ينكر أحد على المسلمين فيها نشاطهم وذكاءهم واستعدادهم الكبير للثقافة والعلم والتقدم .

لذلك نأمل أن تعمل حكومة الحبشة على تحقيق مبادىء العدل والمساواة بين رعاياها ، فى أسرع وقت ممكن - بأن :

١ - تشمل رعاياها المسلمين برعايتها على قدم المساواة مع المسيحيين .

٢ - تتيح لهم نفس الفرص فى إقامة شعائرهم الدينية ، وأن تعاونهم على فتح المدارس التى يتعلم فيها المسلمون أصول دينهم . على نفس المستوى والعناية المتيسرة للمسيحيين .

٣ - وأن تولى الدولة نفس العناية للمسلمين فى شئون التعليم ، بأن نرى نصف طلبة المدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها من المسلمين . وأن تتاح لهم نفس الفرص لاتمام التعليم العالى فى داخل الحبشة وخارجها . وأن نرى نصف عدد البعثات من المسلمين - وألا تكون تلك البعثات مقصورة على القدر الذى يسمح به للتخصص فى الدين فى الأزهر الشريف . بل يكون شاملا لمختلف أنواع التخصص والمعرفة والعلوم الحديثة .

٤ - نأمل أن نرى فى القريب العاجل وظائف الدولة على اختلاف درجاتها وأنواعها حقا مشاعا للمسلم بجانب أخيه المسيحى . وأن تكون نسبتهم فى تلك الوظائف ودرجاتها بما يتعادل مع نسبتهم فى عدد السكان .

٥ - وكذلك نأمل أن نرى نصف أعضاء مجلس النواب والشيوخ وكذلك نصف الوزراء من المسلمين .

٦ ـ وأن ينال المسلم شرف الجندية بالخدمة فى القوات المسلحة الحبشية على مختلف المستويات وبنفس النسبة السابقة حتى يشارك فى شرف الدفاع عن بلده .

٧ ـ وأن تحظى المؤسسات الاجتماعية والخيرية الإسلامية بنفس الرعاية التى تحظى بها المؤسسات المسيحية .

٨ ـ وأن ينفق من إيراد الدولة الجانب العادل فى المقاطعات والمدن الإسلامية بحيث تنمو وتتقدم بمقدار ما تستحقه وبمقدار ما تقدمه للدولة مع موارد ، مثل ما تحظى به المقاطعات والمدن المسيحية .

٩ ـ وأن تعمل الدولة فى اخلاص وحزم على اختلاط طلبة المدارس منذ الصغر حتى تزول التفرقة العنصرية والدينية ، وتتألف القلوب وتتكون منهم جميعا نواة الحبشة الجديدة المتحدة ، وينتهى عهد الحبشة القديمة التى مزقتها الخلافات والعصبيات والحروب .

* * *

ولا نبغى بما أوردناه من آمال أى تحديد أو حصر ، ولكننا ذكرناها على سبيل المثال ، ونهدف منها تحقيق العدالة والمساواة التى لا يمكن أن يقوم لأى دولة كيان بدونهما ، ويعز علينا أن تتخلف أحدى الدول الأفريقية المرموقة عن ركب التقدم والحرية فى الوقت الذى تتسابق فيه جميعها حتى تلحق بركب الحضارة والمدنية التى تخلفت عنه طويلا ، وأصبح لزاما عليها جميعها أن نستحث الخطى ونشحذ الهمم ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا إذا تكاتفت جميع عناصر كل دولة مع بعضها فى أخاء ومساواة واتحاد .

* * *

الملاحق

صحيفة

ملحق رقم (١) التقويم التاريخى

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرق	التاريخ المسيحى والغربى
الرابع	دخول المسيحية إلى الحبشة- عهد الملك ايزانا (٣٥٠) الحبشة تحتل اليمن وحمية فترة من الوقت (٣٥٠) .	بلوغ الفرس قمة مجدهم فى عهد شاهبور الثانى (٣٠٩-٣٧٩) .	قسطنطين يوحد الامبراطورية الرومانية الشرقية (٣٢٤-٣٢٧) ويشيد مدينة القسطنطينيـة (٣٣٠) .
السادس	حملة الحبشة على اليمن لحماية المسيحيين من اضطهاد ذى نواس (٥٢٤) .	ابرهة الأشرم القائد الحبشى فى اليمن يحاول غزو مكة ويفشل (٥٧٠) . الفرس يطاردون الأحباش من جنوب الجزيرة العربية ويحلون محلهم بها ابتداء من (٥٧٦) .	الأمبراطورية الرومانية الشرقية تطلب من الحبشة حماية المسيحيين فى اليمن (٥٢٤) - ويعتبر هذا أول اتصال دولى بين الحبشة والدول المسيحية الأخرى .
السابع	أول هجرة للمسلمين إلى الحبشة (٦١٥) .	بداية الدعوة الإسلامية (٦١٠ - ٦١٣) . انسحاب الفرس من اليمن. ودخول الدين الإسلامى إليها (٦٣٠) فتح العراق (٦٣٣) فتح دمشق (٦٣٥) فتح مصر (٦٢٩) فتح فارس (٦٤٠) فتح طرابلس (٦٤٧) فتح قبرص (٦٤٩) . حملة عمرو بن العاص على مملكة النوبة وعقد معاهدة البقط (٦ ١) أول ظهور للأسطول الإسلامى فى البحر الأبيض (٦٤٢)	هزيمة أسطول الامبراطورية الرومانية الشرقية أمام الاسكندرية (٦٥٢) أمام الأسطول الاسلامى

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
الثامن	احتل المسلمون جزر الدهلك (مصوع - ٧٠٢) - أول دخول الإسلام إلى شرق إفريقيا . بداية عزلة الحبشة .	لحماية شواطىء العرب من قراصنة الحبشة - استولى المسلمون على جزر الدهلك (٧٠٢) . حروب المسلمين مع البيزنطيين فى آسيا - الصغرى (٧٤١) . الخلافة العباسية (٧٥٠) .	طارق بن زياد يغزوا أسبانيا (٧١١)(الأندلس) وتهديد فرنسا وأوروبا الأندلس تنفصل عن خلافة الشرق وتبدأ خلافة مستقلة فى قرطبة (٧٥٦)
التاسع	مخطوطات حديثة تفيد بوجود مملكة إسلامية فى مقاطعة شوا فى قلب الهضبة (٨٩٦) . انتشار الإسلام على طول الشاطىء الأفريقى (الطراز) .	استولى المسلمون على صقلية (٨٢٧) ونزلوا فى نابولى وجنوب إيطاليا واضطروا البابا إلى دفع الجزية(٨٣٧ بدأ النصارى والمسلمون المولدون فى اثارة القلاقل فى الأندلس (٨٨٦،٨٥٢	استيلاء العرب على صقلية وجنوب إيطاليا واضطرار البابا لدفع الجزية (٨٣٧).
العاشر	اضطراب الأحوال الداخليـــة - استنجاد الامبراطور بالبطريرك المصرى لايفاد مطران لمساعدته فى توحيد القبائل المسيحية . . وصل المطران دانيال فى أواخر القرن العاشر . أنشأ عرب الخليج العربى من مسقط وعمان مدينة مقديشيو . انتشار الإسلام بين قبائل البيجا فى الأريتريا وشمال الحبشة - وتأثير ذلك فى زيادة العزلة الحبشية .	استمرار الإسلام فى الانتشار على الساحل الأفريقى الشرقى - والتغلغل إلى داخل الحبشة .	الامبراطور أوتو ينهض بالامبراطورية الرومانية فى الغرب (٩٦٢) .

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
الحادى عشر	استمرار الانتشار التاريخى للاسلام ـ واستمرار وجود مملكة شوا الاسلامية فى قلب هضبة الحبشة . السيطرة الإسلامية الكاملة على جميع الشواطىء الافريقية الشرقية (الطراز) .	اضطهاد الحاكم بأمر الله ـ لجميع رعاياه ـ مسلمين ومسيحيين ـ هدمه للكنائس فى القدس ثم اعادة بنائها ـ التجاء كثير من المسيحيين إلى الحبشة . الحاكم بأمر الله يأمر بحرق القاهرة (٩٩٦ - ١٠٢١) ضعف الفاطميين ـ وفقد المسلمين لصقلية (١٠٧١) ثم مالطة (١٠٩٨) ثم طرابلس الغرب (١١٤٦) استيلاء الأتراك السلجوقيين على الشام وبيت المقدس وآسيا الصغرى واساءة معاملة الحجاج النصارى (١٠٧١) استولى الصليبيون على الشام وبيت المقدس (١٠٩٩)	النورمنديون ينتهزون الخلاف بين المسلمين فى صقلية ويستولون عليها (١٠٧١) الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦) الاستيلاء على بيت المقدس وأعمال القتل والنهب وحرق المسلمين فى النار (١٠٩٩) اضطراب الأحوال فى الأندلس وبداية النهاية للقوة الاسلامية (١٠٨٣) واستنجادهم ببربر مراكش .
الثانى عشر	استيلاء الأسرة (الأجوية) على العرش (١١٣٧) اختلافها مع الكنيسة . مع الكنيسة (١١٩٠-١٢٢٥) عهد الملك لاليبلا الأجوى واتفاقه استمرار الاسلام فى الانتشار.	استرداد السلطان صلاح الدين الأيوبى للقدس (١١٨٧) ـ ويمتد سلطانه على اليمن والحجاز وسوريا والسودان ـ ويطرد الصليبيين من أغلب معاقلهم فى الأراضى المقدسة . حماية صلاح الدين للأحباش فى القدس . واصلاح دير السلطان (الحبشى) :	استمرار الحروب الصليبية فى أوج حملاتها تحت قيادة رتشارد قلب الأسد ـ وفردريك بارباروسا ـ وفيليب الثانى

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
الثالث عشر	ابتداء عهد الأسرة السليمانية (١٢٧٠) ، بالامبراطور يكونو أملاك . الوثيقة التاريخية المكتشفة حديثاً تفيد بأن مملكة شوا الإسلامية تتعرض للمتاعب — وسقوط ملوكها ـ وزحف قوات مملكة إيفات الإسلامية الناشئة عليها (١٢٣١ ـ ١٢٨٩) . اتصال ملوك الحبشة بالصليبيين للقيام بحملة مشتركة ضد مصر والعالم الإسلامى .	ابتداء تفكك مملكة النوبة المسيحية على أثر حروبها مع سلاطين مصر ـ ونقض النوبة لمعاهدات البقط (١٢٨٩) . بقاء غرناطه وحدها مزدهرة داخل أسبانيا (١٢٣٢ ـ ١٤٩٢) زحف التتار على البلاد الإسلامية (١٢٥٠ انتصار المصرية عليهم فى موقعة عين جالوت (١٢٦٠) فى عهد الظاهر بيبرس انتصار جديد للمسلمين على الصليبيين واسترجاعهم طرابلس الشام وعكا وزوال الخطر الصليبي (١٢٩٠)	استمرار الحروب الصليبية. الحملة الرابعة على مصر (١٢٠١) الحملة الخامسة على مصر (١٢١٨ ، الحملة السادسة (١٢٤٨) الحملة السابعة (١٢٤٩-٥٤) هزيمة الحملة الثامنة (١٢٧٠) . محاولة الصليبيين الاستعانة بالحبشة للقيام بحرب مشتركة ضد مصر والمسلمين . ابتداء عصر النهضة فى أوروبا
الرابع عشر	اتصال البابا بملك الحبشة للتحالف ضد الدول الإسلامية عهد عمد اسيون (١٣١٤ ـ ١٣٤٤) واضطهاده للمسلمين ومحاربتهم والانتصار عليهم . استنجاد مسلمى الحبشة بسلطان مصر وإيفاد عبدالله الزيلعى (١٣٣٢ ـ ١٣٣٨) . عهد الامبراطور سيف أرعد وانتصاره على المسلمين وانتهاء سلطنة أيفات الإسلامية ، وحلول سلطنة عدل محلها .	انحياز المسيحيين فى الدول الإسلامية إلى الصليبيين ـ وتأييدهم للتتار مما دفع الناصر قلاوون إلى اضطهاد المسيحيين (١٣٠٩-١٣٤٠) وكان لأنباء اضطهاد الامبراطور عمداسيون لمسلمى الحبشة أثره فى ذلك ابتداء الامبراطورية العثمانية وامتداد فتوحاتهم إلى داخل أوروبا	اتصال البابا بملك الحبشة للتحالف ضد الدول الإسلامية ابتداء حرب المائة عام اعتداء الأساطيل الصليبية من قبرص فى غارات تخريبية سريعة على الاسكندرية (١٣٦٥) وعلى طرابلس الشام (١٣٦٧)

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الاسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
الخامس عشر	مندوب ملك الحبشة إلى ملك الفرنجة يعرض عليه غزو مصر (١٤٢٥) فى عهد الملك أسحق (١٤١٤-١٤٢٩) عهد الملك زرء يعقوب - بلغت الاسرة السليمانية أوج مجدها (١٤٣٤ - ١٤٦٨) انتصر على المسلمين ووحد مملكته للمرة الأولى . فى عهد زرء يعقوب زادت الاتصالات الرسمية مع الدول المسيحية فى أوروبا وخصوصا مع الملك الفونسو ملك أراجون	انتقام المصريين من قبرص واستيلائهم عليها (١٤٢٦) فتح القسطنطينية (١٤٥٣). سقوط غرناطه آخر معاقل المسلمين فى أسبانيا (١٤٩٢) وابتداء دولة أسبانيا الموحدة تحت حكم فرديناند وإيزابيلا . بداية عهود الاضطهاد الكبير للمسلمين فى أسبانيا وهروبهم من البلاد - والقضاء على ثلاثة ملايين مسلم .	اتحاد دول أوروبا وتناسى الخلافات لمواجهة الخطر الاسلامى العثمانى . وعقد مؤتمر فلورنسة (١٤٣٩ ١٤٤١) وحضره وفد من الحبشة . استيلاء المسيحيين على جميع أسبانيا وطردهم للمسلمين بداية النشاط البرتغالى بارتولوميو دياز يكتشف رأس الرجاء الصالح (١٤٨٦-١٤٨٨) حملة فاسكو دى جاما إلى الشرق (١٤٩٧ - ١٤٩٩) ملك البرتغال جون الثانى يوفد الرسل إلى ملك الحبشة اكتشاف أمريكا (١٤٩٢)
السادس عشر	هيلينا ملكة الحبشة تعاود الاستعانة بملك البرتغال على حرب المسلمين بعد ان ازداد انتشارهم (١٥٢٠) وصول أول حملة عسكرية برتغالية ونزولها فى مصوع وحولت المسجد الى كنيسة (١٥٢٠)	استيلاء العثمانيين على الدول الاسلامية سوريا ومصر (١٥٠٦) الجزائر (١٥١٨) تونس (١٥٣٤) عدن (١٥٤٣) مسقط وطرابلس الغرب (١٥٥١) اليمن (١٥٦٨) امتداد سيطرة العثمانيين إلى قلب أوروبا ووقوفها أمام فيينا (١٥٢٩) واستيلائهم على المجر .	معركة بحرية بين أسطول البرتغال والأسطول المصرى أمام ميناء ديو الهندى وانتصار البرتغاليين (١٥٠٩) . كنيسة روما توجه عناية خاصة بالحبشة وتخصص مركزا خاصا لها فى روما (١٥٣٩)

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
تابع السادس عشر	ظهور الامام أحمد ابن ابراهيم الأشول وأول نصر كبير له على الأحباش (١٥٢٩) استيلائه على دوارو وشوا (سنة ١٥٣١) استيلائه على أمهره الخ (١٥٣٣) إتمام سيطرته على جميع أنحاء الحبشة (١٥٣٧) ـ وانتشار الإسلام فى جميع أنحاء الدولة . وصول الحملة البرتغالية التى استنجد بها امبراطور الحبشة (١٥٤٢) العثمانيون وشريف مكة يعاونون الإمام فينتصر على البرتغاليين ـ وتعود القوات الإسلامية إلى بلاد العرب فيعود البرتغاليون ومعهم الامبراطور وينتصرون على الإمام ويقتلوه (١٥٤٢) ، نهاية الغزو الكبير وعودة المملكة المسيحية فوق هضبة الحبشة إلى سابق عهدها ـ وبقاء البرتغاليين بها للمساعدة فى تعزيزها .	العثمانيون وشريف مكة يرسلون حملة عسكرية لمساعدة الإمام أحمد ـ دعوة الحملة مباشرة بعد الانتصار الأول على البرتغاليين .	البرتغاليون يرسلون الحملة العسكرية لمساعدة الحبشة (١٥٤٢) .

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
السابع عشر	أصبح ثلث سكان الحبشة من الجالا وقدر دالميدا عدد المسلمين بثلث السكان (١٦٢٤ — ١٦٣٣) . يقرر يوحنا ملك الحبشة قواعد التفرقة الدينية ويبدأ سلسلة الاضطهاد فيحرم المسلمين من تملك الأراضى ويفرض على جميع السكان اعتناق المذهب الأرثوذكسى (١٠٨٢) .	العثمانيون ينهزمون أمام البندقية (١٦٥١) الأسطول الفرنسى يضرب الجزائر وتونس (١٦٦٥) . ينسحب العثمانيون من كييف (١٦٨١) ومن المجر (١٦٨٣) ومن بلغراد (١٦٨٨) . وتستمر الحروب بين العثمانيين والدول الاوروبية ،	إتمام القضاء على جميع المسلمين من أسبانيا (١٦١٠ ازدياد قوة الدول المسيحية برا وبحرا . وانتصاراتهم على العثمانيين . أفواج المهاجرين إلى أمريكا (١٦٢٠) .
الثامن عشر	ازدياد تعداد الجالا وبلوغهم نصف السكان — تعزيزهم لشخصيتهم باعتناقهم الإسلام . الانقسامات الاقليمية فى المملكة — وهزيمتهم أمام قوات مملكة الفونج السودانية (١٧٤٤) . ضياع هيبة الملوك مما اضطرهم إلى التقرب من الجالا ومصاهرتهم لتوطيد ملكهم . ازداد نفوذ الجالا وتجددت الفرص أمام الإسلام للمزيد من الانتشار وخصوصا فى قلب الهضبة .	استمرار حروب العثمانيين مع الدول الأوروبية — وبداية تفكك الامبراطورية العثمانية . الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨)	الثورة الفرنسية (١٧٨٩) .

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرق	التاريخ المسيحى والغربى
التاسع عشر	استمرار انتشار الاسلام بين قبائل الجالا والباتنو وبين بعض قبائل التيجرى فى الأريتريا . عهد الامبراطور تيودور الذى أخضع جميع البلاد وأصبح امبراطورا (١٨٥٥) وانقلب حكمه إلى سلسلة من الاغتيالات والظلم والطغيان ـ وقام باعتقال عدد من الأوروبيين . اختص المسلمين والجالا بالمزيد من الاضطهاد القاسى . أرسلت بريطانيا حملة نابيير التى هزمت قوات تيودور وانتحر (١٨٦٨) . تولى يوحنا الرابع العرش واعتمد على الاسلحة الكثيرة التى تركتها له الحلة البريطانية كهدية للقضاء على منافسيه وتثبيت ملكه . قام يوحنا بحملة هائجة من التعصب الدينى والاضطهاد المسلمين وفرض عليهم أقسى القيود مستعملا ماديه من اسلحة حديثة . حصوله على مزيد من الأسلحة من روسيا اشتبك فى معارك مع الايطاليين ـ ومع قوات المهدى انتهت بهزيمته وقتله فى موقعة المتمة (١٨٨٩) .	محمد على يتولى حكم مصر (١٨٠٥) ويفتك بالماليك (١٨١١) ـ ويقضى على الوهابيين (١٨١٢-١٨١٨) ويفتح السودان (١٨٢٢) . محمد على ينتصر على العثمانين مرة فى (١٨٣٢) ومرة أخرى فى (١٨٣٩) . عند ماوصلت قوات محمد على إلى حدود الحبشة (١٨٢٢) هدده قناصل الدول الأوروبية . عهد اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) امتداد الامبراطورية المصرية فشملت السودان وأوغندا وجميع الشاطىء الافريقى (١٨٦٦) حتى جنوب الصومال وهرر (١٨٧٥) . لتكملة الامبراطورية المصرية حاول اسماعيل محاربة الحبشة فكان نصيبه الهزيمة ثلاثة مرات . انهيار المالية المصرية ـ ووقع الخديوى فريسة للأجانب وعلى الأخص البريطانيين . عهد توفيق (١٨٧٩) ثم ثورة عرابى واستيلاء بريطانيا على مصر (١٨٨٢) واجبار الجيوش المصرية على الانسحاب من شرق أفريقيا (١٨٨٥) .	تنافس الدول الأوروبية على المستعمرات ومناطق النفوذ فى أفريقيا ـ وكان لبريطانيا نصيب الأسد . حملة نابيير (١٨٦٧) لانقاذ الاسرى الأوروبيين فى الحبشة ، وبعد انتصاره على تيودور فى معركة مجدلا ـ وانتحار الامبراطور (١٨٩٨) تركت هدية لخليفه الملك يوحنا عبارة عن كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة الحديثة . بريطانيا تنتهز فرصة وصايتها المالية على مصر وتعين أبناءها فى أهم المناصب ومنها حكام الملحقات المصرية فى أفريقيا وأشهرهم جوردون الذى تمكن من ابعاد جميع القواد المصريين والعمل على تصفية الامبراطورية المصرية ـ وفوز بريطانيا بنصيب الأسد منها . الاحتلال البريطانى لمصر (١٨٨٢) . وقضاؤها نهائيا على القوة العسكرية المصرية وتصفية الجيش والبحرية المصرية واستيلاؤها على أوغندا والصومال البريطانى .

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
تابع التاسع عشر	لم تفلح قسوة يوحنا واضطهاده فى تحويل المسلمين عن دينهم، بل ازداد انتشارا . منليك ملكا على شوا (١٨٦٥) حصل على أسلحة من الإيطاليين وبدأ فى إخضاع السلطنات الإسلامية استولى على هرر التى تركتها الدول الأوروبية بدون حماية ١٧٨٧ منليك أصبح امبراطوراً (١٨٨٩) وورث المقادير الهائلة من الأسلحة التى كانت لدى سلفه . فأسرع فى القضاء على باقى السلطنات الإسلامية وأخضع جميع أنحاء الحبشة تحت سلطانه معاهدة أوشياللى مع إيطاليا وحصوله على المزيد من الأسلحة أهم انتصاراته على المسلمين كانت على السلطان محمد على الذى الذى تنصر (ظاهريا) وتزوج من ابنة الامبراطور . حروبه مع الطليان التى انتهت بانتصاره الحاسم فى موقعة عدوه (١٨٩٦) . أهم أعماله نجاحه فى القضاء على سلطة الجالا وشوكتهم .	تتقاسم الدول الكبرى الامبراطورية المصرية وتترك هرر ليستولى عليها منليك (١٨٨٥) . امتداد ثورة المهدى فى السودان ـ وقتل جوردون عميل بريطانيا الذى مهد لزوال الامبراطورية المصرية (١٨٨٥) افتتاح قنال السويس (١٨٦٩) وفتح الباب لسهولة تنفيذ الخطط الاستعمارية السابقة الذكر . كتشنر ينتصر على المهديين فى السودان (١٨٩٦) وتتم مؤامرة بريطانيا فى الاشتراك مع مصر فى حكم السودان «صوريا» ولكنها تنفرد بالحكم الفعلى وتستولى على أوغندا . عدن تصبح مستعمرة بريطانية ١٨٣٩	تحرش الإيطاليين بمنليك وانتصاره عليهم فى موقعة عدوه (١٨٩٦) . بالرغم من معاونة الدول الأوروبية لمنليك. فإنه بعد انتهاء مهمته فى القضاء على السلطنات الإسلامية وأخضاعه لقبائل الجالا بدأت الدول الأوروبية فى التنافس والتآمر وعقد المعاهدات السرية لتقسيم الحبشة إلى مناطق نفوذهم ـ عندما إعتلت صحة منليك وتقدم فى السن .

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامى والشرقى	التاريخ المسيحى والغربى
العشرين	الامبراطور المسلم (ليج ياسو) يتولى العرش (١٩١٣) ويعلن اسلامه . تآمر الدول الأوروبية مع أمراء شوا ومطران الكنيسة على عزله وتم ذلك فى (١٩١٦) تعيين زاوديتو امبراطوره ، والرأس تفرى وليا للعهد ووصيا على العرش . تفرى يقف فى عصبة الأمم ويندد بالدول الأوروبية التى تعقد المعاهدات السرية لتقسيم بلاده إلى مناطق نفوذ لهم (١٩٢٦) . عندما أصبح تفرى امبراطورا (هيلاسلاسى) منح البلاد دستورا صوريا (١٩٣١) . عمل فى حكمه ودهاء على حرمان المسلمين من الوظائف والتعليم والخدمة فى الجيش والشرطة فى اضطهاد بالغ مع تظاهره بالتسامح الدينى الاحتلال الايطالى (١٩٣٦) ومغادرة هيلاسلاسى للبلاد مع طائفة من رجال البلاد . الايطاليون يعملون فى همة ونشاط فى تنفيذ المشروعات الكبرى . لتكون الحبشة وطنا ثانيا لهم بعد هزيمة الايطاليين عاد الامبراطور إلى عرشه فى (٥ / ٥ / ١٩٤١)	انجلترا تعلن الحماية على مصر (١٩١٤) اتبع الايطاليون سياسة المساواة فى المعاملة بين المسلمين والمسيحيين فى الحبشة فوجد المسلمون فى هذه المساواة متنفسا لهم وتحسنت أحوالهم تحسنا مؤقتا .	قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) . عندما أعلن ليج ياسو اسلامه ـ اتهمه الحلفاء (انجلترا ـ فرنسا ـ ايطاليا) بأنه يمالىء الألمان . وتحفزت جيوشهم ضده فى بربره وجيبوتى ومصوع حتى تم عزله (١٩١٦) الدول الأوروبية تتفق على تقسيم الحبشة إلى مناطق نفوذ ـ ويقف منها الراس تفرى فى عصبة الأمم موقفا حاسما (١٩٢٦) . استعداد الايطاليين لغزو الحبشة وتراكم المعدات الحربية والمدنية فى الاريتريا . ايطاليا تغزو الحبشة (١٩٣٦) وعصبة الأمم تعجز عن تقديم أى مساعدة . محاولة ايطاليا تحويل الكنيسة الحبشية إلى المذهب الكاثوليكى تدريجيا ولكنها فشلت فى ذلك . قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) بريطانيا تجرد حملة من ثلاثة جهات وتقضى على الاحتلال الايطالى فى الحبشة (١٩٤١) :

القرن الميلادى	تاريخ الحبشة	التاريخ الاسلامى والشرق	التاريخ المسيحى والغربى
تابع العشرين	عودة الامبراطور إلى اضطهاد المسلمين مع التظاهر بالتسامح. وعاد إلى حرمانهم من التعليم والوظائف والجيش . فى تقرير مصير المستعمرات الإيطالية ، تقرر بعد صراع عنيف وبعد تأييد الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا أن تضم الاريتريا إلى الحبشة فى اتحاد فيدرالى (٢/ ١٢ / ١٩٥٠) وأن يكون لها دستورها وكيانها المستقل . ولكن الامبراطور تمكن من القضاء على حرياتها وأصبح دستورها حبرا على ورق الحالة الداخلية فى البلاد لا زالت على ما كانت عليه من أقدم العصور . فى أقصى درجات التخلف . الانقسامات لازالت مسيطره على أشدها ـ أجناس وطوائف ولغات وأديان ومناطق — كلها متنافرة . الشباب المثقف غير راض عن حكم الامبراطور وحاول القيام بانقلاب (١٤/ ٢٠/ ١٩٦٠) ولكنه فشل وعاد الامبراطور إلى عرشه		محاولة بريطانيا للحصول على امتيازات إقليمية فى الحبشة ولكن الامبراطور رفض وبعد استمرار الخلاف مدة من الوقت عقدت معاهدة (١٩/ ١٢/ ١٩٤٤) . الدول الأوروبية وأمريكا تتسابق فى تقديم المعونات المختلفة للحبشة سواء داخل البلاد أو خارجها . وتعمل جاهدة على تأييد الحبشة فى حصولها على المركز الرائد بين الدول إفريقيا الناشئة . وتعتمد عليها فى الحصول على حليف قوى يحفظ لها سلطانها غير المباشر على شئون إفريقيا جميع الظواهر تدل على أن الدول الأوروبية وأمريكا سوف تعمل على بقاء الأوضاع فى الحبشة على الصورة الراهنة تحت أى ظرف من ظروف المستقبل .

﴿ ملحق رقم ٢ ﴾

جدول عناصر سكان الحبشة وأديانها

(مترجم عن ص ١٢ ـ من الاسلام فى اثيوبيا لترمنجهام)

		المسيحية	الاسلام	الوثنية	اليهودية
قبائل كوش العليا	شمال	الحبشة (الحاسين ، اكيله ، جوازى شميزانا (وسراى) منساع ـ بيلين ـ بوغوس	القبائل التى تتكلم التيجرى بنى عامر بيت أسجد ـ منساع بيت جوك. بيلين (بوغوس) جبرتى		—
	وسط	الاحباش (تيجرى ـ أمهرا جوجام وشوا ـ أجاو	جبرتى	قامانت	فلاشة (كايلا)
	جنوب	جوارجى سيداما (كافيشو ، كامباتا شابو ، والامو ، ياما)	جوارجى سيداما الشرقية (تامبارو هدية ، جارو وألابا	جوارجى سيداما الغربية (أو ميتو وبعض القبائل الشرقية والشمالية)	
قبائل كوش الدنيا	الجالا (أوروما)	والو ـ قبائل شوا (اهيشو جوميشو ـ جالان ـ تولاما مورو صحراءجيا ـ سيبو ـ شيلا ـ ليبان ـ ميشا ـ ميتا بيشيو ـ كيكو ـ هيللو ـ سودو ـ سابو ـ أمايا)	١ ـ والو الشمالية ـ ييجو ـ رايا ٢ ـ الجالا (بين الجوارجى والنيل الازرق) ليو ـ جيرا جوما ـ نونو ـ بونو ـ جيما ٣ ـ مقاطعة هرر آلا ـ فوالى ياسو ـ ايتو ـ إبليا ٤ ـ العروسى	قبائل ليقا قبائل عروس قبائل بوران	
	عفر ساهو	ساهو ـ إيروب ـ لاب هال (رمبريلا)	عفر (الدناكل) آسا ـ مارا ـ آرومارا ساهو ـ أساورتا ـ هازو مينى فير ـ تيروا الخ		
	صومال		صومال ـ دارود ـ هاوية رهانوين	جوبراميجا ـ كارارا سرار ـ جورى	
زنوج		كوناما	كوناما ـ باريا ـ وايتو بنى شنقول ـ برتا ـ وطاويط جاموشا ـ بانتو ـ شيدلا شابيلى الخ.	كونامار جونزا ـ جوبا ـ سورى ـ كومو ـ جيرا نوير ـ ماو ـ ماجانوييمبو ـ مكان ـ داما توكانا ـ كونسو ـ جاردولا بعض مجموعات البانتو	

ملحق رقم (٣)

تقديرات تعداد سكان الحبشة

١ — تقديرات الادارة البريطانية لسكان الأريتريا (١٩٥٢)

	مسيحيون	مسلمون	وثنيون	الجملة
تجرينا Tigrinyans	٤٨٧ر٠٠	٣٧ر٠٠٠	٠٠	٥٢٤ر٠٠٠
تجرى Tigray	٧ر٠٠٠	٣٢٢ر٠٠٠	٠٠	٣٢٩ر٠٠٠
باريا وكوناما Baria & Kunama	٣ر٠٠٠	٣١ر٠٠٠	٧ر٠٠٠	٤١ر٠٠٠
دناكل Danakil	٠٠	٣٣ر٠٠٠	٠٠	٣٣ر٠٠٠
ساهو Saho	٢ر٠٠٠	٦٤ر٠٠٠	٠٠	٦٦ر٠٠٠
بيلين Belain	١١ر٠٠٠	٢٧ر٠٠٠	٠٠	٣٨ر٠٠٠
	٥١٠ر٠٠٠	٥١٤ر٠٠٠	٧ر٠٠٠	١ر٠٣١ر٠٠٠

٢ – تقدير الايطاليين سنة ١٩٣٠ :

		مسلمون	مسيحيون	وثنيون
الاحباش	٢ر٠٠٠ر٠٠٠		٢ر٠٠٠ر٠٠٠	
جـــالا	٢ر٢٥٠ر٠٠٠	١ر٩٠٠ر٠٠٠	٠ر٢٥٠ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠
الزنـــوج	٠ر٨٥٠ر٠٠٠	٠ر١٠٠ر٠٠٠	٠ر١٠٠ر٠٠٠	٦٥٠ر٠٠٠
الصوماليون	٠ر٤٥٠ر٠٠٠	٠ر٤٥٠ر٠٠٠		
سيدامو	٠ر٢٠٠ر٠٠٠	٠ر١٠٠ر٠٠٠	٠ر٠٥٠ر٠٠٠	٠٥٠ر٠٠٠
عفر(الدناكل)	٠ر٠٤٠ر٠٠٠	٠ر٠٤٠ر٠٠٠		
	٥ر٩٩٠ر٠٠٠	٢ر٥٩٠ر٠٠٠	٢ر٦٠٠ر٠٠٠	٨٠٠ر٠٠٠

٣- دليل أفريقية الإيطالية الشرقية Guida bell Africa Orientale Italiana عام ١٩٤٠ :

الأحباش الأصليون (بما فى ذلك الآجاو والبجه)	٢ر٤٠٠ر٠٠٠
الجـــالا	٢ر٢٥٠ر٠٠٠
صوماليون	١ر٤٠٠ر٠٠٠
سيـــداما	٠ر٢٠٠ر٠٠٠
عفر ســـاهو	٠ر١٥٠ر٠٠٠
زنـــوج	١ر٠٠٠ر٠٠٠
اسيويون وأوروبيين (مقيمين بصفة دائمة)	٠ر١٠٠ر٠٠٠
	٧ر١٠٠ر٠٠٠

٤ - تقدير وزارة التجارة الأثيوبية (١٩٥٤) :

مقاطعة أروسى	١ر٠٠٠ر٠٠٠
بيجمدير	١ر٨٠٠ر٠٠٠
جيموجوفا	٠ر٩٠٠ر٠٠٠
جوجـــام	١ر٦٠٠ر٠٠٠
هـــرر	١ر٦٠٠ر٠٠٠
ايليوبابور	١ر٣٠٠ر٠٠٠
كامـــا	١ر٢٠٠ر٠٠٠
شـــوا	٢ر ٠٠ر٠٠٠
ســـيدامو	١ر٢٥٠ر٠٠٠
تيجـــرى	١ر٠٠ ر٠٠٠
وللاجـــا	١ر٠٠٠ر٠٠٠
واللـــو	١ر٠٠٠ر٠٠٠
اريتريـــا	١ر ٠٠ر٠٠٠
	١٦ر٨٥٠ر٠٠٠

٥ - تقدير ترمنجهام (١٩٥٢) - (ص ١٥) :

	مسيحيين	مسلمين	وثنيين	المجموع
الأريتريا	٠ر٢٩٠ر٠٠٠	ر٢٥٩ر٠٠٠	١٦٥ر٠٠	ر٧٦٥ر٠٠٠
الحبشة	٠ر٩٠٠ر٠٠٠	ر٣٠٠ر٠٠٠		٣ر٢٦٠ر٠٠٠
الجالا سيداما	٠ر٢٠٠ر٠٠٠	٨٠٠ر٠٠٠	٨٠٠ر٠٠٠	١ر٥٠٠ر٠٠٠
هــــرر	٠ر٣٠٦ر٠٠٠	٧٨٠ر٠٠٠	٤٣١ر٦٦٣	١ر٥١٧ر٨٣٣
ودنا كل		٥٠ر٠٠٠		٥٠ر٠٠٠
جبور شمال غربى		٧٥ر٥٠٠	٨٠ر٠٠٠	١٥٥ر٠٠٠
حدود جنوب عربى	٥٠ر٠٠٠	٤٠ر٠٠٠	٤٠٠ر٠٠٠	٤٩٠ر٠٠٠
	٢ر٨٤٦ر٠٠٠	٢ر١٠٤ر٠٠٠	١ر٧ ٨ر١٦٣	٧ر٧٣٧ر٨٣٣

٦ - تقدير كيرك Middle East in War by George Kiok (ص ٢٧٧) :

أقباط مصر	١ر١ مليون	تقدير (١٩٣٠)
مسيحي الحبشة	٢ر٦ مليون	
مجموع سكان الحبشة	٦ر٠ مليون	

ملحق رقم (٤)

مراجع عربية

١ ـ السودان الشمالى ـ للدكتور محمد عوض محمد .
٢ ـ تهذيب سيرة ابن هشام ـ للدكتور عبد السلام هارون .
٣ ـ تاريخ الاسلام ـ للدكتور حسن ابراهيم حسن .
٤ ـ السيرة الحلبية .
٥ ـ ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين .
٦ ـ نهاية الأرب ـ الجزء السادس والثامن عشر .
٧ ـ بين الحبشة والعرب للدكتور عبد المجيد عابدين .
٨ ـ تاريخ الطبرى .
٩ ـ صبح الأعشى للقشلقندى الخامس والسادس والثامن .
١٠ ـ النجوم الزاهرة ـ الجزء الرابع .
١١ ـ طائفة الدروز ـ للدكتور محمد كامل حسين .
١٢ ـ الدعوة للاسلام للسير توماس ارنولد ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن .
١٣ ـ العصر المماليكى ـ للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
١٤ ـ حضارة العرب لغوستاف لوبون ـ ترجمة الاستاذ عادل زعيتر .
١٥ ـ مختصر دراسة التاريخ لارنولد توينبى ـ ترجمة الاستاذ فؤاد شبل .
١٦ ـ مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية لاستاذ محمد صبيح .
١٧ ـ يوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين .
١٨ ـ الاسلام فى القرن العشرين للاستاذ عباس محمود العقاد .
١٩ ـ الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
٢٠ ـ تاريخ العرب لفيليب حتى .
٢١ ـ تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان .
٢٢ ـ الاسلام فى أثيوبيا لزاهر رياض .
٢٣ ـ تاريخ العالم ـ الجزء السادس .
٢٤ ـ عصر اسماعيل للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

٢٥ ـ تقويم النيل لامين سامى باشا .

٢٦ ـ مصر والسودان ـ للدكتور محمد فؤاد شكرى .

٢٧ ـ الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ـ الدكتور شوقى عطا الله الجمل .

٢٨ ـ الخليج العربى والعلاقات الدولية للدكتور محمود على الداود .

٢٩ ـ مصر فى افريقيا ـ للدكتور محمد صبرى .

٣٠ ـ الحبشة للدكتور راشد البراوى .

٣١ ـ تاريخ أوربا الحديث تأليف فيشر وترجمة أحمد نجيب هاشم .

٣٢ ـ كتاب المسلمين فى الحبشة للاستاذ تيسير ظبيان الكيلانى .

* * *

ملحق رقم (٥)

مراجع اجنبية

(1) A History ef Ethiopia, Sir E.A. Wallis Budge (1928).

(2) Ethiopia Today : By Ernest Luther (1964)

(3) Ths Ethiopians : By Ullendorff, Edward (1960)

(4) Islam in Ethiopia : by J. Spencer Trimingham (1952)

(5) Le Terre Del Lago Tane . by Raffaele Di Lauro.

(6) Encyclopedia Britannica.

(7) Storia D'Ethiopia . by Conti Rossini .

(8) Islam and the Arabs . by Rom Landaw (1958).

(9) Preaching of Islam . by Sir Thomas Arnold.

(10) A History of The Crusades . by Sir Steven Runciman.

(11) Portugal in Africa . by James Duffy.

(12) The Blue Nile . by Alan Moorehead.

(13) Inside Africa . by John Gunther.

(14) In the Country of the Blue Nile . by C. F. Rey.

(15 The ETHIOPIAN CRISIS . by Ludwig Schaefer.

(16) The Middle East In the War . by George Kirk.

(17) Government of Ethtopia . by Perham.

(18) Economic Backwardness & Economic Growth by Harvey Leibenstein.

(19) Demographic Year Book U.N. (1962)

(20) Gnida dell Africa Orientale,

فهرست الآعلام والآماكن

(م)

تصـــويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٦	طوائف	طوائفها
٨	٧	طوائفها	طوائف
١٨	٥	Hrnsi	Arusi
٣٤	٤	Hebra Kegest	Kebra Hegest
٤٠	١٦	يسمح	يسمع
٤٢	٧	السامر	الثامر
٤٨	١١	أسوقا	أسواقاً
٤٩	١٦	اساقتفه	أساقفته
٥٢	٦	الغرية	القريه
٦٥	٨	الصلب	الصليب
٧٤	١٦	تفضل	تفصيل
٩٧	١٤	الأوالى	الأهالى
١٢٠	١٣	مـــا	الأمر الذى
		إلى	على
١٩٣	٢١	تغلب	تغلبت
٢١٠	٧	إضافة جملة كالآتى	أم للارتباط الوثيق بين الحبشة المسيحية مع الكنيسة المصرية ، أم للرابطة الدينية التى تربطها مع مسلمى الحبشة
٢١٥	٩	ويُمنعون	ويمعنون
٢٢٠	١٣	أبر	أبد

الصفحة	السطر	الخطــأ	الصواب
٢٣٥	٦	وتعزيزاً	وتعزيز
٢٣٧	١	المتعة	المتمه
٢٤٢	٢٠	البلاء	البلاد
٢٤٧	٢	شركة	شوكة
٢٤٨	١	الإيطاليون	الإيطاليين
٢٥٨	١٢	الأفريقية	الأوروبية
٢٦٠	١٢	تفرى	تفرى
٢٧٢	٦	المتوسط	التوسط
	٩	إمتدادات	إعدادات
٢٧٩	٩	كتللق	كتلك
٢٩٨	٩	مجاس	مجلسى
٣٤٢	٣	إبقائها	إيفائها

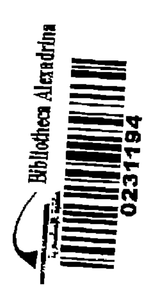
شركة الطباعة الفنية المتحدة
٢٠ شارع المشعلي بالقلعة - الدراسة



محتويات الكتاب

- الإسلام فى الحبشه أغلبيه
- عرض شامل لتاريخ الحبشه
- كيف إنتشر الاسلام خلال القرون .
- سيطرة الأقلية على الأغلبية وأسبابها .
- الأريتريا ـ مصيرها ـ نضالها

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
القاهرة



١٢٧

الثمن ٧٥ قرش